.. وتلك الأيام

مذكرات طالبة جامعية
تحكي قصص القمع والإرهاب في سجون صدام

د. عطور الموسوي

العارف للمطبوعات

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأتم التسليم على من خط طريق الهدى للسالكين أبي الزهراء محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين..

وبعد..

طيلة عقدين ونيف من حكم البعث صبت علينا حمم الطغيان دون هوادة، كانت تحدثني نفسي بأمل فجر جديد وكنت أجدها تختنق من واقع مرير، حيث خيم اليأس على القلوب، وتحدّث الناس أن صداما باق وحكمه ممتد لأحفاده.. وهم يترقبون سنوات وشيكة سيرددون فيها : "هلا هلا بين حلا"..

حلا ابنته المدللة التي تعمد إظهارها معه في بعض زياراته دون مبالاة بجيش الأيتام الذي خلّفته سياساته الدموية في طواحين الموت على جبهات الحرب أو ماكينة التعذيب في دهاليز السجون وأعواد المشانق..

أسئلة ظلّت تلّح عليّ:

هل يزول الكابوس الجاثم على الصدور؟

هل تشرق شمسنا بعد طول ليل بهيم؟

هل يرجع الأحبة ويلتئم شملنا الذي تشتت بسياسات الطغيان؟

هل يعود عيشنا وديعا كما كنا صغارا؟

وهل ستعينني ذاكرتي على تسلسل أحداث مُرّة حفرتها سنوات حكم البعث السوداء بكل ما للألم من معنى؟

.. وتلك الأيام

مذكرات طالبة جامعية تحكي قصص القمع والإرهاب في سجون صدام

د. عطور الموسوي

الطبعة الأولى 2021

القياس: 17 x 24

عدد الصفحات: 352

ISBN 978-614-441-259-6

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق (مركز الإيداع القانوني) ببغداد (3789) لسنة 2020

نشر وتوزيع

شركة العارف للأعمال ش.م.م.

بيروت – لبنان

هاتف: 00961 70 839 503

العراق – النجف الأشرف

هاتف: 00964 7801327828

www.alaref.net

al-aref@live.com

النشر الالكتروني

مؤسسة السجناء السياسيين

الاعلام والاتصال الحكومي

© جميع حقوق النشر محفوظة، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطّي من أصحاب الحقوق.

© All rights reserved. No part of this book may be reproduced, or transmitted in any form or by any means, electronic or mechanical, including photocopyings, recording or by any information storage retrieval system, without the prior permission in writing of the publisher.

هامّ جداً: إن جميع الآراء الواردة في الكتاب تعبّر عن رأي كتّابها ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر...

.. وتلك الأيام

مذكرات طالبة جامعية تحكي قصص القمع والإرهاب في سجون صدام

د. عطور الموسوي

العارف للمطبوعات

نعم انتابني اليأس إلا من رحمته تعالى.. فمن الصعب أن تعيش محنتك وتعايش محنة الآخرين وأنت تجد موازين العدل في خلل واضطراب.. فلا أدنى حقوق للإنسان، رجلا كان أو امرأة، شيخا كان أو طفلا صغيرا..

هكذا كانت عقود البعث المظلمة حيث تسلط شراذم الخلق على مقدرات العراقيين وعاثوا في الأرض فسادا وأهلكوا الحرث والنسل وانتهكوا الحرمات دون رادع.. في ظل سكوت مطبق للمجتمع الدولي ومنظماته التي كان العراق عضوا مؤسسا فيها..

منذ لحظة اعتقالي وأنا استجمع مشاهد مؤلمة في مخيلتي وأترقب ساعة يتاح لي تدوين مارأيت، مواقف ماكنت أظن يوما سأكون الراوي لمآسيها، بعد أن كنت شخصا من شخوصها وجرت عليّ ويلاتها وشاهدت بأم عيني ماجرى على آخرين، وكم رجوت أن لا أتأخر في تدوين أحداث قد تكون فريدة من نوعها لما انطوت عليه من ظلم وقسوة واستهانة بكل القيم، ولطالما كتبت معاناتي في وريقات أبّان سنوات البعث السوداء ثم سارعت الى تمزيقها.. وكلما حاولت جاهدة الاحتفاظ بها وإخفاءها كانت مداهماتهم الهمجية المتوقعة كفيلة بأن تدفعني الى تعجل إتلافها.

وللتأريخ.. دونت شهادة مما حفر في ذاكرتي.. من مواقف عشتها وعاشتها خيرة العوائل العراقية من بطش وجبروت البعثيين لمدة تجاوزت أربعة عشر شهرا قضيتها صبرا في أقبية ودهاليز أمن الثورة والتي صار اسمها فيما بعد ب (أمن صدام)..

فإلى كل من عاش تلك الحقبة المظلمة واكتوى بنار الإستبداد.. ولكل من لا يعرف جرائم البعث من أجيالنا الجديدة، أقدم شهادتي هذه وقد سطرتها في مذكرات إستغرق تدوينها عشر سنوات تجدد فيها الوجع وتأججت بها الشجون.. ولم أكن أتوقع أن جراحي مازالت ندية ليومنا هذا..

.. وتلك الأيام

سطوري هذه ليست لكسب عاطفة أو استدرار دمعة، وإنما كشف لما كتمته عقود البعث المظلمة.

وللأمانة أقول : هذه المذكرات تعرضت للمساومة لتزييف حقائقها من قبل البعض مقابل تكفل طباعتها، وظنوا أن ينجحوا في التعتيم على وهج عطاء ممتد بامتداد الشهادة..ولم يكن لي الا جواب واحد : لن يكون قلمي الا ناطقا بحقيقة عشتها وشاهدتها بأم عينّي، ولن أتنازل عن نهج الشهداء الذين تسنموا العلياء وبقيت قصصهم وبطولاتهم أمانة بين أيدينا، وهذا أقل الوفاء.

اللهم ثبتنا على الهدى وألهمنا التقوى ووفقنا للتي هي أرضى إنك سميع مجيب.

كتبت من :

2/ 9/ 2010 الموافق 22 رمضان 1431

ولغاية 29/ 11/ 2020 الموافق 13 ربيع الثاني 1442

المؤلفة

في ضحى يوم الأربعاء 30/ 12/ 1981 قرع جرس دارنا، مع طرق عنيف على الباب... أسرع أخي الصغير مرعوبا لفتحها، وإذا بعدد من المسلحين قد اقتحموا دارنا وانتشروا انتشارا سريعا في أرجاء البيت ليكشفوا لنا من أول وهلة أنهم بلا قيم ولا مبادئ ولا حياء... فأسرعنا أنا وأمي لارتداء العباءة، فالبعثيون لا يأبهون لحرمات البيوت وكرامة أهلها، هم لايستاذنون أبداً بل يقتحمون بتعجرف ودون أدنى خجل.

قد تكون الصدفة قد جعلتني أعيش هذه اللحظات المؤلمة، بل هو قدر قدره الله لي، ففي مثل هذا الوقت من كل يوم أكون في الكلية، كلية العلوم - قسم الكيمياء- جامعة بغداد، لكن لطلبة المرحلة الأولى إستراحة يومي الأربعاء والخميس، وأنا أحدهم لذلك كنت موجودة لحظة دخولهم.

فتشوا البيت بهمجيتهم المعهودة، لم يتركوا مكانا، ولم يسلم من بطشهم حتى تنور الطين الذي تخبز به أمي خبزنا اليومي، والذي كان في أحد أركان الحديقة الخلفية الكبيرة لدارنا، حديقتنا التي بدت في ذلك اليوم الشتوي المشمس كأنها بساط أخضر تزينه زهور حمراء وبيضاء، فكان هؤلاء الدخلاء كيانا غريبا فيها.

لم أتمالك نفسي وأنا أراهم ينثرون قطع الخبز اليابس، التي كانت تجمعها أمي للحيوانات في سلة فوق التنور، وجدتهم غير مبالين بحرمتها، بل يستهزؤن بها فقلت غاضبة وبنبرة حادة وكأني استجمع كل حقدي عليهم: هذه نعمة الله ألا تخافونه؟!

هنا انتبه لوجودي ضابط المجموعة المداهمة المقتحمة، فسألني أسئلة عديدة وسريعة: إسمي؟ عمري؟ أين أعمل؟ لم أخشه أبدا حينها وإن كان قد دق داخلي لحظتها ناقوس الخطر... وعندما أجبته أنا طالبة في كلية العلوم علت الدهشة وجهه الأصفر القبيح، فقال: عظيم طالبة كلية، ولماذا أنت غائبة !؟ هل تركت الدوام لأن الأمن يلاحقوك وتريدين التخفي؟

أجبته: لا... أبدا إن هذااليوم (OFF) لقسمنا قسم الكيمياء... وبسرعة أدركت انه لايفهم ما أقول، إذ أن أغلب رجال الأمن وأزلام صدام بعيدون عن العلم والتعلم فقلت: يعني إستراحة أسبوعية... لم يعبأ بكلامي وتظاهر بأنه تجاهلني.

أكملوا إجراءاتهم وانسحبوا من البيت، لكنهم عادوا بعد أقل من ساعة، ليعود الرعب معهم، وأخبروا أمي بأن لديهم أمراً باعتقالي بحجة أن مدير الدائرة يريد أن يسألني بعض الأسئلة، وقالوا: "خمس دقائق مو أكثر"... من سخرية القدر الخمس دقائق المزعومات صارت خمسة أعوام أبعدتني عن بيتي الحنون وأهلي ودراستي وأخفتني قسريا حارمة إياي من أن أنعم بحقي كأي إنسان ينتمي لوطن ويحمل هويته.

صدمت أمي وخطف لونها، وقالت بصوت مرتجف: لا... أرجوكم لاتأخذوا إبنتي... ماذنبها !!" وخافت وارتعبت من مجرد الفكرة... أما أنا فلم أصدق ما أسمع، ولم أجب بأي حرف، وكان الموقف فوق تخيلي، وأكبر من استيعابي، فانكفأت وقد لففت عباءتي وبالغت في التستر ربما ردة فعل لا إرادي على طلبهم هذا... ووجدت نفسي أرجع إلى الخلف حيث زاوية الغرفة في لحظة تأريخية عسيرة يعجز القلم عن وصف هولها، قلت بصوت يخالط عبراتي والكلمات تتلعثم في شفتي: لا... لن أذهب معكم... أموت ولا أرافقكم... هنا ضحك الضابط اللعين بسخرية مؤلمة، وقال: تعالي معنا بالتي هي أحسن وإلا... وأردف قائلا: "أنصح تلبسين فد جاكيت وجواريب خاف هناك باردة"، عبارته الأخيرة نبأت عن كذب إدعائه: "خمس دقائق مو أكثر ".

نعم أن أكثر ما قتَم الأجواء هي رؤية أمي وهي مخطوفة اللون، وإنحباس الكلام في شفتيها الشاحبتين وهي مذهولة ترتجف... عيناها حائرتان، بينما أخوتي وأخواتي قد عادوا توا من المدرسة وألتفوا حولي أملا في إنقاذي من مخالب هؤلاء الخاطفين، وأنا في حيرة من أمري مثل عصفورة صغيرة وقعت في شرك صيادها تحاول الفرار دون جدوى، لم أجد ملجأ التجأ اليه سوى الله فناديته من أعماقي: يارب أنا أتوجه اليك فلا تخذلني فليس لي سواك.

إستفتحت بالقرآن الكريم بعد أن خرجوا من بيتنا في المرة الأولى، لخوفي من أسئلة الضابط ونظراته المريبة، وشعرت حينها أنهم قد التفتوا لوجودي، فتوجهت إلى القبلة، وفتحت المصحف الشريف وكانت الآية الكريمة: (أذهب أنت وأخوك بآياتي ولاتنيا عن ذكري) سورة طه -42، فعندما عادوا كنت مؤمنة بأن هذا قضاء الله سبحانه وتعالى، وعليّ أن أصبر وأتوكل عليه في مصيبتي التي قد تكلف حياتي وعليَ أن لا أنأى عن ذكره سبحانه ...

أسرعت إلى غرفة أمي مرتعبة ومرتجفة حاقدة على صدام المجرم وطغمته ومرددة: "لعنة الله عليكم... لعنة الله عليكم"، تمنيت لحظتها أن يكون هذا كابوسا مزعجا وأفيق منه، لكن للأسف لم يطل التمني إذ صاح الضابط: "استعجلي ماعدنا وقت" نعم يستعجلون إيقاع الأذى، ويتسابقون لنيل رضا ساداتهم المجرمين مهما كلف الأمر، وربما كانوا خائفين من أن يتعرضوا لمقاومة من معارضين، وأنّى لنا ذلك ورجالنا في معتقلاتهم أخوَي جمال وجلال، عمي حسن وزوج أختي محسن وأخوته الأربعة، وأبي في عمله منذ الصباح الباكر.

ارتديت ما وقع في يدي من ثياب، بلوز صوفي ذي ياقة مرتفعة كانت أختي الكبرى قد إشترته منذ أيام قليلة، وسترة من (القديفة) قد استلمناها تواً من الخياطة، وجواريب ثخينة وطويلة وانتعلت (شحاطة)... حتى هذه الملابس قد ساقتها لي يد خفية، فقد وقيت بها جسدي من مخالب الوحوش الكاسرة كما

وقتني من البرد القارس، لإنعدام أية وسيلة تدفئة في المعتقل ونحن في أشد أيام الشتاء بردا.

شددت ربطتي جيداً، وارتديت عباءتي دون أي كلمات وداع لأمي أو أخوتي، وسرت معهم ولساني لم يتوقف عن ترديد الأذكار والأوراد... قرأت كل السور التي أحفظها عن ظهر قلب، توسلت بأهل البيت جميعهم... أما تفكيري في القادم فقد توقف تماماً، وكأني عجزت عن تخيل ما ينتظرني، نعم الإعتقال كان حدثاً متوقعا تترقبه كل عوائلنا مادام صدام قد تسلط على بلدنا ولم نجزع من وقوعه لإيماننا بعقيدة إعتنقناها يقيناً، لكنني ما أستطعت مغادرة الدار دون أن أملأ ناظري من وجه أمي الحنون... أمي التي حاورتها عيناي الحائرتان دون شَفتَي، كنت طيلة مدة الإعتقال أحرص على أن لا تمحى ملامح وجهها الجميل من ذاكرتي، أستمد منه الحنان الذي يكاد أن تقضي عليه وحشية الجلادين، وتميته في قلوبنا أو عالأقل تنسينا إياه، فلا رحمة ولا إنسانية في دهاليز البعث المظلمة.

خرجت من الدار فرأيت بانتظاري سيارة (لاندكروز)* بيضاء، حاولوا أن يساعدوني على صعودها فهي أكثر إرتفاعا من السيارات الصالون العادية، فأبعدت يدهم عني قائلة بحزم: "أنا أصعد وحدي... أكدر أصعد"، حاولت قدر استطاعتي استجماع قوتي، وأن أفرض إرادتي ما أتيحت لي الظروف، فصعدوا مسرعين كل من باب ليجلس أحدهم عن يميني والآخر عن شمالي، بينما قفز الآخر إلى مقعد السيارة الأمامي الى جنب السائق، وجميعهم بزي مدني ومسلحون كعادتهم في إقتحام البيوت الآمنة.

(*) موديل سيارة اقترن بدوائرالأمن البغيضة وكم أدخل الرعب في قلوب العوائل لأنه اخذالأحباب الى المجهول... تحكي زوجة أحد السجناء السياسيين الذي هاجر بعد خروجه من السجن إلى هولندا: بأنها قد تجمدت أوصالها رعبا وفرقا عندما شاهدت مثل هذه السيارة تقف إلى جانب العمارة التي يسكنون في إحدى العمارات السكنية في هولندا فقد ظنت أنهم قادمون لاعتقال زوجها... هكذا ارتبط الرعب منها بالتفكير الباطن للعوائل المعارضة للبعث.

سارت السيارة بسرعة جنونية لم أعرف مثلها أبدا، لدرجة أدخلت الرعب في نفسي وشعرت أنها أحد أساليب تعذيبهم... قلبي يخفق سريعا وتمنيت لحظاتها أن تقلب السيارة ونموت وينتهي هذا الموقف المؤلم، وكأني استعجل لقاء ربي... الصدمة تسيطر على كياني، وتساؤلات عديدة تتوالى في ذهني، مَن هؤلاء المتخلفون؟ ولماذا يعتقلون شابة بهذا العمر؟ مالذي جعلهم يرتابون من وجودي بين أهلي ككل طالبات قسمنا؟ نعم كنت الى الطفولة أقرب، فلم أرَ شيئا بعد من تجارب الحياة ما زلت في بداية طريقي...

قبيل وصولنا طلبوا مني إنزال ربطتي لتغطية عيوني وإلا فهم سيعصوبها عنوة،سحبتها الى الأمام وأحدهم يوجهني: "بعد أكثر... بعد أكثر..." حتى كادت أن تغطي كامل وجهي.

معتقل أمن الثورة (بيت الشهيد سمير غلام)

بتلك السرعة الفائقة لم نستغرق وقتا طويلا للوصول إلى دائرة تسمى (أمن الثورة) الكائنة في شارع فلسطين قرب جسر ساحة بيروت، علمت فيما بعد أن هذه الدائرة هي بيت الشهيد (سمير غلام مير علي)، الشاب الذي قالوا إنه أراد تفجير الجامعة المستنصرية وأردوه قتيلا على الفور عام 1980، حيث تم الترويج لذلك في وسائل الإعلام الصدامية ومنها جريدة الثورة.

توقفت السيارة للحظات، وفتحت أبواب وبدأت تدخل إلى كراج المبنى... بدا لي أنهم فرحون كونهم أنجزوا مهمتهم بنجاح، وجاؤا بالفريسة إلى كبيرهم الذي ينتظرهم، فقد كان الضابط يضحك بملء شدقيه قائلا باستهزاء وشماتة: لاتخافي نحن أخوتك، شعرت بكلماته توخزني وتلسعني كالسياط.

كنت متوجهة كليا إلى ربي بالدعاء، فهو ملجأي الوحيد والقادر على

إنقاذي من مخالبهم، الزمن توقف عندي إذ دخلت إلى عالم مجهول، لا أرجو منه خيرا...

أول إجراء إتخذوه عصبوا عيناي بخرقة وشدوا وثاقي بقيد حديدي (كلبشة)، كانت الخرقة قذرة ومن أسمال المعتقلين، كدت أصرخ بوجه الحارس وهو يقيد يدي: ما الجرم الذي ارتكبته؟ وما الذي يخيفكم من فتاة صغيرة عزلاء لاتقوى على أذاكم !!.

وأنا مقيدة اليدين ومعصوبة العينين اقتادوني إلى داخل المبنى، مررت بمدخله وهم يوجهونني حتى وصلت الى حيث يريدون فجلست على أرض دافئة نوعا ما مغلفة بالبلاستك... كانت حاسة الشم لدي في لحظتها قوية جدا، وكأني أعوض بها عدم إبصاري لما يدور من حولي، كنت أشم روائح غير محببة لي دخان سكائر، رائحة طعام، رائحة ملابس غير نظيفة، رائحة رطوبة... لم أستطع أن أميز أين أنا بالتحديد؟ لكنني وعلى الرغم من الهدوء المطبق أدركت بأن المبنى يكتظ بالناس الهواء غير المتجدد يشير إلى ذلك.

مكثت الدقائق الأولى وأنا أتلمس المكان، متمتمة في نفسي هل أنا وحدي؟ أم أن معي آخرين؟ حاولت أن أرفع العصبة عن عيني ببطء لأستطلع المكان... وجدتها غرفة كلها من خشب وفي إحدى زواياها مصباح برتقالي اللون يشع ضوءاً شديدا مزعجا، والغرفة دافئة قياساً لبرودة ذلك اليوم، أما رائحتها فهي كريهة خليط من ودم وعرق وفضلات وكأن الهواء فيها لم يتجدد منذ أعوام...

ماتوقف لساني عن الذكر، ومن لحظتها شعرت بأن صفحات جديدة من حياتي سوف تبدأ مختلفة عن أيامي الماضية في دفء بيتي وحنانه، وثمة عالم آخر دخلت فيه وحيدة دون أهل وأقارب أو أصدقاء، شحذت همتي وتذكرت أخوي جمال وجلال وعمي حسن وزوج أختي أبو نقاء وأخوته الأربعة، بل تذكرت عشرات الأنباء التي كانت تردنا عن إعتقال خيرة الشباب... وقلت في

نفسي برضا وقناعة ماجرى عليهم سيجري عليَ، أستجمعت قواي وشعرت بالإنتماء لقضية سامية، على الرغم من صغر سني وقلة تجاربي في الحياة، وجدت نفسي قوية، وعاهدت الله في تلك اللحظة بأني سأتحمل كل ما يواجهوني به وأصبر، ولا أستسلم رغم ضعف عودي ورغد العيش الذي وفره لنا والدي، وقلة المصاعب التي واجهتني منذ صغري، إذ مرت حياتنا هادئة وديعة ونعيش بسلام ووئام قبل أن يحل على بلدنا كابوس البعث وويلاته...

لا أدري ثمة قوة خفية كانت تمتد لي تخفف عني ما أنا به من معاناة نفسية ومادية وما ينتظرني من مصير مجهول، فمجرد تصور وجود فتاة صغيرة بين أيدي جلاوزة البعث فكرة تثير ألف قلق وقلق، لكن نفسي مطمئنة ومتيقنة بأن الله سبحانه لن يخذلني وذكره يهدأ روعي، وهو أكبر عون في شدتي، فمهما اشتدت الأمور وضاقت السبل وصعبت الحياة، بإمكاننا الصمود والمقاومة والوقوف بوجه الظالمين بعون منه تعالى، لأننا على يقين بأنّ الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، وبقيت أردد آيات من القرآن والدعاء، إلى أن جاء أحدهم وصاح بإسمي وكأنه يسألني عنه، نهضت وكدت أسقط أرضاً إرتعبت لحظتها، وتذكرت كل القصص التي يتهامس بها الناس عن أساليب التعذيب الوحشي في سجون البعث، وعن السقوط الأخلاقي لدى هؤلاء الجلادين الذين يسمون برجال الأمن، تزاحمت الأفكار في رأسي، وخفق قلبي سريعاً لدرجة شعرت بالغثيان، وكاد أن يغمى علي... فقال هازئاً: "يمعودة لاتخافين بعدنا بالبداية بس يريدون يسألوج فد جم سؤال".

كان صوته مزعجا، كانت تفوح منه رائحة دخان سكائر وعطر رجالي مقرف... اقتادني إلى خارج الغرفة ليسلمني إلى ضابط التحقيق الذي قال ساخراً هو الآخر وبصوت أجش: "ما تشوفين؟؟ كوديني "... ثشبثت بكم سترته الصوفية ذات الملمس الخشن، وسرت متعثرة معه إلى خارج المبنى ولساني يلهج بالأذكار وصرت أستمد منه قوة، عرفت أننا في الخارج عندما شعرت بنسيم بارد من هواء نقي يلفح وجهي وكم كان عذبا ومنعشا، وبعدها دخلنا إلى غرفة أخرى

دافئة تفوح منها رائحة الشاي والقهوة ودخان السكائر (علمت فيما بعد أنها غرفة المدير).

دخلت بخطواتي المتعثرة نفسها ولا أرى شيئا سوى سواد عصابتي، فصاح بي أحدهم: إجلسي هنا، أحسست إني أجلس على (طبلة)، فعندما أرجعت جسدي لم أحس بمتكأ الكرسي، شعرت أن الغرفة كبيرة وفيها عدد من الرجال... لأني كنت أسمع سعلة من هنا ونفثة دخان سيكارة من هناك، وهمسة في اليمين وأخرى في الشمال لكنهم ساكتون جميعا، إلا كبيرهم مدير الدائرة... الذي فاجأني وهويتحدث بلهجة مدينة تكريت، أو لهجة المناطق الغربية، وبتكلف شديد: "شسمك ياول؟"... ذكرت له أسمي بصعوبة، فقد أحسست أن لساني غائر في فمي ولا أقوى على تحريكه، يا له من موقف عسير.

فسأل بنبرة إستعلاء: "ليش غايبة اليوم من الكلية؟"

إستجمعت قواي وأجبته بما تمكنت منها: لم أغب بل هي استراحة قسم الكيمياء واسألوا الكلية إذا أردتم...

قال بنبرة حازمة لا تخلو من سخرية: "حتما أنت مطلوبه، وهاربه من العداله، لأنك أكيد متورطه بتنظيم مع حزب الدعوة العميل."

أجبته: لا... إطلاقاً لايوجد مثل هذا.. ...

فقال: "معقولة بنيه جامعيه مثقفة ومن العوائل الحاقدة على الحزب وميتحركون عليها الخونة؟؟؟جاوبي ياولو..."

قلت: لا... صدقني لم يحدث مثل هذا أبداً.

فتغيرت نبرته وقال: "دحجي ياولو أنت مبينه خوش بنيه وما تتحملين فأحسنلج احجي كلشي واحنا ما نأذيج"!

أجبته متحيرة: "شأحجي؟ اللي سألتني عنه جاوبتك عليه..."

تأفف منزعجا وقال آمراً وبنبرة عالية: "وين الويلاد؟؟اخذوها خل تفكر زين".

أقتادني صاحب الصوت الأجش وهو يردد: حاضر سيدي... أمرك سيدي، والذي تبين لي فيما بعد أنه ضابط تحقيق الدائرة (علي الخيكاني) المكنى بـ (أبي جواد)، وفي العادة هذه أسماء مستعارة يطلقونها على أنفسهم، فهم يعتقدون أن معرفة أسماءهم الحقيقية من قبل المعتقلين يعرضهم للخطر، وخاصة إذا أطلق سراحهم، وهذا نادرا مايحدث في مثل هذه الدوائر التي أسسها البعث للبطش والترهيب، الداخل اليها لا يخرج الا شهيدا أو سجينا في الأغلب الأعم.

هذا المحقق يصرّح بأنه يرمي حجرا في الظلمة وهو على الدوام يصيب هدفه، فهو يعتقل الناس دون أي جرم ولأسباب واهية، مرة لأنه صديق فلان، وأخرى لأنه قريب فلان، وأحيانا لأنه حلاق يحلق عنده فلان، أو خياط يخيط عنده فلان.

نعم، كان يعلم مدى قوة التأثير التي يمتلكها الدعاة، ومدى إعجاب المخالطين لهم بخلقهم ودينهم، فهم يتركون أثراً لايزول في قلوب كل من تعرف عليهم أورافقهم مقتدين بأهل بيت النبوة وخلقهم الكريم الذي يعامل الناس بأنهم أما أخوة لهم في الدين أو نظراء لهم في الخلق.

أعادوني إلى المبنى الذي كنت فيه، ولكن أجلسوني قبالة السلم، وبلاطه خال من أي فراش يقي من البرودة القارسة في هذا المبنى الرطب إلا قطع ورقية متفرقة مدت على الأرض جلست عليها، واتكأت على الحائط فلسعتني برودته... أحسست ساعتها ببعض العرفان للضابط الذي اعتقلني، فقد نصحني بارتداء الملابس والجواريب، وفعلا كانت نصيحته في مكانها،غير أنها كانت رسالة واضحة أن غيابي عن بيتي سيطول ما فهمت مغزاها حينها.

صمت مطبق... وصارت أذني تسترق أي صوت وأحاول تحليله... كم عدد الموجودين في هذا المكان؟ شعرت أنهم كثيرون من أنفاسهم التي كدت أتحسسها مع الهدوء المخيم على المكان، وثمة سعلات يسعلها بعضهم بين

الحين والآخر، لكنني لا أسمع كلاماً ولاهمساً أبداً كان الحراس يراقبون كل حركة ويمنعون أي كلمة.

سمعت صوت أبوابا تفتح، وثمة أشياء تسحب على الأرض، ورائحة طعام وصمون تفوح، إنه وقت العشاء... فجاءني أحدهم بصحن فيه قطعة دجاج وصمونة، فقال لي: كلي... لم أجبه فقد كنت أبكي أحسست أنه تأثر لذلك، أو على الأقل اعتقدت ذلك لحظتها فقال متأففاً: سأضعه قربك متى ما تجوعين كلي... وذهب... صار مملا عند هؤلاء رؤية دموع الأبرياء، مشاهد تتكرر عليهم منذ أن وطأت أقدامهم هذا المكان ومنذ حملة الاعتقالات المسعورة التي شنها طاغية العراق صدام.

أسترقت النظر خلال عباءتي إلى من يصعد السلالم ومن ينزل، كانوا كثيرين يرتدون بدلة السفاري* الزي الذي كان شائعاً لدى رجال الأمن آنذاك، حاولت النظر إلى وجوههم متسائلة في نفسي: هل هؤلاء فعلا عراقيون؟! وهل هم من عوائل عريقة؟! كيف يرتضون لأنفسهم أن يعملوا هكذا عمل؟! أليس معيباً أن يتسلط إنسان على أبناء جلدته؟! ما الذي يجعلهم أن يكونوا عونا للظالمين؟! أو أن يكونوا أدوات بيد الطاغوت ليبطش من خلالهم بأبناء جلدتهم وأخوتهم في الدين والوطن؟!

كادر البناية ينقسم على إداريين يرتدون زياً مدنياً، وعسكريين يرتدون زياً عسكرياً، أما الضباط فمدنيون وعسكريون، ففي تلك الأعوام أعوام حرب القادسية تم عسكرة مؤسسات الدولة، وشاع الزي العسكري بعد أن ارتداه صدام وكانت إشارة ضمنية منه أن يقتدي به أتباعه.

قضيت الليلة الأولى بالبكاء، والسنة الميلادية توشك على الرحيل وملايين البشر في أصقاع الأرض يضعون أمنيات جميلة للعام الجديد، تأكد لي بمجموعة

(*) السفاري: زي رجالي مكون من قطعتين قميص وبنطلون ويكون بلون واحد، شاع استخدامه من قبل رجال الأمن في الثمانينات،حتى صار صفة من صفاتهم.

قرائن أنني سأبقى في هذا المعتقل الرهيب، ومنها أسئلتهم التي تشير إلى أنهم يريدون تلفيق قضية ما ضدي، لم يكن بكائي جزعا بقدر ماكان ألما لما نعيشه من ظلم واستبداد طالت يده الآثمة كل عراقي شريف رفض حكم البعث، مؤلم رؤية هذا الكم من الشباب وجلهم بالزي الرسمي للكليات وهم مقيدين الى السلالم أو الكراسي... ومؤلم أن تمزق أجسادهم سياط أراذل الناس... وتسيل دماؤهم على الأرض دون رادع من وخزة ضمير.

واليوم وأنا أكتب ماعشته من ضيم في زمن البعث أُقر أني سررت كثيراً عندما أعدم المجرم صدام في نفس يوم اعتقالي في30/ 12/ 2006، حمدت الله كثيرا وقد غمرني بألطافه وبلسم جروحي وآلامي عندما جعل نهاية عمر هذا المجرم في نفس اليوم الذي روّعَ عائلتي، وحطم مستقبلي الدراسي حينها، لذا أجد نفسي مدينة حتى آخر عمري لليد التي وقعت إعدامه وبشجاعة، بل إني أشكر الله أن أشهدني هذا اليوم الذي كان مُحال التحقيق بعد طول سطوة البعث وتسلطه على الرقاب... شعرت أن إعدامه ونيله القصاص العادل هدية مخصوصة لي، ومصداقا لمقولة: إن الله يمهل ولا يهمل... فلله الحمد والشكر.

ولأنني جديدة في هذا المبنى كان بعض الحراس يسأل عن أسمي وعن قضيتي أقول له: إني أخت جمال وجلال... هذه هي الحقيقة فأنا لم أكن قد نفذت أي عمل ضد الطاغية وأزلامه، سوى أنني لم أنتم للبعث، وأنتمي لعائلة رفضته ومنهم أخواي وتمسكنا بديننا ولم نذعن له كآخرين، وقد يكون أرعبهم حجابي الذي تحديت به مديرات المدارس البعثيات، وباءت كل ضغوطهن من أن أرضخ وأتخلى عنه، فكلما زاد التضييق إزداد تمسكي وشعرت بلذة النصر عليهن.

الليلة الاولى كأنها ليلة الوحشة

في (أمن الثورة) وما أدراك ما (أمن الثورة)... انقضت الليلة الأولى دون أن يغمض لي جفن، الأفكار تتلاطم في رأسي كأمواج بحر هائج، وعزائي الوحيد هو الدعاء والتوسل إلى الله تعالى... ذكره يهدئ روعي ويمنحني قوة وصلابة، ولم أنس أهلي ووالدَي وأخوتي وأتوسل أليه أن يلهمهم صبراً... هدأ المكان هدوءا يوحي بأن الجميع قد ناموا، وبين فينة وأخرى أسمع طقطقة أحذية الحراس، والتي بدأت تتثاقل حتى توقفت فقد نام الحراس أيضاً...

البرد شديد... وبدأت أشعر بتجمد أطرافي لكني أتصّبر بالله فلا معين لي سواه... تذكرت حينها عندما أعتقل أخي الكبير جمال في أواخر تشرين الأول عام 1980 كيف خيّم الحزن والبكاء، وجثم الهم والخوف على صدورنا، وكانت ترن في أذني كلماته وهو يقول: هذا طريق ذات الشوكة صعب جداً ومن لا يقوى عليه لا يسير فيه، ولا يحسب نفسه من أنصار الإمام الحسين عليه السلام، وهذه الليلة أجد نفسي أمر بنفس ما مرّ به، وانهمرت دموعي منسابة، وحدثت نفسي أين أنت يا أخي الحبيب؟ لقد اشتقت لك كثيراً وقد مضى أكثر من عام على اعتقاله من دون أن نسمع عنه أي خبر... أما جلال فقد اعتقل قبلي بخمسة أيام، واقتادوه أمام ناظرينا أنا ووالدي، أين هو الآن؟؟ حتما في هذا المعتقل الرهيب؟ لكنني لم أسمع له إسما !! لم أكن قد رأيت أو سمعت مشاهد التعذيب بعد لكنني قلقة عليه كثيرا... وأُهدأ بعضا من قلقي معلّلة أنه مازال صغيرا يافعا ربما لن يقسوا عليه... نعم كنت أراهم بعينّي بشرا ككل الناس ولم أعرف بعد أنهم كواسر ووحوش ضارية تنهش ضحاياها بغض النظر عن أي مسمى ودون أي معيار.

صباح الخوف لايشبهه صباح

أصبح الصباح... عرفت ذلك من خلال الحركة التي بدأت تدب في أرجاء المكان الكئيب، ثمة خطوات سريعة تروح وتجيء إلى مرحاض وحيد يدخله كل المعتقلين، فمن حق كل منهم قضاء حاجته مرة صباحاً وأخرى مساءاً، ولكي (يحظى) جميعهم بقضاء حاجتهم، يركض أحدهم ذهاباً وإياباً، والحارس يقف حاملا عصاً غليظة يهوي بها على من يشاء منهم، ويضرب أي مكان من أجسادهم برعونة تشعره أنه السيد وهم العبيد، تصرفات تنم عن حقد هؤلاء الجهلة، الذين ينحدرون من بيئات متخلفة غير مدنية، فباعتراف أكثرهم أنهم جيء بهم من مدن المنطقة الغربية، ومنهم من يعرب عن فرحته يوم ارتدى بدلة عسكرية، وكيف أن أمه وزعت حلوى إلى الجيران لأنه تعين شرطياً...

بعد معمعة (المرحاض) جيء بطعام الإفطار، وهو قطعة جبن وصمون. . . كانت رائحة الصمون شهية يشتريه لنا والدي في أحيان كثيرة، صمون (الإعاشة) نوع يخبز في مخابز حكومية، يوزع في معسكرات الجيش والمستشفيات، وعلمت اليوم أنه للسجون والمعتقلات أيضاً، لكنني عزفت عن اكله رغم جوعي وعطشي الشديدين، شربت جرعة ماء أبل بها ريقي الذي جف من البكاء.

قصتي مع الحجاب... متوسطة التأميم للبنات

كان التزامنا بالحجاب الشرعي أحد أهم الأسباب التي تجعلنا موضع ريبتهم ومراقبتهم، ففي المرحلة المتوسطة حجابنا أنا وصديقتي سهام محسن محمد كان فريداً، فمن مجموع طالبات المدرسة كنت أنا وهي فقط نرتدي جبة وربطة وكان ذلك بين عام 1975-1977...

نعم... كانت بعض الطالبات يرتدين عباءة بدون ربطة، وبمجرد أن تصل

إلى المدرسة تطوي عباءتها وتضعها في كيس، أو في الحقيبة المدرسية وتظهر بمظهر السافرات، لا يستطيع أحد أن يميزها عن الأخريات إلا الذي يعرفها من جار أو قريب، فلم يكن لبس العباءة في الغالب التزاما دينيا بقدر ماكان التزاما بالأعراف والتقاليد، وكانت هؤلاء الطالبات يجدن في التخلي عنها أثناء الدوام متنفسا عن تلك التقاليد المفروضة دون وعي ديني.

أسبوعياً وفي مراسيم رفع العلم (تجمع عام للكادر التدريسي والطلبة يقام كل يوم خميس أقرته وزارة التربية على كل المدارس وبجميع المراحل)، كانت مديرة المدرسة تبحث بناظريها عنا أنا وصديقتي سهام من بين جموع الطالبات، لتوجه لنا إهانة أو نقداً لاذعاً، رغم أننا نخلع الجبة عند دخولنا المدرسة بأمر من من المعاونة المتشددة ست سهام واعتراضها: "ميصير لابسين طويل والبقية لابسين قصير" ونبقى بالصدرية والجواريب والقميص ذي الأكمام الطويلة، والربطة بيدنا نرتديها عند خروجنا إلى الساحة، لأن مدرستنا محاطة بالدور السكنية وسياجها ليس بالعلو الذي يسترنا عن الناظرين.

كانت المعاونة سهام تقف في المدخل المؤدي الى الصفوف الدراسية وتحدق فينا واحدة واحدة، تحاسبنا على صدرياتنا انا وسهام لأنها طويلة !! على الرغم من التزامنا باللون الرسمي المحدد للطالبات (القميص باللون الأبيض والصدرية باللون النيلي)، أمرتنا بارتداء صدريات قصيرة ككل الطالبات، فطلبت من أمي أن تخيط لي خياطتنا جبة أرتديها فوقها.

وحتى تكتمل خياطة جبتي يتطلب ذلك بضع أيام، ولأتخلص من إلحاح ست سهام ومضايقاتها رجوت أخي جمال أن يرافقني الى المدرسة ويقنعها أن تُنظرني ولا تضايقني وتحرجني أمام الطالبات، فاستجاب فورا لطلبي، كان حريصا على مساندتي وطالما كان يشعرني بأنه ظهري الذي أتكأ عليه وسندي في كل مايواجهني ومعه لا أخاف أحدا من هؤلاء البعثيين.

رافقني والفرح يغمرني... كان وسيما أنيقا فكانت الطالبات يحدقن فيه

ونحن نتجه الى غرفة المعاونات حيث ست سهام، التي خجلت منه وقالت: "مو بيدنا هذا نظام مفروض علينا"، لم يتفاعل معها فهو يعلم أنها تكذب وأجابها: ونحن لن نخالف النظام أمهلينا بضع أيام فالخياطة لديها زخم، تقبلت هي الموضوع وتنفست أنا الصعداء، إذ ستتوقف عن كلماتها الحقودة التي تسمعنا إياها في كل يوم، ذهب أخي... وأسرعت الى سهام صديقتي قلت لها: لن تضايقنا المعاونة بعد هذا اليوم، فرحت وتوردت وجنتاها وقبلتني قائلة: رحم الله والديك وحفظ الله أخاك ذخرا لنا، نعم كانت تربطني وسهام علاقة مصير مشترك فقد جمعتنا هذه التحديات التي واجهتنا معا في متوسطة التأميم للبنات ونحن في مقتبل عمرنا.

بسبب مديرة مدرستي ومعاونتها، كنا نعاني من حرارة الجو لكثرة ما نرتديه، لكنني وسهام تواصينا على الصبر والتحمل، ليس على الحر فحسب بل لكل ماواجهناه من انتقادات حتى من قبل بعض الطالبات.

هذه المديرة البعثية حريصة جداً في كل مناسبة على أن تقلل من شأن حجابنا، فتارة تصف الجبة ب (الروب) استهانة بها، وأخرى تصف الربطة ب (اللكجه) أو الخرقة، ومسميات عديدة، كانت تريد بها إشعارنا بالدونية، وفي الحقيقة هي من كانت تشعر بالدونية، فقد أحست أننا رغم صغر سننا، عرفنا طريق الحق، وأطعنا أوامر الإسلام بوجوب الاحتشام وهي باقية على ضلالتها والعمر يتقدم بها.

أكملنا المرحلة المتوسطة بحلوها ومرها، وحسب توزيع الطلبة والرقعة الجغرافية انتقلت أنا إلى إعدادية المعالي، بينما صديقتي سهام انتقلت إلى إعدادية أخرى قريبة من بيتها فتفارقنا مكانيا، إلا اننا لم نتفارق روحيا.

اعدادية المعالي للبنات

وفي إعدادية المعالي ومديرتها المتبرجة بألوان التبرج، وبما لايتناسب مع عمرها، والحاقدة على كل من ترتدي الحجاب... كنا مجموعة طالبات محجبات من المرحلة الرابعة والخامسة والسادسة، نتقي شرها فنرتدي قميص وصدرية مدرسية طويلة، أو جبة بلون غامق كي ترضى هذه المديرة الرعناء، ولا تحاسبنا عادّةً إيانا مخالفات للزي الرسمي.

نرتدي ربطات فاتحة اللون، بين الأبيض والسمائي والرصاصي الفاتح لنفس السبب... وجميعنا مسرورات بجمعنا الإيماني هذا، كلنا تحملنا نقداً لاذعاً من أقاربنا وجيراننا... نحن فعلا أقلية أمام مئات الطالبات السافرات المتبرجات، فلم يكن التبرج والتحلل مخلا بالزي المدرسي كما هو الحجاب بنظر الإدارات البعثية للمدارس، وخاصة بعد تبعيث التعليم في حقبة البعث المظلمة وحصر الإدارات المدرسية بالدرجات البعثية المتقدمة.

وفي هذه المرحلة الدراسية وجدت أخوات كصديقتي الأثيرة سهام... كان قلبي يمتلئ فرحاً حين ترمق عيناي إحدى الطالبات المحجبات، فأبادرها بالتحية والسلام وأعرّفها بنفسي وكأنني أجد فيها سنداً وعزوة تقويني وتكثّر قلتي في المجتمع، ووجدتهن يبادلنني نفس الشعور، فمن تلك الأيام بدأت صلة قرابة جديدة تربطني بهن، وأخوّة لم أعهدها قبلاً، إنّها الأخوة في الله سبحانه.

كنا نحب بعضنا بعضاً، وتتوق كل منا لرؤية أختها، وكنا في الاستراحة مابين الدروس، أو قبل بدء الدوام نتجمع في ساحة المدرسة، نتبادل أحاديث جميلة تنعش الروح... أحياناً كانت إحدانا تذكرحديثاً للرسول الأكرم (ص) وآله، أو تفسير مبسط لآية كريمة أو رواية عن المسلمين الأوائل... كنا نشعر وكأننا نعيد مفاهيم الإسلام من جديد إلى مجتمع أريد له أن ينسلخ من هويته الإسلامية، شغلتنا هذه الأمور حتى عن تناول الطعام الذي تزودنا به أمهاتنا إذ كنا نتزود من هذه الأحاديث زادنا الروحي والمعنوي.

كنا نعيش أجواء بداية الدعوة لله في عصر صدر الأسلام، ومعاناة المسلمين الأوائل ومضايقات الكفار لهم، ولاسيما أن فيلم (الرسالة)* كان رائجاً ويعرض في صالات السينما في بغداد، ولا أبالغ إذا قلت إن الإسلام في حقبة البعث كان غريبا مطاردا تماما كما كان أبّان الدعوة السرية للدين المحمدي الحنيف في قلب مكة المكرمة وللجاهلية وجودا كذلك الوجود... تهادينا الربطات وهي ليس كما الآن متنوعة وجميلة، وانما قطعة قماش طري مربعة الشكل تقوم الخيّاطة بكف حافاتها كي لا تنسل خيوط قماشها ذي اللون الواحد... وكان بعض الزائرين للسيدة زينب عليها السلام في سوريا يجلبون معهم ربطات كهدايا كنا نعتبرها أثمن هدية لأنها أجمل وأكثر اناقة من المخيطة.

من بين المحجبات فتيات من المذهب السني، وهن أخوات مؤمنات كنا نبادلهن الودّ والاحترام، فلم تكن أي تفرقة طائفية أو عرقية تفرقنا، فقد كنا جميعاً ننظر إلى عدو واحد هو البعث الجائر الذي لم يهدأ له بال وهو يرى الحجاب والاحتشام ينتشر في مجتمع اجتهد بكل مخططاته أن يجعله علمانيا بعيدا عن الله وقيم السماء، حين شن حملته الشعواء ضد أي مظهر من مظاهر التدين وسعى جاهدا الى قمع أي بادرة تدعو للعودة الى الدين الحنيف وهي في مهدها.

لم نكن نسأل عن العشيرة والانتماء القبلي والقومي، وإنما كان القاسم الأكبر بيننا هو حجابنا، وأننا في خندق واحد أمام إتحاد الطلبة، ورئيسته (عربية محمود) الحاقدة علينا، والتي كانت نظراتها تتطاير شرراً عندما تجدنا مجتمعات في باحة المدرسة، نتحدث بتفاهم ومحبة وتتعالى ضحكاتنا البريئة بسبب بعض التعليقات... كانت تشعر بالنقص، وتعتقد أننا نضحك عليها أو نستهزأ بها، كنا

(*) فيلم يتحدث عن بزوغ فجر الاسلام في الجزيرة العربية تميز بانتاج واخراج جيد وتداول عرضه في دور السينما في العراق ودول العالم العربي والاسلامي وانتج بنسختين عربية وانكليزية، شارك فيه مئات الممثلين وأخرجه مصطفى العقاد المخرج السوري الكبير والذي قُتل في عمل ارهابي فجر فندقا في عمان- الاردن عام 2007.

نشعر بثقل وجودنا عندما نلحظ عددا من طالبات الاتحاد يقتربن منا ليسترقن السمع (يتجسسن)علينا... فورة الشباب والتحدي سيد الموقف آنذاك، ولم نكن أكثر من اثنتي عشرة طالبة ومن مراحل مختلفة لكننا قد كثرنا الله في أعينهن...

نجد أنفسنا منجذبات للحضور في التجمع، وكأننا ننشد ضالة فيها إرواء ظمئنا... كنا فتيات يافعات لانمتلك ثقافة كبيرة في الدين، ولا في علوم القرآن، وإنما كل رصيدنا فطرة سليمة، وكان إخواننا أصدقاء يجمعهم الهدف ذاته، هو العمل لله والتمسك بدينه القويم، وأسلمة المجتمع.

الطالبات كن يسألنني عن سبب ارتدائي الحجاب، ويبالغن في إظهار الإشفاق عليّ لارتدائي أكماماً طويلة وربطة في صيف العراق القائظ، كنت أجيبهن بود وابتسامة: الحجاب واجب على كل مسلمة... نعم كانت بادئ الأمر تحرجني هذه التساؤلات وألجأ الى أخي جمال أشكو له هذا فكان يهدأني ويعزز ثقتي قائلا: لأنك متميزة هم يسألونك ليكونوا مثلك... من المؤكد قد أعجبوا برجاحة عقلك ونضج تفكيرك يوم التزمت بتعاليم الشرع بهذه الشجاعة وهذا العمر... كلماته الحانية تلك تجعلني أتخلص من كل قلق يساورني أو إزعاج ينغص يومي، وكنت أحدثه بكل مايدور في المدرسة وعند زيارتنا للأقارب، فهو من وضع قدمي على طريق الهداية منذ الصغر، وشجعني للمرة الأولى عندما ارتديت ربطة وأنا في الابتدائية... كنت خائفة من استهزاء صديقاتي ومعلماتي لكن حبي واحترامي له جعلني أضغط على نفسي، فلم أك أعي أهمية الحجاب لكنني أفرح بسروره ورضاه علي.

أذكر أنه قال لي: صدقيني مجرد مايعتادون الربطة على رأسك سوف لن يضايقوك بأسئلتهم وستنجحين لأن الله معك، وفعلا بمرور الأيام صار ذلك معتاداً ولم يعدن يطرحن أسئلة أو يثرن إستغرابا، واليوم أشعر بالفخر، لأني الطالبة الوحيدة في مدرسة القحطانية الابتدائية ارتدت الحجاب، وإحدى محجبتين في متوسطة التأميم للبنات.

لقد رفض تديننا حتى أقاربنا، كانوا يغضبون لأننا لانستقبلهم مباشرة إلابعد ارتداء الحجاب، أو لم نسمح للذكور من غير المحارم بمصافحتنا أو تقبيلنا كما اعتادت اغلب الاسرعند زيارة بعضها البعض، كان الوعي الإسلامي ضعيفا جدا في المجتمع والأغلب الأعم يتماشى مع (التطور) كما يدعون، فالتي تتزوج من رجل وهي ترتدي عباءة يساعدها زوجها على التطور المزعوم بأن تسفر بعد الزواج، بل إنّ بعضهم يتشدق مفتخراً: "خليتها تذب العباية علمود تطلع أحلى"!! فضلا عن التجمعات العائلية المختلطة دون قيد أو احتشام بحجة إنهم أهل، كل ذلك بدعوى التحضر والمدنية، والتقليد الأعمى لما كان يبث من مفاهيم وثقافات ضالة عبر شاشة التلفزيون نافذة العائلة الوحيدة على العالم والتي كانت سببا مباشرا في إشاعة التحلل والإبتعاد عن قيم الدين الحنيف... وهذا من أهم أهداف حكومة البعث.

حتى المصور المصري الذي التقط لي صورة شخصية لإصدار البطاقة الامتحانية أبدى استغرابه عندما جلست على مقعد التصوير دون خلع الربطة او أي إضافات على وجهي وأمي تقف في جانب الغرفة بانتظاري... سأل متعجبا: " حتتصوري كده "؟؟ أجبته بثقة: نعم... فقال: " الله يبارك فيك ويزيد ايمانك"... افتقدت أخي يومها لأحدثه عن هذا الموقف هو حتما يسر لذلك... لكنه معتقل ولم تبق الا ذكرياتي معه.

القراءة معيني منذ الصغر

قد لأ أكون مختلفة عن أبناء جيلي من حيث الإهتمام بالمطالعة، نحن جيل كان منذ صغره يقرأ قصصا ومجلات الأطفال، ومن نشاطنا اللّا صفي إعداد النشرات الجدارية وبمختلف العناوين، إذ تمنحنا مهارة إقتناء المعلومة من مصادرها والتزود من معينها خارج نطاق المنهج الدراسي، قد حباني الله تفوقا

في مادة اللغة العربية ومن أول مراحل الدراسة كنت متميزة عن أقراني، ففي الصف السادس أعلنت معلمة اللغة العربية ست شكرية بأنني قد نلت أعلى درجة 96% في امتحان نصف السنة، وأشادت بي أمام الطلاب ووجهت بالتصفيق تشجيعا لي... بعد أن أرعبتني عندما صاحت وهي تحمل عصاها كعادتها: وين عطور؟؟ لذا لم يسعدني تصفيق زملائي حينها لأنني كنت أرتجف خائفة منها... ولطالما ضربتنا جميعا دون استثناء عندما تصدر منا ضوضاء قبل دخولها قاعة الصف... كنا نخشاها.

بعد أن اجتزت المرحلة الابتدائية، دأب أخي جمال على تزويدي بكتيبات صغيرة قد لاتتعدى صفحاتها عشرين صفحة، كنت أجد بعض الصعوبة في فهمها فهي تختلف عن عما اعتدت عليه من قصص ملونة الصفحات زاخرة بالرسوم... أعانني أخي عليها وشرح لي بعضا من مقاطعها، وكم كان صبورا عليّ وأنا استوضح منه لفهم مافي تلك الكتيبات... واتفق معي أنه سيناقشني بعد أن أكمل مطالعته الأمر الذي جعلني أقرأ بتمعن وتدقيق.

وللمجموعة القصصية للعلوية الشهيدة بنت الهدى متعة وشغف خاص، حيث يمضي الوقت في مطالعتها دون ضجر ولم أكن أعلم من هي هذه الكاتبة المبدعة ففي عمر الثالثة عشر من العمر ماكان متاحا لي أن التقي بها... بل لم أكن أتخيل إمكانية حدوث ذلك... يسرح الخيال بي لرسم صورا تجسد شخصيات تلك الروايات الاجتماعية المفعمة بالواقعية والقيم الجميلة... كنت أتلمس فيها قوة لشخصيتي أتزودها منها، وكم عززت ثقتي بنفسي وأنا الوحيدة وزميلتي محجبات بين مئات الطالبات، ما أروع (الفضيلة تنتصر) و(لقاء في المستشفى) و(ليتني كنت أعلم) و(الخالة الضائعة) رواياتها التي تناقلناها بكل حرص واندفاع ممتع.

ومن جميل مازودني به أخي روايات نجيب الكيلاني (عذراء جاكارتا) و (رمضان حبيبي) كانتا روايتين طويلتين إلا انني أكملتهما بوقت قصير... وقرأت لبنت الشاطي رواية (بطلة كربلاء)...

زادت هذه المطالعات من مقدرتي على الحفظ وفهم معاني الكلمات وكتابة نصوص الإنشاء في مادة اللغة العربية، وكم أعجبت معلماتي بماكتبت قبل تبعيث التعليم وحصره في تمجيد (القائد الضرورة)عندما فرضوا علينا عنوانين للإنشاء، العنوان الأول عادة يمجد سياسات الطاغية،والثاني بيت من الشعر أوحكمة ما، كنت على الفور أختار العنوان الثاني غير السياسي... جادة في الوفاء بعهدي أمام الله أن لا أمدح ظالما تجاهر بظلمه كصدام وزمرته مهما كلفني ذلك.

دأبت على حفظ أبيات من الشعر أقتبسها من كتب أخي جمال، بعد أن شجعتني ست الهام معلمة العربي في متوسطة التأميم، حيث كانت تقضي عشرة دقائق من حصة الدرس في المطارحة الشعرية، إذ تبدأ ببيت شعر ويتوجب علينا الإسراع بإجابتها ببيت بدايته نفس حرف القافية... نلت أعلى درجة في امتحان نصف السنة من مجموع أربعة شعب للمرحلة الثالثة، وواجهتني العديد من البنات المتفوقات بانزعاج واضح، حيث كن يسألن عني بعد أن أعلنت ست الهام ذلك بانني الأولى على جميع شعب المرحلة الثالثة... وبين الغيرة والحسد مر عامي الدراسي ولم أعرف سبب أن يكره أحد الخير للآخرين !!

رافقت أخي الى صلاة الجمعة

مسجد (أبناء بنيّه) يقع في منطقة العلاوي مركز بغداد تقام فيه صلاة الجمعة لأبناء السنة والجماعة، وهو الوحيد آنذاك الذي فيه صالة في الطابق الثاني تصلي فيها النساء.

في جمعة من ربيع العام 1977 أصطحبني أخي جمال للصلاة فيه وعند وصولنا الى المسجد وجدت أن صديقه كريم قد اصطحب أخته سهاد ايضاً ففرحت كثيراً بلقائها فأنا لا أعرف أحداً من النساء سواها في هذا المسجد وكنت صغيرة ليس لي خبرة في المجاملات وإقامة العلاقات مع الآخرين، سهاد تكبرني بعامين.

فصعدنا أنا وإياها الى الطابق الثاني وجدناه مكتظاً بالنساء وأغلبهن كبيرات في السن، لم نجد فتيات بأعمارنا كنت في الرابعة عشرة وسهاد في السادسة عشرة، لكننا شجعنا بعضنا البعض وقبل ذلك شجعنا أخوتنا جمال وكريم...

وقفنا في الصفوف حين أذن المؤذن وكبرّنا تكبيرة الإحرام، الكل تكّتف الا أنا وسهاد الأمر الذي لفت أنظار القريبات منا من المصليات، فألتفت اليّ المرأة التي تقف الى يساري لاهية عن صلاتها ومدت رأسها ناظرة الي بأستغراب ولم تنتبه أنها تخل بأحكام الصلاة، كنت أبتسم وأنا انظر في عينيها فأبتسمت هي الأخرى وعادت الى رشدها واستدركت صلاتها بأن أعادت التكبيرة لتلتحق بالجماعة...

أكملنا الصلاة وصافحنا من بجانبنا من النساء، أما المرأة التي ارتابت من عدم تكتفي فأسمعتني عبارات تشجيع قائلة: بارك الله بك لأنك مؤمنة وأنت في هذا العمر وهذا المسجد مسجدك فلا يوجد فرق بيننا كلنا مسلمون.

شكرتها وبأبتسامة لم أقل لها شيئا، لكنني ساعة الصلاة ونظرتها المريبة لي، كان عندي كلام كثير واستفسار وجدت جوابه في كلامها.

عدنا الى البيت وحدّثت والدتي عن ذلك فضحكت قائلة لجمال: "عوفها لحالها بعدها صغّيرة"... فقال مبتسما: "ابد هاي الصغيرة أكبر من كل الجانن يصلن بالجامع لان مابيهن وحده محجبه وهي بعمرها كلهن تحجبن من صارن كبار".

فضحكنا جميعاً وشعرت بالسعادة لأنه يشجعني وهو مايزيدني تعلقاً به فقد ولت أيام الطفولة حيث كنت أشكوه الى أبي عندما نتشاجر شجار الصغار.

أول مواقفي المعارضة

واقـتـل داءٍ رؤيـةُ الـعـيـن ظـالـمـاً

يـسـيء ويُـتـلـى فـي الـمـحـافـل حـمـدُهُ

عام 1978 اعدادية المعالي الصف الرابع جـ ومدّرسة اللغة العربية الست زكية ناصر... هذه المدّرسة في البدء كانت تحبني لأنني من الطالبات ذوات المستوى العلمي الجيد في اللغة العربية ولا سيما الاعراب الذي أهواه منذ صغري وأجد فيه نماءاً للذكاء.

في مادة الأدب يتطرق المنهاج الى فترات متتالية من تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي... عصر صدر الاسلام... عصر الخلفاء الراشدين... وهكذا، ومن كل عصر يعطينا نموذجين أو أكثر من مقاطع لقصائد شعرائه.

من ثلاثة مقاطع مختلفة لشعراء مختلفين من العصر الأموي خصصت الست زكية حوالي سبعة أبيات للحفظ كتبها الشاعر الأموي جرير في مدح الحجاج بن يوسف الثقفي.

الحجاج المعروف عنه تاريخياً أنه سفك دماء المسلمين ولم يرع حرمة الله في المؤمنين الذين حرم الله قتلهم... وجدت أن ثمة خطأ ما، أمثل الحجاج يمدح بأنه غيور على النساء أكثر من أزواجهن؟؟ وأنه يحمي بيضة الاسلام؟؟وأنه شهاب ثاقب في سماء الاسلام! حيث كتب الشاعر:

أمن يغار على النساء حفيظةً　　إذ لا يـثـقـن بـغـيـرة الأزواج

إن ابن يوسف فأعلموا وتيقنوا　　ماضي البصيرة واضح المنهاج

ماضٍ على الغمرات يمضي همه　　والليل مختلف الطرائق داج

الى آخرالقصيدة فسألت اخي جمال: ماهذه المفارقات كيف يكون هذا الكلام بحق الحجاج؟؟ هل ماقرأناه كان خطأً أم ماذا؟

فأجابني بهدوء: للشاعر بعض العذر فكما تعلمين منهم من يرتزق من شعره والحجاج كان والياً فكلما أطنب في مدحه زاد سخاء الوالي عليه.

إعترضي أنت على مدّرسة المادة وناقشيها لماذا خصصت هذه المقاطع للحفظ وليس غيرها؟

لم أعترض إطلاقاً على مدّرسة من قبل، وحتى عندما تكمل إحداهن شرح مادة وتسأل عمن لديها استفهام عنها أتجنب ذلك خجلا، في تلك اللحظة شعرت أن ثمة تكليفاً علي عمله يجب أن لانسكت ونحن نرى المسيء يمتدح وتتزين صورته البشعة.

فطلبت الإذن من الست زكية بالكلام وقد إستجمعت قواي قائلة: ألا يوجد أفضل من الحجاج كي نحفظ أبياتاً في مدحه؟.

ثارت حفيظتها قائلة: لماذا؟ مابه؟ هو والي العراق وقام بسك أول عملة عربية فما اعتراضك !!ولم تستطع إخفاء حنقها علي.

قلت لها إن مثل الحجاج الذي تقطر يده من دماء المسلمين لايستحق أن نمجده ونحفظ قصائد في مدحه، لاسيما إننا لدينا خيارات أخرى...

فقالت غاضبة: من أين لك هذه المعلومات؟ أين مصادرك؟ أكيد في الدهاليز المظلمة ! هذه أفكار سوداء رجعية وليس لديك دليل عليها.

فأجبتها بهدوء تعمدت ظهوره على كلامي: ليس في الدهاليز المظلمة هناك كاتب مصري اسمه خالد محمد خالد لديه كتاب بعنوان (من هنا وهناك) أرجو منك أن تطلعي عليه فهو يحكي بعضاً مما فعل الحجاج بحق المسلمين.

فقالت: أكيد كتاب ممنوع من الدولة.

قلت لها: ابداً هو موجود في المكتبات... لم اكن واثقة من كلامي الأخير لكن أخي أخبرني بذلك فهو يسعى الى تقوية شخصيتي ولطالما قال لي: قولي الحق دائماً... لاتخافيهم وواجهيهم مهما حاولوا إخفاء الحقيقة فستظهر يوماً ما...

وإنك أقوى منهم لأنك في طريق الله... وسندك هو الله سبحانه...

كلمات مازالت ترن في أذني وكلما أجد نفسي في حيرة من أمري في إتخاذ قرار ما أجدني أنفذ وصاياه وأركن الى جانب الحق، وإن لم يتبين أدعو ربي بأخلاص أن يريني الحق حقاً فأتبعه والباطل باطلاً فأجتنبه...

أما الست زكية فأخذت مني موقفاً ولم تعطيني الدرجات التي أستحقها في اللغة العربية، كنت أكتب افضل النصوص في مادة الإنشاء وأجيب كل أسئلة القواعد لكنها لم تعطيني تنصفني بعدها، على الرغم من إعترافها قبل إعتراضي عليها لمرات وأمام الطالبات بتميزي وذكائي...

منذ ذلك الوقت عرفت أن قول الحق لايرضي الجميع، وتذوقت الحرمان بسبب المعارضة، لكنني شعرت بأني أقوى وأصدق منها فأنا بنت الأربعة عشر عاماً أفحمتها ولخسرانها أمامي أنزلت بي العقوبات... وهذا ليس غريباً على البعثيين، فهي بعثية وتهتف في رفعة العلم بأهازيج تمجد البعث وثورته السوداء وصارت ترتدي الزي العسكري في سنوات حرب القادسية وتطلق بضع طلقات من سلاح تيمنا بالطاغية، لكنها لاتملك قوة إيمان ببعثها هذا وإلا لما انهزمت أمام فتاة صغيرة...

أما زميلاتي فقد رحبن بطرحي وشعرت أنهن أيدنني بضرورة إبداء الرأي، الست زكية لم تكن محبوبة فوجدت بعض الطالبات موقفي هذا ثأراً لها، فأغلبهن شجعّنني وضحكت سناء زميلتي المسيحية قائلة: "لج عيني سويتي وجهها أصفر عاشت ايدج"، وزميلتي نوال قالت بفرح واضح: "برّدت قلبي بيها رحم الله والديج".

منحني التفافهن هذا حولي الشعور بنشوة المنتصر، وعندما عدت أدراجي الى البيت ترقبت عودة أخي من الجامعة لأخبره بما حدث، كان ينظر لي باسماً وأنا أصف له تفاصيل حديثي وتعليقات زميلاتي بفرح وفخر، فشجعني قائلاً: الأن أنت قد وضعت قدميك على الطريق الصحيح وتذكري... علينا أن لانسكت

عن الباطل وكل من موقعه، الشعوب لاتنسى الظالمين وإجرامهم وإن طال بهم الزمان وإن أراد البعض تزويق صورتهم القبيحة...

أخي الأكبر قدوتي

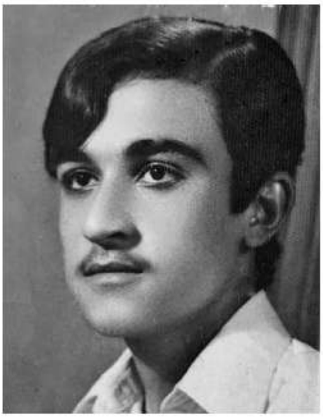

ما انفك أقرباؤنا يشيرون بالبنان لأخي جمال، ذلك الشاب اليافع الذي اختار طريق الهداية منذ صغره، وواظب على الصلاة في مسجد المنطقة (جامع وحسينية العباس)، كان ملتحيا جميل المحيا، دمث الخلق هادئ الطبع، لم يفارق الكتاب يده... يجد له ركناً يختلي به بكتبه المتنوعة على الرغم من أننا كنا عائلة من أب وأم وتسعة أبناء وبيتنا لا يخلو من الضيوف أو الجيران على مدار اليوم، يتابع برامج ثقافية كانت تبث على راديو الكويت (نافذة على التاريخ) أو (حدث في مثل هذا اليوم)، وكنت أتابعها أحيانا معه، وأحب فيها أسلوبها الفصيح وأداء ممثليها للأدوار.

كانت قرينات والدتي من أخواتها وبنات خالاتها وجاراتها وأخريات يحسدنها عليه، ويردن إسقاط هالة المجد عنه بأتهامه بالإنتماء لحزب الإخوان المسلمين، ففي بداية سبعينات القرن العشرين لم يكن بعد قد ظهرأسم الدعوة الإسلامية للعلن وانتشر كما انتشر قبيل وأبّان الحرب العراقية الإيرانية، بعدها غيّرن تهمتهن له من الأخوان الى الدعوة وتهمة مثلها تؤدي إلى السجن والتغييب حتماً.

كانت والدتي تخشى عليه من أقاويلهن، وتبرر ذلك لهن قاسمة بأنه فتى صغير ليس له أي ارتباط، بل إن الله هداه وهو يفعل مايريد الله منا جميعا فنحن مقصرون.

عاشت بين فرحتها الغامرة بولدها البكر وفخرها به، وبين مخاوفها عليه من كل شيء، وهي لهذا اليوم (أطال الله بعمرها) تعتقد أن ثمة عين أصابت ولديها، وأفواه الناس شهقت بهما لتخسرهما كليهما وتبقى هي في حسرتهما تندب شبابهما الذي ماتحمّل عيون الحاسدين.

كان تدينه المبكر وأخلاقه موضع فخر لكل أقربائنا، عمتي فاطمه التي كانت تعيش معنا بعد طلاقها من زوجها تتحدث عنه في كل محفل، وأتذكر ذات يوم عصرا طرق بابنا شيخ معمم شاب يسأل عن جمال الذي كان في المرحلة الإعدادية، لم يتعرف عليه أخي وبقي مستغربا، وإذا بعمتي تسرع للباب لتعلمنا أنها هي من أعطته العنوان بعد أن حدثته عن جمال والتزامه الديني، فاقترح عليها أن يلتقيه ليعطيه دروس دينية وينّمي تدينه المبكر... حينها رفض والدي الموضوع لكنه قرر ضيافته فهو قادم من النجف الاشرف، فمكث الشيخ عندنا لأيام...

علاقتي بأخي جمال علاقة المقتدي بالقدوة، ليس لأنه يكبرني بخمسة أعوام فحسب، وإنما كان لبيبا راجح العقل دمث الخلق، وحتى أثناء مراهقته لم تصدر منه أفعال طائشة كأقرانه من أقاربنا وجيراننا، تعلم قيادة السيارة في عمر مبكر، فهو لم ينتظر والدي الكثير المشاغل أن يتولى تعليمه، بل لجأ الى القراءة والسؤال عن بعض تفاصيل القيادة من عمي أو أحد أصدقائه، كان يصطحبنا وهو يتمرن على السياقة وخاصة في وقت الظهيرة القائضة لقلة تواجد السيارات في الشوارع وسهولة المسير فيها، كنا نشجعه كثيرا على الرغم من مخاوفنا من الحوادث، لكنه كان جريئا يقطع مسافات طويلة مبتعدا عن البيت، وفي ذات يوم أعلم والدي بأنه أتقن السياقة، ابتسم والدي قائلا: كيف عن طريق القراءة؟! لكنه أجابه واثقا: لدي طريقتي الخاصة، لم يصدق أبي حينها ليس لأن جمال يكذب وإنما لم يتوقع أنه تعلم السياقة دون مساعدة منه، وحسم الأمر بأن خرجا معا في سيارتنا وجمال يقود... هنا أقر والدي بقدرته على قيادة السيارة ووعده بشراء سيارة جديدة له ومن الشركة العامة للسيارات.

وحتى عندما كنا صغارا وننتظر العطلة لنلعب ونلهو كنت دائماً معه في نفس الفريق عندما نلعب لعبة كرة القدم ونقسم الى فريقين فريق فيه جمال وأنا وفريق آخر فيه جلال وعدنان وخالدة وعندما أسأله لماذا نحن اثنين فقط يجيبني ضاحكاً: "مو آني جبير وهمّ صغار"، وفي لعبة (التصاوير) كنت معه أعد له الصور التي يربحها وعندما لايحالفه الحظ العب بدلاً عنه مع فريق أخوتي الآخر...

دأب على تربيتنا دون أن نشعر وشجعنا للحضور الى محاضرات الشيخ أحمد الوائلي في مسجد الهاشمي في الكاظمية فواظبنا عليها طيلة شهر رمضان رغم بعد دارنا حيث كنا بعد الإفطار يقلّنا والدي بسيارته الى الكاظمية، كنا نبقى في السيارة نستمع الى المحاضرة وبالكاد نجد مكاناً نركن فيه السيارة في شارع مزدحم بالسيارات الوافدة من أرجاء بغداد حيث يتوقف السير، والرصيف قد افترشه المستمعون لمحاضرة الشيخ الدكتور، كان الإقبال على الحضور كبير جدا وكأن الناس وجدت في منطق الشيخ رحمه الله ما يروي ظمأها الروحي ويغذيها بزاد الإيمان، وبعد انتهائها نذهب لزيارة الامامين الكاظمين وأحياناً يبقى الصغار في بيت عمتي قرب ساحة الزهراء ريثما نعود بعدها نرجع لبيتنا، كان هذا ديدننا طيلة شهر رمضان الفضيل... أجواء روحية لن أنساها إذ كان يستعجل جمال طعام سحوره مسرعا إلى جامع العباس القريب من دارنا ليقرأ دعاء البهاء ونستمع لصوته يملأ أرجاء منطقتنا ويعقبه أحيانا بالأذان.

وبعد أن اشترى له والدي سيارة جديدة وذهبا معا لإستلامها من المنفذ الحدودي، وعدنا وأوفى... كان يقلنا بسيارته حيث نشاء وعوضنا عن إنشغال والدي عنا، وكان يتولى نقل الضيوف الى بيوتهم كرما منه.

له علاقة وثيقة بخالتي الصغرى فهي تكبره ببضع أعوام ومكثت في بيتنا مدة عندما درست في معهد المعلمات، كانا صديقين وتلجأ اليه في أمور كثيرة ومنها التقصي عمن يتقدم لخطبتها كانت تحترم رأيه وتجد فيه أخا كبيرا وهو في هذا العمر.

أحدث إعتقاله صدمة كبيرة لها كانت تنوح وتبكي بلوعة كبيرة وتتحدث عن هندامه وقوامه وتتأسف أنه اليوم فريسة الجلادين، كانت تردد: "هو رايد هذا الطريق... كم مرة رغّبته بالزواج وأن يفرّح أمه وأبوه... لكنه يجاوبني كلشي بوقته... من أشوفه واكف كدام المرايه يمشط، أكلله يابعد خالتك... ياحلو... دير بالك من إجرامهم ".

اعتقال أخي جمال

عام 1979أقدم البعثيون على اعتقال الشهيد محمد باقر الصدر الاعتقال الأول فضج المؤمنون ولم يهدأ لهم بال وتظاهروا مع عوائلهم مطالبين بالافراج عنه ومن أعتقل معه، وفي هذه الأثناء أخذنا أخي جمال بسيارته لزيارة الامامين الكاظمين في شهر رجب ذي الخصوصية في زيارتهما عليهما السلام... وصلنا وإذا بالأوضاع لا تنبئ بخير، كان انتشارا كبيرا لأزلام البعث وأشاعوا الرعب بين الزائرين إذ هرعوا الى إغلاق أبواب المرقد الشريف والناس يتراكضون وبعضهم يبحث عن أولاده أو بعض أهله، فارتعبت والدتي التي كانت بقربه في المقعد الأمامي وتوسلت به أن يعود أدراجه ويبتعد عنهم بعد أن لاحظت اصراره على التحدي، السير المروري حينها قد اضطرب وكادت السيارات تصدم بعضها... حال مأساوي كل لائذ بنفسه من بطش البعثيين، وكل يعرف معنى اعتقاله في هكذا ظرف...

اليوم التالي أعلمنا أخي إن ماحدث أمس من استنفار للبعثيين بسبب تظاهرة سلمية تندد بالبعث وممارساته القمعية تم تفريقها باعتقال مانالته أيديهم الآثمة لهؤلاء العزل الذين عبروا عن رأيهم لا أكثر، وأردف قائلا: ستضيق سجونهم من كثرة الاعتقالات فهذه الاعتقالات لن تتوقف...

الأوضاع من سيء الى أسوأ فقد كشّر البعثيون عن أنيابهم البشعة وأعلنوها

حربا بلا هوادة على الدعاة يوم أصدر مايسمى بمجلس قيادة الثورة قرارا موقعا من صدام حسين بصفته رئيس المجلس، ينص على إعدام الدعاة ومن يساندهم ومن يتستر عليهم وبأثر رجعي يشمل كل من أعتقل قبل إصداره، رقم القرار (461) في 30 أذار عام 1980،أعطى (الرئيس) لنفسه بنفسه ضوءا أخضرا للقضاء على كل الدعاة، وبعد أقل من أسبوع أعتقل الشهيد الصدر وأخته العلوية الشهيدة في ظل تكتيم إعلامي وبعد أيام قلائل أقدم المجرم صدام على قتلهما دون أن يبالي بمكانتهما... فما كان أجرأه على إنتهاك الحرمات وسفك الدماء الزكية... وكأن الطغاة يتواصون بالإجرام... لم ينتظر صدام مصيرا كمصير شاه ايران عند عودة السيد الخميني لبلادة منتصرا بإرادة شعبه، وإنما أقدم على القتل ظانّا أنه استأصل المعارضة ولكن هيهات أن يتحقق حلمه... فلقد قض مضجعه آلافا مؤلفة من خيرة العراقيين كلهم مصر على رفضه ومهما كلفه ذلك من تضحيات.

كثف جهوده في القطاع الأمني استعدادا للقمع والتنكيل، ففي نفس العام تم تحويل آلاف الموظفين المدنيين من وزارة الداخلية الى دوائر الأمن تعزيزا لكوادرها التي ستواجه مهام كبيرة في مخطط القضاء على خيرة الشباب المؤمن.

وكما توقع أخي جمال أخذت الهجمة البعثية الهمجية تشتد لاعتقال نخب المجتمع، فعم الحزن والثكل في كل بيت طالته هذه الهجمة، كنا نتوجس خيفة من مداهمتهم لنا وخاصة بعد أن أعتقل عددا من أصدقاء أخي جمال، سارع والدي لإصدار جواز سفر له لكنه طالب جامعي في المرحلة الثالثة الجامعة التكنلوجية ودوامهم إلزامي إذ أن الحضور يعزز الدرجات الامتحانية، كما أن جمال رفض أن يترك العراق قائلا: إذا انا غادرت وغيري غادر من لوطننا !! من للإسلام !!

ولإلحاح والدتي عليه وهو يراها خائفة وجلة ترك البيت الى بيت خالتي الصغرى لبضع أيام، حينها شعرت بفقده وكنت أدخل غرفته وأختنق بعبرتي وأكاد

أبكي فأنا أحتاجه في كل وقت... نصائحه، فكره الواعي، هدوءه وترويه في حل المشاكل... فقده آلمني، لكنني أؤمل نفسي بفسحة أمل صغيرة: إصبري قليلا عسى أن يذهب الله عنه مكرهم وكيدهم مادام بعيدا عن أعينهم.

عاد الينا وغمرتني الفرحة لكنه كان حزينا فهم قد اعتقلوا بعضا من رفاق دربه وعدد من طلبة جامعته، حزنت لحزنه وتمنيت أن يمن الله بالفرج عن رفاقه حتى تعود البسمة لمحياه الجميل... نعم ذهبت بسمته لحظة علمه بإعدامهم للشهيد الصدر وأخته العلوية، وكلما مرت الأيام ازدادت الأوضاع سوءا وشرست أساليب سلطة البعث القمعية.

تحير والدايَ كيف يحمون جمال من بطش عصابة البعث!! وهو مصر على أن لا يترك أرض الوطن معولا على أنه كتوما لايعرف أحد بانتمائه لصفوف الدعاة فالعمل سري والحفاظ على سريته تكليف شرعي يتعلق بالحياة... هم يعلمون كيف يؤدون دورهم دون الكشف عن هويتهم، ولكن النظام الاستخباراتي البعثي كان في أوج استنفاره والحرب قائمة مع الجارة إيران.

وكحّل وقتي وجهه والدي للمكوث عند بيت عمتي الصغرى في منطقة المنصور... لم يمكث عندها الا يومين كانا حافلين بالقلق والرعب والترقب، وإذا بأزلام الأمن يسحبون سيارته من كراج العمارة التي تسكن في شقة منها عمتي وليتصلوا بهاتف بيتنا معلميننا ان السيارة لديهم وعلى جمال أن يراجع مركز المنصور لاستلامها...

تحير والدي كثيرا فذهب مسرعا الى بيت عمتي وسأل جمال: "بابا عندك شي؟ تتوقع أكو دليل عليك؟إذا اي شك عندك لا تروح بابا فدوه الك السيارة"...

أجابه جمال: "لا بابا ماعندي شي ".

كان يخشى إن لم يراجعهم يعتقلون العائلة وما أكثر ما فعلوها... لذلك رافق والدي ليستلما السيارة مهما كان المتوقع... وكان هذا اللقاء الأخير وذلك يوم 15/ 10/ 1980...

وغابت السعادة عن بيتنا...

راعني اعتقاله كثيرا وكنت أتحرق شوقا لرؤيته وقد فارقنا ليومين فقط... شعرت أنني لن أراه ابدا، وتخيلته في واد سحيق أظلم وحافل بأنواع العذاب... فما نتوقع غير هذا من البعثيين المجرمين.

يومها تركت فراشي متعمدة، ونمت على بساط خفيف وغطاء مثله، أردت أن أواسي أخي وأعيش محنته، نعلم أنهم يجعلون المعتقلين مفترشين الأرض مهما كان الجو بارداً، لم أنم تلك الليلة كانت الأرض تلسعني والغطاء لا يقيني برودة الشتاء... قضيت الليل بأكمله أدعو لأخي أن يهون الله عليه ما يعانيه في دوائرهم التي تتدفق رعباً وظلماً وتقتيلاً، كما يحدثنا كل من ساقه القدر اليها ونجا منها.

أما والدتي فلا يمكن أن أصف شعورها ولوعتها على ولدها البكر، هي هادئة الطباع وتواجه الصعاب بدموعها وصمتها، لكنها اليوم صارت تأن أنّات وحسرات مفجعة وكأنها تستشعر وجع سياط الجلادين وتسمعها وهي تتهاوى تباعا على جسده النحيل، عيناها غارتا من الدموع وصوتها لم يعد يسمع، كانت حيرى وقلقة جدا ولسانها لا يتوقف عن الذكر المصحوب بعبراتها، هي تعلم جيدا قسوتهم وهمجيتهم وتعلم معنى أن يقع فلذة كبدها بين براثنهم وتحت سطوتهم القمعية، وأكاد أجزم أنها حينها تسمع تأوهاته من أجرامهم... تتحاشنا عندما تبكي وتختلي بدموعها حيث لا نراها فتارة تبكي في منعطف السلم المؤدي الى طابق بيتنا الثاني، وأخرى عند خبزها أرغفة زادنا اليومي... أنى لها نسيانه فهو نور عينيها ومصدر فخرها لما له من شمائل يحسدها عليه الآخرون.

وعلى الرغم من أنها ماتعودت الخروج وحدها من البيت، إلا أنها كانت صباح كل يوم تحمل حقيبة صغيرة فيها ملابس له ومنشفة وبعض الطعام وتخرج

باحثة عنه... والدي كان يحاول إقناعها بأن لاجدوى من ذلك هم لن يتعاونوا معها بل قد يؤذونها هم همج رعاع... لكنها كانت تصر قائلة: لن يهدأ لي بال حتى أعرف أين هو !!...

تعود عصرا وقد أعياها التعب وعلتها خيبة الأمل والحزن الشديد، وما أن نستقبلها مستفسرين حتى تنفجر باكية دمعا سخيا كمدا عليه بعد ان حبست عبراتها خارج البيت.

خيم الحزن على أرجاء بيتنا الهادئ وذهب السلام وراحة البال الى غير رجعة، كنا جميعا طلابا والعام الدراسي في بداياته، والشتاء على الأبواب والتزامات عائلية ومنزلية كثيرة كانت والدتي تؤديها في ذات الفصل من كل عام وهي فرحة متفاءلة وكلنا نتعاون معها في تهيئة فرش الأرضيات وغسل الأغطية وتبديل الشراشف، كانت أكبر فرحة لنا عندما تخيط أمنا شرشف الغطاء (اللحاف) حيث يحلو لنا القفز والتدحرج عليه كونه ناعما ومن القماش (الساتان)، ما أسعدها بنا ونحن نتقافز حولها كلنا ولم تفقد منا أحدا... هي واعية وتشجعنا على المضي قدما بدراستنا وتجهزنا بما نحتاج وتعيننا بلا ملل عند الذهاب للمدارس بعد أن تعد الإفطار لوالدي.

تنهض عند الفجر لتنثر عبيرها وعطاءها علينا بسخاء ورضا، وكم كانت لذيذة تلك (اللفة) التي تحرص على أن ترفدنا يوميا بها لاننا لا نفطر في البيت، أمنا التي تعددت مهامها وتشعبت لم تمل يوما ولم تتعبها خدمتنا هي عطاء دائم لا يتوقف.

سرقوا البسمة منا وصار الحزن ملازما لأمنا، كنت أحاول أن أهدأها وأخفف من روعها تنظر الي بعينيها الغائرتين من الدموع والأرق فتزيدني حزنا وأسى... لكنها كانت تصغي الي وتهدأ وأنا استذكر مصاب أهل البيت وأواسيها بان تتعزى بهم وهي الموالية لهم والتي ترتدي السواد حدادا شهري محرم وصفر وعوّدتنا على لبس السواد ونحن صغارا وحرصت على إقامة مجلس عزاء الإمام

الحسين ولمدة عشرة أيام متتالية توزع فيها ثوابا متنوعا حبا وكرامة لمحمد وآله الطاهرين، وليلة الأول من محرم تعلق الرايات على سطح دارنا استقبالا لشهر أحزان آل محمد عليهم السلام.

كانت تتذكر كلامه لها: عليها أن تتوقع كل شئ مادامت عصابة البعث تحكم البلاد، كان يردد: "يمه ذكريني من تمر زفة شباب... من العرس محروم حنتي دم المصاب... شمعة شبابي من يطفوها... حنتي دمي والجفن ذاري التراب"... مقاطع من قصيدة للقارئ الحسيني حمزه الصغير... وعندما تنهره مقاطعة كلامه، يرد عليها باسما: وماذا كالجنة هدفا نسعى اليه ياأمي !!

في جولة بحثها عنه في دوائر الأمن كانت تصادف بعض الأمهات المفجوعات بفلذات الأكباد بنينا وبناتا... شعرت أنها ليست الوحيدة التي اكتوت بنيران الفراق وهون ذلك بعضا من حسرتها عليه، وفي غمرة حزنها كانت تتأسى عليهن وتدعو لهن بالصبر فهي فقدت ولدا واحدا وكأنها تجد بهذا عزاء.

أمي قبل اعتقال جمال لايميزونها انها أمّنا عندما نخرج معا ولطالما سالوها أنت أختهن الكبرى؟ لكنها وقد حلت بها هذه المصيبة بدأت تذبل وتظهر عليها أعراض مرضية تقلقنا... لم تجد سوى الصبر والتوكل على الله وقودا تسيّر بهما حياتها فهي مسؤولة عن تسعة أبناء ووالدهما وأهله غالبا مايكونوا في ضيافتهم.

عندما يخذلنا الأقربون

عند الابتلاء تظهر معادن الناس وتتكشف حقيقة ولاءاتهم... وأن تكون معارضا للبعث وفي قائمة أعداء الحزب والثورة فهذا ابتلاء كبير يكشف لك أمورا لم تكن بالحسبان... الأقرباء تخلّوا عنا وانقطعت زيارتهم التي ما خلا منها بيتنا يوما...

مذ كنا صغارا بيتنا يغص بالضيوف عوائلا عوائلا تتوالى على دارنا دون استئذان... لاريب في ذلك فهو بيت الأخ الأكبر لأربعة أيتام وخمس يتيمات... والدي الذي تكفل أعمامي هولاء جميعا بعد وفاة أبيهم وعوضهم عنه خير عوض كان حنونا وصولا لرحمه... كنا نفرح كثيرا بهم وتأنس أنفسنا بأقراننا من بناتهم وأبنائهم...

وهم يفرحون بالعيديات السخية التي يغدقها والدي غير آبه بعددهم الكبير إذ تكفيه قبلة من أفواههم الرطبة... وبسمات شفاههم التي تكشف عن أسنان تساقطت وأخرى قد لاحت للظهور...

ارتدى العيد حلية مختلفة عندما انقطع جميع الزائرون الدائبون عن بيتنا... لم يعد عيدنا مكتظا بالضيوف... ولم يتهافت الأقرباء كما كانوا أفرادا وجماعات... هم ارتعبوا من بطش أزلام البعث الذين ما انفكوا يراقبون دارنا... واختاروا السلامة على صلة الرحم...

نعم مازلت أذكر والدي رحمه الله صبيحة عيد كئيب من حقبة البعث وهو يرنو بعينيه الى الباب عسى أن يفتحه أحدهم وتتبعه عائلته كالمعتاد ليلقي تحية العيد ويأخذ صغاره المقسوم ويقضوا نهارا سعيدا مع الأهل وأولادهم... انتظر كثيرا دون جدوى... واكتفى أقربهم صلة به باتصال سريع عبر الهاتف الأرضي فهو الآخر مراقبا... إنه الحصار الاجتماعي الذي فرضه البعث على كل من عارضه... وأعانه عليه هذا الخوف والخضوع... بهكذا إذعان صرنا نحن من نصنع الطغاة ونساعدهم بإنجاح مخططاتهم.

ماكنت أتوقع يوما أن يخلو بيتنا من الضيوف وصخب أطفالهم وخاصة أيام العطل، فمازالت مخيلتي تحتفظ بمشاهد لأمي وهي تجهز وجبات الطعام لأعدادهم الكبيرة وهي تنوء بحملها إن كانت حاملا أو تتعثر بخطواتها وقد تشبث رضيعها بأذيالها، وتخبز أحيانا مرتين في اليوم بتنور طيني مع كل عناء الخبز به، هكذا إذن ينتهي كل شيء دون إعلان ولا مقدمات... الخوف طغى على صلة

القرابة والصداقات العتيقة، بل شتت مصالح العمل والمال، الا أن والدي كان مرزوقا لطيبته وسخائه مع كل من عرفه، فكم أقرض أشخاص محتاجين وتنازل عن السداد به لوجه الله، كان كل مدة يطلب مني أو من أحد أخواتي أن تقرأ له ما في أوراق وصكوك وكمبيالات (مكاتبة تثبت الدائن والمدين) يحتفظ بها في علبة معدنية لغرض تسديد الدين، الا انه يوجه بإتلافها وهي تعني مبالغ مالية لا يستهان بها قائلا: "خطية منين يجيب ويسدد هو حاير بعيشته"... سمعت هذه العبارة منه مرارا بحق معارف وأصدقاء وغيرهم، ماكنت أفهم سر ذلك... لكنني لمسته مصداقا بأن الله يمنح منفقا خلفا... وجعل الله رزقه وفيرا لسعة أنفاقه هذا ورحمته للناس.

الجار الذي يوصى به قبل الدار لم يعد كذلك... بعض الجيران ممن أيدوا البعث كانوا يؤذوننا بترسيخ القلق لدى والدتي، إذ تتعمد إحداهن ذكر التعذيب وبشاعته أمامها أو تعلن أن صدام لن يتساهل مع حزب الدعوة وأنه حتما يعدمهم كلهم... وهكذا...

لم يعد شاي العصر بريئا وممتعا ويجمع الأحبة ويؤلف بين القلوب، وبذلك كان علي أن أتخذ موقفا من هؤلاء الجارات المزعجات، صرت أقابلهن بالجفاء وأمنعهن من التمادي في هذا الكلام... لا أدري كنت أشعر وعلى الرغم من صغر سني إنهن ينفذن مخططا بعثيا مرسوما وإن كن ساذجات فهن أذرع البعث في إشاعة الرعب في القلوب وزيادة آلام العوائل المبتلاة بمعارضته !!

اعتقال أخي جلال

صباح الخميس 25/ 12/ 1981م وعند الساعة السابعة والنصف وبضع ثوان، الجو باردا غائما وتتناثر بعض قطرات مطر.

عند تقاطع شارع دارنا مقابل المنظمة الحزبية (أحد بيوت التبعية الإيرانية المغتصبة) أوقفنا اثنان من المدنيين (يرتدون سفاري)، وألقوا تحية الصباح بعجل على والدي، عرفتهم على الفور من هيئتهم ووجوههم المكفهرة، دق قلبي سريعاً، واصفّر وجهي، حين مد أحدهم رأسه من نافذة السيارة قرب والدي، وسأل عن أخي جلال مخاطبا إياه: أخي أنطيني هويتك؟ فأعطاه هوية الإعدادية أخرجها من جيب قمصلتة الرصاصية القديفة والتي اشتراها قبل يومين فقط، أخذ الهوية ونظر إليها نظرة خاطفة لم تمكنه حتى من قراءة جميع تفاصيلها، وقال: تفضل معنا... صاح أبي مصدوما: "وين؟ وين تأخذوه؟ هذا طفل؟ شعنده؟ ".

فأجابه بارتباك: "لا تخاف حجي مجرد جم سؤال بالمنظمة الحزبية ونرجعلكياه"... وسحبوه من السيارة وهو يحمل كتبهُ وفوقها سندويج (لفة) كانت أمي قد أعدته له كما في صباح كل يوم.

واقتادوه إلى سيارة لاندكروز بيضاء، وأحاط به أربعة منهم وبسرعة دفعوه إلى داخلها وتحركت مسرعة الى حيث لا نعلم... تبين أنهم أعتقلوه في أمن الثورة وليس في المنظمة الحزبية كما ادعى، فالمنظمة مقرها حيث أوقفونا...

خيم الصمت علينا أنا ووالدي، وركن سيارته متحيراً، وسكوته يحكي قصص ضيم كل العوائل الشريفة التي يُختطف أبناؤها أمامها متى شاء الطغاة، وكأن كل أب وأم يربيان ولدهما ويسهران على راحته كي يصبح رجلاً أو يكاد، ثم ليكون فريسة مخالبهم تنهش يومياً أجساد ضحاياهم لمجرد الشك بأنهم

معارضون، أومن أقرباء المعارضين، وأنا أشاطره صمته المؤلم هذا ولا أقوى على مقاطعته فالموقف فرض نفسه علينا عنوة ليحيل صباحنا الى ليل مظلم... قطع صمته بصوت حزين كاد أن يكون أنينا: "ها بابا أرجعك للبيت؟ لو أوصلك للكلية؟"... فأجبته على الفور وكأنه أنقذني من قلقي: "لابابا عفية للكلية ما أكدر أبلغ أمي بالصار".

أمي التي ماجفت دموعها على ولدها البكر جمال وظل وجهها الحزين ماثلا أمامي وهم يقتادون ولدها الثاني جلال، جبنت يومها من أن أفجعها بهذا الخبر، ولم أتخيل أن أزيد نار قلبها نارا، لذاهربت من الواقع ولو لبضع ساعات هي وقت الدوام.

وسارت سيارته مسافة الطريق بين منطقتي المشتل والأعظمية وكلانا يتساءل: ما الذي فعل؟ لماذا اعتقلوه؟ كنت أحاول أن أهدئ من روع أبي وحسراته التي توأمت كل كلمة من كلماته قائلة له: "بابا على كيفك ويه نفسك... ان شالله يطلعوه... يعني ما معقول شنو شراح يوجهوله تهمه"!... أتكلم هكذا وأعلم جيداً أنه لن يعود، وإن عاد فبعد ما لايقل عن ستة أشهر كما كنا نسمع في حالات نادرة جداً تم الإفراج عنهم، وحتى أبي وإن كان يستمع لي لكنه لم يقتنع فهو يعرف جيدا من هم هؤلاء الخاطفين؟ وكيف ينظرون الينا وقد أعتقلوا أخي وعمي وزوج أختي قبل عام واحد، يعلم جيدا كم وظّفوا أعينا من جواسيسهم تراقب دارنا وتحبس أنفاسنا.

وصلت إلى الكلية ولله در والدي كيف تمكن من إيصالي وأمواج الهموم تتقاذفه، ودعّته على عجل ودخلت متأخرة بعض الوقت بسبب ماجرى، يومي هذا كان مختلفا بكل مافيه... استقبلتني صديقاتي وفاء وذكرى الاثنتان أقرب إلى نفيسي من كل طالبات المرحلة، لا نفترق أبداً وفي نفس الشعبة ونفس المختبر.

لم أستطع أخفاء ما أصابني من صدمة لا يتحملها أحد، فكل من رآني طالباً كان أو طالبة سألني: " خير خو ماكو شي؟؟"، وأجيب بصوت مختنق: "ما كو شي "، وأردد في نفسي ياليتكم كنتم تعلمون.

قررت يومها أن أترك الدوام في الكلية إذ وجدتني أختنق وأضيق بساحاتها على سعتها بل كل العالم صار في عيني ضئيلا واعتلتني الهموم، مصيبة جمال لم تنته، فكيف وقد أضيفت لها مصيبة جلال!!

حدثت وفاء وذكرى باختناق: "يمكن راح أترك الدوام"... أجابتا بصوت واحد: ماذا؟... مستحيل ومستقبلك؟

سبقتني دموعي وأنا أقول: لا أستطيع أن أداوم فلدي ظروف صعبة أمر بها... فمسكتا يدي قالتا: لا حاولي الصمود فكلنا نمر بظروف... فقلت: الله كريم... الله كريم . . .

مالذي أخبر به هاتين الفتاتين؟ وماجدوى إخبارهما بماحدث؟ خنق المجرمون الألم في صدورنا والحشرجات في حناجرنا، حاصرونا حتى في البوح بمشاعرنا لنبقى نجتّر الجراح النازفة وليتها تنتهي.

مرّ يومي وأنا ذاهلة شاردة الذهن عن كل درس، ولم أفلح في أجراء تجارب الفيزياء والكيمياء في المختبر، صدري يضيقُ وأصاب بالغثيان كلما أتذكر المحنة التي عاشتها العائلة يوم اعتقال أخي جمال، ومن المؤكد أنها ستتكرر باعتقال جلال. . .بقيت بعد إعتقاله خمسة أيام كانت شديدة المرارة عليّ، أما أمي فقد جفت دموعها من البكاء، ولم تترك إماماً ولا ولياً صالحاً إلّا وقصدته، تذهب حافية القدمين ممسكة عن الطعام إلى كل إمام تتوسل به الى الله لقضاء حاجتها بعودة ولديها، كانت تدعو بالصبر لكل أم ثكلها البعث حيث نيران فقد فلذة الكبد واحدة تستعر بالقلوب، كانت تقسم على الله بقدرته التي أعاد بها يوسف ليعقوب بعد أن أبيضت عيناه من الحزن وهو كضيم.

عمي السيد حسن علي العرّيس

عمي حسن الموسوي، شاب متدين أكمل دراسته في كلية أصول الدين، كان يسكن معنا في بيتنا كون دراسته في بغداد وبيت جدي في مدينة الكوت، أبي رحمه الله هو من ربى أخوته بعد وفاة جدي وهم صغارا وطلبة وهو تولى شؤونهم ودراستهم.

عمي حسن شارك بتربيتنا صغارا، شجعنا على الدراسة وشرح لنا بعض الدروس عندما يتاح له مجال، فهو بعد تخرجه تعين في دائرة الضريبة والعقار وكانت دائرته قريبة من بيتنا، تناقشا كثيرا هو وأخي جمال على أمور التدين والالتزام، كان كبيرا واعيا يرشد أخي بضرورة الحذر والحيطة من أعينهم، وأكثر نقاشهم كان حول التقية.

كم شجعني عمي وانا أعود فرحة مبتهجة من المدرسة في كل عام دراسي حاملة نتيجة امتحاني بتفوق وانا الأولى على صفي، وكم قبلني وحملني عاليا وهو يدور بي تشجيعا، وعاد من عمله حاملا معه هدية بهذه المناسبة، أفرحتني هداياه وكانت من قصص الاطفال تحمل مضامين للقيم والاخلاق.

عمي كان فردا من عائلتنا، وكنت استقبله عند عودته من الدوام بعد الظهر واقدم له الغداء بامكانياتي الصغيرة عند تكون أمي نائمة، وهو يثني عليّ مشجعا ويغفر لي تقصيري غير المتعمد باسما وهو يقول: "عفيه بالسبّاعية"... لم نفارقه الا بعد أن قرر الزواج، خطب معلمة شابة من محافظة كربلاء المقدسة، يتيمة رباها خالها في بيته وكان صديقا لعمي ومنتم معه الى تنظيمات حزب الدعوة الإسلامية.

زرناهم مرة أو مرتين لإتمام مراسيم الخطوبة والتجهيز حتى يوم الزفاف، فرحنا كثيرا وفي ذات الوقت افتقدناه، كانت آخر زيارة لبيته وآخر لقاء لنا به يوم السابع من زواجه في تشرين الثاني عام 1980، وكان جمال معتقلا قبل بضع أيام لكن الواجب الاجتماعي يحتم على أمي وعلينا الحضور وتقديم الهدية

للعريسين، لان أمي هي زوجة الأخ الأكبر... كنا نتأمل كثيرا أن يطلقوا سراح جمال ويشاركنا المناسبة ولكن هيهات...

بعد ثلاثة أيام وصلنا خبرا سيئا مفاده اعتقال عمي وزوجته العروس وأمها!! ذهلنا لذلك... فما ذنب زوجة عمي؟ بل ماذنب أمها الأرملة التي ظنت نهاية متاعبها بزواج ابنتها من مؤمن تأمنه عليها؟؟

أعتقل في أمن الثورة المشؤومة عرفت ذلك بعد اعتقالي، فذات يوم صرح أبو جواد: "عمج تعبنا هواي"... "اعتبريني مثل عمج واحجيلي العندج "!! ولم ينس أن يثبت أسمه وتهمته في إفادتي التي كتبوها هم دون أن أدلي بها ودون إطلاعي عليها.

بعد عشرة أيام أفرج عن زوجته وأمها وتحدثتا مرعوبتين عما كان يجري في أمن الثورة، ذهلتا من هول التعذيب الذي تعرض له عمي، قالت زوجته: ماعرفته من شدة الكدمات على وجهه، وقد مزقوا ثيابه على جسدة من قسوة الضربات بالعصي وسالت دماءه عليها... لم تذكر التعليق والفلقة والصعق بالكهرباء، كانت تشكر ألطاف الله سبحانه أن أنجاها وأمها من تلك الدائرة المشؤومة التي تضج بالعذابات الهمجية المستمرة لخيرة العراقيين رجالا ونساءا صغارا وكبارا، كانت يائسة من نجاته بل كانت ترثيه، نعم شاهدت بعينيها جرمهم الوحشي فيأست من نجاته.

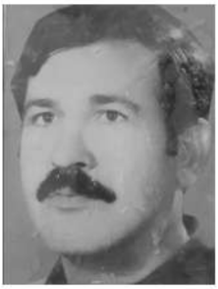

عمي حسن الوسيم الذي كل من رآه عرف على الفور إنه سيد، جبينه الأبيض يشع نورا، قد شوهوا وجهه ولم يتوقفوا عن تعذيبه ففي نظرهم أن جرمه لا يغتفر، فهو قد انتمى شكليا الى تنظيمات البعث في دائرته تمويها وكان عونا وعينا للمجاهدين، وكم استفاد من انتمائه هذا بالسفر والتواصل مع المغتربين منهم، وسمعته يحدث أخي جمال قبل أيام من اعتقاله عن سفرته الى بيروت، كيف التقى بقيادات من حزب الله اللبناني، ماكنت أعرف خطورة ذلك حينها، لذا اشتد غضبهم عليه وأعدم شنقا رحمه الله عام 1983كما تثبت ذلك شهادة وفاته الصادرة من معسكر الرشيد بعد أن تفننوا بتعذيبه بكل ماأوتوا من وسائل قمع وترهيب.

بتول زوجة الدكتور حسن

سمعت أصوات نساء... بتول ترفع صوتها وكأنها تعلمني بوجودها تُحدّث الحارس: "انطيتنا ثلاث صمونات ونحن أربعة"... فأجابها مستهزئاً: "لا صرتوا خمسة"، مشيرا الى وجودي... فمدت رأسها من باب خشبي أنظر إليه طيلة الليل لعله يُفتح ولو للحظة، وتبين لي أنها غرفة تعذيب يعذبون المعتقلين فيها طيلة اليوم وحتى آخره حيث يجعلونها مكاناً لنوم المعتقلين أو المعتقلات، وهي أول مكان جلست فيه عند اعتقالي ولم أتبينه لانهم عصبوا عيناي وقتها.

بتول جحظت عيناها الزرقاويتان، واصفر لونها، وهي تلقي بنظرة إلى وجهي الذي تعمدت إظهاره لها من العباءة، كانت نظرتها للتحقق فقط من وجودي، فقد ظل الشك يراودها منذ أن سمعت اسمي ليلة أمس، هي الآن تقينت بوجودي أنا لا غير، أما أنا فشهقت وكدت أصرخ: بتول! بتول!... لكنها أشارت لي بعضة لشفتها السفلى كي لا يعرف الحارس أن ثمة علاقة بيننا، ويخبر المحقق (أبو جواد) الذي يتصيد بالماء العكر، هي سبقتني الى هذا الجحيم فقرأت ما يدور في خلدهم وتحسبت لكل شئ فلا منجى من التعذيب ومن المزيد من التهم الا بالفطنة والحذر.

نعم، بدت شاحبة متعبة مرهقة، وكنت أعلم أنها حامل، فأين طفلها؟ بقيت اسأل نفسي، لكني لم أجد جواباً شافياً... لم أكن أعلم أنها قد اعتقلت مع زوجها الدكتور حسن جواد كاظم هذا الشاب المتدين الواعي... وعادت بي الذاكرة إلى ما يقارب عامين من هذا التاريخ، يوم دعتني أختها سهام زميلتي وصديقتي الحميمة أيام الدراسة المتوسطة لحضور حفل زفاف أختها بتول.

لم ترض أمي في بادئ الأمر، لكن أخي جمال تعهد بإيصالي إلى دارهم في منطقة مجاورة لمحل سكنانا، هو يشجعني على تقوية الأواصر مع الفتيات المؤمنات.

ذلك اليوم بدت بتول في أحلى صورة، هي جميلة بدون الإضافات التي

تضاف في الأعراس وفستان الزفاف الأبيض زادها جمالاً، أما زوجها الشاب الوسيم ذو العينين الزرقاويتين ابن عمها من أهالي قضاء الخالص ناحية (جديدة الشط)، فبدا بأبهى ما يكون عليه عريس، كانا بحق أجمل عروسين في مجمع المدائن السياحي حيث زفافهما...

و اليوم هاهي أراها رهينة عندهم ترتجف هزيلة ذابلة، شفتاها الورديتان شاحبتان كالموتى، وترتدي دشداشة شتائية طويلة وفوقها (جاكيت) من الصوف، وتلف رأسها بفوطة بيضاء فهي إذن نفساء... نعم هي كذلك، لم تمض سوى عشرة أيام على ولادتها طفلتها (إسلام) حتى تم اعتقالها وزوجها وأخوته، وأبناء عمومته دون مراعاة أنها أم حديثة الولادة، فهي تعاني من آثار المخاض والولادة، ومن احتقان الحليب في ثدييها وتفتقد رضيعتها الوليدة التي فطمها إجرام البعثيين رغما عنها، لذا وصف لها الطبيب دواءً ليجف حليبها، ولكن أنى لأي دواء أن يجفف مشاعر أمومتها الوهّاجة لوليد طال انتظارها وزوجها لاحتضانه، وكم خططا له كأي زوجين متلهفين للخلف البكر.

أي كرامة للإنسان في هذا البلد المبتلى، حتى القطط لاتحرم صغارها، وتبقى تحتضنهم وترضعهم حليبها إلى أن يشتد عودهم، إلا الإنسان في عراق البعث فلا حرمة لدى هؤلاء الجلادين لأي وضع كان...

رؤيتي لبتول قد آلمتني الا أنني شعرت ببعض الطمأنينة، وكأني أعوض بها كل أهلي، فشكرته سبحانه الذي يغدق علي ألطافه ولم يخذلني... بتول التي حرصت علّي كثيرا ووجدتها حاضرة في كل موقف من هذه المحنة الشائكة والمتعددة المصاعب، فهنا في هذا المعتقل المرعب لم ولن تتوقع مايضمرون لك، هم قد انسلخوا من إنسانيتهم فلا يمكن للمرء أن يأمنهم وهم يستشيطون حقدا على من فاقهم حسبا وعلما.

الصيدلانية عالية الحمداني

السيدة الثانية هي عالية الحمداني، صيدلانية متزوجة من مهندس، متهمة بمساعدة المعارضين في إمدادهم بعقارات طبية يحتاجونها، ومن عائلة ملتزمة دينياً، وأبت أن تنتمي لصفوف حزب البعث، يتعمد الضباط والحراس إشعارها بالدونية والإهانة، فهم يأمرونها بجمع النفايات وإخراجها خارج المبنى إلى الباحة الخارجية، وهم في قرارة أنفسهم يعلمون جيداً أن هذا لايقلل من شأنها... فهم على غفلة من مخططهم هذا، يسألونها بأدب ورجاء عن وصفات طبية لحالات مرضية يعانون منها، أو أحد أفراد عائلاتهم، كما يصغون لحديثها بامتنان وهي تصف الدواء، وتحذرهم من تعاطي بعضه من حيث ملائمته لحالتهم المرضية، بل في كثير من الأحيان كانت تقرأ لهم نشرة الدواء الذي يجلبونه لهم طالبين منها التوضيح عن فاعليته ودواعي الاستعمال، لم تبخل بعلمها حتى على أعدائها، فهي أمينة وناصحة وتؤدي رسالتها الإنسانية بإخلاص.

الصيدلانية عالية في الثلاثينيات من عمرها، سمراء مستديرة الوجه، ملامحها طفولية، وابتسامتها العريضة لا تفارق وجهها حتى وإن دمعت عيناها... تنحدر من عائلة للعلم والدين مكانة خاصة فيها... أخوها طالب كلية الطب في المرحلة الخامسة (حليم)، ولها أخ وأخت قد تخرجا في كلية الادارة والاقتصاد، وأختها الثانية طالبة في المرحلة الثالثة في كلية الهندسة... عائلة كلهم خريجون، أو على وشك التخرج، وعلى مستوى عال من الوعي، يجعلهم حتماً في صفوف معارضة البعث ومناوأة سياساته، فاعتقلوهم كلهم في دوائر أمن أخرى.

كنت أشعر بأن فارقاً كبيراً بيني وبينها في السن ومعرفة أمور الحياة، وكانت دائماً تشير وبحسرة لي بأني ما زلت صغيرة على شراك هؤلاء الجلادين، وكيف هجموا على داري، واختطفوني من أحضان أهلي الدافئة، كانت تشعرني

بالحنان بعد أن سمحوا لي بالمكوث معهن دقائق معدودات بعد ثلاثة أيام وكم دعت عليها بحرقة قائلة: " الله لا يوفقهم حرموج من كليّتج شنو ذنبج؟ " ، تأثرها الأكبر أن أحرم من كلّيتي وتعليمي...

أميرة السعلوّة!! أميرة الشيوعية!!

المرأة الثالثة التي رأيتها في ذلك اليوم... أميرة إمرأة في أواخر العشرين من عمرها سمراء طويلة ممتلئة القوام، شعرها أسود فاحم، وعيناها صغيرتان سوداويتان... أسنانها متراكبة أو بارزة الى الامام، لديها (كشرة) كما يقولون... ترتدي هذه المرأة دشداشة رجالية سمائية اللون، وتلف شعرها بغترة مرقطة (شماغ) دون ستره كاملا ، قذرة الهيئة والملابس، نظرت لها نظرة خاطفة ولم أعرف قصتها، لكنها لاتبدو ممن اعتقلن لأسباب دينية أو سياسية... وعندما أجلسوني مع النساء بعد مضي ثلاثة أيام أشار أبو جواد هازئاً بصوته الأجش المرعب: "ديري بالج من هاي السعلوة " ، وضربها على رأسها محقرّاً... لم أطل النظر لها في الأثناء وأشفقت عليها فهي مهما كانت امرأة مثلي تستحق الإحترام والحرية والكرامة.

كان ينعتها بنعوت عدة، تارة يسميها شيوعية وأخرى كاولية، ونعت (السعلّوّة) فهو دائم ولصيق بها ، حتى عندما زاد عدد النساء المعتقلات كان يميزها من بيننا وهي ترتدي العباءة كعادتنا...

أميرة هذه موظفة في دائرة من دوائر الدولة ، أوأحد المعامل الحكومية ، وكانت تمر من أمام بناية أمن الثورة في ذهابها وإيابها إلى العمل حيث يقف الحراس أمام الباب. . . نشأت بينها وبين أحد منتسبي هذه الدائرة القمعية المدعو (حاتم) علاقة غرام كما يقول لها الحراس هازئين: "شسوه بيك الغرام؟ ".

أميرة لم تكن على درجة كافية من الجمال ليقع في غرامها... لكنني أعتقد أن المكياج والسفور والتبرج وقلة الحياء عوامل كفيلة بقيام هكذا علاقات ماجنة... أما عشيقها فهو كما تصفه جميل جدا أشقر وسيم طويل ولطالما بكته بحرقة... تواعدا ذات يوم وخرجا إلى بستان على حدود بغداد منطقة (التاجي) وهناك قُتل.

كانت تحدثنا متحّسرة: كنا في سيارته والأغاني تصدح من المسجل وتطربنا، ونحن في أحلى ساعات العمر... كنا في عالم آخر ولم نصحُ منه إلا عندما جاءت مجموعة من الرجال الملثمين، وفتحوا باب السيارة علينا، وسألوه عن اسمه: أنت حاتم؟! فأجاب مذهولا: نعم... فقتلوه من فورهم رمياً بالرصاص وقال أحدهم مخاطبا إياه: "شسويت بينا من وراك انعدم أخويه!!"... أما هي فقد كمّ أحدهم فمها بيده، وأسمعها كلمات مهينة ناعتها بقليلة الأدب والحياء وأنها سافلة وساقطة وما إلى ذلك... وأخذوها معهم بسيارتهم... تقول: لم أتعرف على أيٍ منهم فهم ملثمون وأخذوا مني سواراتي الذهبية... ثم أنزلوني من السيارة بعد أن أعطوني خمسة دنانير وقالوا لي: "كَبل للبيت... وجوزي من هذه السوالف التعبانه"... وتابعت: لم أصدق ماحدث فعدت إلى البيت مساءاً وأنا أرتجف، لم آكل ولم أشرب ولم أنم وكنت أبكي للمنظر الذي شاهدته فقد قتلوه أمامي.

ولما وجد حاتم مقتولاً أول من توجهت له أصابع الاتهام هي أميرة، فتم اعتقالها واتهمت بأنها هي من وشت به لدى هؤلاء الملثمين... وذاقت ماذاقت من التعذيب، يطلبون منها الاعتراف حتى أن أظافر يديها ورجليها قد قلعوها... ومارسوا معها الترغيب والترهيب وشتى الأساليب، لكنها صادقة فهي حقاً لم تعرفهم وتمنت لو عرفتهم لنجت من كل مالقيته على أيديهم.

أميرة كانت معتقلة قبلي بأربعين يوما، ومازالت آثار التعذيب على جسدها، أما حكاية الدشداشة الرجالية التي تلبسها، وتتعثر في خطواتها بسبب طولها وكبر

قياسها، فإن (أبو جواد) طلب منهم أن يعطوها (دشداشة رجالية وشماغ) ترتديها فوق ملابسها الضيقة التي تبرز معالم جسدها الممتلئ وقد تمزق بعضا منها أثناء تعذيبهم الوحشي لها، كانت ملابسها سوداء حداداً على حبيبها!... وكم ناقشتها البنات بأنها قليلة ذوق وعديمة إحساس، إذ كيف ترتبط بأحد أزلام صدام، هذا الظالم الذي فعل مافعل بالعراقيين من حرب ودمار وسجون، لكنها تجيب بأسى وحسرة: ماأدراني؟ كان (حبيبي) يبدو كملاك وديع... كنت أتفهم سيطرة غرائزها على عقلها، فمثلها لا تحلم مجرد حلم أن يغازلها مثله كما وصفته... هي لاتتسلح بأي مبدأ فكيف تنظر بعين غير العين المجردة التي لاتعكس الواقع الحقيقي للمرء.

ظلت معنا أشهرعديدة، وعاشت قصصنا جميعها، ورأت بأم عينيها ماتقترف أيدي هؤلاء الجلادين في كل ساعة وفي كل لحظة... تعاطفت مع قضايانا، ولكنها لم تستوعب إصرارنا على تحمل التعذيب، وعدم البوح بما يريدونه منا والاعتراف على المؤمنين والمؤمنات!!

كانت رؤيتها ضيقة وآمالها مختلفة عنا، فطيلة مدة بقائها معنا كانت تحلم بالعودة إلى دارها، وأن ترتدي ثيابها الجميلة، وتضع عطورها الغالية، وتجمل وجهها بأنواع المكياج... وجهها الذي يفتقر لصفات الجمال.

هي عاشت محنتنا مجبرة، ولكنها لم تشي بنا لدى الجلادين، وقد حاول معها أبو جواد لكنها لم تفعل... وهي قد رأت بأم عينيها أننا خيرة فتيات العراق ومن خيرة عوائله... استمعت إلى قصصنا التي صارت تهما عذبونا عليها ولم تكن سوى العلم والايمان ورفض البعث فكراً ومبدءا... كانت مذهولة مما يجري وتساؤلات عديدة تلّح عليها وهي ترى مئات الشباب يوميا يساقون لهذا المبنى ويصب عليهم أنواع العذابات التي يتفنن بها هؤلاء الجلادون المتعطشون للدماء، فهي تعرفت عن كثب خفايا عمل عشيقها الذي بدا لها يوما ملاكا وديعا!!

شاركناها (الدشداشة) أوالاثنتين التي أعطتنا إياها أم علي (انتصار ستار)

غياراً لملابسنا البالية عند الغسل، وأعطاها الحارس عباءة ففرحت بها، فهي تريد التخفي من أبي جواد الذي يضربها كلما رآها ناعتاً إياها بـ (السعلوّه) وموبخاً إياها بأقذر الألفاظ لأنها كانت سبباً في قتل حاتم، والذي كما يصفه: "طير من ذهب ويسوى راسها وراس الخلفوها".

أجلسوننا تحت السلّم، وقد فرشت الأرض بقطع كارتون وبطانيات بالية لنتغطى بها، تفوح منها رائحة عفنة، داكنة اللون عرفت أنها توزع للجنود في معسكرات الجيش، خشنة الملمس فاقدة لأي وبر من شدة قدمها، والقمل يدب في نسيجها دبيباً... الطقس بارد جداً لابد من اتقائه بها مهما تكن قذرة وفاقدة لمواصفات الدثار...

تبددت بعض مخاوفي وأنا أجالس هؤلاء النسوة، رغم أن الكلام ممنوع أمامهم من ضمن قائمة طويلة من الممنوعات، لكننا كنا نختلس لحظات غيابهم متهامسين ببعض الكلمات... بقيت لا أعرف سبب اعتقالي، فتارة أُؤمل نفسي بفرج قريب، وأخرى يغلبني اليأس منه، فالظالم لا يرحم، وكثرة الصغار والشباب من المعتقلين تجعلني رقماً مهماً في قائمة هولاء، على الأقل أنا في نظرهم فتاة جامعية...

كريمة ليست كريمة

في اليوم الرابع جاءت امرأة أخرى ترتدي اللون الأسود... تنورة قصيرة وبلوز وسترة وتلف راسها ب (شال شفاف أشبة بالفوطة) أسود مزركش، وزوج من الجوارب أسود شفاف... قدّرت عمرها في نهاية العقد الثالث... شفتاها داكنة اللون كأنها من المدخنين... ووجهها متعب وخالٍ من البراءة، هي لاتشبه صديقاتي ولا تشبه عاليه وبتول وحتى أميرة كان وجهها بريئا.

اقتربت مني أكثر من الباقيات وكانوا يسمحون لها بالحديث معي... سألتني عن كل تفاصيل حياتي أبي أمي إخوتي صغاراً وكباراً مدرستي كليتي... كانت لبقة وكلماتها ناعمة وتتصنع الحنان معي وتتعمد أن تبدو حريصة عليّ...

لم أرتب منها اطلاقاً، وجدت فيها ملجأً أهرب إليه من أفكاري المتلاطمة في رأسي، وبالحديث معها تتبدد مخاوفي التي ما انفكت توجف قلبي، حدثتني بإسهاب بأنها من عائلة مجاهدة وعائلة معارضة، وإن رجال الأمن يضايقونهم، وأن لهم علاقة بالمراجع الدينية وعلماء الدين وتذكرأسماءهم ولم أعرفهم، شعرت للحظة أنها تكذب عليّ، لكنني لم أتيقن ذلك لقلة تجربتي في الحياة، وربما لأني لم أكذب فصعب علي أن لا أصدق الآخرين... فما التجربة التي تملكها فتاة صغيرة قضت اثني عشر عاماً من عمرها في صفوف الدراسة، وتربت في عائلة محافظة لم تجرؤ على الخروج لوحدها حتى الى دكان قريب، فقد كان أخوتي الذكور هم من يتبضعون... لكنني لمحت أظافر يديها ورجليها قد طلتها بطلاء الأظافر الأحمر!! فسألتها على الفور: إذا كنت كما تقولين من عائلة متدينة فلماذا حجابك غير كامل؟ ولماذا تضعين طلاء أظافر؟؟

فأجابت بارتباك: كنا مدعوين لحفلة عرس، وبعدها مباشرة اعتقلوني ولم أستطع إزالته، قالت إنّ اسمها (كريمة جبر زغير)، وهو اسم أظنه غير حقيقي... في كل يوم يرسل عليها أبو جواد، وتغيب عنا لساعة، أو نصف ساعة ثم تعود وليس عليها أي أثر من تعذيب... كانت من الوشاة، وربما ساومها أبو جواد بأنّ خلاصها من المعتقل يكمن في جلب معلومات تدينني، كانت تلّحّ عليّ بالأسئلة وتسأل عن أمور سياسية، وأكثر من مرة سألتني: شنو رأيك بحزب الدعوة؟؟ كنت أجيبها: لا أعرفه إطلاقاً... وسألتني حتى عن أصدقاء أخي: هل يزورونا، وأجيبها: كلهم معتقلون، لم يطرق بابنا أحد بعده...

كدت للحظة أن أبوح لها بكتابة أخي للمنشورات ومساعدتي له بذلك لوضوح خطي، وكيف كان يعدُّها بطريقة الكتابة اليدوية بورق الكربون، ويأخذها

مع رفاقه ليلاً، ويوزعونها في أزقة بغداد لفضح النظام وجرائمه بحق أبناء العراق، وأخرى هادفة توعوية توضح أهمية العمل لله تعالى، والدعوة اليه ومقارعة الظلم، ووجوبها على كل مسلم، من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... اللطف الالهي يحيط بي، وهو من منعني من التحدث بهذا فكلمة (منشور) تعني تنظيم حزب الدعوة وتعني الحكم بالإعدام، أو على الأقل الحكم المؤبد في قاموس حزب البعث بعد وابل من التعذيب والترهيب الذي لايطيقه بشر.

اللطف الالهي منعني من إخبارها عن إنتظاري لأخي ساعات طويلة من الليل بين دعاء وصلاة وابتهال لله سبحانه أن يعود سالما بعد أن اكملنا أنا وإياه كتابة عشرات من المنشورات وحملها ليوزعها وبعض رفاقه في حي المهندسين... كان يحدثني باسما: المهندسون أولى بحي المهندسين... ولم أبح لها كيف كنا ننسخها بورق الكاربون ومجموعة الأقلام والأوراق التي أخفيناها بعد إعتقاله... نعم لطفه طوقني وحماني من حيث لا أحتسب.

ظلت كريمة التي دسّوها بيننا تلازمني، وكأنها تستعجل إدانتي بأي تهمة مادام خلاصها مقترناً بسجني، فتحولت بنظري إلى علامة استفهام كبيرة، أو صياد يلفّ ويدور من أجل إدخال فريسته في شركه... وما انفكت تستجوبني بنعومة وحنان بأسئلتها الكثيرة المملة، وكانوا يسمحون لها فقط بالكلام معي، لكني لم ألتفت لذلك...

وبدأت محنة التحقيق...

في اليوم الخامس مساءاً والمعتقلون يذهبون إلى المرحاض واحداً تلو الآخر، يمرون من أمامنا لأننا نجلس تحت السلالم، لمحت أخي جلال كان يغسل يديه المكبلتين ب (الكلبشة) في المغسلة المحاذية للمرحاض، وقد رفع

العصابة عن عينيه، وجال بنظرة خاطفة للحظات باحثاً عني بين النساء... فتحت عباءتي له ليراني وقلت: هذا جلال أخي... كانت رؤيته إياي في المعتقل صدمة كبيرة بالنسبة إليه، كأي شاب غيور ومتدين يرى أخته بهذا المكان، ويعلم أخلاقيات القوم وأساليبهم الدنيئة في انتزاع المعلومات، شعرت لحظتها قد تضاعف همه ومصيبته بوجودي.

كان وجهه شاحباً ومتعباً كمن لم يذق النوم، عيناه متورمتان، ويبدو أنه قد نال قسطاً وفيراً من التعذيب، كانت نظرة فقط ثم رجع إلى مكانه في معتقل الرجال، أما كريمة فبادرت بفرح قائلة: أخوك أشار لك بعدم الكلام لماذا أشرّ بذلك؟؟ كنت أبكي ودموعي تتساقط كالمطر فلم أتخيل أني سأجد جلال بهذه الحال... جلال الذي يشع حيوية ونشاطاً فهو منذ طفولته مشاكساً ولا ينام في النهار الا نادرا، ويدأب على ممارسة لعبة كرة القدم مع رفاق له في حيّنا، وشتى لعب الصغار كالطيّارة الورقية والمصيادة... جلال الذي طالما درّسته دروسه ليحقق درجة النجاح لأنه لايحب الدراسة شأنه شأن أكثر الصبيان لانشغالهم باللعب... جلال الذي حمل مسؤولية البيت بعد جمال فهو مرسالنا إلى الأسواق والمكتبات...

بعد رؤيتي لأخي في تلك الساعة، أرادت كريمة أن تضع خاتمة لدورها الذي أوكلت به، فوشت بي عند (أبي جواد) بأن جلال طلب مني عدم الكلام... رأيته بعد المغرب بقليل، وأرسلوا عليّ بعد ساعة أو ساعتين...

عند دخولي إلى غرفة المحقق استلمني أبو جواد من الحارس المرافق، وطلب منه الذهاب، وهو الذي أدخلني وأنفاسه تتردد بلهاث دائم لأنه يعاني من ربو أو شيء كهذا، علاوة على ضخامة جسده الذي كان يعيق نفسه، بدا ذليلا وكأنه ينفذ أوامر فراس ويخشى غضبه.

فتح الباب ودخلت... استقبلني فراس بالترحيب المتصنع، طلب مني الجلوس على ذلك الكرسي القريب لمكتبه... كان جالساً خلف طاولة عليها بعض

أوراق وعدة مكتبية متواضعة، حافظة أوراق وحافظة أقلام، والمكتب متواضع هو الآخر، فهو من الحديد الرمادي اللون وسطحهُ أخضر زيتوني، وفراس يرتدي زيه الزيتوني المعتاد، وأمام المكتب يوجد كرسي متواضع، تعلوه على الجدار صورة لصدام حسين، دارت عيناي في المكتب وأنا صامتة متوجفة خيفةً، ألف فكرة في لحظتها اضطربت في رأسي، مالذي سيحدث؟ ماالذي سأسأل؟ مالذي سأجيب؟ وما الذي ينتظرني؟؟؟

تساؤلات عديدة ومتتالية انقطع تسلسلها بسؤاله عنّي: "اسمج؟ عمرج؟وين تداومين"؟

اسئلة روتينية لكنه أكد على عدم دوامي يوم اعتقالي، وأجبته بنفس جوابي للضابط الذي اعتقلني بأن يوم الأربعاء يوم استراحة لطلبة العلوم قسم الكيمياء... وهو الآخر لم يصدق وقال بسرعة: بل قولي إنك مطلوبة من أمن الكلية وهربت من الدوام!!

كأنهم جميعاً هو ومن اعتقلني ومديرهم متفقون على نفس الرؤية... وفي هذه اللحظات ريقي قد جف تماماً، جفافاً لم أشهده حتى في صيامي لشهر رمضان أيام تموز لأول مرة بدء تكليفي.

قلت له: أريد ماءاً... فجاءوا لي بقدح ماء شربتُ بعضاً منه...

وكان فراس يتصنع الهدوء غير أن عينيه تتطايران شرراً، فهو ينتظر بفارغ الصبر أن تنتهي التمثيلية ليعود إلى وضعه المعتاد وشراسته الواقعية.

قال: "اي عطور احجي لنا منو تحرّك عليج بالكلية"؟

كانت عيناي ترقبان جهاز التلفزيون، وهو يبث أحد أناشيد حرب القادسية، وصوت التلفاز كان منخفضاً، وقتها شرد فكري، لأتذكر كلمات هذه الانشودة التي كانت يومياً تبث وتذاع بعشرات المرات، فعلت ذلك كنوع من الهروب من هذا الواقع، وتجنبت النظر إلى وجهه القبيح النحيف...

أجبته: لا لم يحصل هذا ولا أفهم ماذا تعني بالتحرك.

قال: " جماعة حزب الدعوة العميل طلاب طالبات ماتصلوا بيج؟ ماكلفوج بعمل"؟ هنا تصاعدت نبرته حدةً وقباحة أضفاها صوته المزعج.

أجبته: لا... ابدا... لم يحصل هذا...

قال: "عجل يابا ليش أخوج جلال يكلج لاتحجين؟"

قلت له: "جلال؟ وين شايفه جلال صارله تسعتيام من أخذوه الأمن..."

اكتشفت لحظتها دور كريمة الخائنة وعلمت ما أوقعتني به نيتي السليمة تجاهها، ولكن بعد فوات الأوان... فلم أتمكن من رسم صورة مغايرة لواقعي أمامها كي تنقلها لهم.

صاح فراس مهدداً: "شوفي... جلال طلب منج متحجين شنو هذا اللي متحجيه جاوبي بالعجل"...

بدأت أبكي قائلة: والله لا أعرف ماتقصده.

قال: "ملازم... لاتبجين،عبد الحسن تعرفيه؟"

قلت له: نعم هو جارنا...

قال: "هم زين اعترفتي".

قال: و (ع. أ)تعرفيه؟

قلت: لا... أعرفه...

قال: أبو (ع) متعرفيه؟

قلت: لا أبداً ما أعرفه...

فطلب من الحرس إحضار (ع.أ) فجاؤوا به، وهو شاب حليق الرأس مربوع القامة، عيناه معصوبتان بعصابة شأنه شأن كل المعتقلين، ويداه مكبلتان

بالكلبشة، وجهه شاحب ومتعب جداً يجر قدميه الحافيتين جراً، فقد بدا عليه عناء وآثار مانال من التعذيب...

سأله أمامي: تعرف عطور؟

أجاب (ع.أ): على الفور كمن لقن أو وجهت له أوامر مسبقة: نعم وأرسلت زوجتي عليها كي تكسبها لتعمل معنا... نزلت كلماته كالصاعقة عليّ، وجهت نظري إليه، لم أدرك خطورة مايقول لحظتها...

قال له فراس مقهقهاً باستهزاء: "مادا تعرفك ياول اشرحلها منو انت"

أجاب بصوت هادئ ومتزن ذكّرني بصوت أخي جمال:

أنا الصيدلاني (ع أ)، عرفت لحظتها أنه صديق أخي جمال، ويسكن في حيّنا، لكني لم أره قبل اليوم، فأصدقاء أخي عندما يأتوننا طارقين الباب لايقفون أمام الباب، بل يتنحون جانباً نسمع فقط صوتهم يسألون عن جمال، وهذه عادة الشباب المتدين، فهم يغضون أبصارهم، أدبا واحتراماً لحرمة أهل الدار.

وتذكرت وقتها زوجته التي زارتنا في نفس العطلة الصيفية التي نجحت فيها من الإعدادية، لكنها أخفت اسمها الحقيقي،قالت: أنا فائزة وابنتي اسمها مفاز، كانت محجبة ترتدي الجبة، وعباءة فوقها، لم أعرف مغزى زيارتها، غيرأنها أشارت إلى أنها تتفقدنا وتحدثت: أن على المؤمنين أن يتزاوروا وأن يتواصلوا مع بعضهم ويتفقد بعضهم أحوال بعض،وأدخلناها لأننا عرفنا أنها من قبل (ع.أ)، وليس لأنها زوجته لأنها لم تعلن عن ذلك.

زارتنا زيارة أو اثنتين لا أذكر بالضبط، لكنها وعدت بزيارات متواصلة ولم يحدث هذا... تفقدت شؤون أختي خالدة زوجة محسن الذي كان من أصدقاء عبد الحسن، وكذلك شؤون طفلتها نقاء، وأشارت إلى ابنتها أكبر من نقاء بشهرين أو ثلاث، وأكدت أن اسمها مفاز!!نعم ألحت بتكرار الاسم وكأنها تتوقع مساءلة من قبل أزلام البعث عنها وحتما بيتنا مراقب...

صاح فراس بصوته المنكر: حرس، فجاء الحرس مسرعاً وأخذ له تحية، رجّعوه للموقف... مشيراً إلى (ع.أ)، والتفت نحوي وبلهجة هادئة، إلا أنها لا تخلو من تهديد ووعيد: "ها تگولين آني ما أجذب... سمعتيه اعترف عليج ودتشوفين إخلاصج مابيه أي معنى فأعترفي أحسنلج".

قلت: "يمكن هو صديق أخويه جمال"

قال: "أي وبعد..."

قلت: "اني ماشايفته بس سامعه بإسمه".

صاح بلهجة الآمر: "مرته وينها دندور عليها وهي ماكو".

أجبته: "والله ما أعرف بيها".

قال سائماً ومزمجراً وتغيرت أساريره إلى وحش كاسر: "ياول أنت مايفيد وياج العيني والأغاتي... أخذوها"... ضرب المنضدة بقبضة يده، ونهض وكأنه أنهى مهمته... سحبني أبو جواد ومعه الحرس، وأنا أرتجف وأبكي وأصرخ باختناق: لم أفعل شيئاً ولا أعرف شيئاً...

في غرفة التعذيب

لا أذكر كيف وصلت إلى غرفة التعذيب، فقد خارت قواي، ولم تقو قدماي على حمل جسدي، لكنني وجدت نفسي في غرفة التعذيب، وكأني في غيبوبة، ووجدت حولي أبا جواد واثنين من الحرس محمد الأسود وسالم البدوي... كانت يداي مكبلتان (بالكلبجة)، وبالكاد أستطيع مسك عباءتي فتشبثت بها وأنا أرتجف.

فصاح أبو جواد: "ولك نزعها عبايتها..."

سحبت عني عباءتي بسرعة، وبقيت بدشداشتي الطويلة وفوقها بلوزتي ذات الرقبة الطويلة فوقها وربطتي وجواربي الطويلة وشحاطتي... يا إلهي أدركني!! فمن لي غيرك وأنا وسط وحوش لاترحم!!

صاح ثانية بصوته الأجش: "ولك شد عينها"... شدّوا عيني بخرقة ما، فلقد كانت قطع ملابس المعتقلين متناثرة، وبالإمكان إعداد خرقة بثوان منها.

قبل أن يشد عيني جال نظري بأرجاء غرفة التعذيب، فوجدتُ منضدة خشبية غير متقنة الصنع، كأنها ألواح خشبية دقت بها مسامير لتصبح منضدة يصعد عليها المعتقل ليعلق بالكلاب الحديدي المثبت أعلى السقف قد تلطخت أخشابها بالدماء، وبدت كأنها قديمة وقد ذابت أشواكها وصقلت من كثرة مامرت عليها الأجساد المعذبة... وعليها حزامان جلديان في نهاية كل منهما حلقة حديدية، وثقوب في الجانب الآخر وهما ما يكبّلان به يد المعتقل للتعليق.

عصبت عيني وفتحت الكلبشة من يديَ لتوثقان إلى خلف ظهري، وأبو جواد يرعبني بصوته مهدداً: "هسه تشوفين شلون راح تحجين بومه غبره ماتفتهمين... وماتعرفين مصلحتج... يطبج مرض"

أما أنا فلم أردد سوى الذكر والدعاء، لقد كنت في عالم آخر أتوسل به سبحانه أن لايخذلني، فأنا ضعيفة أمامهم وهو سندي، كنت أناديه بحرقة: يارب يا الهي... وأرددها: يا الهي... يارب... واستحضرت سيداتي الزهراء والحوراء وأم البنين، أحسست حينها حق المرأة على المرأة: سيدتي يا زهراء، منك تعلمنا وعلى دربك سرنا فلا تتركينا.

وضعوا لي كرسي أو طبلة أو تخته لم أرها، بل تحسستها لتساعدني لصعود المنضدة، وساعدوني بذلك، وصعد أحدهم معي ليعلق الحزامين الذين شدا بيدي بالكلاب المعلق بالسقف، وأنا واقفة على المنضدة أحسست بيدي تخلعان فصحت: "آخ آخ..."

صاح أبو جواد مستهزئاً: "آخ يمه... بعد شفتي عيني... إنزل ولك بالعجل"

منادياً الحارس الذي علق يدي... قفز مسرعا سمعت وقع قدميه على أرض الغرفة.

وبعد ثانية واحدة سحبت المنضدة من تحتي لأعلق في سقف الغرفة وكل ثُقلي يتركز على عضلات كتفَي وزندَي.

شعرتُ بألم فظيع... وصرخات مدوّية صرختها من أعماقي: "يا الهي يا الهي... يمه... الحكيلي راح أموت"... لم أشعر بمثل هذا الألم... ولم أتخيل يوما بأني سأصرخ هكذا... شعور بأذى لا يوصف وألم لا يطاق...

جسدي يلتوي كله ويعتصر ويتركز في منطقة الكتف... أضلاعي تتفرق عن بعضها وتكاد تتكسر... كفاي تكاد تتقطعان، وقدماي تضطربان مثل طائر مذبوح، للحظة شعرت أن ذراعيَ قد انفصلتا عن جسدي من مفصليهما، المرفقان وجعها كالنار المستعرة وألم اشتد علّي جعلني لا أقوى على رفع رأسي، ورقبتي تدلت إلى الأمام بوضع موجع لا يحتمل...

لم يتركوني أتحسس هذا الألم فحسب، بل بدأت العصيّ تنهال عليّ من كل جانب، ضربات مبرحة على ظهري وساقي... أحسست أن عشرة أشخاص يضربوني في نفس الوقت ضربات قوية متتالية... سيلا عرما من الوجع لايوصف وكأنها لحظات الاحتضار.

يرافق ضربهم صوت أبي جواد الأجش: "أحجي وينها مرة ع أ؟"... أصيح بعبرات مختنقة: "ما أدري... والله ما أدري"... ويزيدون ضربهم فينقطع صوتي...

لا أعلم كم استغرق الوقت لكني وجدته دهراً طويلاً، ولم أصدق أني سأنجو وشعرت أن روحي توشك على مفارقة جسدي.

صاح أبو جواد: "ولك خليلها الكهربااااء"... صاح الحارس وين أشكله سيدي؟؟ أراد الوصول الى جسمي لم يستطع بسبب البلوز ذو الرقبة الطويلة الذي سترني منهم.

فقال: "خليها بخشمها"... ربط الحارس قراصة الكهرباء المعدنية بأنفي في منخري الأيمن والقراصة الأخرى في الأصبع الصغير لقدمي اليمنى.

فرفستها كرد فعل عفوي رافض فانقطع السلك، أعادوه مستمرين بالضرب المبرح وأبو جواد يزمجر بالشتم والسباب...

أداروا جهاز التوليد الذي طالما سمعت الأصوات التي تصدر عنه في حفلات التعذيب، لكني لم أعرف ماهيتها إلا الآن... إذن هو صوت مولد التيار الكهربائي، فرُجّوا جسمي برجّات كهربائية صعقتني وصرت أتأرجح يميناً وشمالاً، وأكاد أصطدم بجدار غرفة التعذيب، وكدمات قوية تأتي تباعاً الى رأسي من الصعق الكهربائي، وومضات قوية تشع من عينيّ، ولساني لايقوى على الحراك... بينما فكايّ يصطكان من شدة التيار...

تأرجحتُ حتى أغمي عليّ... أسرعوا لوضع المنضدة تحت قدمي وأطلقوا وثاقي من الكلّاب المثبت في سقف الغرفة، وسكبوا عليّ بعض الماء كي أستفيق...

أفقت ووجدتني أجلس على حافة المنضدة، وهم يحيطون بي أنفاسهم تلهث من تعب الضرب والتعذيب! وأحدهم يفتح قيد يداي وراء ظهري... فتحوا يداي فسقطتا، لم اتمكن من التحكم فيهما ولا أقوى على حملهما.

فقال أبو جواد بنبرة يتصنع فيها أنه نادم على أذيتي: "يابابا مو كلنالج احجي انت عنوديه!..."

أدركت أن عليّ أن أحاورهم، وأن أقنعهم بأني بريئة كي يكفوا عني، فلا طاقة لي بهذا العذاب... طلبت بعض الماء ولما قربوا الإناء مني لم أستطع رفع يديّ... أحدهم سقاني رشفة بللت ريقي.

أجبته بصوتي المرتجف: "عمو آني بحياتي محد ضاربني (راشدي)، معقولة أتحمل كل هذا العذاب وعندي شي ما أگوله... والله ماعندي شي".

قال على عجل: "يلله يلله ودوها يم البنات"... وكأنه قرر أن يلفق لي ما يريد، ويوّقعني عليه مادمت لا أبوح بكلمة...

أبو جواد هذا رغم نذالته وتفانيه بولائه لسادته وتفننه في تعذيب المعتقلين تزلفا لأسياده، كان في قرارة نفسه يعلم أننا خيار الناس وشرفاء العراق، وعندما يمر منا ونحن جالسات تحت السلالم يقول لي هازئاً: "اي علويه تلفلفي بعد أكثر جنج أخت العباس!!".

وحتى عندما كنت معلقة في سقف الغرفة قال الحارس محمد الأسود: سيدي نتفرج عليها... أجابه ناهرا وبعصبية: "انجب ولك"...

لا أبرئه... ولكني أقول أن مستوانا الإجتماعي والأخلاقي واضح للعيان، ففي الوقت الذي يسب ويشتم، لكنه لم يجرؤ على الطعن بالشرف، أو الاتهام بالفواحش كما كان يسمع ذلك ل (أميرة) عشيقة الضابط المقتول...

نزلت بصعوبة من منضدة التعذيب، وأنا أبحث عن عباءتي التي رموها أرضاً، قلت بوهن وقد جف ريقي: عباءتي... ألبسوني إياها... شعرت أن ذراعيّ شلتا وألم كبير يعتصرني،كنت كمن ينازع سكرات الموت... جسمي كله يؤلمني ولا أقوى على السير لكنها خطوات بيني وبين السلالم استجمعت قوتي فيها كي لا أسقط ويحملوني.

ما بعد التعذيب...

وصلت إلى تحت السلم وسقطت أرضاً مغمى عليّ، فأسندتني اليها كريمة باكية ودموعها تنهال على خديها، ندماً على مافعلت بي من الوشاية، وربما حزناً على ماجرى عليّ...

لا أدري كيف استطعت الجلوس على الأرض، فلقد كان جسمي أشبه

بقرحة كبيرة كله يؤلمني... ظهري، ساقاي، أكتافي، أما يداي فلا أقوى على رفعهما لشرب الماء... وأنفي قد نزف دماً من الرجّات الكهربائية، فمسحته كريمة بقطعة قماش مبللة وقالت لي وهي باكية تواسيني: "وجهج أصفر سوده عليّ".

قشرت لي برتقالة وتوسلت لي أن أتناولها... حاولت وبالكاد أكلت جزء صغيرمنها، كنت أشعر أن روحي ستفارق هذا العالم من شدة ما أعاني ومن هول مامررت به، لكنني لم أنس ذكر الله تعالى وشكرته كثيراً... كنت أردد بامتنان: الحمد لله... الحمد لله... حمدته على ستره عليّ، وأنه أعماهم عني، كل التعذيب والألم يهون مادام قد كفاني شرهم، وحفظني من أفعالهم الدنيئة... كنا نسمع ونحن خارج المعتقل عن تعذيب النساء أمام ذويهم والإعتداء عليهن، وهذا أكثر ما يؤرقني طيلة بقائي في تلك الدائرة المشؤومة...

أما وقد انقضى التحقيق بعذاب جسدي ونفسي، فأنا أهنئ نفسي وأشكر ربي وأحتسب دمي وآلامي والضرب والتعذيب الذي نلته منهم بعينه تعالى، كما أحتسب تحملي لكل السباب والكلام البذئ الذي أهانوني به قربة لوجهه الكريم...

حاولت أن أمدد جسدي علّني أغفو لبعض الوقت لم أستطع، ولازمتني حالة غثيان وبدأت أتقيأ... أسرعت بي كريمة إلى الحمام المقابل، فتقيأت بألم حيث كانت تقلصات معدتي تؤلم جسدي بأكمله... وتكررت عملية التقيؤ إلى أن أعطوني حبة دواء أراحتني بعض الشئ وهدأت معدتي ونمت قليلاً...

وفي الصباح ذهبت إلى الحمام، وغسلت وجهي بصعوبة في المغسلة، لازمتني إغماءة أسرعت قبل سقوطي إلى تحت السلم كي أتجنب أن يحملوني، وسقطت عند البنات، سكبوا الماء عليّ فاستنجدت بتول بالحراس وجلب أحدهم عطراً رشّ بعضاً منه حول أنفي... استفقت ووجدت بتول تبكي ومعها كريمة... استبشرت بوجود بتول بقربي وهي تغسل وجهي بقطرات ماء، فقد كان ممنوعاً عليّ التحدث معها، من المؤكد أنهم أمروها بإسعافي شعرت بطمأنينة بقربها مني، وخنقتني عبرتي وتذكرت أمي...

آثار التعذيب غطت جسمي كله وبات لونه أسودا مثل العنب، وتصلبت عضلاتي من شدة الضرب وإحتقان الدم تحت الجلد، لم يسلم من جسدي سوى وجهي وقدماي وكفاي... زنداي مجروحان من ضغط القيد عليهما وثقل جسمي من التعليق... عضلات كتفي تمزقتا ولم أعد أتحكم بيديّ وكأنهما قد شلتا،وكنت أتألم كثيرا كلما أرفع إبريق الماء الى فمي... ولازمتني (دوخه) وغثيان لعدة أيام وإرتفاع في درجة الحرارة...

وحدثتني كريمة قالت: إن كل من في المعتقل كان يبكي عليك... استغاثاتك كانت مؤلمة ومؤثرة... لقد مزّقت قلوبنا... فلم أجبها لأنني لم أعد أثق بها، وكنت أخاف أن أعلق أي تعليق قد يُودي بي إلى التعذيب ثانية... بعد بضع أيام خرجت كريمة وفارقتنا دون أن نعرف قصتها، نعم انتهى دورها وربما راحت تؤدي غيره في معتقل آخر.

شعرت بأني قد صرت جزءاً من شيء كبير... أحسست آنذاك بأني لم أعد فتاة عادية، بل أنا سجينة سياسية، يحسبون لي حسابات لأنني أخيفهم وأمثل المرأة المسلمة المتعلمة... ولو أنني أذعنت لهم ما اعتقلوني... نعم صرت أتحسس باني ندّا لهم وهم لن يطلقوا سراحي ابدا.

وجدتني أنتمي إلى زينب الحوراء يوم ضربها الشمر بسياطه، ووجدت كل المعتقلين أنصاراً للحسين عليه السلام، فهم يعذبون لأنهم رفضوا السير وفق منهج صدام وبعثه الجائر، كما رفض الحسين وأنصاره سياسات يزيد المنحرفة...

أماه يا أماه...

وجه أمي لم يفارقني، ألوذ به وأسلي نفسي المعذبة الغريبة، أستحضر وجهها الحنون لتبعد عني ولو شيئا من تلك الظلمة الحالكة والوحشة القاتلة،

وأحدثها وأطمئنها عليّ... لكن يومها ما تمنيت أن أخرج شفقة بها كي لا تفزع وهي تراني قد اصطبغ جسدي بالسواد من تعذيبهم واحتبس الدم تحت الجلد، ولأول مرة لم أدعوه سبحانه أن أخرج من هذا المعتقل الرهيب لحين التئام جروحي... ناديتها في الوجدان: أماه...

تعزي بعزاء المؤمنين الصابرين، فما جرى على الأمم السابقة يجري علينا، ما دام هذا الخلف لذلك السلف فنحن لا نستشعر الأمان.

ما زال هؤلاء الأحفاد لذلك المسخ (يزيد)... ما زالت الهمجية تنّحي الصالحين عن مواقعهم ومراتبهم التي رتبها الله لهم، لسنا بخير ما دام القهر قائماً... وما زال الظلم ماثلاً... ما زال يتحكم فينا الأدعياء أولاد الأدعياء، الذين شحذوا هممهم لمحاربة ديننا والقضاء على عقيدتنا... ما زال صوت معاوية يهدد: أما والله إلا قتلاً قتلاً... أما والله إلا دفناً دفنا... وما زال صوتهم يصك الأذان ويشق صفوف المسلمين: اقتلوهم ولا تبقوا لأهل هذا البيت باقية.

إصبري أماه فنحن الباقية... نحن المتمسكون بمنهج أهل هذا البيت صلوات الله عليهم... نحن الممسكون بالجمرة، أما كنت ترددين: يأتي زمان على الناس، يكون الماسك فيه على دينه، كالماسك على جمرة نار؟

أماه نحن أهل هذا الزمان... فتحملي أمي هذه الجمرة... أماه ما زال الجرح ينдى... وما زالت فاطمة عليها السلام ترثي أباها... وتندب ابن عمها... تئن لجراحها... وتبكي جنينها... وما زالت تلك الصفعة تؤذيها...

أماه... ما زال جرح ابن أبي طالب ندياً ينزف... والسم يتغلغل في أحشائه... والوجه يزداد إصفراراً... يكتم آلامه... خارت قواه والحرب لم تنتهِ بعد، ولم ينبلج صبح الفتح.

مات علي وأبناء ملجم يسرحون ويمرحون... يأكلون زادنا... ويعضون علينا الأصابع... مهور نسائكم دماؤنا... فماذا يلدون لنا؟ فو الله إن الأرض لتجأر من وقع أقدامهم، وقد لعنهم الله ورسوله والمؤمنون.

أماه...

ما زال أبو محمد المجتبى عليه السلام يلفظ آخر قطعة من كبده والألم يعتصره والسم يمزق أحشائه، والحسين عليه السلام عند رأسه يواري دمعه في عينيه فيرى الحسن عليه السلام منه ذلك فيقول له: لا يوم كيومك يا أبا عبدالله.

أماه...

ما زال الحسين عليه السلام وحيداً في صحراء كربلاء... تكالب عليه الأعداء... يشكو قلة الناصر... يصيح بصوت تحمله الريح على مر العصور: ألا من ناصر ينصرنا... تلفح وجهه الشمس... والعطش يفتّ كبده... وزعيق الأعداء ترتج له الصحراء... يطلبون قتله بعد أن فرغوا من أصحابه وأهله، وأبو عبد الله كالطود الشامخ يعتلي صهوة جواده لا يبالي كثرة الأعداء ولا يهتز له طرف: والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أقر لكم إقرار العبيد... السيف في يمينه... وراية الإصلاح في يساره.

ملأ صوته الطفوف: هيهات منا الذلة... يحث الخطى نحو ساحة الوغى... وترتجف الأرض، وترعد السماء... ليسقي دمه رمضاء كربلاء فينبت الرفض وينمو صرحاً شامخاً يعلو على مر السنين وكرور الدهور.

أماه...

ما زالت زينب تفخر بالحسين عليه السلام شامخة... تمد يداً نحو السماء، وأخرى نحو جسد الحسين عليه السلام، فلم تجد ما تلمسه سوى الرماح والنبال والسهام، وتناجي ربها بصوت مهدج بالعبرات صادح بالكبرياء: اللهم تقبل منا هذا القربان.

أماه...

هم أرادوا للحسين عليه السلام أن تمزق أشلاؤه ويدفن في صحراء كربلاء دون أثر، ولكن الله أبى ذلك، فأبت زينب إلا البيان وإذاعة الأمر، فحملنا الأمانة في أعناقنا وأبينا الا أن نكون زينبيات هذا الزمان...

وقد زادني هذا الشعور قوة وثباتاً، وأحسست بأن الآمي هي حسنات تضاف إلى سجل أعمالي، أنا لم أجرم ولم أرتكب أي شيء يخالف الشريعة أو القانون، سوى التزامي بديني، ورفضي لفكر البعث الجائر، منذ تلك اللحظة حددت موقفي بثبات: سأعارض البعث ما حييت، كيف لا وقد رأيت بأم عيني مارأيت.

ولم أترك ذكر الله وشكرته شكراً متواصلاً، وسألته أن يخفف عن كل المعتقلين بحنانه وكرمه، فنحن عباده ولا جرم لنا سوى عبادته...

عائلة عبد الحسن تحت رحمتهم

أعتقل عبد الحسن صديق أخي جمال وكل عائلته الصغيرة وهم يعبرون آخر نقطة حدودية باتجاه سوريا، علمت بوجودهم عندما رأيت زوجته وبناته يروحون ذهابا وإيابا الى المرحاض (متمتعين) بامتيازات معتقلي هذه الدائرة المشؤومة.

كان على انتصار زوجة عبد الحسن إنجاز عدة مهام في حصتها من وقت الذهاب الى المرحاض: عليها قضاء حاجتها وقضاء حاجة أبنتيها زينب وآلاء، وإفراغ علبة الحليب التي تتبول بها الطفلتان خارج أوقات المرحاض، وغسل حفاظات وقنينة رضاع طفلها الوليد في المغسلة... تفعل كل ذلك بأسرع ما تتمكن تجنباً وتحاشيا من بدء حفلة من حفلات التعذيب، وكم مرة ومرة حدث هذا فينخطف لونها ويكاد يغمى عليها وهي تسمع صرخات المعذبين وتذبذب الهواء من السياط التي تهوي على أجسادهم محدثة صريرا مرعبا... وقهقهات الجلادين وضحكاتهم الشامتة مع وابل من كلامهم البذئ الذي ينضح من آنيتهم القذرة... هنا ترتعد الطفلتان وتمسكان بعباءة أمهما وتتشبثان بها طالبتين أن تحملهما عسى أن ينعما ببعض الأمان، فتحتار في أمرها ودموعها تهطل بصمت... تترك المكان مسرعة لتعود الى موقف اعتقالها في الكراج، أي طفولة عاشها أطفال

المعتقلين!!بقيت زينب وآلاء وعلي سنة وأربعة شهور في أجواء الخوف والرعب.

ما جنس وليدها؟؟ سؤال ألحّ علي وأنا أراها للمرة الأولى في المعتقل وهي تقود طفلتيها الى المرحاض وقد عاد جسمها الى وضعه قبل الحمل...

ظننت للوهلة الأولى أنها أجهضته من هول ما مر بها... لكني وأنا أراها تغسل غيارات وليدها وقنينة رضاعته شكرت الله على سلامتها وسلامة وليدها...

إنه علي الذي طالما حلما به هي ووالده عبد الحسن فرج الذي ينحدر من عائلة من عوائل البصرة فهو على الرغم من إيمانه وكونه داعية ملتزم، غير أن مسألة الولد تعني له الكثير، ولعل هذا أحد اسباب تكرار حملها فالفاصل الزمني بين زينب وآلاء سنة أوأقل، وأما آلاء وعلي فأقل من ذلك...

زوجها عبد الحسن سافر الى سوريا ومنها الى إيران في مهمة جهادية وعاد بعد شهر أو أكثر ليأخذ عائلته ويهاجر من العراق... عند عودته كان عليه أن يصفي أمور بيته ومتعلقاته... الشقة المستأجرة التي يسكنها وأثاثها المتواضع... ديونه وأي أمر يبرئ ذمته، فهو سيغادر الوطن دون عودة الا بعد الخلاص من كابوس البعث الذي جثم على صدور العراقيين.

ولقرب شقتهم من دارنا ساعده أخي جلال في مهامه هذه، نقل أثاثه وساعده في بيع جزء منه، وكيف لا يساعده وهو بقية من أخي جمال، وأحببناه وعائلته وتعاطفنا معهم لأنه أحد رفاق أخي المؤمنين من الثلة الطيبة الذين جمعتهم حسينية العباس وموائد الأفطار التي تقام دوريا في بيتنا وبيوتهم... وهم من وفد البيعة الذي بايعوا الشهيد الصدر... حقا إنهم فتية آمنوا بربهم...

عبد الحسن كان حريصا علينا كحرص أخي جمال وهو من ساعدني في ملء استمارة التقديم الى الجامعات (استمارات القبول المركزي)التي توزع للطلبة الناجحين من الإعدادية، وفيها خيارات التقديم الى الكليات والمعاهد... حيث زارنا بعد أن علم بنجاحي، وشجعني على مواصلة دراستي حين قررت تركها للإحباطات التي شعرتها جراء مضايقات اتحاد الطلبة.

فاغتنمت وجوده لأسأله: وهذه المضايقات البعثية هل سنخلص منها أم ستلاحقنا الى الجامعة... ؟!

ابتسم قائلا: المضايقات البعثية موجودة في كل مكان في المدرسة والجامعة والوظيفة، يعتقد هولاء أن يصيّروا الشعب العراقي بعثياً بالإكراه...

فأجبته وجلة: أذن ما الحل؟... سئمت من اسئلتهم العديدة لمعرفة أسباب عدم انتمائي لحزب البعث وقلت بمرارة: متى يفرّج الله علينا ونخلص من صدام وزمرته...

فقال باسماً: الفرج قريب إن شاء الله متى ما أصلحنا أنفسنا وأبناء بلدنا وتمتم: أن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم... وأمي جالسة معنا تتابع الحديث بقلق ولسان حالها يقول: اتركي كل شيء حتى الدوام والكلية وامكثي في البيت... رأت بأم عينيها ولدها البكر طالب الهندسة كيف صودرت حريته وترك جامعته، سنين الدراسة وتعب العمر وسهر الليالي ذهبت أدراج الرياح.

كلامه قد جدد ثقتي بنفسي وجعلني أقرر عدم الاستسلام، وسأصنع من نفسي نسخا أخرى من الطالبات اللواتي أجد فيهن استعدادا للعمل لله ما دام الفرج مقرونا بتغيير الأنفس وأسلمتها له سبحانه...

وفي نهاية شهر تشرين الثاني 1981جاءنا مع عائلته مودعاً إيانا مستبرئا منا الذمة لأنه سيسافر ويترك الوطن... وبعد أقل من شهر أعتقل جلال ولم يخطر على بالنا أبدا أنه تم الإعتراف عليه... ولم ندرِ أن عبد الحسن اعتقل وعائلته على الحدود العراقية السورية في منطقة طريبيل الحدودية... وظلت عائلتي لاتدري الى أن واجهوني بعد سنوات في سجن الرشاد وقصصت لهم ما جرى...

استخدم عبد الحسن ختما مزورا لتأشيرة الخروج من العراق، وبعد أن أشّر جوازه وجواز زوجته أعطاه لأخي جلال موصيا إياه: بعد مدة من سفري إتلفهُ أواحرقهُ، عندما جاء به جلال الى والدتي أسرعت به إلي مستفهمةُ فأخذته وضغطت على علبة الحبر الإسفنجية المرفقة معه وختمت به ورقة ورقة بيضاء كي

أعرف محتواه فكتابة الأختام تنحت معكوسة لا تقرأ الا بعد طبعها... فظهرت عبارة بلون الحبر البنفسجي الغامق (الى تركيا وجميع الأقطار العربية)...

لم أفهم معناها ولا والدتي أما جلال الفتى اليافع الصغير سأل: هل فيها خطورة أو مشكلة مع الأمن؟!

أجبته بحيرة: والله لاأدري ولكن من ظاهر العبارة ليس فيها أي مشكلة، فهي ليس سباً ولا شتماً ولا حديثا يدعو الى الثورة على صدام... بدت لي حينها أنها ليست من قائمة الممنوعات العديدة التي يعتقلون الناس بسببها...

فسألته: هل أوصاك أن تعطيه لأحد؟ أجاب كلا ولكنه قال احتفظ به لبضع أيام وبعدها اتلفهُ...

وكأن عبد الحسن يريد من جلال الاحتفاظ به لحين التأكد من عبوره الحدود العراقية والخلاص من كابوس البعث... أعدناه الى الكيس البلاستيكي الصغير الذي احتواه يوم استلمه جلال من عبد الحسن وأخفتهُ أمي ولا أدري أين...

وبعد اعتقال جلال شعرت أمي بالخوف فقد يكون دليل إدانة لجلال هذا الفتى البريء الذي تحيرنا حيرة كبيرة عند اعتقاله وكلنا يسأل ما الذي فعله كي يعتقلوه؟وهو مجرد فتى يلعب كرة القدم ويركب دراجته التي يمعن في تزويقها لتبدو أحلى دراجة في المنطقة ويشتري لها منبهات الصوت الغريبة والجذابة كي يضفي عليها تميزا...

أخذت أمي كيس الختم وألقته في تنور الطين وغطته بالحطب، وربما من حسن حظنا إنها لم تخبز به ساعتها والا لكان احترق ولم ننجو منهم يوم جاؤوا لتفتيش البيت باحثين عنه...

نعم اعترف عبد الحسن أنه أعطى الختم المزور الى جلال بعد أن أنهى مهمته منه...

ولولا عثورهم عليه أثناء التفتيش لجرت ويلات أكثر من هذه، ولعذبوا جلال أكثر ظانين أنه أعطاه لبعض المجاهدين ليسهلوا أمر خروجهم من البلاد.

لكنها إرادة الله ولطفه قد جعلتهم يجدونه ويسرعون به الى ضابط التحقيق، وحتى عندما سألني الجلاد أبو جواد عنه أجبته بكل براءة بما جرى يوم جلبه جلال ولم أعرف خطورته وفداحة أمره الا بعد أن ثبت لي تهمة التستر على أخفاء أختام مزوة في أفادتي... فقد غدا الختم الواحد أختاما!! لاعجب فهذا هو البعث وهذا هو أبو جواد الذي يتسابق مع الزمن من أجل اعتقال عددا أكبر وهو يصرخ دائما: "آني اللي يطب يمي مايطلع لو للسجن لو للاعدام"...

هو يكره تبرئة أحد ونادرا ما أطلاق سراح أحد المعتقلين، ويخاف أن يستهدفه أحد المجاهدين إذا تعرفوا عليه من خلال المطلق سراحهم...

يفرح فرحاً شديداً وهو يرى دائرته تضج بالمعتقلين ويعتبر ذلك انجازاً له فهو يظن أنه من جدهِ واجتهاده استطاع القاء القبض على المعارضين للبعث والقائد (الضرورة)...

ويغض الطرف عن الاطفال والأحداث والشيوخ والعجائز والناس البسطاء، ويفخر بأن سجلات دائرته ملأى بأسمائهم ولديه ملفات عديدة تضم الآلاف من صحائف الأعمال (سير ذاتية)...

أبو جواد يرتاح جداً اذا وجد الدائرة مختنقةً بالمعتقلين ويستشيط غضبا عندما يساقون الى السجن أوالاعدام فيدأب على ملئها ثانية، كما أنه دوريا بسبب أو بدون سبب يأخذ عينات منهم الى دوائر أخرى زاعما أنه من اجتهاده في عمله لم تعد الدائرة تسع هذه الأعداد فعليهم أن يعينوه بأيواء بعض منهم...

يفعل كل ذلك ليبرز أمامهم أنه الأفضل، ربما لأنه من مدن الفرات الأوسط... يتملق ويتقرب بكل ذلة لأسياده ومنهم مهدي الدليمي مدير مديرية أمن الثورة... يعلن أبو جواد ولاءه المطلق له وبراءته من مذهبه وحتى دينه أن تطلب الأمر...

ولادة تحت بنادق البعثيين

عندما أعتقلوا عبد الحسن وزوجته الحامل في شهرها التاسع وطفلتيه زينب وآلاء، اقتادوهم الى أمن الثورة، فالقضية قد بدأت فيها والإعتراف قد صدر منها والمعلومات قد أرسلت فورا الى جميع نقاط الحدود.

وبعد يوم واحد شعرت زوجته انتصار بالطلق، وتمنت الموت لحظتها وهي تعاني الصدمة الكبيرة... هي وصغارها في قبضة أزلام البعث العتاة، وياليتها بقيت في بيت أهلها ولم تطع زوجها يوم وعدها بالحياة الآمنة بمجرد عبورهم الحدود، حيث ترفل بألامن والاطمئنان، وأنهم سيربّوا أبناءهم وينشئوهم نشأة صالحة بعيداً عن البعث وأفكاره الهدامة التي ينشئ عليها أطفال العراق من الروضة وحتى الكلية... تأمل أن لا ينطق أطفاله عبارة "بابا صدام" تلك العبارة التي فرضت على أطفال العراق ومن لحظة دخولهم المؤسسة التعليمية.

ألقوا القبض عليهم في آخر نقطة حدودية، فمن أربع نقاط اجتازوا ثلاثاً وبقيت واحدة كانت هي الفيصل، حيث وصلت المعلومات الأمنية لحظتها ليحقق أبو جواد (إنجازاً) جديداً في خدمة أسياده!!

أخذوها الى مستشفى الولادة مكبلة اليدين ولم يراعوا آلام الوضع الشديدة التي تعاني منها... وأنى لها الهرب وهي لا تقوى على المشي من ثقل الحمل ونوبات المخاض، ولكنهم خائفون منا نساءا ورجالا، هم يجدون في هذه المرأة الضعيفة الواهنة وصغارها عدواً مهاب الجانب ومعارضا ذا بأسٍ شديد!!

تم اعتقالها يوم 10/ 11/ 1981 وفي اليوم التالي أحست بآلام الولادة... عندما أخذوها الى المستشفى لم تجد من تؤمن لديه طفلتيها الصغيرتين وهما تبكيان مع بكاء أمهما، ولم يستطع أحد من الحراس أو الضباط إسكاتهما بكل مايملكون من رعب وسطوة، كانتا لاتعرفان بعد في أي مكان موحش هما، ولا

تعيان معنى لأي ممنوع عنها، التصقتا بأمهما التي ما فارقتهما يوما...

انتصار تعاني وتتألم وجنينها أصّر على رؤية النور في يوم 11/ 11/ 1981... أخذت الطفلتين معها في سيارة يقودها أحدهم ويحرسها اثنان من الجلادين الى مستشفى العلوية للولادة... في المستشفى أدركت الممرضة أن الأمر ليس طبيعياً اطلاقاً فهي أول مرة ترى أمرأة في حالة الطلق تكبل يدها إلى السرير!!.

همست في أذن انتصار ما الأمر؟ ومن هولاء؟... استغلت انشغال الحارسان بتسكيت الطفلتين اللتين تصرخان وتنحبان وبحّ صوتهما من العويل فهما لا تطيقان الإبتعاد عن أمهما، أجابتها انتصار وباختصار وبسرعة: أنا معتقلة في الأمن وزوجي هناك تحت التعذيب، اعتقلونا ونحن على حدود العراق وسوريا...

فهمت الممرضة على الفور وهي ممرضة نصرانية فربتت على كتفها قائلة: أنا معك ولا تهتمي أبدا سأعتني بك وبهما... رقّت لحالها وتعاطفت معها... وأنى للبيب وحليم لا يتفطر قلبه على رؤية إمرأة وحيدة أسيرة لدى الجلادين وهي في وضع كهذا... أدخلوها في غرفة خاصة وأوثقوا إحدى يديها الى السرير... زينب وآلاء لم تسكتا ولم تهدآ الا عندما أجلستهما الممرضة على سرير مجاور وجلست معهم تراقب وضع الأم وتهدأ الطفلتين وقد جلبت لهما بعض الحلوى...

وبين الحين والآخر تصرخ إنتصار من آلام الطلق فتصرخ طفلتاها معها، وحاولت جاهدة الا يعلو صوتها ألا أذا أعيتها الحيلة وفقدت صبرها... لم تُمنع أي امرأة في العالم ومنذ خلق الخليقة من التعبير عن آلام الولادة إلا انتصار التي ساقتها الأقدار لتكون تحت رحمة هؤلاء الجلادين!!

بعد مخاض عسير غمرته حسرات الخوف من مستقبل مجهول، وسيطرت عليه أشباح الرعب والتعذيب، ولد الصبي المنتظر علي... قد اتفق الزوجان مذ

حملت إن كان ذكرا فسوف يسمونه علياً... علي الذي ما خطر على بال أمه يوماً أنها ستلده وهي محاطة بحارسين مسلحين يوجهان بنادقهم نحوها... وهي تعجز عن احتضانه وحمله كأي أم لأن يدها مكبلة الى السرير... وحيدة هي لا زوج ولا أهل ولا أحباب... نعم تمنت الموت على رفقة اللئام.

ألبسوه من الملابس التي هيأتها له منذ أشهر وأخذتها معها في حقيبة سفرها فقد تحسبت للغربة التي تنتظرها خارج الوطن ولم تتوقع أنها ستتغرب في وطنها...

ياوطناً اغترب فيه الشرفاء...

وغدا مرتعاً للوحوش...

مابالك ياوطني تنهش أبناءك الضباع...

ما الذي كتب فيك على الشرفاء؟!

أيعقل مايحدث...

ما الذي يخيفهم في إمرأة عزلاء...

حملت حملها وهنا على وهن؟!

يكبلونها وهي تصارع المخاض!!

حقا إنهم جبناء يجتمعون مسلحين قلقين أكثر من ضحاياهم...

بعد يوم واحد فقط اقتادوها الى أمن الثورة والناس تنظر اليها وهي تنوء بحمل وليدها... الجو بارد جدا... حرصت على المولود فجعلته تحت عباءتها وطفلتاها تحيطان بها خائفتان من الجلادين تتعثران بخطواتهما الصغيرة... مضوا جميعا ليقضوا أربعة عشر شهراً في أسوأ ظروف عاشها طفل في العالم... حرموا من الحليب ومن اللعب ومن كل مستلزمات الأطفال، بل حرموا حتى البوح بطفولتهم فليس مسموحا أبدا أن تصدر منهم ضحكة أو ضجة أو أي صوت وإن

كان غير إراديا، فكيف بالبكاء ومهما كان السبب، على أمهم أن تكمم أفواههم كي لاتتعرض للإهانات والسباب بأقدح الألفاظ...

أبريق الماء الساخن لعمل رضعات وليدها علي منّة كبيرة يمنها عليها الحارس... الطفل يصرخ وحليب أمه قد جف تماماً من هول ما جرى عليها... وانتصار تلح عليهم إلحاحاً كبيراً وبتوسل كي يجلبوا لها علبة حليب، هم لايريدوا لهذا الطفل أن يعيش... وما همهم إن مات جوعاً ما دام إبنا لمعارض ومعادٍ للحزب والثورة كما يقولون... ها هي حرائر العراق وها هم أطفال العراق يرفلون برعاية (قائد) العروبة الذي انسلخ من أدنى صفاتها... فأي عربي فعله مع هذه المرأة وأطفالها!!... فأذا كان زوجها قد عارض وارتكب ما يخالف حكمه فما الذي جنت هي؟ ماذا جنى صغارها؟... ما ذنبهم ليحرموا من أبسط مقومات الحياة؟ مأساة انتصار ليست الوحيدة، بل هي واحدة من آلاف المأسي التي أخفتها جدران دوائر الأمن العديدة التي انتشرت في كل حي وصارت مقبرة لأحياء قد لايفصلهم عن بيوتهم أهليهم سوى زقاق واحد!!

انتصار وصغارها اعتقلوهم وأودعوهم في كراج خارج المبنى... الكراج يسع لسيارة واحدة، عند قدومهم فرش بالكارتون وأكياس الرز الفارغة وبعض البطانيات البالية لتأوي اليه هذه الأم الشابة وصغارها وهم محرومين من كل مظهر من مظاهر الحياة ومتطلباتها... وكم فرحت يوم جاؤوا بسيدة مع طفلها لتشاركها المكان التعيس هذا... لم تفرح لأعتقالهما بل لأنهما سيردان عليها وعلى صغارها الوحشة... وحشة وجودهم وسط الذئاب الكاسرة.

إنها السيدة آمنة أم جمال مع ولدها أحمد الطفل ابن العشرة أعوام... أم جمال أعتقل ابنها رياض وهو طالب في السادس الإعدادي مع مجموعة من الطلبة من مدرستهم الاعدادية... وظل بيتها مراقبا... حتى أعتقلت مع ولديها جمال وأحمد...

وبعدها إقتادوا اليهم سيدة أخرى هي (نصرة عبدكه) من أهالي الخالص

فلاحة بسيطة في مقتبل العمر، لم يمض عام واحد على زواجها حامل بطفلها البكر في شهرها السابع، وزوجها شاب مؤمن انضم الى صفوف المجاهدين، وكعادة الفلاحين كان مسلحا تحسبا لما يطرأ في بيئته، ولكن النظام القمعي الذي تسلط على الرقاب منع كل سلاح واعتبره موجها ضده... وعندما اعتقلوه في قضية (جيزان الجول)، أسرعت زوجته وأخفت قطعة السلاح الذي يمتلكها في بيته... أخفتها تحت كومة الحطب في البستان حيث يقع بيتهم في محافظة ديالى قضاء الخالص، المدينة الطيبة التي قدمت خيرة الشباب المؤمن الرافض للبعث وأساليبه الهدامة والمحافظ على أصالته وكرامته...

عذّبوا زوجها الشاب حبيب صالح مهدي أيّما تعذيب وهم يستنطقونه عن حيازته لأي سلاح، فاعترف تحت زفرات الموت الزؤام الذي يصب على المعارضين في هذه الدائرة المقيتة: لدّي بندقية في البيت...

أخذوا منه العنوان وأسرعوا الى الدار هاجمين عليها، قالبين عاليها سافلها باحثين عن البندقية، ونصره ترتجف وتتمتم بأنواع الدعاء خائفة وجلة منهم فهم كالوحوش وهي شابة وحيدة... أخافها هجومهم الهمجي هذا وبمجرد أن سألوها أين السلاح... دّلتهم عليه فقد أخفتهُ تحت كوم الحطب أخذوه بعد أن نبشوا كل ركن في البستان... لكنهم لم يدعوها وشأنها بل اعتقلوها ولم تجدي توسلاتها وتوسلات أهلها... بل لم يشفع لها حملها وحالتها الصحية السيئة... جاؤا بها منتصرين وكأنهم قد اعتقلوا عملاقاً عصياً وليست فتاة ريفية بسيطة أميّة ليس لها سلاح سوى إيمانها... جرمها الوحيد أنها زوجة هذا المجاهد البطل...

بعد شهرين وضعت نصرة طفلة صغيرة جميلة أسمتها (مظلومة)، ومن المؤكد بنفس السيناريو الذي جرى على انتصار فهم لا يراعوا حرمة لأحد أبدا واحتارت فيها وفي ثيابها وغياراتها... الا أن انتصار أسعفتها بقطع ثياب زوجها عبد الحسن لتلفها بها وتقيها برد الشتاء، مهما يضيّق الظالمون يفتح الله فرجا، وإن تمثل محتويات حقائب انتصار وعائلتها الصغيرة...

عبد الأمير حسن سعيد (أموري ديالى)

فتى من مواليد 1973 الخالص اعتقلوه في كانون الأول 1981 فكان حينها عمره 8 سنوات لا غير، (أموري) ابن المجاهد حسن سعيد تم اعتقال جميع أفراد عائلته أبيه وأعمامه وأمه وأخوته وأخواته الصغار وعمته وزوجها وابنتها الفتاة الصغيرة، روى عبد الأمير حكايته قائلاً:

إننا عائلة من أهل الخالص منطقة الحويش سكنّا محافظة بغداد في منطقة القادسية بستان علي البياع لإدارته ورعاية أشجاره يقول: عام 1981تم اعتقال مهدي إبراهيم البندر أحد أقاربنا الذي جاءنا زائراً من الخالص وبات عندنا ليومين أو ثلاثة، بعدها خرج ولم يعد... قلق عليه والدي لأنه تأخر يوماً كاملاً عنا فخرج باحثاً عنه في مركز بغداد في كراج العلاوي والباب الشرقي وكل مكان يتوقع وجوده أو مروره به...

في هذه الأثناء داهمتنا دورية من أمن الثورة طوقوا البستان الكبير العائد للحاج علي البياع حيث تقع دارنا، فاندهشت أمي من عددهم وعدتهم وهي امرأة بسيطة قروية لم تشهد هكذا مشاهد مرعبة، لكنها كانت شجاعة، ولما أعلموها أن لديهم أمراً باعتقال كل من في البيت... سألتهم: "ليش احنا شعدنا وشمسوين؟؟" أجابوها: مجرد استفسار في مركز الشرطة لا أكثر... علمت أنهم كاذبون وهذا ديدنهم، فقالت بثبات: "لازم أخذ معاي ملابس للجهال" فأمهلوها بضع دقائق وأحدهم يتابع كل تحركاتها شاهرا سلاحه تجاهها... بعدها ساقونا جميعاً الى سيارة عسكرية مغلقة أنا وأمي وأخوتي هدى وندى وياسر وجابر

وعمتي هدية وزوجها وإبنتها جنان ولم يلقوا القبض على والدي يومها... انطلقت السيارة مسرعة ونحن نتقلب بها فلا مساند ولا مقاعد تسعنا، وتصارخ أخوتي مرعوبين بينما أمي وعمتي ترددان الأدعية وتهدآننا...

... بعد ساعة من العناء توقفت السيارة وبطريقة مفاجئة فتساقطنا على بعضنا البعض... أنزلوني أنا دون أي وداع مع أمي وأخوتي... بينما أخذوا النساء والأطفال الى معتقل علمت فيما بعد أنه معتقل الزعفرانية... وجدت معي زوج عمتي الفلاح البسيط الذي لا حول له ولا قوة وأدخلونا مديرية أمن الثورة.

على الفور قيدوا أيدينا الى ظهورنا وعصبوا أعيننا، ولم يجدوا قيدا يناسب معصمي الصغيرين مما جعلهم يشدونها بحبل، ثم أجلسونا على رحلات كالتي في المدارس أنا وهو في نفس الرحلة... وسأله أحد الحراس: "وين خرجيتك؟"... ولبساطته أجاب ببراءة: "بالخزنة خليتها"...

فأهانه الحارس قائلاً: "ولك عار آني اتشاقه وياك؟!"

وصاح به: "وين فلوسك احجي قشمر؟ "

وضربه وشتمه بألفاظ بذيئة ومد يده في جيبه وأخذها منه غصبا... كنت أرتجف كالسعفة وترقبت ضربات مثلها تنهال عليّ... عند الليل سحبني أحد الجلادين زاجرا إياي: " كوم ولك ابن ال..." واقتادني الى مكان كأنه كراج وتوجد فيه (مصطبة) ألقاني عليها وشدّ يدي معاً ورجليّ معاً بحبل ولم أعد أقوى على التقلب يمينا أوشمالا وأنا معصوب العينين...

لن أستطيع التعبير عن المشاعر التي عشتها يومها والرعب الذي هزّ كياني والأفكار المخيفة التي ظلت تدور في مخيلتي... وتملكتني موجة بكاء لم أسكت منها الا عندما أتعب وأغفو قليلا ثم أعود للبكاء ثانية... أنا االولد البكر والديّ والمدلّل هكذا يكون حالي في هذا البرد القارس!!وحيدا فريدا بيد هؤلاء.

كلمات حانية كانت تصل سمعي من إحدى الأخوات تهدأ من روعي وتبث

فيّ بعض الطمأنينة، وتخفف لوعتي أصوات أطفالها وبكاء طفل رضيع، وعندما فتحوا عيني بعد يوم أو يومين رأيتها هي انتصار زوجة عبد الحسن وصغارها فسالتها: من أنت؟ ولماذا أنتم هنا؟

فأجابتني باختصار وخوف عن قضيتها وكانت قد ولدت علي وهو ابن أيام قلائل ورعتني كما ترعى صغارها...

يذكر عبد الأمير: إنه بعد يومين عند ذهابه الى المرحاض ماراً بالسلالم رأى والده وقد قيدوه بسلاسل حديدية رجليه ويديه معاً وألقوه تحت السلالم وهو معصوب العينين ممزق الثياب والدماء قد جفت على أماكن مختلفة من جسده المثخن بالجراح... لكنه عندما سمع صوته حاول إزاحة العصابة من عينيه ورآني:

فقال: "الله أكبر هذا الطفل شنو ذنبه؟؟ يا ظالمين النفس."

فرفسوه وضربوه أمامي كي يسكتوه.

كانت هذه المرة الأولى والأخيرة التي رأى بها والده...

أما أمه وأخوته وعمته وزوجها وابنها فلم يرهم في المعتقل ابداً...

أموري هكذا كنا نناديه فهو طفل يحتاج الى من يشعره بالحنان والإهتمام... حرم الدراسة باعتقاله وكان طالب في الثالث الابتدائي... هو من أهالي الخالص جميل المحيا صبوح الوجه له عينان جميلتان ورموش سوداء كثيفة أبيض البشرة محمر الخدين وشعره بني مائل الى الشقرة... سبحان من أبدع خلقه... براءته هذه لم تهز مشاعر هؤلاء الأوغاد ولم تحرك فيهم أي رحمة نحوه... ذلك الصغير الذي لايمكن لراجح لبيب الا أن يبكي عند رؤيته، فقد اختطفوا منه الطفولة ومرحها واغتالوا براءتها، يوم حرموه من الحياة كأي صغير في العالم...

نعم عاش طفولة سوداء يوم وجد نفسه بين براثن الجلادين وتحت رحمتهم نظراته المرتعبة المملؤة بالخوف والهلع، تحكي عذابات كل الأطفال الذين أعتقلوهم مع ذويهم... فهو لم يحظَ حتى برؤية أبيه أو أعمامه مجددا ولا أي فرد

من أهله... رأيناه لأول مرة عندما كان يأخذ دوره في الذهاب الى المرحاض الوحيدة ويمر منا ونحن جالسات تحت السلالم وفي أحيان عديدة يساعد انتصار ويقود إحدى ابنتيها أو يحمل آلاء وخاصة عندما تتعالى صيحات المعذبين في مهرجانات التعذيب اليومية... فياله من طفل وجد نفسه في دوامة العذابات ووجد أن عّليه مداراة أطفال أصغر منه وهو أشد ما يكون محتاجا الى المداراة!!

كان على الرغم من صغر سنه يقدم المساعدة لانتصار فيتطوع لمسك يد زينب أو آلاء، ربما ليشعر بالأمان من الخوف الذي خيم على النفوس في معتقل أمن الثورة الرهيب، وربما لاذت به الطفلتان لذات السبب وكيف لا؟ ومسيرتهم تبدا من معتقل الكراج يدخلون باب المدخل تواجههم مباشرة غرفة المحقق وغالبا ما تصدر منها صرخات المعذَبين ونباح الجلاد بصوته القبيح المنكر... فلا مكان محدد للتعذيب ولا ضوابط أو مواعيد لذلك، ينعطفون يمينا ليدخلوا قاعة اعتقال الرجال (الهول) ليجدوا عشرات المعتقلين مقيدين الى الرحلات المدرسية ومن الطبيعي جدا أن يشاهدوا الدماء قد أغرقت الأجساد والملابس الممزقة من التعذيب... والكدمات التي تعلو الوجوه وتحيط بالعينين، وبعض من المعذبين توسد الأرض لشدة ماعانى منه... مشاهد مرعبة لهم جميعا، بدا واضحا أنها أدخلت الخوف والقلق عليهم عيونهم حيرى على الدوام والدمع يترقق في المقل.

خطواتهم مميزة في هدوء الليل أو في الصباح فهم آخر من يأتيه الدور لاستخدام المرحاض، خطوات الطفلتين قصيرة ومتعثرة ككل الصغار، كلهم يسيرون معا خطوات متعددة تضفي بعض الحياة لهذا المكان الموحش، قلوبنا تعتصر ونحن جالسات تحت السلم والتعذيب الوحشي قائم في غرفة التعذيب ويتزامن مع دورهم، يرتعدون جميعا تارة من البرد وأخرى من الخوف وصرخات المعذبين التي تملأ المكان وخاصة إذا كانت باب غرفة التعذيب مفتوحة فهم يتعمدون ذلك للمزيد من بث الرعب في النفوس.

العناية الإلهية تطوق عباده

وجد أموري في انتصار وأطفالها عائلته التي فقد حنانها ودفئها... شرب الخوف... وأكل الخوف... وتنفس الخوف... ورآى بأم عينه مصائب وويلات يشيب لها الرضيع في هذه الدائرة المشؤومة...

حدثني قائلاً: مرة من المرات صاح أبو جواد على بتول طالبا منها أن تمسح الدم في غرفة التعذيب، كالمعتاد بعد كل حفلة تعذيب يطلب من المعتقلات تنظيف الغرفة في بناية أمن الثورة (حي جميلة) وأمرني بالذهاب معها...

دخلنا الى غرفة التعذيب فوجدنا أحد المعتقلين وقد شنقوه في السقف والدماء تملأ أرض الغرفة...

وأضاف: رأيت أن رقبته بدت أطول من الإعتيادي فنظفنا المكان أنا وبتول والخوف يتملكنا من هول ما رأينا...

حدثني بهذا فارتجف شغاف قلبي وأنا في هذا العمر فكيف به وهو ذلك الطفل الصغير ابن تسعة أعوام؟!؟

سألته هل تعرف من هو ذلك المشنوق؟ فأجاب: إنه من أهل الخالص واسمه مهدي كاظم طه... عرفت على الفور لماذا أرادهما هو وبتول دون غيرهم ليمسحا الدم من غرفة التعذيب لأنهما من مدينة الخالص، وهو يريدهما إيصال رسالة لبث الرعب في قلوب أهل الخالص... أجزم أن كل فعل وكل كلمة وكل إشارة تصدر من أبي جواد كانت مدروسة وثمة تدريبات عديدة تدربها ليصبح هكذا... نسخة من شيطان بل معلّم الشياطين...

إعدام الأمومة دون وازع من ضمير

فطومة طه مهدي والدة عبد الأمير سيدة في بداية الثلاثينات، طيبة مؤمنة بذلت حياتها في رعاية زوجها وأبنائها لكنها وجدت نفسها فجأة في صفوف المعارضة مع المعتقلين وأخذ اسمها تسلسلاً في سجّلات دوائر الأمن وكانت حاملاً في شهرها الرابع عند اعتقالها... وعرف ابنها عبد الأمير بعد السقوط إنها قد ولدت طفلة صغيرة أسمتها علياء قام الجلادون بقتلها على مرآى من أمها... وهذا ليس بمستغرب فكل جرمٍ مباح في قاموس البعث... حيث لا قانون ولا قيد ولا عقوبة على جريمة ترتكب بحق المعارضين مهما فدحت...

جاؤا بها الى أمن الثورة عندما حان قتلها ومجموعة من المعتقلات... وقد غدت حامل مقرب وصغارها يلتفون حولها... وهي في حيرة من أمرها مالذي تفعله ومن تسكت منهم ومن تطعم وكيف تدير أمورهم؟ ياسر سنتين، جابر سبع سنوات طفل مشلول يعاني من لين عظام أو بطئ في النمو ويحملونه في بطانية، عندما رأيناه يوم لم نتمالك أنفسنا من البكاء... هدى ثلاث سنوات، ندى أربع سنوات، هؤلاء أخوته الذين نشأوا في بيت وسط بستان هم من مدينة الخالص هذه المدينة البطلة التي قدمت الأبطال والمجاهدين من رجال ونساء...

لم يكن أمام هذه الأم الا الصبر وعدم إظهار أي جزع أمامهم فهم صغار يستمدون منها أمانهم... صامتة ومحياها يقطر حزناً وأسى... الحمل قد أخذ منها مأخذهُ فهي واهنة شاحبة الوجه، شفتاها قد جفتا لدرجة التشقق والإدماء، أما عيناها فقد أحاطت بهما هالات سوداء من قلة التغذية والنوم والقلق... مالذي جنته؟ وما ذنبها إن كان زوجها معارضاً لصدام وزمرته؟ وأي خطورة تشكل إمرأة ضعيفة وكل طاقتها مبذولة لصغارها؟

ولكن لا مستثنى من الإتهام في عرف البعث عموماً وفي عرف أبو جواد خصوصاً، فهو يجد فيها مغنماً له وربحاً يضاف الى (إنجازاته) العديدة التي روعت عوائل العراق وأذاقتهم الويلات.

قد يكون مؤلم رؤية الفتيات المؤمنات وهن في معتقلات البعث، لكن رؤية العوائل أمهات وصغارهن أشد ايلاماً... الأم إن ذهبت برفقة صغارها زيارة ليوم او يومين الى اهلها أو أي مكان قريب إنزعجوا وأزعجوها بالبكاء بسبب أو بغير سبب، فكيف بأطفال فطومه الذين نشؤا في تلك البساتين الغنّاء وتلك الطبيعة الخضراء... أنى لهم التأقلم مع أجواء الخوف والرعب وازدحام المكان بالناس مع فقدان لكل مستلزمات الطفولة.

لله درَّكن يا زوجات المجاهدين ولله درّكم يا أبناءهم على ما جرى عليكم في معتقلات البعث التي ما استحى جلادوها وهم يملأونها عوائلا عوائلا... أنّى للطفل أن يقضي حاجته لمرتين فقط؟ وكيف يسكت ويلهو دون أي لعب أو حلوى؟ فلا بد أن يضج المعتقل بالصراخ وبكاء الاطفال، قد لا يكون جائعاً أو عطشانا لكنه يتمرد على واقع فرض عليه... والأم حيرى ليس أمامها سوى البكاء وأي بكاء؟ بكاء الخائفين وبكاء الصامتين ترى دموعهن تتهاطل كالأمطار لكن دون حتى شهقة إنه بكاء القلوب وليس بكاء العيون...

عمته السيدة هدية سعيد محمد وهي إمرأة وقورة في أواخر الثلاثين من عمرها، وابنتها فتاة صغيرة بعمر الثالثة عشرة جنان حسين محمد تحمل جمال أهل الخالص بوجهها المستدير وبشرتها الوردية وعيناها السوداوتان الكحيلتان... تلبس الربطة والعباءة وتتشبث بأمها خائفة من هولاء الأوغاد!!

... وفي نفس يوم قدومهم قام الجلاد أبو جواد بعزله مع أم علي انتصار وأطفالها في مكان آخر من معتقل أمن الثورة، البيت الذي يقع في شارع خير الله طلفاح في حي جميلة ليحول بينه وبين لقائه بأهله...

كانت إحدى الأخوات قد غسلت قميص أموري الذي اعتقل به، ونشرته على الشباك ريثما يجف ويلبسه ليس له بديلا عنه... لكن قسوة أبو جواد وترهيبه حال بينه وبين ارتدائه إياه، إذ زجره زجرا مع انتصار وصغارها ليحول بينه وبين أهله لينم عن قسوة همجية قد خلت من كل رحمة... رأت أمه قميصه وأخذت

تشمّه وتبكي عليه وتساءلنا عنه بتوسل ولهفة، قلنا لها: لا تخافي فهو معنا وقد اعتنينا به، وهو اليوم بطل لايخشى عليه وعبارات من هذه لطمأنتها... نعم مضت شهور ولم تره والأفكار تخالجها ولم تتوقع بقاءه حياً في هذه الدوائر التي تفتقر الى أبسط مقومات الحياة، وتحت سطوة من يكره لهم الحياة.

أموري وأخوته يجتمعون في دائرة الرعب

بعد ان أخذوا أمه وعمته وإبنتها للإعدام وأمام أنظارنا مع مجموعة النساء والفتيات اللواتي أزهقت أرواحهن في مقابر جماعية...

يقول: صاح علي أبو جواد وأنا عند انتصار وأطفالها في المخزن الداخلي... وأدخلني الى غرفة فيها أخوتي فوجدت ياسر قد كبر قليلاً فعندما فارقته لم يكن يمشي بعد وهدى وندى قد اصفرت وجوههما بينما أعينهم حمراء من شدة البكاء، جلسوا مرعوبين ومازال ياسر ينشج ببكاء مكتوم لائذ بهما... جابر طريحاً على البطانية ويموء كالقطة العليلة...

وأردف قائلا: أنا ارتجفت خوفا منه واعتقدت إنه يريد أن يعذبني كما عذّب مئات الرجال والنساء والشباب والشيوخ الذين شهدتهم مدة بقائي... ففي هذه المدة قد كبرت وربما رآني مؤهلاً للتعذيب ولم أعد طفلاً في نظرِه!!

سألني بصوته الأجش المرعب عن معرفتي بهم واحداً واحداً قائلاً: من هذا؟ فأجيبه على الفور: هذا ياسر... ومن هذه؟ هذه هدى... وتلك؟هذه ندى... وهذا؟ هذا جابر... وتركني معهم بينما جهزوا سيارة... لم أفهم مقصده من أسئلته هذه... هل يشك أنني نسيت أخوتي وأحبتي؟ أم هو نمط من التعذيب لإيلامي؟

لحظات لا أعرف كيف أصفها، هم لا يتذكرونني وخاصة ياسر الذي كنت متعلقاً به وعمره حين اعتقالي أقل من سنة، سألتهم عن أمي ولم يعرفوا بما

يجيبون... أنهكهم البكاء والعويل بعد أن ساقوها للموت وانتزعوهم من حضنها... أربع صغار ومنهم معوق لم يحركوا أدنى مشاعر في قلوب الجلادين المتحجرة وحرموهم منها وقتلوها وقلبها يخفق بحبهم وفكرها مشغول بهم.

لحظات اللقاء لحظات مختنقة، خاف أموري من الكلام ولم يطلق لدموعه العنان ولا لصوته بالصراخ، بعد تلك الشهور الطوال يلتقي أخوته بهذا الخوف وهذا الرعب، وكل فعل يصدر منه يتوقع أنه يغضب الجلاد فينهال عليه ضرباً بالعصا الغليظة التي يهوي بها على المعتقلين وهو يتجول بينهم كغول مفترس...

جمعته وأخوته تلك اللحظات الصامتة، احتضنته أختاه فهما تميزانه وقد تذكرتاه، ولاذ ياسر به بعد ان اطمأن له، جلسوا أربعتهم الى جوار جابر الذي ما انفك يصدر هذا المواء الذي يعصر القلوب... من يدري ما يريد؟ أمه وحدها تستطيع إسكاته فهي تعرف جميع احتياجاته ولكن أين هي الآن؟ ربما ماتت وعيناها مفتوحتان ترنو الى صغارها، وقلبها يعتصر عليهم وعلى جابر المعاق حتى آخر نبضة منه، حتما ظل مواءه يرّن في أذنيها لحظة الاحتضار...

أربعة أيتام وخامسهم معوّق في غرفة من غرف معتقل الرعب ومقبرة الأحياء أمن الثورة... دائرة القمع والوحشية التي قل نظيرها... أخذوهم وهم يرتجفون، وعبد الأمير يخفق قلبه سريعا ومواقف مرعبة يتوقعها مما قد رأى وسمع من أجرامهم... ظن ظناً كبيراً إنهم سيقتلونهم بالدفن وهم إحياء، أو يلقونهم الى أسماك نهر دجلة، أو ربما في الصحراء لتنهشهم السبّاع والكلاب... وإن كانوا ذوي حظٍ عظيم فقد يزجون بهم في إحدى دور الأيتام والتي طالما غيبوا بها أبناء السجناء والشهداء وقطعوا ذكرهم فيها، وضيعوا أنسابهم!!

من تلك اللحظة وجد نفسه رب الأسرة وهو في هذا العمر... نعم هذا الطفل أخذوه وإخوته الصغار الى مدينة الخالص وهم أيتام الأبوين ووضعوه موضع المسؤول عنهم، وجابر المعوق الذي لم يكن يأكل ولا يقتات الا على السوائل التي تزّقها أمه بفمه زقّاً بملعقة صغيرة، هي وحدها تعرف كيف تدير

أمور إطعامه وقضاء حاجته فقد كان يموء كقطةٍ صغيرة عليلة... لا يتكلم ولا يتوقف عن هذا المواء وكأنه يبكي فقدها... غدى جلداً على عظم محمول في بطانية عيناه غائرتان وفكاه بارزان ولا أسنان له... جسده مكور كالجنين في بطن أمه... وجوده في دائرة أمن الثورة المشؤومة أكبر جريمة بحق الطفولة، فقد عرفنا وأقنعنا أنفسنا أن يتم اعتقال الرجال والنساء والشيوخ، ولكن لم نستطع أن نصدق أن تصل نذالتهم الى هذا المستوى من الوحشية...

سارت بهم السيارة وقلبه الصغير يكاد يتوقف فزعا، وهو يحتضن أخوته ويحنو على جابر الذي ما توقف مواؤه، تارة يطمئن ياسر وأخرى يسكت هدى وندى، واذا ناموا أسندهم الى حضنه الصغير... وعلى الرغم من سرعة السيارة الجنونية فقد بدا طريق بغداد الخالص دهراً من دهور الضيم وسلسلة عذابات... ليس أمامه سوى المجهول وصلت السيارة الى الخالص، وأوصلوه الى منطقة بيت عمته وذهبوا مسرعين مذعورين فهم يخشون هذه المدينة البطلة وأهلها الشجعان.

يقول: كان وقت وصولنا الى الخالص مدينة الحويش عند الظهيرة وكان الجو قائظا، توقفت السيارة على حافة الشارع الترابية، وبدأؤا ينزلوننا بسرعة وكأنهم يرموننا، كان بعض من أخوتي نائما ففزعوا وهم يدفعونهم خارج السيارة، كانت أشواك وعاقول في المكان فجذبت ثوب أختي هدى ولم تتمكن من التحرك معنا، فرفسها المجرم أبو جواد برجله فسقطت وتخدشت أطرافها وتجرحت مدميّة...

تركونا على قارعة الطريق وسارت سيارتهم كاللصوص الهاربين... يقول: تحيرت وأنا أراهم يبكون جميعا، وجابر رموه ببطانيته أرضا وهو مستمر بموائه المؤلم، ثم رأيت بالقرب من المكان مساحة مسقّفة بأغصان العنب الجافة، فهممت بنقلهم تباعا اليها علّها تقينا حر الشمس وريح السموم...

بعد قليل تجمع حولنا صبية من أبناء منطقتنا مستغربين وجودنا بهذه الكيفية

وقد ساقهم الفضول الينا... وهم واقفون وعلامات الاستفهام تعلو وجوههم، مرت سيارة شرطة من الطريق وهي تصدر أصواتها المعروفة، فإذا بهم يتراكضون خوفا ورعبا تاركين نعالهم من شدة الفزع!! إجرام البعث رسخ الخوف في نفوس الجميع كبارا وصغارا.

بعد انتظار مرير وبكاء أخوتي إذ أخذ منهم الجوع والعطش مأخذه وخيم الخوف علينا والهواء الحار يلفح وجوهنا ونحن نجلس على التراب وأنا في حيرة من أمري جاءت زوجة عمي بعد أن أعلمها أحد الصبية الواقفين حين أجبته بأننا أقرباءه... وأخذتنا لبيتها وهي مفزوعة تتلفت يمينا وشمالا، تخشى أن تزداد مضايقات الرفاق البعثيين لها... عمي حسين زوجها مؤذن وإمام حسينية فاطمة الزهراء (ع) في مدينة الحويش، ومنذ تسلم صدام السلطة عام 1979 وقد تعرض لاعتقالات متكررة، يطلقون سراحه وهو في أشد حالات التعذيب، وكنت أرى حتى أظافره قد اقتلعوها وأخذوا منه تعهد أن لا يصلي ولا يؤذن في الحسينية، ومع كل الترهيب الا أن لم يذعن لهم أبدا وظل يأم الناس ويؤذن وكان يردد بثبات: هذا طريقنا الذي اخترناه... طريق أهل البيت عليهم السلام... ثم اعتقلوه ولكن دون عودة وإنما تم اعدامه وتسليم جثمانه لأهله أثناء مدة اعتقالنا.

وهكذا تفرق الشمل المتبقي، إذ تكفل كل قريب ببعض منهم... وتوجب على أموري من هذه اللحظة أن يكون رجلاً وأن يوّدع طفولته المغدورة، وأن ينسى عدد سنين عمره التي لا تتجاوز أصابع اليد، ويرتدي رداء الأب ورب الأسرة، ويحمل قلب الأم وحنوها على صغارها، كي يعوّض هؤلاء الأيتام عن والديهم، دون أي حساب ليتمه وفقره الشديد لحنان الأبوين ودفئهما...

منذ لحظة خروجه من المعتقل وهو يسأل عن أمه وكله أمل أنها ما زالت سجينة في تلك الدائرة المشؤومة... التي أكلت بنهم ووحشية سنتين من عمره الفتي... ولم يتوقف عن البحث الا بعد سقوط الصنم... يوم نشرت قوائم الشهداء على جدران (الشعبة الخامسة) في الكاظمية ووجد أسمها في قوائم الشهداء...

كان يرجو أن تخرج اليهم ووالده وأقاربه بزوال كابوس البعث... لكن المجرمون أزالوهم من الوجود وأصبحوا في ذمة الخلود ولم يبق منهم سوى أسماء في سجلات عتيقة...

هذه هي الحياة الكريمة التي عاشتها عوائل العراق في حقبة البعث في ثمانينات القرن العشرين... هذه هي الحرية التي كانت ثاني أهداف حزبه الجائر، فأين هذه الحرية التي خطّت على جدران المدارس وعلى الأوراق الرسمية وطبعت على أغلفة الدفاتر المدرسية!!

الوحدة والحرية والاشتراكية أهداف البعث التي تشدق بها وحققها سلباً، فالتفرقة والدكتاتورية والشوفينية هي واقع هذا الحزب الدموي...

عبد الأمير (أموري) يودع الأحباب واحداً بعد آخر... مات جابر الطفل المعوق بعد ثلاثة أشهر من خروجهم من السجن بعد إعدام أمه وكأنه إحتّج على موتها وفقد أكسير الحياة بعدها.

بعد ثمانية أشهر مات ياسر إبن الأربع سنوات بعد أن مرض مرضاً عضالاً ليريع قلب أخيه الذي تعددت عليه نوائب الدهر وباتت دموعه لا تتوقف أمه... أبيه... جابر ومن ثم ياسر... ولم يبق من عائلة والده المجاهد حسن سعيد سواه وهدى وندى... نعم أضحوا ثلاثة أيتام هم البقية الباقية من عقب عائلة لو كتب لوالديه الحياة لأصبحوا عشرة أخوة أو أكثر... يريدون قطع نسلنا ومحو ذرياتنا... ولكن هيهات مهما حاولوا ومهما سعوا الشهيد باقٍ في ولده وفي كل من عايشه وأحبهُ.

أموري باق وقد سقط البعث في الهاوية

لم نرَ اموري ولم نسمع أي خبر عنه وذكرناه كثيرا في لقاءاتنا عندما نتذاكر المعتقل والسجن، اعتقدنا أنه قتل وأعدموه كما أعدموا أمه وأباه...

في كانون الأول عام 2007م ذي الحجة 1428 هـ، في موسم الحج وفي مكة المكرمة حيث تشرفت بالحج بصفة مرشدة دينية لقوافل حج ذوي الشهداء الذين أرسلتهم مؤسسة الشهداء للديار المقدسة بعد أن تعينت فيها خدمة لهؤلاء البقية الباقية من خيرة عوائل العراق.

صعدنا بالمصعد الى غرفنا في الفندق الذي نقيم فيه...

فسألني أحدهم بحياء: "العفو انت حجيه عطور؟"

أجبته: نعم... تفضل أخي أنا عطور... وظننت أن لديه سؤالاً عن مناسك الحج او مشكلة شرعية تعاني منها إحدى محارمه في الحج.

فقال: إذا تسمحين أريد أن أحدثك لدقائق.

أجبته: على الرحب والسعة فلننزل من المصعد...

نزلنا ووقفنا في الباحة المؤدية للغرف من جهة وللمصاعد من جهة أخرى... أردفت: تفضل أخي بماذا أخدمك؟.

أجابني: أنا اسألك عن أمي هل رأيتيها؟؟ كانت معكم في أمن الثورة!!...

تفاجأت من كلامه فأجبته بسرعة: ومن هي؟

قال: فطومة أم عبد الامير؟

أجبته: فطومة... فطومة... وكنت أقلب صفحات الذاكرة التي مر عليها أكثر من خمسة وعشرين عاماً... وسألته: ومن أنت؟ أجاب: أنا أموري... عبد الأمير من الخالص... أنا... ابنها...

شهقت متعجبة: أموري؟ أنت أموري؟ وهطلعت دموعي...

ووضعت كفيَ على وجهي وأجهشت بالبكاء... كدت أحضنه لولا حدود الدين... قلت بعبراتي: "أموري كبرت... وشيبت... الحمد لله إنت عايش"

أجابني: انا أحمد الله أنك ما زلت حيّة لحد الآن... فقد كنت واختاي نقرأ على أرواحكن الفاتحة ولم أتوقع إنكنَ لم تُعدْمّن على أيديهم...

بقيت أنظر الى وجهه وأردد: سبحان الله... سبحان الله... أنت اموري الطفل الصغير الذي كان بيننا وذاق ما ذقنا من خوف وعذاب في أمن الثورة؟

فأعاد سؤاله: وأمي ألم تكن معكم في السجن؟

أجبته وأنا أكفكف دموعي: منذ أن أخذوها هي وعمتك وجنان وعدد من البنات لم نرها...

قلت: ألم تعثروا على اسمها في قوائم الشهداء؟

فقال: بلى... ولكني لا أستطيع تصديق هذا...

أحسست أن عقله الباطن يرفض الإقتناع أنها ماتت رغم قدومه للحج بصفة ابن شهيد وشهيدة...

سألته عن إخوته، لم أصدق أنه حي أمامي، وعقلي الباطن يرفض أن تمحى عنه فكرة أن أموري وأخوته دفنوا مع أمهم.

قال: "حجية صارت زحمة عليج... ومكة مكان غير مناسب للكلام"... أريد هاتفك (رقم العراق) كي نتواصل فلدي الكثير من الاستفسارات...

أعطيته رقم هاتفي، واتصل بي في أول يوم عودتي من الديار المقدسة... فقد سبقني الى الوطن وبقي يتصل يومياً والهاتف مغلق وخارج نطاق الخدمة الى أن وصلت... حكيت له قصة إعدامهم في ذلك اليوم الرهيب...

وسألني عن بتول وانتصار وأخذ أرقام هواتفهم ليتصل بهما... وأعلمته باستشهاد عاليه... لن أتمكن من وصف مشاعري في ذلك اليوم... بين الحقيقة

والوهم توقف الزمن للحظات ليطوي عقدين من الزمان في بضع كلمات.

كل من معي في هذه الحملة لايعرف أموري، وفور عودتي كنت كلما اتصلت بإحدى السجينات أخبرتهن أن عبد الأمير (أموري) ما زال حياً وكيف أصبح رجلاً ناضجاً وغزى الشيب رأسه ولحيته... كان بطلا لقصة من قصص أمن الثورة، ومأساة من مآسي عوائل العراق، رويتها لكل من رأيته في السجن وخارجه كدليل إدانة هي واحدة من آلاف الدلائل التي تدين البعث الجائر...

أموري الطفولة التي وأدها البعث، وأحال نهارها الى ليل حالك، وأفراحها الى مأتم دائم، وحلاوتها الى علقم لا يطاق...

هذا هو البعث وهذه شعاراته الزائفة:

أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة

رسالته الخالدة إحالة الفرح الى حزن... والبيوت الى قبور... وزهور العمر الى قضبان وقيود تأكل معصمي معارضيه في زنازينه الرطبة المظلمة... لتغدو الساعات دهوراً من ألم والأيام حقباً من أنين... في دائرة موحشة مثل دائرة أمن الثورة... حيث لا أمان ولا اطمئنان إلا بذكره سبحانه أنيس كل مستوحش وأمان كل خائف.

ذكرياتي تؤلمني...
حرب الثمانية أعوام...

1980 عاما حزينا كئيبا، إذ اندلعت الحرب العراقية الإيرانية وبالتحديد يوم 23 أيلول، وبدأت غارات جوية متبادلة وصفارات الإنذار ترعب الجميع، نحن جيل لم نشهد حينها أي حرب، وإذا بها فاتحة شؤم لسلسلة حروب دامية تميز بها حكم البعث الأسود وخاصة بعد أن وصل صدام الى سدة الحكم.

الكهرباء بدأت تنقطع لساعات وخاصة أثناء الغارة الجوية... الشتاء قد حل ومادة النفط الأبيض وقود المدفآت بدأ يشح بسبب قصف الطائرات لمصفى الدورة جنوب غرب بغداد حيث ظلت النيران مشتعلة لأيام وغطت السحب السوداء سماء بغداد الحبيبة، بعد أن كان الوقود متوفرا وعربات بيعه التي يجرها الحصان وقرع ناقوسها المعدني المميز وهي تجوب الأزقة من بواكير الصباح وحتى المساء... اليوم صار مألوفا طوابير الناس رجالا ونساءا تقف ساعات طوال لتحظى بحصة وقود من صهاريج جوالة.

نعم تورط صدام بهذه الحرب ولم يكن يتوقع أن يستمر أتونها مستعرا لسنوات ثمان... وعلى الرغم من عداء العرب لثورة إيران الإسلامية، إلا أن الملك فهد آل سعود لم يكن موافقا على شن صدام حرب حقيقية ليس حبا بإيران ونصحه بخبث: اتركهم في فوضاهم وهم منهمكون بقتل بعضهم بعضا، حربك عليهم توحد صفوفهم وتعيد لحمتهم التي تصدعت نسبيا بعد انتصار الثورة وقدوم السيد الخميني وهروب الشاه، واعلم إن لإيران شعب مكون من أكثر من ستين مليون نسمة ومقدرات وفيرة ولهم القابلية على حرب استنزاف طويلة، وشن الحرب عليهم ليس في مصلحتك ولا مصلحتنا ومجرد دخولك أرضهم سينسون خلافاتهم الداخلية ويتوحدوا بجبهة واحدة... لكن صدام المتهور والمتعطش للدماء أصر على الحرب وصار يتشدق بأنه وجيشه سيحتل طهران بعد أيام لا أكثر... ولشغفه بحب الظهور وما يعانيه من عقد نقص متعددة الوجوه سماها قادسية صدام المجيدة... نعم لطالما زج اسمه في مقاطع تأريخية في محاولة لصنع ماض وحاضر ومستقبل مشرف له.

تغيرت المعادلة بعد مضي أقل من عامين وإخراج القوات العراقية من الأراضي الإيرانية وقد منيت بخسائر جسيمة في الأرواح والمعدات، على الرغم من الدعم الدولي والإقليمي له، الا أن تبعاتها بدأت تلوح في الأفق تنذر بسنوات عجاف، وخاصة أن القوات الإيرانية لم تكتف بإخراج الجيش العراقي المحتل لأراضيها فحسب، وإنما أخذت تهدد بالتوغل في الأراضي العراقية،

وانقلبت موازين الحرب ولوّح الإيرانيون إنهم سيصلون بغداد قريبا!! هنا اعترف صدام للملك فهد: ليتني قد سمعت كلامك... وصار يطالب المجتمع الدولي بالتدخل لإيقاف إطلاق النار!! ويطلب من العرب دعمه بالمال والسلاح... وبدأ مسلسل المساعي الحميدة من المنظمات الدولية والجامعة العربية.

... ومنذ أيام الحرب الأولى صرنا نرى التوابيت الملفوفة بالعلم العراقي تشق طريقها الى مقبرة الغري في النجف الأشرف... وانتشرت لافتات النعي للشباب الغض وتزايد عدد الثكالى من الأمهات ومن ترملت من النساء وتيتم من الأطفال...

سرادق مجالس العزاء تكرر مشاهدتها في أزّقة الأحياء الشعبية لبغداد وصار مألوفا ارتداء السواد وحتى للأطفال لفقد الأحبة، الصمت المرير سيد الموقف والغصة في القلوب... وقصص موجعة لموت شباباً في تلك الدوامة المحرقة التي كلما مرت سنوات الحرب ازدادت نهما لدمائهم... الى جانب هذا أعدادا غير معلومة من المفقودين والأسرى ولوعة الآباء والأمهات وهم يودعون أولادهم اليها مرغمين فالاعدام رميا بالرصاص مصير كل فارّ منها...

في تلك الظروف الحالكة كان تلفزيون العراق بقناته الرسمية الوحيدة يبث أناشيد الحرب على مدار الساعة، وينقل مشاهد من دخول فيالق الجيش العراقي مدن الحدود وهم يعيثون في البيوت الآمنة... نعم كانت اعتداءات واضحة على الأبرياء من المدنيين ولم يكن قتال جيش مقابل جيش كما هي أعراف الحرب...

سادت مظاهر العسكرة في المجتمع ووجه كل بعثي بارتداء الزي العسكري رجلا كان أو امرأة... بل حتى الأطفال الذين كانوا ينعتونهم بالطلائع والفتيان أو ماينعتونهم بالأشبال!! استخدمت السلطة الإعلام وسيلة ناجحة لتبييض وجهها القاتم عبر تحريف الحقائق ومنها بيانات الحرب الكاذبة... حيث اختير بعض المذيعين لإذاعة تلك البيانات التي يكتبها خبراء اعلاميون... وتفتتح بعبارة الله اكبر... نبرات كلامهم صارت نذيرا بالشؤم ومزيدا من الموت... واستمر بث

برنامج صور من المعركة بعد كل نشرة أخبار والقتلى في ساحات القتال، وتفنن الإعلام في تغطيتها ودأب على إظهار الجثث المشوهة والمحترقة، ولقطات مؤلمة يلتقطها لبعض الجنود وهم يطأون بأحذيتهم العسكرية رؤوس بعضها، أو يفترشون الأرض بين عدد منها يلتقطون الصور بابتسامتهم الباهتة، فهم على يقين قريبا سيكونون مثلهم... نعم أريد من ذلك تكريس ثقافة العنف والوحشية وترسيخ العداء والكراهية بين شعبين جارين جمعتهما أواصر الجوار والدين والقيم المشتركة.

كل يوم تظهر نشرة الأخبار نائب رئيس الجمهورية طه ياسين الجزراوي وعدد من الرفاق البعثيين وهم يودعون قوافل من الجنود (المتطوعين) إجبارا، فبعد أن أنهك الجيش العراقي من سنوات الحرب النازفة، دعت السلطة الغاشمة الى الخدمة الاحتياط وهذه الخدمة لم يكن لها سابقة في تاريخ العراق، كما دعت الى تشكيل الجيش الشعبي ويفترض أنه مكون من متطوعين ومن عمر 15 فما فوق، وبهذا شن هؤلاء الرفاق هجمات على البيوت الآمنة يخطفوا الذكور منها وتحت التهديد، لتجد العوائل أنها قد غدت دون معيل... يسلم هؤلاء (المتطوعون) قطع السلاح وبدلة عسكرية ويساقون الى الجبهات ليعودوا بعد أيام في نعوش يلفها العلم العراقي... وفور وصول الجثمان يسلم أهله شهادة وفاة (شهيد)... نعم كان الشباب الفتي فداءا رخيصا قدّمه صدام متباهيا أمام الأعراب بأنه حامي البوابة الشرقية... يجيبه ملك الحجاز من آل سعود: منا المال ومنك الرجال... ولتلتاع الأمهات وهي ترى فلذات الأكباد تساق الى اللحود دون أن يكون لها في هذه الحرب الرعناء ناقة أو جمل...

وجالت سيارات عسكرية تقل أسرى حرب في شوارع وأزقة بغداد وهم في أسوء مايكون عليه إنسان عراة في شتائنا القارص الا من بعض مايسترهم، يعانون الجوع والعطش ووجوهم تعبر عن غربة واستغراب وخوف وهلع... ثمة من يشجع الناس لرميهم بالحجارة أو البصاق عليهم وليحث الصغار للركض خلف السيارات صارخين بأسوء الألفاظ!! ماذا دهانا!! أي ترد وانحطاط يريده هؤلاء

المجرمون منا!! أيعقل أن تنتشر هكذا ممارسات وبالسرعة هذه؟ والأمّر من هذا هو الخوف من التعبير عن أي رفض أو استياء... حقا إنه زمن الخضوع والسكوت... وتهاوي القيم والمثل الإنسانية... الكل يتواصى بالحذر من ممنوعات قد اتسع عددها في قاموس البعث ولم يعرف المواطن أيها تغضب السلطة الجائرة وتعتقله ليغّيب وراء الشمس كما كان يهدد أزلامها كل معارض...

الحرب عطّلت دوام المدارس

بداية الدوام سنويا منتصف شهر أيلول، بعد أيام قلائل اندلعت الحرب ولم يستمر الدوام في المدارس، الخوف أعاق اليوم الدراسي حيث تتصارخ الطالبات فزعا ويتراكضن بعد سماع صفارة الإنذار التي ترافقها أصوات قصف جوي من طائرات ايرانية استهدفت معسكر الرشيد القريب نسبيا من منطقتنا، وصوت قصف مقاومات الطائرات يرتج في الأجواء... وضع مرهق جدا للادارة والكادر التدريسي المرتعب كرعب الطالبات، أسطح المدارس نصبت عليها مدافع مقاومة الطيران ومن المتوقع أن ترد الطائرات عليها بنيران مماثلة، لم يكن الدوام سوى بضع أيام لم ندرس فيها أبدا... وفي ضحى يوم مدرسي قرع جرس المدرسة للإعلان إن الادارة أنهت دوامنا بتوجيه من وزارة التربية، وعدت للبيت وكلّي ألم وحسرة على ضياع عاما من عمري ولا سيما المرحلة النهائية المصيرية لكل طالب.

لأول مرة أجد والدي في البيت في هكذا وقت من النهار فهو عادة يكون في معمله جنوب بغداد... استغرب عودتي من المدرسة على الرغم من أن أخوتي قد عادوا قبلي من مدارسهم ظانّا أن للمراحل المنتهية أولوية خاصة... لكنه أردف بأسى: "الأوضاع مو تمام ظلّوا بابا بالبيت أسلم... الله كريم بابا تهون ان شالله".

بعد أقل من ساعة عاد أخي جمال من الجامعة وقد أعلموهم بتوقف الدوام وهكذا أقفل التعليم أبوابه في كل المؤسسات التعليمية بسبب الحرب... كنا قد استلمنا كتب المنهج الدراسي المقرر... كنت أتصفحها وأتألم... لا أدري لماذا شعرت بغصة ويفترض أن أسر وأفرح بعطلة مفتوحة ككل الطلاب... ربما لأنني شعرت حينها أن تخبطات سياسة الطاغية تهدد مستقبلنا وتبدد آمالنا بخيبة.

بعد مضي شهرين على تعطيل الدوام أعلن في التلفزيون عن مواصلة الدوام الرسمي لجميع المراحل الدراسية... عدت لمدرستي والحزن يملأ وجداني ولم أنس أخي عضدي لحظة واحدة وجوارحي تحنو اليه... كنت أبحث عن وجهه بين طلبة الكليات الذين أصادفهم في طريق المدرسة دون جدوى... بكيته على وسادتي وأنا أفتقد دعمه لي وكلماته الحانية التي تخفف عني ضغوطات البعثيات من طالبات الإتحاد الطلابي وقد اشتدت بعد اعتقاله... وكلما فتحت كتاب الأدب العربي حضرني صوته يقرأ لي تلك الأشعار الجزلة حينما كنت أستعير كتابه لأقتبس أبياتا شعرية للمشاركة في المطارحة الشهرية مع ست الهام قبل ثلاث سنوات من هذه اللحظة... شعرت بوحدة موحشة مع تسارع بأحداث يمر بها بلدي... من أسأل؟ ومع من أتحدث مستوضحة عما يدور؟ بمن أثق والجميع يوصي الجميع لا تعترضوا خشية سخط السلطة الغاشمة... الجميع يعرف جيدا معنى سخطها الذي لا يستثني حرث ولا نسل... مخطط كبير ينفذ ينجو من بطشهم من يرضخ، ويقمع من يعترض ولو بالضمير... ماتت القيم ونامت الضمائر في سبات عميق فلا مكان لها في حقبة البعث المظلمة.

حملة اعتقالات تؤاماً للحرب

في هذه الأجواء الحزينة والأوضاع القلقة ضيق البعثيون الخناق على المؤمنين واشتدت حملات الإعتقال دون أي رادع... وأجزم قاطعة دون أي

مذكرات قضائية... ففي يوم 15 من تشرين الأول أعتقل أخي جمال وبعده بيومين زوج أختي محسن، الذي أوصلها إلى بيتنا عصر ذات يوم، ثم اعتقلوه مع أخوته الأربعة (حسين، حسن، علي، محمد)، أختي الكبرى كانت حاملاً في شهرها السادس، جاءت تواسي أمي باعتقال جمال، فأذا بها قد ثكلت باعتقال زوجها وإخوته الأربعة، كانت هجمة البعث في أوج عنجهيتها وجبروتها ولم تستثن أي من العوائل الأصيلة التي رفضت سياساته الهوجاء، الأمهات تثكل والأزواج تترمل، والذرية تتيتم وإن كانت أجنة لم تر النور... نعم تعددت أسباب الثكل والترمل واليتم في وطني... القلوب لوعى والمجرم ذات المجرم... لم يسلم بيت من بيوتات العراقيين من مصيبة: إعتقال، إعدام، قتل في حرب، أسر، رمي بالرصاص، أو فقد في جبهات القتال الواسعة سعة حدودنا مع الجارة إيران... حتى غدا الموت بأسبابه العادية نادرا واستهان الناس بموت المرضى وكبار السن أمام مايسمعون ويرون من مآسي لذوي ربيع الأعمار... ولكن ثمة فرق كبير بين من يموت في الجبهة ومن يموت معدوما بالشنق أو رميا بالرصاص، الأخيران يمنع ذووهم من إقامة مجلس عزاء أو أي مظهر من مظاهر الحداد في ظل رقابة مشددة تبث الرعب حتى لدى الاقرباء عن مواساة أهليهم...

وللحيلولة من سخط الشعب توقفت السلطة من تسليم جثامين المعدومين بعد عام 1981، لم يعرف أهالي المعارضين مصير أبناءهم المعتقلين وظل الأمل يراود نفوسهم بنجاة من موت محتم، وبهذا كانت صدمتهم كبيرة بعد سقوط حكم البعث عندما علموا أن فلذات الأكباد أزهقت أرواحهم منذ عقدين ونيف... لتبدأ لديهم لوعة عدم علمهم كيف مات الأحبة؟ وأين دفنت الأجساد أفي مقابر جماعية ولم تحظ بدفن ككل الأموات؟؟ أم أذيبوا في التيزاب (حامض النتريك المركز)، أم فجّروهم بالألغام، أم رموهم في أحدى رافدي هذا البلد المبتلى بالبعث وطغمته؟؟.

يخافون فكره النير وإن قتلوه

أيام سوداء تلك التي عشناها بعد استشهاد السيد محمد باقر الصدر، ولعل أصعب مافيها أننا لم نتمكن من التعبير عن ألمنا الكبير من تلك الجريمة النكراء التي تجرأت عليه وعلى أخته العلوية آمنة الصدر، تسارع أحداث مفجعة واعتقالات طالت مجاميع الشباب تنذر بالمزيد من الأسى، وصار ممنوعا كل مباح، ولولا أن سلطة البعث تدعي أن دين الدولة الرسمي هو الإسلام لمنعوا تواجد المصاحف ولأحرقوها...

ذات يوم مدرسي دخلت مديرة المدرسة ومعاونتها ومعلمة مادة الإسلامية الى قاعة الدرس بطريقة مفاجئة ومرعبة، وطلبن منا بلهجة الآمر متابعة صفحات من كتابنا المنهجي لهذه المادة، كانت المديرة تقرأ رقم الصفحة وهن يتابعن معنا وتردف آمرة: اقطعوها من الكتاب فورا!!عدد من الصفحات في فصول تضمنت فلسفة الاقتصاد في الإسلام... ثم أمرتنا أن نتابع في فهرست الكتاب ونحذف وبالقلم الجاف أو الحبر اسم السيد محمد باقر الصدر وأسماء كتبه!!كن يدققن كل ماذكرت بالمعاينة المباشرة وخيم رعب كبير في الصف انعكس علينا من طريقة تعاملهن... كن يجمعن الصفحات المقتطعة قبل مغادرة المكان وكأنهن سيقدمنها دليلا على إنجازهن المهمة...

ولأن أي كتاب ديني يعني لدى البعثيون دليل إدانة بدأت العوائل تخفي الكتب والمجلدات تحسبا لمداهماتهم، مكتبتنا ضمت كتبا متنوعة علمية وتاريخية ودينية، وثمة عدد من مجلدات لموسوعات قد اشتراها أخي جمال من مكتبات موثوقة في الكاظمية وكربلاء والنجف... كتب أنيقة لا تقل كل موسوعة عن ستة مجلدات ضخمة ضمت صفحاتها فكرا عقائديا مسندا، فضلا عن مؤلفات الشهيد الصدر والرسالة الفقهية للسيد الإمام الخوئي، وكتب ألّفها جهابذة علماء الإسلام... نعم كان أخي حريصا على شراء الكتاب ولا يبالي إن سافر للنجف من أجل الحصول على نسخة منه مهما كان سعره...

إحتارت عائلتي كيف تخفي هذه التحف القيمة وهي تتوقع مداهمة منهم في كل لحظة!! من يتحمل من الأقرباء مسؤولية إيداعها عنده؟ فقرروا أن يدفنوها بعد تغليفها بعدة طبقات من ورق البلاستك لئلا تتلف... كان مؤلما دفنها ومقلقا حتى في ساعات الليل فلا أمان من أعين جواسيس السلطة الذين انتشروا في كل زقاق واندسوا بين الناس... دفنت مع الكتب كاسيتات محاضرات الشيخ الوائلي وصور مراجعنا السيدين الخوئي والصدر... أي زمان هذا؟ هو زمان الحجّاج بلا أدنى فرق وربما أسوأ...

مضايقاتهم لا تنتهي...

مر العام الدراسي عليّ دون تفاعل، الخوف يحيطني لدرجة جعلتني أقدم على المدرسة بتثاقل ودون أمل، خبت جذوة طموحي ولم يعد لهذا العام المصيري بالنسبة لكل طالب أي أهمية عندي، ومضايقات مديرة المدرسة و (اتحاد الطلبة) و (عربية محمود) رئيسة هذا الإتحاد التعسفي في مدرستنا تشتد يوماً بعد يوم، تلك الفتاة الجميلة لكنها لحقدها تبدو كأنها عقرب صفراء... ثمة تأكيدات عليّ في كل اجتماع للإتحاد، وأوامر وجهت الى مرشدة الصف أن تجلس إلى جانبي (ندى) فتاة موصلية الأصل وهي بدرجة (نصير متقدم) في الحزب، عائلتها على درجة كبيرة من الولاء للقائد (الضرورة)، وأخوها رئيس إتحاد الطلبة في إعدادية (ابن رشد)، وهي مدرسة أخي جمال.

لازمتني ندى أيّما ملازمة، وسألتني كثيراً عن أهلي، وكنت أجيب: بأن جمال مازال طالباً... فليس أمامي جواب غير ذلك مع علمي بأنها تعلم مفصلاً اعتقاله واعتقال نسيبنا محسن وأخوته.

ندى لم تكن على مستوى علمي جيد، فهي لاتتمتع بذكاء عالٍ، وكنت أساعدها في دراستها، ولم أكرهها يوماً رغم معرفتي بأنهم قد سلطوها عليّ...

صدقتها النصيحة وأعطيتها ملّخصات دراستي كي تستفيد منها، وعاملتها بإحسان لأني أؤمن بأننا يجب أن نعكس أخلاق محمد وآل محمد (عليهم السلام)، وأؤمن بأن مثل ندى مغرّر بها، فقد سمّموا أفكارها وجعلوها تنظر إلى زميلاتها غير البعثيات نظرة عداء، وهذا ديدن البعثيين الذي يعملون على غسل أدمغة أتباعهم وأدلجتهم وبرمجتهم وتسييرهم مثل دمىً من دون وعي وإرادة... أحبتني ندى بإخلاص لم أكن أتوقعه، في البداية كانت متشنجة كثيرا معي واعتقدت أني سأنبذها لأنها تتجسس عليّ... لكنها وجدتني صادقة معها لم أبادلها الحقد الذي حملته أو حملّوها إياه عني بأني من أعداء الحزب والثورة وبذلك يجب أن أعاديها وتعاديني... ولطالما كانت تمتدح أخلاقي مقارنة إياي ب (عربية محمود) رئيسة الإتحاد المتعجرفة المتكبرة التي توجه الأوامر باستعلاء، وتهينهن رغم عضويتهن في اتحاد الطلبة، علمت حينها أنهم جمع بلا إلفة وقلوبهم شتى وإن ظننا أنهم اتحاد طلبة كما يسمونهم...

بمرور أشهر السنة صارت ندى تثق بي وتحدثني عن مشاكلها وماتعانيه من عقدة جراء فقدانها نصف خنصر يدها اليسرى، كنت صادقة معها أخفف عنها بحنان ماتعانيه من حساسية تجاه أخواتها وعدد من زميلاتنا وأبعد عنها قلقها وتوترها... وعند انتهاء العام الدراسي ودعتني ندى بدموعها قبل كلامها، تضم كفيّ إلى كفيّها وكأنها تعبّر عن ندم كونها ارتضت لنفسها أن تكون جاسوسة ضدي، وهي تردد وقد أغرورقت عيناها بالدموع: أنت أعز صديقة لدي، فلم أر مثلك في حياتي، أنت صافية محبّة لي... وأقسمت بالله بأنها أحبتني وسوف لن تنساني... أنا لم أكرهها أبدا وهي شعرت بذلك، وعرفت أن الذين يسمونهم أعداء الحزب والثورة أفضل بكثير من البعثيات وعنجهيتهن الرعناء.

يوم النتائج النهائية

بقيت أياماً أتذكر أهلي في كل لحظة، ولجلال أخي حصة أكبر في تفكيري... ربما لأنه أقربهم إليّ مكانيا الآن، حيث يضمنا هذا المعتقل الرهيب...

تذكرت يوم تم الإعلان عن نتائج امتحانات الصفوف المنتهية، وقد أديت امتحانات البكالوريا إسقاطاً للواجب، وعندما تم الإعلان في التلفزيون بظهور نتائج الامتحانات للصفوف المنتهية للدراسة الاعدادية بكل فروعها في العراق طلبت من أخي جلال الذهاب إلى المدرسة كي يجلب شهادتي دون أي ترقب للمعدل... وهذه المرة الأولى طيلة سنوات الدراسة لا أرغب في استلام النتيجة، ولم أحرص على لقاء زميلاتي ككل عام، كنت محبطة ولم أتطلع لأي مستقبل سعيد... قررت وقتها أن أترك الدراسة، وأحصل على الشهادة الإعدادية فقط لكثرة المراقبين لبيتنا، وحتى الدكان القريب منا كنا نلاحظ رجال الأمن يترددون عليه دورياً ليأخذوا معلومات عنا... ذهب جلال بدراجته الهوائية وعاد بعد أقل من ساعة حاملاً ورقة بيضاء مختومة بختم المدرسة فيها درجات عالية ومجموع (504)، دون كتابة المعدل، وقال لي باسماً: ناجحة... ويقولون إن معدلك جيد جداً... تلقفت الورقة من يدهِ بلهفة... تهلل وجهي وانشرحت أساريري بعد طول عبوس وكدر، وتراقصت حدقتاي مارّةً على الدرجات العالية والمجموع الذي عندما قسمته على عدد الدروس ظهر معدلي 84%، أعدت عملية تقسيم الرقم مرة ومرتين، أردت التأكد فأنا لم أدرس جيداً ككل الطلبة لما أعانيه من ضغط نفسي، رددت في نفسي: الحمد لله رب العالمين... فليخسأ البعث لن أسمح له بوأد أحلامي بالدخول إلى كلية الصيدلة أو طب الأسنان، ستتحقق أحلام طالما راودتني وأنا في المرحلة الابتدائية كلما عبرت مرحلة منها وبتفوق... نعم بتوفيق منه سبحانه كانت إجابات امتحاناتي جيدة مع قلة دراستي، فقد ركزت على شرح مدّرساتي في الصف، ومامنحني الله من ذكاء يمّيزني عن بقية طالبات مرحلتي، فكم سؤال في اللغة العربية سأله مدّرس المادة تعجيزاً لنا إلّا وأجبته، وكذلك

تعاليل مادة (الحيوان)، وقواعد اللغة الأنكليزية، فهي موهبة منه سبحانه ليس لي أيّ فضل فيها...

وعاد حبي للدراسة... ووجدتني لحظتها أتراجع عن قراري لترك الدراسة وأن أصمد وأتحدى وأواصل مشواري، عرفت حينها إنها العناية الإلهية التي يغدقها الله على عباده المحرومين جبرا لخواطرهم لما يمرون به من قمع ومآسي كونهم رفضوا مخططات البعث في مسخ الهوية الدينية لبلد الأنبياء والرسل والأئمة، ولولا المبادئ التي نحملها لما ذقنا ماذقناه من مطاردات ومضايقات وفقد للأحبة... حمدت الله كثيراً وصليت ركعتي شكر له سبحانه...

عنايته سبحانه رفعت من معنوياتي التي أراد أزلام البعث تحطيمها، وتجددت ثقتي بنفسي بعد أن أرادوا زعزعتها... نعم ها أنذا موجودة، ومعدلي أعلى من كل (نصيرات) حزب البعث ممن كن في نفس دفعتي، هؤلاء الطالبات اللواتي سخّرن كل مكرهن ودهائهن للتنصت والتجسس علينا وكتابة التقارير غير المنصفة عنا، ليتسلقن مناصب حزبهن الجائر على آلامنا ومعاناتنا... (ندى) النصيرة في حزب البعث، والتي أصبحتُ صديقتها بعد أن كنت هدفاً لمراقبتها، لم تنل سوى معدل 53% فقط ولم تنجح بدرس الرياضيات، تألمت لها على الرغم من كل شئ... هكذا هي إرادة الله شاءت أن أخرج إلى الحياة ثانية بعد أن قررت الانزواء في البيت، حفاظاً على نفسي ومراعاة لظروف عائلتي التي فرضتها سلطة البعث جورا.

نقاء ما رأت أباها ولم يرها

تذكرت نقاء إبنة أختي والتي لم تكمل عامها الأول... كنت أسمع عن صعوبة نسيان الصغار، وأن حبهم يعلق بشغاف القلب، وقد عرفت ذلك الآن، تلوح في ذهني عيناها الجميلتان ونظراتها البريئة في كل لحظة، وتتردد في أذني

كليمات نطقت بها، وأستشعر دفء أنفاسها عندما تقبلني، ونعومة كفيها الصغيرين عندما تعانقني.

ولدت (نقاء) في 5/ 1/ 1981 واستقبلناها بالبكاء، لمصيبتنا في أبيها وأعمامها وخالها جمال، شعرنا بأنها يتيمة قبل أن يتبين لنا مصير أبيها... أسميناها بهذا الاسم بعد أن عرفناه في إحدى روايات الشهيدة بنت الهدى (الفضيلة تنتصر) ولم يكن مألوفا... كان أغلب الناس ينطقه لقاء.

نقاء قد ملأت دارنا الكئيبة بصخب بريء، وشغلت والدتي بشغل جميل عن البكاء على ولدها البكر، وكم تحسرنا ألما ونحن نراها تكبر أمام أعيننا دون علم أبيها بمولدها، ودون أن تنعم بحنانه، مع كل عطف أبي الغامر لها، ورعاية والدتي وعنايتهما، وأذكر أنها مرضت ذات يوم، وأخذتها أمها مع أمي إلى الطبيب فسأل: أين أبوها؟ سألتاه لماذا تسأل عنه؟ قال: في عينيها حزن عميق كحزن اليتامى...

دللّها الجميع وأغرقوها بالهدايا والحلوى، وتلبى جميع رغباتها حرفياً، حتى أن أبي اشترى لها عنزة صغيرة تلهو بها في حديقة دارنا الخلفية، فضلاً عن سيارة ودراجة تسوقهما وأنواع اللعب... وجلال أخي كلما خرج لايعود إلّا بهدية لنقاء... كنت ألاعبها وأجالسها وأمضي ساعات معها وأنسى أني طالبة في السادس العلمي، كنت أهرب معها من واقع المدرسة الأليم، ومضايقات اتحاد الطلبة البعثي، وصعوبة المواد الدراسية... حتى في مدة (المراجعة) التي تسبق امتحانات نهاية العام للصفوف المنتهية لم أترك نقاء، أمها وأمي تنبهاني على ضرورة الدراسة فالأمتحانات اقتربت وآن أوانها...

وكم ظهيرة قضيتها أخيط لها أثوابا جميلة يبهرني إنجازها، ولم أكن أتوقع أني سأخيط وحدي دون تعليم، ربما لتعلقي بها كنت أبدع لها... نقاء التي كنت أهدهدها كي تنام وعبراتي تخنقني وأنا أراها تكبر دون أن تنعم بحنان أب

مغيب، لم تتعرف حتى على وجهه ولم يرها... وكم كانت محنتنا كبيرة عندما نطقت: بابا... لأول مرة.

أمي حرصت كثيرا على أن تتواصل نقاء مع جدها وجدتها فهي لهما كل ماتبقى من أبيها، هذان المسنان اللذان تكالبت عليهما نوائب الدهر ووجدا أنفسهما كافلين لعشرات الأيتام عندما أعتقل أبناؤهم الخمسة تاركين زوجاتهم وأطفالهم دون أي مصدر دخل، لتتحول هذه العائلة الميسورة الى فقيرة تحتار بقوت يومها، مما جعل الزوجات يخبزن أو يخيطن للناس من أجل لقمة الكفاف التي تحفظ ماء الوجه عن سؤال الناس... ظل أبوهم الحاج كاظم ملهود يعاني الحزن والعزلة الاجتماعية ومقاطعة ذوي رحمه خوفا من أن تطالهم يد البطش البعثي، وطالما مرت عليه وعلى زوجته ساعات من البكاء المر ندبا لأبنائهم الخمسة وهما يريان أيتامهم قد طحنتهم المحنة، وكم وقفا عاجزين أمام مشاكلهم المتشعبة فهم أيتام بمختلف الفئات العمرية تنوعت إحتياجاتهم بتنوع أعمارهم، وأصعب ماعاناه الحاج المسن هو مراجعة المدارس لأحفاده الذكور حيث يرفضون مراجعة أمهاتهم خجلا من زملائهم ومعلميهم، وإلحاح إدارة المدرسة على حضور الأب المغيب في دهاليز معتقلات البعث... تلك المواقف وغيرها جعلت جرحه نديا دائم النزف مما أحال ماتبقى من عمره الى حزن سرمدي.

كانت زيارة أمي ونقاء لهم فرحة مشوبة بالدموع، الجميع يبكي فقد الأحبة دون وعي من أن ذلك يرسخ في قلوب الأطفال آثارا نفسية مؤلمة قد لا يمحيها الزمان وإن طال، أضطرت الزوجات تزويج بناتهن وهن قاصرات لتخفف الحمل عنها، والى زج أبناءهن في عمالة مبكرة علّها تستعين بهم على شظف مايعانون من عيش وحمل ثقيل ما كن يتوقعنه يوما... وهكذا أحال البعث نهار هذه الأسر الفتية الى ليل موحش خال من كل ناصر ومعين سوى رحمة الله سبحانه، حين قاطعهم الأقربون وحاربهم الأبعدون.

بعد بضع سنوات واجهتهم مشكلة المستمسكات الرسمية كما واجهتنا

لنقاء، فلم يعد بيان الولادة وثيقة سارية المفعول في المرحلة النهائية للدراسة الابتدائية، وكم كانت تحرج نقاء وبنو عمومتها عندما ترسلهم المعلمات الى إدارة المدرسة كونهم لم يقدموا هويات أحوال شخصية، ولم تعد تنفع توسلات جدتهم بتلك الإدارات فالأوامر صارمة ولم تجرؤ إحداهن تجاوزها، راجع الجد مركز شرطة المنطقة طالبا مصير أبنائه، وبعد وابل من السباب والإهانات أعلموه أن على الزوجات مراجعة أمن بغداد ليطلبن ذلك بأنفسهن!!

ذهبن مكرهات مرعوبات يسوقهن مستقبل فلذات أكباد أودعها الأزواج المغيبون أمانة لديهن وقد فقدت مصائرهم... وبنفس الأساليب القمعية عوملن منذ لحظة وصولهن باب الدائرة المشؤومة... وكانت هديتهن من هؤلاء المجرمين شهادات وفاة ثبت فيها (الإعدام شنقا حتى الموت) صادرة من معسكر الرشيد بسبب الانتماء الى (حزب الدعوة العميل)، أختي خالدة رافقتها أمي لنفس المكان ولذات الغرض ونالتا قسطا وافرا من الأذى النفسي الذي ذاقته زوجات أعمام نقاء، بادرأحدهم والدتي: "حجية قدمي طلب علمود أولادك"... ولتفجع والدتي فجيعة أطفأت جذوة آمالها في حياتهما وعودتهما اليها عندما منحوها على الفور شهادتي وفاة لولديها... وتكرر ذات المشهد مع ذوي معتقلين حتى قيل: إن هذه الأوراق وهمية عمد اليها الطاغية ليبعد الأهالي عن ترددهم المتكرر الى دوائر أمنه البغيضة يسألون عن مصائر أبناءهم... أعادت هذه الأنباء الأمل الى قلب والدتي الثكلى وهي كلما استفتحت بالقرآن الكريم تصادفها آيات تتحدث عن الحياة، أحياء عند ربهم يرزقون... فظنت خيرا وانتظرتهم لأكثر من عقدين إنتظار المتيقن بعودتهما وقد خططت لهما مستقبلا تمنت تحقيقه طيلة سنوات البعث العجاف...

جامعة بغداد - كلية العلوم

كان علي الذهاب إلى الجامعة التكنولوجية مركز التقديم لتقديم أوراقي للقبول المركزي ولأنني ماتعودت الخروج وحدي صحبتني والدتي الحزينة، هي حنونه جداً وحريصة علينا ولم تأل جهدا لدعمنا مع معاناتها، وعندما ظهرت نتائج القبول رافقتني هي (رعاها الله وأطال في عمرها)، وأنا أبحث عن اسمي في تسلسلات الطلبة المقبولين، وفوجئت بأني قد قبلت في كلية العلوم- جامعة بغداد- قسم الكيمياء، وكلي أمل أن أقبل في كلية الصيدلة أو طب الاسنان بكيت ساعتها، نفس معدلي في العام السابق وما قبله كان في سلم القبول فيها، لكن امتيازات عوائل ضحايا حرب القادسية وهي في عامها الثاني من أعوامها الثمانية، جعلتهم يزاحموننا في الكليات المتقدمة دون شرط المعدل، فقد أصدر صدام عدة قرارات كي يخفف حنق عوائل ضحايا قادسيتة ومنها في الجانب التعليمي، وصار لذويهم الحق في دخول الكلية التي يرغب دون شرط المعدل... وهذا ماجعل المعدلات تتراجع لكليات أدنى من الطب والهندسة والصيدلة... وأعطى لعرب الجنسية من الطلبة الحق ذاته لدخول أي كلية يرغبون فيها دون شرط المعدل، فوجئت يوماً بزميلة لي هي فلسطينية الجنسية اسمها (رجاء) كانت تتميز بكسلها الواضح، ولم تنجح سنة واحدة من الدور الأول وإذا بها في كليتي، وعندما سألتها هل هي ضيفة علينا قالت: لا أنا طالبة في قسم الفيزياء!! بادرتها سائلةً: وكيف هذا؟ كم معدلك؟ أجابت ضاحكة بخُيلاء: 66%، فقط ولكني عربية الجنسية كما تعلمين!!

نعم صدام الذي تاجر بمقدرات الشعب جميعها ولم يفتهُ حتى مقاعد الدراسة فمن (عدالته) أن يتساوى الطالب العراقي المجدّ مع كسالى عرب الجنسية، ومع من لديه الحظوة والقبول من أبناء الوزراء وزمرته التي ساندته وأيدته ليفعل مافعل بالشعب العراقي... وأصدر قرارت من مايسمى بمجلس قيادة الثورة الذي ترأسه تنّجح وتخرّج أتباعه وعلى وزير التربية تنفيذها فورا!!

حين بدأ الدوام في الكلية أوصلني والداي إلى الأعظمية حيث مقر كلية العلوم- جامعة بغداد... ذهب أبي وبقيت أمي معي، فأستقبلنا طلبة وطالبات شباب يعلقون هويات على صدورهم هويات (باجات) كتب عليها الإسم وعبارة التشريفات... (تشريفات كلية العلوم)... استقبلوني بترحاب وعيونهم تتساءل عن حجابي وتحاول أن ترمقني بنظرات من يستهجن منظري هذا في الكلية... عندما دخلتُ دخل معي العديد من الطلبة والطالبات ممن تم قبولهم وجاؤوا للمباشرة... دخلنا الى صالة كبيرة فيها طاولات عديدة يجلس خلفها طالب أوطالبة من التشريفات يتولون أمور المقابلة، عندما جلست أمام إحداها بادرتني سائلة عن الاسم والقسم الذي قبلت فيه... أسئلة روتينية إلى أن وصلت إلى سؤال كان هو الأهم بالنسبة لي: هل أنت منتمية لاتحاد الطلبة؟؟

أجبت: كلا... أنا مستقلة... هنا بادر الشاب الذي يجلس إلى جنبها ويضع نفس الباج قائلاً بمكر متصنعاً الهدوء: ولماذا؟ كيف لم تنتمِ إلى الحزب وقد أكملت الإعدادية؟ فأجبته: ولماذا أنتمي؟ هنا تحيرّ وخانتهُ الإجابة: قال لأن الحزب والثورة لهما فضل علينا... و... شعرت أنه ليس سوى بوق أجوف فهو نفسه لم يستطع أن يعدد ولو حسنة واحدة للبعث رغم كونه ممثلا للاتحاد... حاولت إخفاء الإرتباك الذي أشعر به فنادرا ما أتحدث إلى رجل غريب... فأردفت: ألم يقل السيد الرئيس: (كل العراقيين الجيدين هم أبناء الثورة وهم بعثيون وإن لم ينتموا).؟

هنا ثارت ثورته ولم يعد ناعماً كما تصنّع فقال: "شجلبتوا بهاي المقوله؟... گالها الريس وابتله..." لم أجبه واكتفيت بابتسامة اصطنعتها... قال بامتعاض: على العموم اليوم أنت طالبة جامعية ويجب عليك الإنتماء للحزب... لأن الحزب بحاجة إلى الطاقات الشبابية جميعها، وأيدته رفيقته وأكّدت كلامه... أما أنا فكنت كمن عبر إلى ضفة أخرى، ولايريد الالتفات إلى الوراء، أجبته بثقة: الله كريم... لم يعجبه الرد فقال:نعم إنه كريم لكن ضروري انضمامك

لصفوف الحزب... سكتُّ ونظرت إليه ببرود... هنا بادرت رفيقته بلباقة: شكراً لك ياعطور ومرحباً بك في كليتنا كلية العلوم.

أجبتهما بانزعاج: شكراً لكما...

ألتفتُّ إلى القاعة قد خلت من جميع الطلبة الذين دخلوا معي في نفس الوقت للأختبار... فهم لم يمكثوا إلا قليلا... أما لأنهم بعثيون أصلا... أو أن لجنة المقابلات لم تركز عليهم فالبنات كن سافرات ولسن محجبات مثلي... خرجت متثاقلة وتيقنت بأن مسلسل الملاحقات الإتحادية المزعجة سيستمر معي كما كان في الإعدادية.

المقابلات عادة قبل الدوام ببضع أيام، ومقابلتي هذه حدثت في نهاية تشرين الأول 1981، وبدأ الدوام في الكلية 1 / 11/ 1981م، دخلت الكلية في يومي الأول لعامي الدراسي الأول، وقد مضى على اعتقال أخي الكبير جمال عام وبضعة أيام... وأوضاع بيتنا لم تهدأ... ووالدتي تجوب أرجاء بغداد حاملة كيسا فيه بعض الطعام والملابس له، تسأل عن دوائر الأمن التي لم تكن أكثرها معلومة سوى الأمن العامة وأمن بغداد... تبحث عن فلّذة كبدها... تعود آخر النهار خائبة باكية قد باءت مساعيها بالفشل... هؤلاء الجلادون ينكرون وجوده عندهم، ويسمعونها كلاماً جارحاً بأنها لم تربِهِ جيداً، وأنه ما دام خمينياً عليها أن تنسى أنّ لديها ولداً، وغير ذلك من (مآثرهم) التي تنضح من إنائهم المليء بالقذارة...

حاولت بداومي في الكلية أن أعيش واقعاً يبعدني عن أحزاني وهموم عائلتي الثكلى، وكم فرحت وأنا أرتدي (صدرية) المختبر البيضاء وأجري التجارب الكيميائية وأشاهد ألوان المحاليل وهي تتغير بمزجها مع بعض، وكم ضحكنا ببراءة عندما أسقط (عبد الخالق) زميلنا، مادته المخصصة له من بيكاربونات الكالسيوم قبل أجراء التجربة وكيف كانت نتائجه مختلفة تماماً عن نتائجنا لغياب هذا المركب من تجربته... دراستنا صعبة فهي غالباً باللغة

الأنكليزية، على عكس دراستنا الأعدادية، لكننا شجعنا بعضنا بعضاً، وتساعدنا في استحصال المعلومات... قلبي يمتلئ فرحاً عندما أجد في باحات الكلية فتيات محجبات فأبادرهن بالسلام أو يسبقنني اليه... مشاعر لا أعرف كيف أصفها فهي ليست قرابة دم أو نسب، بل صلة القرب من الله سبحانه حيث تجسدت المحبة في الله بشعوري الغامر بالحب لهولاء لطالبات دون أن أتعرف عليهن، أو تكون لي صلة سابقة بهن...

لم أداوم في كليتي سوى شهرين فقط مع العطل والاستراحات، تم اعتقالي يوم 30/ 12 / 1981... شهران نصيبي من كلية العلوم - جامعة بغداد... حيث كتب عليّ أن أُحرم مقعدي الدراسي الذي نلته باستحقاقي ولم يمنحه لي (القائد الضرورة) كما منح الطلبة العرب والكثير من أتباعه دون استحقاق...

في أروقة التعذيب المرعبة

طيلة أيام الاعتقال الأولى تواصل تفكيري مع كلّيتي، قد تم توزيع جدول امتحانات الفصل الأول علينا قبل يومين، بدأت أطابق أيام المعتقل الرهيبة مع ساعات الكلية الجميلة... الأحد امتحان كيمياء عملي، وأنا في أمن الثورة دون كتبي وملابس كليتي الرسمية... دون صديقاتي وزميلاتي، بل لازمتني الدموع وصرخات التعذيب الصادرة من غرفة التعذيب حيث نجلس تحت سلالم مقابلها... يأمروننا أن نغطي وجوهنا تحت العباءة عند بدء عمليات التحقيق كي لانتعرف عليهم، لكن العباءة لاتحجب الرؤيا تماماً، بل تبقى الملامح مرسومة شكلاً، وتبقى هيئة القمع واضحة... معتقل مكتوف إلى الخلف وعيناه معصوبتان يقتادهُ جلادان يسحبانه إلى غرفة التعذيب، يرافقهم ضابط التحقيق الذي ينزل عليه وابلاً من سياط، أو سيلاً من ضربات عصا غليظة (توثية) مع لسعات متتابعة من العصا الكهربائية، وكأنه يتسابق في إظهار جبروته حتى قبل دخوله إلى غرفة

التعذيب، وكثيراً ما سالت دماء المعتقلين على بلاط الممر المؤدي إلى غرفة التعذيب... صرخات متتالية وآهات نابعة من صميم معذّب من هول سياط القمع، ومن دناءة واقع أليم سلّط هؤلاء الجهلة على خيرة شباب العراق... فالجلاد يصب جام غضبه على كل معتقل ممن له درجة من العلم وأغلبهم كذلك، فمنهم: طبيب ومهندس وصيدلاني وخريج دراسات عليا ومنهم سيد وشيخ معمم وشيخ عشيرة فهم خير الناس حسباً ونسباً... هؤلاء من عارض فكر البعث الديكتاتوري، واختاروا حياة السجن ووابل التعذيب على هوان وذل البعث...

يزج المعتقل إلى غرفة التعذيب مع هؤلاء (الرفاق) وينضم إليهم آخرون ضباط ومحققون، وإذا أستوجب الأمر ينضم إليهم مدير الدائرة (مهدي الدليمي)، وهذا مايحدث في قضايا تنظيمات حزب الدعوة الواسعة وعند إلقاء القبض على أحد القياديين في هذا الحزب الذي أرقهم وأنزل فيهم رعبا جعلهم يواصلون الليل بالنهار لقمعه والقضاء عليه بكل ما أوتوا من جبروت وسطوة.

سهرات التعذيب... ساعات سرور ونشوة لهؤلاء المتلذذين بآلامنا... تبدأ بعد العشاء وتستمر حتى الصباح، فلا نوم للمعتقلين وصرخاتهم تدوي في أرجاء الدائرة وتوجعنا، وصار نادر أن تمر ليلة أو بعض ليالٍ دون هكذا (حفلات إجرامية)...

وعندما يغمى على أحد المعتقلين من جراء الأساليب الوحشية التي يتلقاها يسكبون ماءً عليه ويضربون وجهه، ولما يعجزون عن إفاقته يرسلون إلى طبيب، لا أعرف أين مقر إقامته لكنه قريب، فهو يأتي عادة بعد دقائق لفحص الضحية ترافقه ضحكات سخرية، وعبارات نابية، فيرش طبيبهم هذا رذاذ مادة أعتقد أنها النشادر كما أشارت الصيدلانية عالية عندما سألتها، ليستفيق المعذَّب من غيبوبته ويعيدونه إلى جولات التعذيب ثانية وثالثة و... وفي بعض الأحيان لايتمكن الطبيب من إعادة الضحية إلى وعيه لكونه قد فارق الحياة، في هكذا حاله... يعم السكون وينقطع وابل الكلام البذيء ويخرجون من غرفة التعذيب، تباعاً كأفاع زاحفة، ويقفل الحارس الباب ريثما يجدون مخرجاً!!

حينها يقوموا باستدعائنا استدعاءا مفتعلا إلى غرفة ضابط التحقيق (أبو جواد) لإخلائنا من مكاننا تحت السلالم المقابلة لغرفة التعذيب، ليتم إخراج جثة الضحية دون أن نراها... يدخلونها في حمام مجاور يقفل بابه بمفتاح عند الحارس، ليأخذوها في الصباح الباكر إلى مقبرة ما، أو يرمونها في الشارع، أو في النهر... لانعرف أين؟

يتفنون في القمع والأذى

أثناء جلوسنا تحت السلم نراهم من خلف العباءة وهم يقتادون معتقلاً بكامل قواه ويخرجونه أشبه بجثة، ودماؤه تسيل ليطرحوه أرضاً، فهولم يعد يقوى على المشي بعد ساعات من مسلسل التعذيب: التعليق والفلقة والعصا الغليظة وصعقات الكهرباء والعصا الكهربائية والكي، وكل مالم يخطر على بال بشر...

جرت عادتهم عند انتهائهم من التعذيب يطلبون من إحدانا تنظيف الغرفة كي ننام فيها... فلم يعد الحيز الذي تحت السلالم يسعنا للنوم بعد أن زاد عددنا عن الأربعة عشر بعد اعتقال عشر بنات من منطقة الكرادة في بغداد.

بتول وعالية هما من تتكفلان تنظيف الغرفة كونهما أكبرنا سنا، عالية صيدلانية ولديها من التجربة والخبرة في عملها، فهي قد اعتادت الدوام في المستشفى، لا يرعبها مثلنا منظر الدماء المتناثرة على أرضية الغرفة وجدرانها الخشبية، وتلملم بسرعة قطع الملابس التي ينتزعونها من المعتقلين، وأحذيتهم لتضعها في (سطل) حسب توجيه الحراس لها وتعود مسرعة وقد خطف لونها... أما بتول فهي ترتجف عندما يطلب منها ذلك، وكثيراً ما تعود إلينا باكية واصفة ماتراه مخلفات حفلات التعذيب دماء وملابس ممزقة وعصي غليظة مكسّرة... يسكبون قطرات من سائل الديتول على أرضية الغرفة عند مسحها كي تخفي رائحة الدم التي تفوح منها، مما تزيد من قبحها وتثير اشمئزازاً كبيراً في نفوسنا،

ندخلها لننام بعد ساعات طويلة من الانتظار ونحن جالسات تحت السلالم قد تصلبت عضلاتنا وعانى عمودنا الفقري من الجلوس بنفس الكيفية.

الكلام ممنوع أمامهم حتى ندخل الغرفة لنكون في أمان من أعينهم، وملاذاً لنزع عباءاتنا ومجال نتحدث فيه، خف الرعب الذي سببته لنا غرفة التعذيب بعد أن اعتدنا عليها، وهي أهون بكثير من بقائنا تحت السلم وتحت أنظارهم... عندما يقفل الحارس الباب، نتنفس الصعداء على الرغم أن الغرفة تفتقر الى أي هواء نقي فهي مغلّفة بإحكام بعدة طبقات لتمنع سماع أصوات التعذيب وبذلك نأمن سماعهم لأصواتنا، نهدأ لأننا نخلو ببعضنا... نحفظ آيات من القرآن الكريم... نصلي صلاة الليل (تيمماً) فلا يتوفر الماء للوضوء... تتحدث الأخوات عن قصصهن... يقوّي بعضنا بعضاً ويشدّ بعضنا عزم بعض... نتواصى ونتناصح... صمنا وصلينا أيام المعتقل، وطهارتنا الوحيدة هي التيمم بصعيد هذه الغرفة الموحشة، فلا غسل في هذه الدائرة ولا وضوء، والمغسلة الوحيدة في خارج المرحاض، يتعذر الوضوء فيها لأنها أمام أعين الحراس ولا يسمح لنا سوى بدقائق...

نتذاكر ماحفظناه من آيات مباركات أيام الدراسة، وما سمعناها من التلفزيون، ومن أدعية نحفظ بعضها ويساعد بعضنا بعضاً في إكمالها... الموت هو أقرب مايكون لنا، فنحن على ترقب أن يأخذونا إليه، أو يتركونا في هذه الغرفة المقفلة ويهربون عند دخول الجيش الايراني، فلقد بلغت الحرب عام 1982، وأُجبر الجيش العراقي على الخروج من أغلب الأراضي الإيرانية التي احتلها صدام بداية الحرب بعد تضحيات كبيرة في الأرواح والمعدات، وبدأت هجومات مضادة دخلت على أثرها القوات الإيرانية العراق بعد أن إستعادت سيادتها على أراضيها وتوسعت عليها...

بيانات هذه الحرب تذاع تباعاً من راديو صغير يحمله الحارس يستمع اليها بقلق... تتحدث عن خسائر (العدو) المبينة وخسائرنا المادية فقط كنوع من

التضليل الإعلامي، لكننا نجد الخوف والرعب يعلو وجوهم، ويرتبكون كثيراً عند صدور بيان عسكري...

نعم بعد مرور أشهر لم نعد نفكر في الحياة، ونحن في هذا المكان الكئيب الذي يتدفق الموت من كل جوانبه، وصرخات التعذيب تهز كياننا ليلا ونهارا، وأنات المعذبين تعتصر قلوبنا... واقع مظلم أسود وأد كل آمالنا وأحلامنا في الحياة، ولطالما تمنيت أن يكون كابوساً أستفيق منه...

أعداد المعتقلين تتزايد كل يوم، والمكان يضج بنزلائه... وفي ساعات متأخرة من الليل تتراكض أقدام وتتهيأ أسلحة ويشير أحدهم بإحضار سيارة، فهم يقومون بهجوم على عائلة مثل عائلتي، ويسمونه (صيده) لاصطياد ضحايا جدد!!

يخرج معهم ضابط وأحياناً المعتقل الذي أدلى باعترافه تحت وابل التعذيب، يغيبون بعض الوقت، ويعودون فرحين، وقد نالوا مآربهم في اعتقال هدفهم المسالم ليكون بطل حفلة التعذيب في تلك الليلة أو الساعات القادمة.

لا يرعون لنا أي حرمة لا كنساء ولا كبشر، حيث يوقظوننا أحيانا في ساعات الفجر الأولى كونهم يحتاجون غرفة التعذيب... ننهض مفزوعات ونظن أنهم سيقتلوننا... نعم لا يكفيهم كل أنواع الضرب بشتى أشكال العصي الخشبية والحديدية والكهربائية... يلجأون الى تعليق المعتقل ولا مكان غير هذه الغرفة لوجود أكثر من كلاب تعليق فيها، وجدرانها قد تشبعت بصرخات وحشرجات أناس لا يعلم عددهم الا الله سبحانه الحليم الذي يمهل هؤلاء ولن يهملهم وهو الحكم العدل.

جلادو أمن الثورة

المبنى كبير ويضم أقساما عديدة وكادره كبير، منهم محققون كالمقدم فراس التكريتي رجل أسمر قصير القامة ضعيف البنية يرتدي بزة زيتونية اللون وحذاءً بنياً معاً، وهي علامة مميزة له، أما صوته وطريقة كلامه فلا أعرف كيف أصفها، متكلف جداً بحديثه وصوته، كأنه صوت الصراصر المزعج في سكون الليل، ولهجته التي يتعمد التحدث بها ظانّا أنها تظهرعلو شأنه، فهو منتم لمسقط رأس صدام فعبارات: (عجل يابه) (ياولّو) وغيرها... من عبارات تعمد التكريتيون استخدامها كنوع من التعالي والشوفينية على باقي العراقيين... وربما هم محقون بهذا فصدام الحافي الوضيع قد غدى رئيساً للجمهورية وحقهم عليه أن ينهض بهم من بيئاتهم العفنة إلى مناصب عليا ويسلّطهم على رقابنا، عمد على منحهم رتباً عسكرية، فهذا مقدم وذا رائد وآخر نقيب دون أدنى مؤهلات علمية أو دراسة أكاديمية مثل منحه نفسه شهادات عليا فخرية... فهو لم يجد سنداً لسلطته الجائرة الا أبناء مدينة (العوجة) وقرى صلاح الدين وصحراء الغربية...

(المقدم) فراس كان يتفنن في تعذيب المعتقلين، وصوته المنكر الناعق بأقبح الألفاظ يلازم وابل سياطه، وعندما يتعب يبدأ بتوجيه الحراس افعلوا كذا... اضربوه هنا... إصقوه بالكهرباء... علقوه... ويجاهر قاسما بشرفه بأنه له صلاحية قتل ستة إلى سبعة من المعتقلين يومياً إذا لم يعترفوا، ولطالما ردّد هذه العبارة وهو ينهال على معتقل معلّق من يديه المكتوفة إلى ظهره إلى سقف غرفة التعذيب، وسيل من الضربات يتلقاها جسده من معذبيه، احتفالية التعذيب تشبع نزواتهم المريضة في إذلال العراقيين، وتشعرهم بأنهم الأقوى وعندهم زمام الأمور وغيرهم عبيد.

المحقق أبو جواد هكذا كان يكني نفسه ويسمي نفسه كاظم الركابي من قضاء المشخاب،تجاوز العقد الرابع من عمره، ضخم الجثة، كبير البطن، عيناه جاحظتان، ووجهه مكفهر، شارباه طويلان مثل أغلب البعثيين... أسمه الحقيقي

(علي الخيگاني)، صوته أجش ولهجته كلهجة أهالي النجف... أكثر شراسة على المعتقلين من فراس التكريتي، فهو يريد إظهار ولاءه لأسياده، وإعلان البراءة من جنوبيته... يتشدق دائماً بقوله: "أبويه شيخ معمم وأمي علويه بس آني عليمن طالع شايل توثيتي وأگصب بالشيعة" يرددها وهو يعذب المعتقلين... لسانه بذيء، وألفاظه نابية كرفاقه الجلادين... كان يردد هازئا: "عدنا امر من صدام يابابا يابابا... نقضي على حزب الدعوة يابابا يابابا!!"، خط على عصاه الغليظة تلك عبارة "البعث طريقنا"، يستهزأ بالمعذبين ويصف هذه العصا بالعلوية...

هو ضابط تحقيق هذه الدائرة ويساعد فراس ومعه مفوضان أحدهم: زيد هكذا يسمي نفسه،وزيد في العقد الرابع من عمره، أشيب الشعر، أبيض البشرة والنمش يعلوها، ملامحه شريرة، إذا تحدث ظهرت أسنانه الطويلة وكأنه ذئب، لاريب أنه كذلك فهي سمات ترتسم على وجه الإنسان من أفعاله الإجرامية، فكما هي علامات الهدوء وراحة البال تظهر على المؤمنين، تكون علامات الإجرام والعداوة والكراهية ترتسم على محيا هؤلاء، فهم كالعقارب والأفاعي دون أدنى مبالغة، ينسلخون عن إنسانيتهم وهم ينهالون حقداً وضرباً على المعتقلين، وتكاد الوحوش تأبى إذا تنعتهم بها...

لهجة هذا المفوض (موصلية)... يبالغ في إظهار نفسه بمظهر الأنيق، فهو يرتدي العديد من البدلات والملابس الفاخرة، ويصرعلى حمل مسبحة تنسجم معها استكمالاً لأناقته!!

كثيراً ماكان يتحدث إلى الصيدلانية عالية، ويسألها عن وصفات طبية مستثمراً علميتها، ولا يخجل عندما يحدثها عن مغامراته مع النساء، وكيف هو موضع إعجابهن لمظهره وسيارته الفاخرة... لم نسمع ذلك منه مباشرة، وإنما الشهيدة عالية حدثتنا عنه محذرةً إيانا منه، وأن لايلتفت إلى وجوهنا فقد عَبرّت عنه بأنه: (زير نساء)... عبارة مافهمت معناها، وإنما فهمت أنها صفة مذمومة فقط.

كان دونا عن الجميع يمر يومياً إلى غرفة التعذيب (غرفة مبيتنا) ليلقي السلام متصفحاً وجوه المعتقلات وهن يبالغن في التستر عند قدومه، وكثيراً ما سأل عن الأسماء وعن البنات الجدد.

وعندما عرف اسمي حدق فيَ مليا ثم قال متهكماً: عطور فرنسية أم إنكليزية؟؟

لم أجبه لكنه حفظ اسمي أكثر من بقية المعتقلات لأن في اسمي شيء من الغرابة...

هو إداري ومسؤول قسم القلم (الذاتية) في الطابق العلوي ولم يكلف يوماً بالتعذيب... لكنه يشارك عندما يسمع صراخ أي معتقل الصادر من غرفة التعذيب ويتذلل ويتملق ويتقرب لأسياده من ضباط التحقيق، أو مدير المديرية بإظهار قسوته... شعرت أنه يشفي غليله وحقده الدفين على من أوقعتهم الأقدار في قبضة أمثاله... لطالما عجبت من هؤلاء لانعدام معنى للرحمة في قلوبهم، وعجبت أكثر أنهم يتجاهرون بالعنف ويتباهون بسفك الدماء... ولكن هذا ليس عجيباً على البعث الجائر ومن التف حول أهدافه الشوفينية.

مفوض آخر سمى نفسه (عيّاد) شكله غير نظامي فهو ضخم الجثة، مفتول العضلات، أجعد الشعر لدرجة كبيرة (منفوش)، وشاربان كثان، وعيناه ملونتان، النظرة الأولى إليه تشعرك بالضحك فهو أشبه بالمهرّج... يتحدث عياد بلهجة أهل الجنوب، ويحمل ملامحهم، ويلوح على معصميه وشم ريفي، هو غليظ وقاس، ولطالما عذّب المعتقلين متطوعاً، فهو الآخر ليس من اختصاصه التحقيق،هو ممن يدير أحد أقسام القلم أو الذاتية كقرينه زيد الموصلي...

في هذا المكان الموحش التقرب للأسياد لايتم إلاعبر الإيغال في إيلام المعتقلين، ووسائل التعذيب التي يمارسها هؤلاء ضد الأبرياء... في هذه الدائرة المشؤومة لايوجد أي أحد منهم مستثنى من الإجرام... كلهم مشتركون به، وقد تلطخت أياديهم بدمائنا...

حتى الذي يجلب وجبات الطعام (أبو كريم)، وهو رجل بسيط كأنه فلاح، يرتدي دشداشة رثة يشد فوقها حزاماً بالياً ويلف رأسه بشماغ رث... هو مقاول تم التعاقد معه على تجهيز وجبات الطعام الرديئة لهذه الدائرة... هو لايتوانى من ضرب المعتقلين بعصا لمرات وهم معلقون في السقف، مساهمة منه طوعية مصحوبة بالسباب والشتائم وكأنه يريد أن يوقع مع سادته عقد ولاء...

أي دنيا هذه قد انتهُكَت فيها حقوق الإنسان واستحالت الى ميدان لسباق خيل هوجاء... تسابق فيها أراذل الناس، وتسلط أزلام البعث ومن تبعهم في ركبه البغيض على أشرف الناس بلا أدنى حساب لإنسانية المعذبين وكرامتهم...

مصائرهم يتقاسمها شرذمة من موظفي هذه الدائرة، ويتسلقون بحبال آهاتهم، طالبين رضا ساداتهم، والسادات يتملقون للأعلى منهم وهكذا... دوّامات الألم والعذاب وقود دائم لحركة هؤلاء الذين تجّردوا من الإنسانية، وأوهموا أنفسهم أنهم يدافعون عن الوطن...

ينعتوننا بالخونة ونحن أشد الناس إخلاصاً لهذا الوطن، فلم نبخل بدمائنا وحرياتنا ومستقبلنا، وتحملنا صنوف العذاب من أجل الخلاص من عصابة البعث، وعلى رأسها صدام (اللقيط)... يعلمون جيدا أن من ينعتونه بالخائن هو أشد الناس أمانة، ومن يسمونه بالعميل هو أشد الناس وطنية ومن يمزقون جسده بسياطهم حقدا عليه هو أشرف منهم حسبا ونسبا بل وأفضل منهم خلقا وخُلُقا.

عندما يجتمع الجهل والحقد

تساءلت في نفسي أي ظروف تخرج الإنسان من رحمته وتحيله إلى حيوان مفترس متعطش للدماء؟ بل وأشد سوءاً من الحيوان، فلعله عندما يشبع لايتعرض أحد، لكن هؤلاء نهمهم شديد لإراقة الدماء وتعذيب السجناء... فهم يتلذذون

بسماع أنات المعتقلين وصرخاتهم وهم تحت سياط التعذيب...

حراس هذه الدائرة لم يكونوا على مستوى من التعليم بل إنهم يفتقرون لأي تحصيل دراسي... الحارس يوسف شاب قصير القامة من أهالي بيجي محافظة صلاح الدين... يحلم باجتيازه إمتحانا خارجيا كي يحصل على الشهادة الابتدائية، كما أنه يجد الإمتحان معضلة كبيرة ويقول أدعو لي أن انجح!!!

أما الحارس طارق شاب أسمر جامد العينين له وجه مليء بحفر خلفتها بثور الشباب زادت وجهه الأسود قتامة... طارق هذا على درجة كبيرة من الغباء فهو أشبه ب (روبوت)... وأكاد أجزم إنه لم ينل شهادة المتوسطة التي يتشدق بها دائما أمام أقرانه الجهلاء...

ذات يوم ضاق تنفس إحدى المعتقلات التي تشكو من الربو وطرقنا الباب على الحراس كي يسعفوها بطبيب فجاء هذا الغبي منزعجا قائلا: لماذا تحتاجون الى طبيب؟اليست عطور معكم طبيبة!! تفاءلت خيرا وقلت له:أنا؟؟ أجاب واثقا:نعم ألستِ في كلية الطب؟؟ أدركت فورا أنه لايميز بين كلية العلوم وكلية الطب...

الحارس رحيم شاب طويل نحيف راسه صغير يبدو كانه فأرة، عيناه جامدتان بلا أي تعابير (حقا إنها صفة تميزهم جميعا)عيونهم تخلو من الحياة ربما لهول ما أجرموه بحق شرفاء العراق... أسمته هدى رحيم الطفل... رحيم هذا يصر على حمل جريدة بيده متظاهرا أنه مثقف، وكيف لا وهو مأمور بمراقبة خيرة شباب العراق ومثقفيه، منهم طبيب ومهندس وطالب مجموعة طبية وطالب هندسة ومنهم استاذ جامعة أو عسكري... فهو يتضاءل أمام ما يحملوه من حسب ونسب وشرف وعلم ودين ومبدأ، هو على علم بأنهم لم يعتقلوا لأسباب أخلاقية أو فساد إداري، بل إنهم سياسيون معارضون رفضوا صدامهم الذي ألهّوه ولم يهنوا ولم ينكلوا كما وهنوا هم... ولم ينخدعوا بوعوده ولم تغرهم دنياه.

لم نشعر أنهم بشر... كانوا أشبه بآلات ينفذون كل مايطلب منهم دون أدنى

تردد منسلخين عن إنسانيتهم وعراقيتهم، فهم يعتبرون أذاهم لنا واجباً وطنياً، وأفضل وسيلة للتقرب إلى سلطانهم...

أعجب كيف اختارهم صدام ليكونوا له عونا فقد تفنن وحرص على أن يكونوا من أراذل الناس في كل شيء فهم ممتلئون بالعقد العديدة المركبة، وأغلبهم كان يعجب من قميص يرتديه أحد المعتقلين، أو حذاء ينتعله ويصب جام غضبه عليه متلفظا كلمات تنّم عن حقده الدفين هذا لكل صفة يحملها معذَبَهم: "شتريد بعد شاب وحلو وهدومك تخبل ليش تصير بحزب الدعوة العميل؟؟؟"أو يصيح وهويضربه: "أكو واحد بالكلية ويمشي بهذا الدرب... ولك بيد من واكعة كليتك هاي؟؟" وكلما كان التحصيل عاليا كلما نال صاحبه ركلة أو ضربة بالحذاء إمعانا في إذلاله وتحقيره، المعتقلون جلهم خريجون أو على وشك التخرج وعلى مستوى عال من الوعي يجعلهم حتما في صفوف معارضة البعث ومناوأة سياساته.

مآسي الحروب من سمات سلطة البعث

عمد صدام على إهانة العلم والمتعلمين ولم يأبه لشهادات عليا وكفاءات علمية، ولم يمنعه حاجة البلد لها أو يردعه من إعدامه لأصحابها أو وزجهم في سوح قتال لم تفرق محرقتها بين جاهل وعالم، كلهم وقود لنارها المستعرة على مدى ثماني سنوات عجاف، ولم تبق فئة من الرجال لم تدخل هذه الحرب الشعواء... فمرة التجنيد الإلزامي وأخرى خدمة الإحتياط وثالثة خدمة الجيش الشعبي والمفروض أن يكون تطوعا لكنه كان الإجبار بعينه!!

الرفاق البعثيون يطوقون البيوت التي يعرفون أن فيها شبابا أو رجالا من عمر الثامنة عشر فما فوق وإن تجاوز الخمسين أو الستين عاما، يساعدهم ويدلّهم عليها مختار المنطقة وهو غالبا مايكون من أزلامهم... وتمنت الكثير من

الأمهات أنها لم تلد الذكور فما دام مصيرهم الموت المحتم على يد هذا الحاكم المستبد...

شهدنا قبل هذه الحرب مآس كثيرة لم يكن مفصح عنها في الاعلام، ذات ضحى يوم صيفي من عام 1972... تعالت صيحات جماعية مفجعة من بيت جيراننا أم عبد زيد... ولأن بيتهم لصيقا لبيتنا كانت أصواتهن تهز الوجدان وترعبني: "يبووو... يبووو... يبووو" متواصلة وبأعلى ما في وسعهن... خرجن وجميع رجالهن مجتمعين حول تابوت لف بالعلم العراقي مربوطا فوق سيارة أجرة (تاكسي) بلونيها الأبيض والبرتقالي، وأنا ارتعد فرقا ويكاد قلبي يتوقف لكن الفضول ألّح علّي وصعدت مع أختي الى سطح الدار لعلّي أحيط بكامل المشهد... رأيناهم يبكون جميعا وهن يلطمن وقد شققن جيوبهن، وتتعالى صيحات من أمه وأخواته واحدة تصيح من أعماقها باختناق وأسى: " وليدي " وأخريات يصحن بجنون: "أخويه"..."ياعريس... يامحصّر"... إنه فاضل ذلك الشاب الأسمر العشريني قتل في حرب الشمال وهي اشتباكات متواصلة بين الجيش العراقي والأكراد (العصاة) هكذا كانوا ينعتونهم... كنت لأول مرة أرى فيها تابوت، وسمعت من إبنة أخيه أنه كان مقطعا إربا... مما جعلني أرتعد خوفا وأنا طفلة صغيرة... كوابيس مفزعة تؤرقني وأوقظ أمي قائلة: "يمه... أخاف"... وأمي المتعبة من خدمتنا ويومها المضني بالكاد تفتح عينيها وتقول: "حبابه اقري سورة الناس ونامي"...

أذهب الى فراشي مرتعبة وكوابيس تتوالى علي... لم قتلوه وكيف قطعوه؟؟كلما أغمضت عيناي كانت عيناه حمراوتان ترمقني برأسه المقطوع وأفزع من نومي... كلمات إبنة اخيه ترن في أذني: مقطّعا... واستمرت مخاوفي طيلة أيام عزاءه السبعة وأصوات اللطم والبكاء وجموع النساء المعزيات ومكبرات الصوت التي نصبوا إحداها على سطح دارنا وسرادق العزاء الكبيرة تستقبل جموع الرجال... وذبح عشرات الأغنام لإطعام المعزين، كان مصابا جللا لجيراننا هؤلاء أن يفقدوا شابا على وشك الزواج وهو قد مثّل به.

تساءلت حينها ماالذي يجعل الحكومة تتحكم في حياة الناس؟ ولماذا لا يعترض أهله لما جرى لولدهم الغالي؟ وتعجبت من إجرام ووحشية قاتليه... يكفي قتله لماذا يقطعوه... نعم أرعبتني عبارة التقطيع دون أن أرى شيئا.

في حقبة البعث انتشر الرعب وبكيفيات متنوعة وأسس البعثيون أساس سلطتهم عليها ليريعوا الناس دون استثناء.

الجيش الشعبي واتحاد النساء أنساق قمع وفساد

تعمد صدام الظلم والإساءة للعراقيين وعلى جميع الأصعدة، وربط كل الأمور بحربه مع إيران (قادسية صدام)، تلك الحرب التي لايعرف العراقيون أسبابها وأهدافها، وكل مايعلمون عنها أنها محرقة لشباب العراق ورجاله يساقون قسرا إلى ساحات القتال، ويسد الفراغ في دوائر الدولة ومرافق الحياة بالمصريين والسودانيين والهنود، هكذا أصبح العراق مرتعاً لكل الجنسيات، فهو يغدق عليهم بسخاء رواتب مغرية وبالعملة الصعبة، ويزج بأبناء العراق إلى أتون (القادسية) الذي بقي مشتعلاً ثمانية سنوات سوداء، رمّلت النساء ويتمت الأطفال وثكلت الأمهات ولم يعفَ من المشاركة فيها أي رجل بلغ الثامنة عشر وإن كان طالباً، إذ عليه أن يخدم في العطلة الصيفية، بعد تدريب مبسط ومختصرعلى السلاح.

الى جانب الجيش النظامي تم تشكيل ما يسمى بالجيش الشعبي وهوجيش (المتطوعين) من أبناء الشعب هكذا أعلن عنه ظهيرا للجيش العراقي!!

التطوع هو الاختيار الإرادي وليس الإجبار ووصف هذا الجيش بالمتطوعين كذبة كبيرة، حيث يجبر كل رجل من عمر خمسة عشر عاما فمافوق باختطافه من بيته من قبل (الرفاق) مرغمين إياه على (التطوع)... نعم لا اختيار في قاموس

البعث... أراد صدام عسكرة الشعب بعد عسكرة الدولة فأنشأ تشكيلات لكل فئة عمرية (طلائع البعث)، وهذه مخصصة لطلاب الابتدائية، يرتدون ملابس عسكرية مرقطة زرقاء، و (أشبال البعث) وهذا يشمل طلاب المتوسطة والإعدادية، ويرتدون ملابس مرقطة خضراء... و (الماجدات) القسم العسكري في الاتحاد العام لنساء العراق يرتدين الزي العسكري... كما أنه ووزراءه والدرجات العليا من الموظفين كلهم ارتدوا الملابس العسكرية (البدلة الزيتوني)...

كم كانت ثقيلة رؤية هذه الملابس الخاكية والعسكرية ولونها الغامق في كل المحافل فهي تضفي مزيدا من الكآبة على قلوب لوّعتها سياساتهم القسرية المتعددة الأبعاد وأصرت على فرضها واقعا مؤلما يلازمك ينسيك معالم طبيعة العراق الجميلة، بعد الاعتقال لم نرَ غير اللون الزيتوني الغامق الكئيب يطغى على المكان وحتى لون الكيس الذي يجلبون به الصمون.

يحتجزون (المتطوعين) في معسكرات ما يسمى بالجيش الشعبي ليتم تزويدهم ببدلة عسكرية مع قطعة سلاح، ثم يسوقونهم زجرا زرافات زرافات الى جبهات القتال دون تدريب كاف... وحفلات توديع قوافل ذلك (الجيش) تبث يوميا على شاشة التلفاز من القناة الوحيدة لتلفزيون العراق حيث تظهر لقطات يظهر فيها طه ياسين رمضان الجزراوي ومعه عدد من (الرفاق) وهم يرتدون البزات العسكرية وتظهر وجوه العراقيين الحيارى ممن أجبروا (تطوعا)على الدفاع عن البعث وبشكل أحيانا يثير السخرية فضلا عن الشفقة، وتجد شابا يافعا يقف الى جانب رجل كهل وليس ما ينم عن أنهم سيبلون بلاءا حسنا في حرب الثمانية أعوام.

ولإضفاء المقبولية على إكراههم هذا تقف نساء تنثر الزهور وتودع القوافل مزغردات، هن عضوات الإتحاد العام لنساء العراق برئاسة منال يونس الآلوسي... هذه المرأة التي لعبت أكثر من دور في متابعة أي نشاط ديني أو سياسي لنساء العراق ومثقفاته، ويدور حديث من هنا وهمسات من هناك عن

دورها الفاحش في إرضاء رغبات لا مشروعة لرئيس الجمهورية وولديه وأزلامه من خلال ترغيب الشابات الجميلات وطالبات جامعات والتغرير بهن وسوقهن كبغايا الى تلك القصور العديدة، حيث تقام حفلات المجون حتى ساعات الصباح وشباب العراق لاينامون ليلهم بين سجين تحت سياط التعذيب، وجندي يرتجف فرقا في مواضع القتال وهو فريسة العقارب والأفاعي في صحراء الحدود، وبين مطارد يهيم على وجهه في أرض الله الواسعة يحلم بسقف يحميه أو بيت يضمه...

في تموز عام 1983نصت وثيقة صادرة عن رئيس مجلس إدراة نادي الصيد في بغداد منطقة المنصور وموجّهة إلى الإتحاد العام لنساء العراق مايلي: " (سري للغاية) م/ حفلة ترفيهية ساهرة نهديكم أطيب التحية: سوف يقام حفل ترفيهي ساهر خاص في نادي الصيد العراقي بمناسبة ثورة 17 تموز العظيمة يشترك فيها عدد من الفنانين والفنانات ويحضره عدد من ضباط الجيش الأشاوس في الجبهة.

فيرجى إعلامنا فيما إذا كان عدد من أعضاء إتحادكم ممن ترغب بحضور هذه الحفل للترفيه عن ضباطنا الأشاوس وممن لايمانعن من البقاء إلى وقت متأخر من الليل بدون ذويهن ليتسنى لنا إعداد مايقتضيه الموقف وسوف تمنح مكافآت مغرية جدا لهن وسوف نعلمكم بالموعد المضبوط... مع الشكروالتقدير".

أي استهانة... وأي استخفاف بسمعة وشرف العراقيات!! وأي منظومة فساد صنعها هذا الطاغية بمسميات برّاقة وهي تخفي خلفها مخططات هدم قيم مجتمع محافظ له كل هذا العمق الحضاري والإرث الديني!! ثم يتبجح صدام بمنطق الماجدات وحرائر العراق.

وتستمر رحى الحرب الطاحنة

رائحة الدم فاحت في أرض العراق وتصاعدت الى سمائه... دماء في المعتقلات... دماء في المقاصل اليومية... دماء في المقابر الجماعية... ودماء في جبهات القتال.

سنوات الحرب أشد وقعا على العراقيين من سنين يوسف السبع العجاف... لاترى سوى الخوف والدموع والثياب السود... وطريق المقابر تسعى له دائبة الأعلام العراقية التي تلف توابيت الضحايا ويتضاعف عددها عند كل هجوم جديد...

بيانات النصر (المبين) تذاع تباعا عبر الراديو والتلفزيون ترعب العوائل العراقية... فكل لديها جندي أو أكثر في جبهات القتال الممتدة من أقصى الشمال وحتى أقصى الجنوب... شهدتُ الحرب في العام الأول منها قبل اعتقالي، وبعد خروجي من السجن شهدتُ ما يقارب الثلاث أعوام الأخيرة منها... فقد وأسر وقتل عدد من أقاربنا ومعارفنا وجيراننا... شباب غض حظهم العاثر جعلهم من مواليد حقبة صدام المظلمة...

فقدت عمتي فاطمة ولديها الوحيدين هادي ويحيى بالأسر أو القتل ولم يعودوا لهذه اللحظة... وفُقد جارنا باسم الشاب العريس... وسلّم أياد ابن خالي نفسه الى الجانب الإيراني هربا من ضيم جبهات الموت المحتم، وترملت نساء كثيرات وهن في أيام شهر العسل كما يقولون... وتيتم أطفال كثيرون لموت آبائهم أثناء الخدمة العسكرية الإلزامية، أو (التطوع)الإجباري للجيش الشعبي أو خدمة الاحتياط التي لم تستثني حملة الشهادات العليا وهم أفضل شريحة حظا!!إذ تقتصر خدمتهم العسكرية على ثلاثة سنوات فقط...

وكلما اشتدت رحى الحرب كلما شدد الجلادون على المعتقلين في دوائر الأمن فكانوا أحيانا لايتمالكون أنفسهم وهم يعذبون أحد المعتقلين ويصرخ أحدهم قائلا بحقد: "شتسوون بينا إذا صرتوا؟؟لازم نقضي عليكم".

حالة تشبه الإنذار عندما يشن هجوم جديد... يتراكضون، يتهامسون أشعر أنهم يخططون للهرب عند ساعة الصفر... فكنت أحاول استطلاع المكان ما استطعت لايجاد منفذ للخروج إن هم هربوا وتركونا...

رغم جبروتهم هم كالجرذان تخاف من ومضة نور وتهرب الى جحورها... ورغم تسلحهم بشتى الأسلحة وأدوات التعذيب المرعبة يشعرون بالخواء والضعف أمام صلابة وإيمان المعتقلين العزّل...

مشهد من قسوتهم الهمجية

إضاءة هذا المعتقل ضعيفة مصدرها عدد من مصابيح صفراء توزعت بشحة في أرجائه، ومما يزيد المشهد قباحة وكآبة انعكاسها على جدران المبنى الرطبة وقد تفقعت أسطحها وزال عنها الدهان القديم، وتدلّت على أركانها بيوت عنكبوت قديمة مشبعة بالأتربة والدخان.

لن أنسى منظر أحد الجلادين وهو يسوق معتقلا الى غرفة التعذيب ساحبا إياه من ياقته بيده اليسرى ويضربه بالعصا الغليظة بيده اليمنى، فضلاً عن ركلات عنيفة من كلي رجليه أينما يتاح له الركل، ووابل من الشتائم والسباب الذي لا ينضح الا من آنيتهم القذرة، كان يستعرض قسوته كما الأفلام.

قبيح الشكل داكن البشرة ذو أنف طويل معقوف الى أعلى، أعياه تعذيب هذا الشاب فأتكأ على الحائط يدخن سيكارة يلتفظ أنفاسه المتعبة بعد أن أجهد نفسه في أداء مهمة القمع والتنكيل لفتى يافع من مظهره يبدو أنه طالب جامعي، قميصه الأبيض ممزقا من الضرب وقد تناثرت عليه بقع الدماء وتقطعت أزراره وهوحافي القدمين.

حلقات الدخان تتصاعد من فمه بأتجاه ذلك المصباح الأصفر، وهو يتصنع

ذلك متعمداً برفع رأسه الى الأعلى متباهياً بأنه سيد الموقف، ينفثها ربما ليزيح عن صدره وخزات ضمير يلفظ أنفاسه الأخيرة، وفريسته في انتظار إجرامه ملقاة على أرض الغرفة المرعبة والدماء تسيل من جراحه العديدة.

استحضرتني الآية الكريمة: (و سيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون والعاقبة للمتقين) همست بها الى عالية التي جاورتني ذلك اليوم في جلستنا تحت السلالم قبالته، لما سمعتني أتلوها بكت وقالت: أحسنت يا عطور إنه سبحانه يمهل ولا يهمل، وقتها قلت لها أتمنى لو أن لدي ورقة وقلم لرسمته فلن أجد أكثر وصفاً للظالمين من هؤلاء وهذا المتعجرف بالذات، كانت لدي هواية في الرسم وربما لأنني منعت إياها قسراً صرت أحن اليها أكثر، لدي بوادر الكتابة آنذاك وتاقت نفسي للقلم والأوراق لكن هيهات في ذلك المكان الممنوع فيه كل شيء، إذ وجدتني في ذلك المكان الموحش لا سلوى لي ولا عزاء الا بذكر الله ووجود أخواتي الطيبات من مجاميع المعتقلات التي توالت تباعاً اليه.

وجدتني أكبر سناً وأكثر فهماً من سابق حالي لبضع شهور مضت... نعم كانت المحنة درس بالغ، بل جملة دروس وعبر وخبرة قد آلمتني أول الامر الا أنني حمدت الله كثيراً وأنا ألمس أنني كل لحظة في هذا المكان إزداد وعياً وإدراكاً وتحملاً للمسؤولية.

في هذا المكان ليس أمام المرء الا أن يكون هو كل شيء لنفسه، فكل راحل ولا أحد يدوم، لذا قررت أن لا أتعلق بأحد وأن أحكّم عقلي بطريقة أفضل، وأقلل من عواطفي ودموعي التي كانت تنساب بغرازة لأبسط موقف قد لا يهز مشاعر آخرين...

فاطمة الحسيني... جبل شامخ

بعد عشرة أيام أعتقلت العلوية فاطمة الحسيني... شابة سمراء في العشرينات، عيناها واسعتان، ورموشها كثيفة سوداء، وجهها مستدير، ابتسامتها تكشف عن أسنان كاللؤلؤ، صوتها ناعم رخيم، قصيرة القامة، ممتلئة القوام... ترتدي عباءة وفوطة ودشداشة منقوشة بورود... هذا ليس لباسها ولم يكن يوما لباسها، فهي محجبة ترتدي جبة وربطة ككلنا، لكنها بعد اعتقال زوجها شدّت العزم على مواصلة مسيرته، وانخرطت في صفوف العمل الإسلامي، فأصبحت مسؤولة الخط النسوي لحزب الدعوة الاسلامية لأكثر من منطقة من مناطق بغداد... تحركت على بنات جنسها من الفتيات المؤمنات، فهي مسؤولة عن خط الثورة والكرادة وشارع فلسطين... عملها الدؤوب في شحذ الهمم إذ واصلت الليل بالنهار تتنقل بين أخواتها وتنشر فكر الاسلام وتحث على قول كلمة الحق في وجه سلطان جائر وهو أعظم الجهاد، ولا جور أكبر مما جارت به هذه العصابة التي تسلطت على عراق المقدسات، لذا لابد من التنظيم للوقوف بوجه مخطط البعث في طمس الهوية الدينية لبلاد الأنبياء...

وبهذا تنكرت بمظهر المرأة الفلاحة، كي لاتثير ريبة في تنقلاتها العديدة في أرجاء بغداد الحبيبة... بغداد مسقط رأسها ومهد ولادتها التي ما استطاعت خلاصها من أيادي هؤلاء الأوباش، فقد تم اعتقالها وبدأ معها التحقيق... تحقيق قاس وحشي لم يجر حتى مع الرجال...

استمرتحقيقها أكثر من عشرة أيام متواصلة، وأنزلوا بها أنواع العذاب: التعليق، الفلقة، الكي بالكاوية،الصعق بالكهرباء، الضرب بأنواع العصي والكيبلات... وتحقيقها هذا كان حفلة من حفلات التعذيب التي يجتمع فيها رؤوس هذه الدائرة... المدير وضباط التحقيق والمفوضون، وأحياناً يدعون محققين من دوائر أخرى، نعم أعلنت حالة إنذار طيلة مدة التحقيق معها...

وفاطمة الحسيني صامدة صابرة لاتنبس شفتاها إلا بذكر الله... راعهم هذا الثبات، فقد وصلت لهم اعترافات المتخاذل الذي وشى واعترف بكل خطوط فاطمة النسوية، واعترف عليها ضمن مجموعة كبيرة من الشباب المؤمن في مدينة الثورة وبغداد الجديدة ومناطق أخرى.

عبثاً كان صمودها، وإنكارها الأبي هذا إثبت لهم على أنها حقا داعية إسلامية، وما انفكوا يصرّون على اعترافها، وفاطمة تصر على الثبات والإنكار، فلم يجدوا أصلب منها وأعييتهم الحيلة وضاقت بهم السبل، وتحولت المسألة إلى صراع إرادات، فقد قهرتهم جميعهم، وتحملت كل صنوف التعذيب، هم أمعنوا في إيذائها نفسياً وإذلالها، وبقيت صامدة صابرة، فقد عاهدت الله سبحانه أن لاتكون سبباً في اعتقال أحد وإن أزهقت روحها... وكذلك استخدموا معها التيزاب وسكبوه على ساقيها، وفي مناطق حساسة من جسدها... لم يكن أمامنا سوى الدعاء لها، ونتألم كثيرا ونحن نسمع صرخاتها، وحشرجة أنفاسها، وتقطع نبراتها عندما يرجونها بالكهرباء...

يومياً من الصباح يسوقونها إلى التعذيب، ولا يعيدونها إلاعند المساء، وعندما تتقرح قدماها يمهلونها يوماً أو بعض يوم لتقوى على الحراك ويعيدون عليها التعذيب...

يأخذونها وهي تمشي على قدميها، ويرجعونها زاحفة على ركبتيها بسبب تشقق وتورم أقدامها من ضربهم لها بالفلقة، أو يغمى عليها من شدة الألم فيحملونها في بطانية يلقونها كجثة هامدة دون أي مبالاة...

أرَقتنا قضية فاطمة علي طالب، وسلبتنا كل تفكير عدا التفكير بخلاصها من أيدي هؤلاء الجلادين، ولم نجد إلا ختمات الدعاء، والتوسل إلى الله بأن يشغلهم عنها بشغل شاغل... كانت أصواتهم الصادرة من غرفة المحقق أبي جواد تعبّرعن انهيارهم وعصبيتهم، المحققون استغربوا هكذا صمود واصرار، ولم يعلموا أنهم ضعاف لهذا الحد، إمرأة مجردة من كل سلاح تذلهم وترغم أنوفهم، رغم إجتماعهم عليها وهم مسلحون بصنوف التعذيب، غلبتهم وهي الرقيقة العزلاء.

ولطالما صرخوا مخاطبين إياها... كل المعلومات عندنا لكننا نريدها إعترافاً منك... وهي لم تصدق هذا بل ظنتهُ نوعاً من إستدراجها للاعتراف، ولم يخطر على بالها أن الذي حسبته مثلاً أعلى وقدوة في الجهاد يعترف عليها، ولا يتحمل في سبيل الله بعض ماتحملته، وهو رجل قوي البدن، واصلت صمودها وثباتها فهي قد عاهدت الزهراء عليها السلام أنها لن تبوح بسر وإن قطعوها إربا إربا.

لزمت الصمت ولم تنبس ببنت شفة، وأوصلتهم إلى درجة اليأس، فقرروا إدانتها باعترافات غيرها، وكتبوا لها إفادة كي توقع عليها، وهذا أقصى ماتمكنوا عليه.

يالها من لبوة هزمتهم، وهم مدججون بأنواع الإرهاب والصلاحيات القمعية، فتفرّط جمعهم خائبين، وأذهلتهم وكسرت هيبتهم وزعزعت ثقتهم بقوة بطشهم، وهم قد قهروا أعتى الرجال بأقل من هذه الأساليب...

ها هي (سمية) تعود من جديد، ويذعن لها أبو جهل وكبار مشركي قريش، غير أن سمية انتهى عذابها بصعود روحها إلى بارئها... وفاطمة فلم تنته سلسلة العذابات، ولم يبق نوع من الأذى لم يصبوه عليها، وهي كجبل شامخ، زادها الإيمان، وسلاحها التقوى، ومددها نصرٌ من الله، فهي قد نصرته وحاشاه أن يخذلها وهو عز من قال: (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم) وياله من ثبات... كل الشياطين إجتمعت تريد زحزحة قدميها، إنه ثبات غيبي لايعيه أمثال هؤلاء الذين عبدوا الطاغوت وباعوا آخرتهم بدنياهم.

آه يا فاطمة... أه يا أختاه

ليتنا عدمنا الحياة، ولم نر عذابك وشقاءك بين أيدي الظالمين...

أختاه... انينك تحت سياطهم، أقرح جفوننا، وأطال نحيبنا، وزاد

عذاباتنا... سياطهم التي تلسع ظهرك هي الأخرى تلهب أجسادنا، فنأن مع أنينك، ونصرخ بصمت، باعتقالك اعتقلوا كل دعاة الخير...

إيه اختاه... أصمدي... ولا تتزعزعي فكل مايجري بعين الله... لا تجزعي واستمري بالثبات... هزي عروشهم... زلزلي الأرض من تحت أقدامهم بصبرك الشجاع هذا.

فو الله لن ينالوا منك، أيتها الزينبية الصامدة، ما دمت مع الله، فإن الله معك: (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم الله إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل)... نعم هو حسبك يالبوة الإسلام فلا تخشيهم.

عزلوا مكانها عنّا... كنا أنا وعالية وبتول وأميرة تحت السلالم، أما هي فأمروها بالمكوث في الممر الضيق المؤدي لغرفة التعذيب، كنا نسمع أنينها وتتقطع نياط قلوبنا عند كل أنة فهي أختنا التي لم تلدها أمهاتنا وهي التي أنابت عنا في تمريغ جبروتهم بوحل الهزيمة بصمودها وثباتها.

اعتقال بنات الكرادة

بعد عشرين يوماً من اعتقال فاطمة، عمت حركة وإرتباك في الدائرة... أقدام تصعد وأقدام تنزل من السلالم التي نجلس تحتها... ومخازن الأسلحة تتهيأ... وأحدهم يشير بأحضار السيارة وتجهيزها، وحركة سريعة بالخروج، هكذا هي مقدمات سطوة من سطواتهم لأعتقال الناس والهجوم على البيوت الآمنة...

خرجوا بعد الغروب، وعادوا بعد مايقارب ساعتين، وهم يضحكون ويتفكهون، ونبرات أصواتهم القبيحة تحكي إنتصارهم على العُزّل والنساء...

فقد اعتقلوا بنات الكرادة وهن: غياب حسين، باسمة عبد العزيز، باسمة

عبد الامير، هدى كاظم، خيرية كاظم، ايمان كاظم، أمل عباس، سندس عباس، وفاطمة شوكة (ام حسين).

أدخلوهن وأمروهن أن يجلسن معنا تحت السلالم، والمكان بطبيعة الحال لايكفي لهذا العدد ونحن معهن أنا وأميرة وبتول وعالية... أما كريمة فقد أطلق سراحها بعد أن تمت مهمتها معي، وقد أخذت مني عنوان بيت أهلي كي تخبرهم عني كما وعدت، وأعطيته لها وأنا على يقين أنها لم تفعل ولن تفعل ذلك، لكنني رفقت بأمي الثكلى قلت: عسى أن يرق لها قلب كريمة هذه...

جلسنا بعضنا إلى جنب بعض، والأخوات في رهبة واستغراب، عيونهن ترنو إلينا، وهي تحمل آلاف الأسئلة، غير أن الحارس الواقف أمامنا يحول دون الحديث...

أما أنا فقد اعتصر قلبي وأنا أرى عشرة بيوت قد حل بها الحزن، وعشر أمهات قد ثكلت في هذه اللحظة، وأخذت أبكي لبكائهن، وتذكرت حالي قبل شهرين من هذا الوقت، يوم اعتقالي واختطافي من بين أحضان أهلي وعشي الدافئ...

لكنني وجدت أن عليّ أن أشد من عزمهن، وأواسيهن ببعض العبارات وأطمئنهن، فأخذت أهمس إلى هدى وهي بجانبي: الله موجود لاتخافي ياأختاه، بل توجهي له سبحانه فهو نعم المولى ونعم النصير... وفعلاً كانت الأخوات يلهجن بذكر الله، ويذكرنه بأنواع الأذكار، رغم دموعهن وهول الموقف الذي وقعن فيه...

هدى وخيرية وإيمان ثلاث أخوات من عائلة واحدة، هدى: فتاة في العشرين من عمرها مواليد 1962 خريجة الدراسة الإعدادية، وتم قبولها في معهد المعلمات، وباشرت به ليوم أو يومين قبل اعتقالها.

فتاة طويلة القامة، واسعة العينين، محبوبة، مؤمنة، صادقة، وقوية، رغم أنها أصغر من أختيها، غير أنها أقوى إرادة وأجلد منهما...

حدثتني هدى عن اعتقالهن: يوم الثلاثاء الموافق 29/ 1/ 1982بحدود الساعة السادسة مساءا وكنت قد انتهيت من صلاتي المغرب والعشاء وقرأت سورة (اذا الشمس كورت)، واذا بأخي الأصغرمحمد يأتي مسرعا الى غرفتي قائلا: الأمن يريدوج!! فلبست عباءتي فورا متوجهة الى الباب الخارجي لبيتنا، ظننت حينها أن يكون قدومهم بشأن والدي الذي أعتقل لبضع أشهر بعد عودته من الديار المقدسة لأداء فريضة الحج وتكررت استدعاءاتهم له... إلا أني فوجئت بيد أحدهم تمتد مانعة إياي من الخروج الى باحة البيت وسألني على الفور عن إسمي، ولما أجبته: هدى... أشار الي موجّها أن أدخل غرفة الإستقبال... حينها وجدت أختي خيرية وأختي إيمان وخمسة من رجال الأمن أحدهم أبو جواد!!

لم يكن والدي في البيت وإنما في محل عمله، ووالدتي ذهبت تتبضع من محل قريب في منطقتنا... دخلت الغرفة وسط ذهول كبير كان باديا علينا أنا وأخواتي، فسألناهم: ماذا تريدون منا؟؟ فأجابوا: استفسار ربع ساعة وترجعون... كلنا قلنا معا: "احنا مامسوين شي ليش تاخذونه؟؟" أجابنا أبو جواد بصوته الأجش: "معمعة وانتو بيها معقولة متعرفن!!" فزعن أخواتي وقلن: "احنا طالبات وملتهيات بدراستنا كلشي ماعدنا غيرها"...

صرخ بأعلى صوت: يلله جيبوهن... فأسرع أحدهم وجلب القيود (الكلبشات) وبسرعة قيد أيدينا!! هنا صرخت بصوت عالي: يمه... يابه... لحكولنا... ورأيت أخوتي الصغار مؤيد ومحمد وجنان يبكون مفزوعين، وفي هذه اللحظة دخل أخي سعد وكان ضابط في أول تعينه تفاجأ بهم وسألهم: "شنو القصة؟!" رد عليه أبو جواد: "استفسار ربع ساعة ونرجعهن"... قال أخي سعد: "خل يرجع أبويه"... قال أبو جواد وكأنه يريد الإفلات بجريمته: "لا... انت تعال ويانا "... هنا سحبونا الى خارج البيت ونحن نبكي ونصرخ مناديات: "يمه... يابه "... وليصعدونا بسيارتين أمام بابنا لونها أحمر... لاحظت الجيران قد خرجوا من بيوتهم مذعورين دون أن يقوموا بأي فعل سوى نظرات مذهولة فيها تساؤلات عديدة.

ارتبكوا فزجوا بنا في السيارة المقعد الخلفي نحن الثلاثة ودخل من كل باب واحد منهم لنصبح خمسة!! جلس أحدهم الى جانبي وأحسست بحركة مريبة منه فدفعت يدة بقوة، فصاح: "هدى ضربتني... آني الج اوكفيلي "... وقد نفذ تهديده عندما وصلنا فقد ضربني وأخذ مني أساوري الذهبية الأربعة، نعم تبين انه ضابط يسموه علاء.

بعد مسافة قصيرة نزلوا أخي سعد بسرعة من السيارة وقال له أبو جواد: "ربع ساعة ونرجعهن "... قالها والسيارة تنطلق بنا مسرعة حتى وصلنا الى مبنى يبدو أنه بيت كبير هو أمن الثورة فأسرعوا الى تغطية أعيننا بتعصيبها بخرق قماش كانت معهم وأبو جواد يصيح بهم وبغيرهم من الحراس مناديا لاستقبالنا... استدركت أمرا في نفسي لعله ينفع معهم فقد وقعنا في شراكهم ولا مناص وهاهم يقيدون أيدينا بالقيود (الكلبشات) فقلت: "السيد الريس وصى بحرائر العراق والماجدات خيرا يعني وصاكم بينا فاحفظوا وصيته"... لم يبالوا وكأنهم لم يسمعوني... كانت أضواء تنطفئ وتشتعل في مدخل المبنى... بعدها لم أر شيئا فقد عصبوا عيناي واقتادنا الحراس الى مكان ما داخل المبنى... استطعت ان أحرك العصبة فوجدته كأنه صف دراسي قاعة وفيها مقاعد دراسة (رحلات) بلون رمادي وأمرونا بزجر: "ديرن بالجن تحجن... ممنوع الكلام "...

وبعد ساعة أو أكثر سمعت صوت دخول سيارة الى الكراج ونفس ماحدث معنا من ضجة وتراكض الحراس فأدخلوا أمرأتين تلبسان العباءة وقد عصبوا أعينهما وتفاجأت انهما غياب حسين وباسمه عبد الأمير وأجلسوهما على نفس المقاعد في ركن آخر من الغرفة ذاتها... كنا جميعا من طالبات ثانوية الهدى للبنات.

بقينا بهذا الوضع حتى الصباح ولا أدري نام بعضنا فقد كنا في قلق وخوف شديد وماكان لنا ملجأ الا الله فتوجهنا له وهو العليم بحالنا... جاؤا لنا بطعام الإفطار صمونه وجبن، وأتذكر انهما الحارسان محمد (الأسود) وصالح، فقالت

إحدانا سيدي احتاج الذهاب الى المرافق... فضحكنا جميعا على كلمة سيدي... نعم شئ مضحك ومثير للسخرية أن يكون مثل هؤلاء سادة علينا... فالحارس صالح (كنا نسميه بعد ذلك طالح) الذي انتشى كثيرا من نعتها إياه بسيدي استشاط غضبا من ضحكاتنا البريئة، فزجرنا بغضب وتلفظ علينا ألفاظا بذيئة ولم يكفه ذلك حيث أسرع الى غرفة مجاورة يجر معه شابا مقيدا معصوب العينين ودفعه الى الأرض أمامنا وبدأ يجلده جلدا مبرحا بأنبوب بلاستيكي (صونده)، والشاب يتلوى من الألم ولا يعرف مالذي يريده منه هذا الجلاد، يرافق ذلك سبابا وشتائم يندى لها الجبين... نعم أراد أن يعرفنا أين نحن؟ ومن هم؟ وكان هذا المشهد أول جرعة مرارة من كأس الضيم والعذاب الذي عشناه طيلة بقائنا في أمن الثورة...

بعد القاعة ذات المقاعد المدرسية حقق أبو جواد معهن تحقيق أولي ومن ثم وجه الحراس أن يجلسن معنا تحت السلالم، ولكن فرقهن عن بعضهن وأجلس هدى بيني وبين أميرة، رأت أصابع أميرة التي اسودت أظافرها من آثار التعذيب وأوشكت على السقوط وأفزعها ذلك وهي لم تسمع بعد مفصّلا ماجرى عليها منهم، وسألتني عن وجودي هنا وقلت لها مختصر ماحدث لي... لم أتحدث لها بالتفاصيل كي لا أضعف إرادتها بل ركزت على أن تصمد ولا تبوح بأي شئ وأن الله لن يخذلها...

في هذه الأثناء مرت من أمامنا فاطمه الحسيني تمشي على قدميها المتورمتين ببطأ وقد تمزقت دشداشتها من ضربهم وأحاطت بعينيها كدمات زرقاء وكفاها قد أنسلخ جلدها من الكي بالمكواة... هي تذهب للمرافق وهم يزجرونها مستعجلين إياها ويلوحون لها بالضرب وهي لا تقوى على الإسراع... سألتني هدى وقد رأت الشيلة (الفوطة) تلف رأسها وضعف بدنها: ومن هذه الحجية؟ أجبتها: هي فاطمه وليست كبيرة بالسن لكن تعذيبهم فعل بها ماترين... هي مسؤولتكم وعذبوها كثيرا وبما لا يطيقه أقوى إنسان...

هدى هذه ذاقت ماذاقت من التعذيب على يدي أبي جواد وفراس وزمرة الجلادين في هذه الدائرة، عذبوها أيّما تعذيب... تعليق، ضرب بالعصي، والكيبلات والكهرباء... حدثتني فيما بعد عن تعذيبها قائلة: عندما يوصلون جسمي بالكهرباء، وأتعرض إلى رجات، يتلوى جسدي ويتدحرج على الأرض، وأصطدم بالكرسي، أو بالحائط فهم يضحكون علي ويستهزؤن قائلين: "الريس وصىّ بحرائر العراق والماجدات"... وأنا أعاني من آلام الرّجات الكهربائية...

كان أبو جواد يخشى نظرتها الحادة له... عيناها الواسعتان ترعبه تعّرفه مدى حقارته ودناءته، ولطالما زاد في تعذيبها لأنه يعتقد أنها تخزره بنظرها له وتتحداه.

تهمة هدى أنها جزء من التنظيم النسوي لحزب الدعوة في الكرادة، وأنهن جمعن المال لمساعدة العوائل (الحاقدة على الحزب والثورة)، عوائل المعتقلين والشهداء، تبرعت هدى بمصروفها اليومي بعد أن جمعته إلى عائلة (الدكتور هاشم) خال (غياب حسين) لشراء علبة حليب لابنته زينب التي ولدت بعد اعتقال أبيها، والمبلغ حوالي خمسة دنانير... دوّن في إفادتها الجلاد أبو جواد أنها قدمت تبرعات!!

هدى فتاة في العشرين من عمرها، تؤثر أبناء الشهداء والمظلومين على نفسها، وتتفقد العوائل المفجوعة بأعزائها، وتتبرع بمصروفها اليومي لتدخل السرور على قلوب الايتام، الذين حرمهم الجور الصدامي آباءهم.

لله درك أيتها الأخت المهذبة، هذا ديدن المؤمنين والمؤمنات لأنهم (يؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة)هذه هي التربية القرانية، هذه هي مدرسة أهل البيت، التي نشأنا وتربينا على منهجها، الذي لا ينطبق ولا ينسجم ومنهج الظالمين، لذلك نجدهم دوماً يسعون بكل جهد لطمس معالم تلك المدرسة الربانية بالقضاء على مثل هذه النفوس الطيبة، التي تعمل بمضمون القران، وبمضمون سورة (هل أتى).

صرنا أنا وهدى صديقتين، يجمعنا تبادل سور القرآن التي نحفظها، فهي

تحفظني ماحفظت وأنا افعل مثلها، كانت مقاطع مكررة من بعض السور القرآنية التي دأب تلفزيون العراق بقناته الوحيدة افتتاح برامجه بها، فترسخت هذه الآيات في ذاكرتي، استفدت منها، وعرفت حينها أني أحفظها عن ظهر الغيب وكم شعرت بحسرة لأني لم أحفظ الكثير منها، كما نفعتني المقررات للحفظ من الآيات الكريمة في مادة التربية الإسلامية، وتبادلنا ماحفظناه من أدعية الصحيفة السجادية وقصائد شعرية بل ومقاطع نثرية مميزة، وجمعتنا ختمات وتسبيحات وصلوات... تحدثنا طويلاً عن أفراد عوائلنا وطفولتنا، وحدثتها عن أخي جمال، وكيف أنه اقتحم العمل وهو بعدُ شاب يافع، وهو الذي أنار حياتنا بالقيم والمبادئ التي سار عليها الشهيد الصدر وأخته العلوية بنت الهدى.

أخي جمال كان ضمن وفود البيعة الطلابية للسيد الشهيد محمد باقر الصدر، وحدثتها كيف عاد من النجف الأشرف والفرح يملأ قلبه لأنه التقى الشهيد الصدر مع وفد الطلبة، وقد جلب لنا صورة له وللسيد الخوئي (قدس سرهما) وضعناهما في إطارين فوق التلفزيون...

وتحدثنا عن مدارسنا ومديراتها البعثيات اللواتي حاربننا بسبب ارتدائنا الحجاب، وضحكنا على مواقف حدثت معنا، هدى صديقتي ورفيقة معتقلي، وجودها معي أبعد عني شبح الوحدة، وكنت التقي معها في نقاط عديدة، عمرنا متقارب وكذلك بيئتنا الاجتماعية...

أحببت بنات الكرادة جميعهن، وشعرت أنهن أخوات لي لم تلدهن أمي ...

خيرية كاظم... أخت هدى شابة في الرابعة والعشرين من عمرها هادئة، سمحة المحيا،طالبة في المرحلة الثانية في المعهد الطبي الفني... هي كبرى الأخوات الثلاثة... تقدم لها شاب للزواج منها قبيل اعتقالها، وحال اعتقالها دون إتمام المشروع...

أما إيمان كاظم... فهي الأخت الثانية لهدى طالبة مرحلة أولى في كلية الإدارة والإقتصاد... فتاة نحيفة البنية... ذات عينين واسعتين وحاجبين معقودين...

هادئة الطباع تبكي بصمت، عيناها تهطلان بالدموع منذ اعتقالها وأختيها ولا يهدأ لها بال، فقد وجدت اعتقال ثلاث بنات كارثة حلت على العائلة وهي محقة بذلك، ولا تنفك تتذكر والدتها وتتخيل ماحل بها... وأي ثكل ثكلت.

هكذا هو البعث يسرق البسمة من الشفاه، والفرح من القلوب، فما جرم خيرية لتُعتَقَل وأخواتها سوى أنهن قدمن مساعدة لطفلة تحتاج الى حليب الرضاعة هي إحدى يتيمتي الدكتور هاشم رشيد جاسم... هو البعث الذي آل على نفسه أن يقطع سبيل المعروف، وأن يقطّع أواصر العلاقات الاجتماعية، ويستأصل الرحمة من القلوب...

مصيبة هؤلاء الأخوات أنهن أعتقلن معاً، وهذه فاجعة تفوق فاجعة من تعتقل له فتاة واحدة... كانت الأخوات يبكينَ والديهن اللذين فجعا بفقدهن دون جرم، ولطالما تذاكرن لحظة اعتقالهن واختطافهن من أحضانهما الدافئة... حقاً إنها مصيبة... ثلاث شابات يساق بهن إلى المجهول على مرآى ذويهن... دموع هؤلاء الفتيات ليست قطرات، بل هي كلمات، وأنى لهؤلاء الأغبياء أن يقرأوا هذه الكلمات.

خيرية وأختها إيمان لم تتعرضا للتعذيب كما تعرضت له هدى أختهما، تتأهبان مفزوعتين وتترقبانها بقلقٍ شديدٍ عندما تتعالى صرخات هدى، وتملأ أرجاء قاعة التعذيب... كانتا تنتحبان كما الأطفال، وتتوسلان إلى الله أن يكفيها شرورهم... كلنا ندعو ونتوسل، لكن رابطة الدم أقوى وحنانها أمضى...

ومن بنات الكرادة أمل عباس وأختها سندس... شابتان سمراوتان... أمل في عامها الثاني والعشرين، وسندس في عامها العشرين... تنحدران من عائلة أصيلة في الكرادة الشرقية، مؤمنتان محجبتان، هادئتا الطباع... أمل خريجة معهد الزراعة، وموظفة حديثة التعيين في شركة تمور كربلاء... أما سندس فقد أكملت الدراسة الإعدادية، وطالبة في معهد الإدارة المرحلة الأولى...

تم الاعتراف على أمل بأنها المسؤولة الفرعية للتنظيم النسوي لحزب

الدعوة الاسلامية،وأنها الرابط التنظيمي بين بنات الكرادة وفاطمة علي طالب مسؤولة التنظيم النسوي...

ذاقت ماذاقت من التعذيب، فهم لم يبخلوا بأيّ صنف من صنوف العذاب عليها... تعليق كهرباء... ضرب بالعصي وهي صابرة لم تخرج عن طبعها الدمث وهدوئها المميز...

باسمة عبد الأمير... شابة في الثالثة والعشرين من عمرها... واسعة العينيين... قوية الإرادة صلبة جلدة، أخافتهم بنظراتها الحاقدة عليهم... كانت تبالغ بالصراخ عند تعذيبهم لها ما استطاعت لتربكهم ويكفواعنها، وأجدى معهم هذا الأسلوب فكفوا عنها أسرع من الأخريات... هي خريجة معهد الزراعة، ومعيدة في المعهد نفسه لأنها من الأوائل، تنحدر من عائلة كبيرة لديها اثنا عشرأخاً... ستة أولاد ومثلهم بنات، باسمة ثاني أفراد عائلتها وأختها الأكبر منها سميرة، قد أعتقلت في عام 1980 بتهمة تأييدها للثورة الاسلامية في إيران، وهي تهمة مفبركة عن (جريمة) ارتداء الحجاب، تم وصم المؤمنين والمحجبات بوصمة العمالة لإيران بعد اشتعال أتون حرب الثمانية أعوام بين العراق وإيران... اعتقلت لمدة شهرين ثم أطلق سراحها لعدم ثبوت أدلة لتلك التهمة المختلقة، نقلت إلى أهلها صوراً مما يعانيه معارضو البعث ومن يؤيدهم... لذا فإن باسمة لديها فكرة واضحة عن هؤلاء الأوباش، لاسيما أنها أعتقلت في نفس المعتقل (أمن الثورة)...

أما باسمة عبد العزيز فهي فتاة في السابعة عشر من عمرها... طالبة في الخامس الإعدادي الفرع الأدبي... مربوعة القوام... جميلة المحيا... سماتها طفولية تجعلها تبدو أصغر من عمرها... مثقفة ولديها من المنطق مايجعلها تبدو أكبر من عمرها...

باسمة هذه أخت مجيد عبد العزيز... جندي احتياط خريج معهد التكنولوجيا... واعتقلوه من جبهات القتال عندما ذكر اسمه في الإعترافات التي

ضمت هذه المجموعة من الفتيات...

مجيد مواليد بغداد إنتمى لصفوف الحركة الإسلامية، وكان مسؤوله الأستاذ سالم كاظم الربيعي، الذي كان موظفاً في مستوصف الجادرية القريب من بيت مجيد، ربطتهم علاقة من نوع فريد، إحترام متبادل... والتزام بالموعد... وتواصل روحي... جعل ارتباطهما التنظيمي معيناً لهما في الصبر، وهما يسلكان طريق ذات الشوكة...

أعتقل مسؤوله سالم في أواخر عام 1980، وأصيب مجيد بأذى نفسي كبير فبين الحزن الشديد على فقدان أخ له ترك آثارا كبيرة في نفسه وفكره، وبين ترقب من اعتقال محتّم، إلا أن وجوده في الخدمة العسكرية أبعده عن أنظار بعثيي منطقته، بعد مرور عام من الزمان وبالتحديد في كانون الأول من عام 1981م اعتقل مجيد من معسكر للجيش في مدينة بعقوبة، مركز محافظة ديالى شرق بغداد، معتقله الأول في سجن رقم (1) في الشعبة الخامسة - دائرة الاستخبارات العسكرية، ومن ثم رحلّوه إلى مديرية أمن الثورة، وهناك كان التحقيق الفعلي بقضية انتمائه لحزب الدعوة ونشاطه السياسي، ومما أدين به معرفته بخال سندس وأمل الجندي المكلف، ومما لا ريب فيه أن يحيك محقق هذه المديرية خيوطا متشابكة فهما أبناء منطقة واحدة.

باسمة وغياب في نفس المدرسة المتوسطة، وفي نفس المرحلة الدراسية والشعبة، كانتا زميلتي دراسة، إلا أن نقاط التقارب بينهما هو الحجاب والالتزام، الذي وطّد هذه العلاقة أكثر لتتحول الى صداقة عميقة، فضلا عن أن عائلتيهما متعارفتان مسبقاً، فهما في ذات المنطقة وهي الكرادة الشرقية.

أما في مرحلة الإعدادية فتعرفتا على سندس وهدى اللتين تسبقانهما بمرحلتين دراسيتين... تزاورن فيما بينهن لقرب سكناهن، وازدادت العلاقة الودية، وتعرفت باسمة على خيرية وإيمان أخوات هدى أثناء زيارة دارهن مع سندس، كما سبقت ذلك تعرفها على أمل الأخت الكبرى لسندس.

وبعد استلام صدام حسين سدة الحكم عام 1979م، ضيّق الخناق على المتدينين، وازداد ضيقاً بعد جرأته على اعتقال وإعدام السيد محمد باقر الصدر وأخته العلوية آمنه الصدر (رض)، فشنّ هجمة كبيرة من الاعتقالات،ففي كل يوم يعتقل شاب، أو أكثر من منطقة الكرادة لتلتاع العوائل وتترقب الشباب ويخيم الخوف والحزن على القلوب، وتزداد الفتيات تعلقاً ببعضهن، وتتحول أحاديثهن إلى هموم وطنهن وأهاليهن، وما يجري من ظلم على أيدي البعث وأزلامه، وقررن أن يؤدين تكليفهن الشرعي وبإمكاناتهن البسيطة، نعم قررن أن يجمعن مصروفهن اليومي، ويشترين علبة حليب لطفل حرم من معيله المغيب في سجون البعث، أو قطع ملابس لمن حُرم منها بسبب سياسات البعث القمعية، لم تسع الفتيات إلا إلى أداء الواجب تجاه وطنهن وأهله الطيبين، كان الخوف قد خيم على البلاد عمومها، ومنافذ الألم تعددت، ففي كل يوم نبأ اعتقال لشباب، أو جنازة ملفوفة بالعلم لشاب غض من آلاف الشباب الذين سيقوا لجبهات القتال الحدودية الواسعة والممتدة من الشمال إلى الجنوب،فضلا عن آلاف الأسرى والمفقودين، كن يتبادلن أخبار الاعتقالات والإعدامات همساً، ويجابهن تضييقا ورقابة من الطالبات البعثيات في المدرسة، فضلا عن تشديد الحرص من أهاليهن الذين وعوا سياسة البعث القمعية أكثر منهن.

لم يثنهم عن تعذيبها عمرها الصغير ولاوجهها الطفولي، بل أمعنوا في ايذائها، وضربوها فلقة أيضاً كي يرغموا أخاها مجيد على الإعتراف...

باسمة الطفلة غدت امرأة سياسية محنكة، يوم وجدت نفسها جزءاً من جموع المعارضة واسماً في سجل معتقلي أمن الثورة... أمتعتنا باسمة الصغيرة بلقاءاتها الصحفية التمثيلية التي تجريها معنا لإضفاء جو من المرح، فكانت تضم كفها كمن يمسك الميكرفون، وتجول في المعتقل تسأل المعتقلات كمن يجري لقاءً صحفياً، أسئلة مختلفة وظريفة مثلاً: مارأيك بمرق (الحامض شلغم) الذي يقدمونه لنا في وجبة الغداء؟؟ تملك نفسها عن الضحك، وهي توجه السؤال بجدّية، وتجعل الأخت الأخرى تغص من الضحك لنوع السؤال وطريقة إدارتها

للحوار!! كلما توتر الموقف وساد الحزن والصمت، مارست بسومه دورها الصحفي، وأضفت على المعتقلات شيئاً من المرح...

هذا يحدث طبعاً بعد انتهاء مراحل التحقيق، وفي مدة انتظار المحكمة، حيث نخلد إلى السلام النسبي من هجمات التعذيب، ولكن لا نستبعد إعادته في أي لحظة...

عاشر بنات الكرادة هي غياب حسين جابر... فتاة في التاسعة عشرة من عمرها طالبة في الصف الخامس الأدبي تنحدر من عائلة معارضة للنظام، فقد أعدم خالها الشهيد الدكتور عاصم رشيد جاسم، وتلاه اعتقال أخوالها الدكتور هاشم وأسعد، مما اضطر خالها الرابع قاسم أن يغادر العراق لينجو واحد من أبناء جدها الحاج رشيد جاسم...

دكتور عاصم بطل وبطولة

دكتور عاصم رشيد جاسم محمد الربيعي، أحد شباب الكرادة المؤمنين البارزين من مواليد 1955م، خريج كلية الطب جامعة الموصل، وبعد تخرجه تعين طبيباً مقيماً في مستشفى الموصل الجمهوري، كان شاباً قيادياً، وانتمى لحزب الدعوة الاسلامية، وتوطدت علاقته مع طلبة جامعة الموصل من مختلف كلياتها، كلية الهندسة والآداب والعلوم وغيرها، كما أنه كان خطيباً مفوّهاً وأديباً وشاعراً، وينقل عنه مشاركاته الأدبية بالشعر الشعبي والقريض، وكم تصّدر مهرجانات الشعر التي أقامتها الجامعة، وفي إحداها ألقى قصيدة عن الحجاب وعفاف المرأة، أخذت صدى كبيراً وانتشاراً واسعاً ولاسيما بين صفوف الطلبة والطالبات.

دكتور عاصم لم يظهر تدينه بلحيته أو ثيابه، وإنما كان مثالاً للمؤمن الحركي، وتمحور حوله الشباب، وربما كان لشخصيته المرحة دورا كبيرا في ذلك، كان هشاً بشاً خدوماً محباً للناس، خفيف الظل، سريع البديهية، ويبدي استعداده لتقديم العون وإن لم يطلب منه.

تخرجه من كلية الطب لم يبعده عن زملائه ورفاق دربه، ظل يتردد على الكلية للقاء من لم يتخرج منهم لعمل تنظيمي وبخطى مدروسة، يحدث عنه أحد رفاقه: تعرفت عليه وأنا في الصف الأول في كلية الطب للعام الدراسي 1979-1980 شاركنا ذات يوم في سفرة طلابية ضمت حوالي ثلاثين طالباً من المتدينين الحركيين ومن مختلف الكليات إلى مصايف دهوك في أوج البرد في كانون الثاني 1980، وكان طيلة المسافة بين الموصل وتلك المصايف واقفاً في العجلة التي تقلنا وهو يبث الحيوية والنشاط عند كل الطلاب فمرةً يثير الأسئلة وأخرى يسرد الطرائف، وثالثة يغمز النظام، حتى اذا استقر بنا الرحال في سولاف وهو أحد مصايف دهوك، بادر إلى فرش سفرة الطعام وتوزيع ماتم جلبه من زاد على الطلاب مع كونه أكبرنا سناً آنذاك تصرفاته كانت دروسا عملّية تزرع فينا القيم العليا والخلق الإيماني بعيدا عن التنظير الأجوف... ومما أذكره من سرعة بديهيته أن مفرزة من الجيش استوقفتنا في الطريق، فسألتنا عما أتى بنا إلى هناك فقلنا له سفرة طلابية جامعية، فبادرنا ضابط المفرزة مستنكرا: ولكن كيف تكون سفرة جامعية وليس فيها طالبات؟! فأجابه الشهيد عاصم باسماً: وهل تعتقد أن البنات يقبلن المشاركة في سفرة بهذا البرد وهذه الثلوج، فاقتنع الضابط ومضينا.

في تلك المدة وفي محاولة تبعيث المؤسسات العراقية وتكريس الدكتاتورية، أشيع أن علماء عراقيين اكتشفوا مضادين حيويين أُطلق على الأول اسم بكرين تيمناً بإسم أحمد حسن البكر، والآخر صدامين تيمناً بإسم صدام حسين، فمن بين طرائف الشهيد عاصم في السفرة تلك أنه قال: جاءت امرأة مريضة إلى إحدى الصيدليات فقالت لصاحب الصيدلية: هل عندك كبسول بكرين فاجابها صاحب الصيدلية بالنفي، ثم قالت: هل عندك كبسول صدامين فانزعج

صاحب الصيدلية وقال لها: بل عندي كبسول طه محيي الدين وكان الأخير يشغل منصب نائب رئيس الجمهورية وهو كردي ووجوده رمزي وشكلي أكثر مما هو جوهري وحقيقي، جيء به بعد بيان 11 آذار بشأن الحكم الذاتي للأكراد... عاصم كان هادفا في كل عمل وقول تعلقنا به كثيرا وكأن الله سبحانه جعل محبته في القلوب لما هو عليه من إخلاص وتفان في خدمة الإسلام وإعلاء كلمته.

وبعد انتشار التدين بجهود الدعاة في أروقة الجامعات ومنها جامعة الموصل، التفت لذلك أزلام النظام، وبدأت حملات الاعتقال، بل استفحلت وزادت شراسة في عام 1979 ومابعده، فكانت مديرية أمن الموصل تغص بجموع المعتقلين، وجلهم من طلبة وأساتذة الجامعة، هذه المؤسسة القمعية كان معاون مديرها (فؤاد دوش) ابن الحاج هادي دوش رجل طيب من أهالي النجف،الأسم الرسمي لفؤاد هذا في سجلات الأمن (طارق عبد الجبار يحيى)،ملازم أول في الشعبة الخامسة ومسؤول عن نشاط حزب الدعوة، ومن ثم نقل إلى الموصل لتميزه بالقسوة وبما أبداه من إجرام وطاعة لأسياده، كما أنه من ضباط الأمن القلائل الذين يحملون شهادة البكالوريوس، وكان ذو ذاكرة قوية ودهاء كبير فهو بحق كان وبالا على الشباب المؤمن، وجلادا متمرسا، أزهقت أرواح المعتقلين على يديه، وبأقسى أنواع التعذيب دون رادع، وشاع عنه قتل العشرات من الشباب المؤمن في دائرة أمن الموصل، إذ كان مسؤولاً أمنيا عن جامعة الموصل بكل كلياتها ومتابع نبه لتجمعات شبابها الدعاة، فهو وإن كان معاوناً لمدير هذه المديرية، إلا أنه لإجرامه وصفاته تلك كان يغطي على المدير ويتفوق عليه، ويتولى إدارة ملفاتها الأمنية بذاكرته المتقدة.

كان الخلاص من فؤاد دوش حلماً يحلم به الطلبة والشباب المتدينون، فقرردكتورعاصم تولي هذه المهمة الجبارة، وتحمل المسؤولية بنفسه، كان مقداماً فقرر أن يحقق ذلك الحلم الذي كان أقرب للخيال ويحقق للمؤمنين ما أملّوا، فمن يصل إلى هؤلاء وهم محاطون بأعداد من الحراس المسلحين؟؟

في أفضل جناح من أجنحة مستشفى الموصل العسكري، والمطل على أجمل بقاع أرض العراق، وعلى ضفاف نهر دجلة قرب الجسر الجمهوري والذي يربط مركز المدينة بمنطقة مرقد نبي الله يونس عليه السلام، كان كبار مسؤولي الحزب ودوائر الأمن القمعية يقضون في هذا الجناح في كل عام من شهر الى ثلاثة أشهر، للتخفيف عن الضغوطات النفسية التي يعانون منها نتيجة إجرامهم وتوغلهم بدماء الأبرياء، كفترة نقاهة إجبارية يستعيدون بها طاقاتهم ليعودوا أشد من السابق...

من محاسن الصدف التي ساعدت في تحقيق الهدف هو لقاء الدكتور عاصم بفؤاد دوش وهو يراجع المستشفى الذي يداوم فيه، فنصحه بإجراء تحاليل كاملة مما يتطلب رقوده فيها وحاول أن يقنعه أن عليه ان يخضع للنقاهة لبضع أيام... فكر أن هذا أفضل وقت ومكان للقضاء على هذا المجرم بعيداً عن دائرته القمعية، شاركه في إعداد الخطة وحبكة خطواتها أحد طلبة كلية الهندسة قسم الري والمكائن، شاب مؤمن واع ومن عوائل النجف المعروفة، إنه السيد عباس العذاري صاحب دين وتقوى وأخلاق حميدة وكرم وشجاع بمعنى الكلمة، وهومن تلاميذ وتربية سماحة السيد الشهيد السعيد محمد باقر الصدر قدس سره الشريف، قد أعتقل لعدة مرات وعذّبه المجرم فؤاد بحقد دفين على الرغم من أنهما من نفس المحافظة، حتى أنه يغمى عليه ولكنه أول ما يفيق يطلب ماءا للوضوء ويصلي صلاته في وقتها وسط استسلام من جلاديه وتعجب منهم لعلاقته الخالصة مع ربه، ومن شدة التعذيب كان عنده عجز بالقلب وهو في مقتبل العمر، ويروي السيد عباس لبعض إخوته: كان فؤاد دوش شديد القسوة معي ويتفنن في إيذائي ويردد وهو يكيلني أنواع العذاب: "عباس اعترف لو أخيسك هنانه " وكنت وأنا في أسوأ حالات الألم أستجمع قواي لأجيبه بتحدي: "آنه وانت هسه تشوف آنه أخيسك لوانت تخيسني؟؟" - وكأنه يستشرف المستقبل - فيستشيط فؤاد غضبا ويضاعف علي التعذيب...

سيد عباس زاهدا في الدنيا يفضل عمله الجهادي على دراسته، فهو يتجول

بين الطلبة ويهتم بعقائدهم ويتحدى حملة البعث المجرم لإجبار الطلاب على الانتماء لحزب البعث ويبدد مخاوفهم ويقيم السفرات والجلسات لتقوية تدين الشباب وتثقيفهم، وكان دؤوبا بعمله وأولى اهتماما نوعيا بمن سكن معه في دار الطلبة وطالما عقد مجالس ألقى فيها محاضراته وتوجيهاته التي كان يتلقفها الطلبة منه لصدقه وإخلاصه وكما قيل: الكلام الذي يخرج من القلب يصل الى القلب... وعلى يديه اهتدى العديد من الشباب الطلاب، هو أحد مسؤولي تنظيم الدعوة فرع الشمال ومنها الموصل وكان اتصاله ولقاؤه الدائم بسماحة الشهيد السعيد السيد محمد باقر الصدر (قدس الله سره)، وبجهوده وتوجيهه تشرف عدد من الطلبة بلقاء السيد الشهيد مرتين وتبركوا بسمات وجهه المنير ومن ثم شاركت وفود الطلبة في البيعة الكبيرة في النجف الاشرف عام 1979.

تعهد الدكتور عاصم بتنفيذ الخطة مع أحد زملائه من طلبة كلية الطب شاب مؤمن رسالي تعلق قلبه بالعمل لله وصار قريبا لدكتور عاصم بعد أن رافقه في سفرة من تلك السفرات الدعوية الهادفة التي دأب عليها عاصم وملك قلوب أعدادا كبيرة من خيرة الشباب المثقف، قوة الإيمان وثبات العقيدة زادت من إصرارهما متَحدِين كل جبروت القمع البعثي، اجتمع هذان البطلان وقررا إزاحة هذا المجرم وكف أذاه عن إخوتهم وأخواتهم الطلبة وتوكلا على الله دون تردد.

وبحكم عمله طبيباً في هذا المستشفى، مر دكتور عاصم على هذا المجرم في غرفته، في ذلك الجناح كي يؤمن الوضع ويضع خطة العمل، فلاحظ أنه انتفض من سريره وأمسك بمسدسه بمجرد أن فتح الباب، على الرغم من أن برنامج النقاهة هذا يتضمن إعطاءه المهدئات، فهؤلاء يعيشون حالة من القلق النفسي والخوف لكثرة إجرامهم، الضغط النفسي الذي يواجههم نتيجة التعذيب والترويع للأبرياء، ووخز الضمير لمن لديه ضمير منهم.

يوم 25/ 4/ 1980 قدَم دكتور عاصم على إجازة اعتيادية من إدارة المستشفى وحصلت الموافقة، وفي يومها انفك من المستشفى ولم يداوم والإدارة

وزملاؤه يعلمون أنه مجاز، بعد منتصف الليل عبر وصاحبه طالب الطب سور المستشفى الخارجي، ووصلا إلى غرفته وكان يغط بنوم عميق، كانا يرتديان لباس الأطباء، ويضعان أكمامات طبية على وجهيهما، عاصم يحمل معه سكينا كبيرا لتقطيع اللحوم (طبر)،وصاحبه سكينا أخرى أقل حجما، ضربه عاصم ضربة قوية على رأسه لدرجة أن بعضا من دماغه ظهر على الوسادة، وتحدث أحدهم أنه تناثر دماغه وبعض عظام قحفه حتى على سقف الغرفة... ومنع زميله من طعنه بسكين على قلبه، اكتفى بتلك الضربة ولم يثني عليها، كان يريده أن يبقى حيا مشلولا ولم يبغ قتله، حقا كانت ضربة مهنية متخصصة، أعاقته إعاقة مازالت مستمرة بعد عقود... وللحظة كتابة السطور يشهد أهالي النجف وجوده مشلولاً على كرسي متحرك، رغم إشراف صدام حسين بنفسه على علاجه آنذاك، أصبح مشلولا لايتكلم ولا يكتب، إلا أنه يسمع ويعي جيداً...

ضجت أجواء المستشفى بالحادث، وأعلنت حالة إنذار لدى أزلام صدام... كيف وصلوا اليه وهو في هذا المكان الذي هو مرفأ استراحة وأمان لهم، ولم يخطر على بالهم أن يكون عاصما هو الفاعل، بل جزموا أن حزب الدعوة وراء الحادث، فاتجهوا الى جامعة الموصل واعتقلوا عشرات الطلبة... وانتشر الخبر في كل العراق، وأثلجت صدور أهالي الضحايا الذين قتلهم هذا الجلاد... الدكتور عاصم مجازا يوم الحادث وعاد الى بغداد، وبعد انتهائها داوم في المستشفى بشكل طبيعي... تفاجأ بانهم اعتقلوا عددا كبيرا من رفاقه الطلبة في جامعة الموصل، وتعرضوا لأشد أساليب التعذيب دون أن يتوصل الجلادون للفاعل، ذلك أن حادثة اغتيال دوش أرعبتهم كثيرا وهزت ثقتهم ببعضهم، وهم في عجب وحيرة من أمرهم كيف وصل حزب الدعوة لهكذا مكان وما الذي سيعقب هذا؟؟ ربما يستمر هذا الاستهداف لهم جميعا؟؟.

ثمة تأكيدات متتالية من بغداد على كشف من تجرأ على ذلك، وتهديدات بضرورة كشف القضية بأسرع مايمكن... مما جعلهم يبثون أجهزة تنصت في المعتقل ذات يوم أحد المعتقلين حدث معتقلا آخرا: "همزين ما جابوا دكتور

عاصم... الله يكفيه شرهم "، هنا ربط المجرمون هذه العبارة بكونها إدانة له وبمداهمة منهم لم تمهله أعتقل هو الآخر يوم 1/ 5/ 1980 وهو مستمربالدوام بعد إجازته بشكل طبيعي ولم يتوقعوا أبدا أنه المنفذ لهذا العمل النوعي...

الله وحده يعلم بماجرى في ذلك المعتقل الرهيب أمن الموصل، والذي كان يلتهم عشرات الطلبة يوميا يطحنهم بين قطبي رحى التعذيب التي دارت ولم تتوقف... فهم حتما قد تفننوا وأمعنوا في تعذيب الشهيد الدكتور حيث تم تسفيره الى بغداد وتناقلوه بين دوائر قمعهم ليتولى تعذيبه كبار جلاوزة الأجهزة القمعية، ولا أستبعد إن أشرف صدام بنفسه على تعذيبه.

وعن ضراوة ما عانى يتحدث أحد المعتقلين الذين التقوه في أمن الموصل: في 17/ 9/ 1980 وقبل اندلاع الحرب العراقية الإيرانية بخمسة أيام جيء بي من مديرية الأمن العامة إلى مديرية أمن الموصل، وهناك التقيت بالشهيد عاصم رحمه الله، وعندما رفعت العصابة عن عينيّ تفاجأت وأنا أراه وقد هُدلت كتفاه، وشُلت يداه، من شدة التعذيب إذ استدعوني للتحقيق ذات ليلة فوجدتني بقربه، ونحن الاثنين أمام مدير أمن الموصل فقال له المدير: " اشو حرك ايدك!!"، لم يستطع عاصم، فألّح عليه: " اشوف أصابعك يتحركن!!"، فلم يتحرك منها إلا إصبعا واحدا من كفه اليمنى حركة خفيفة... امتعض مدير الأمن وصاح آمرا للمحقق: "ترجع تعلكه حالا... ما أشوف من ايديه أي حركة بعد"... نعم أمعنوا في انتقامهم منه وقرروا إعاقته بعد ثباته وصموده وعدم نطقه باعتراف... تقزموا أمامه وهوجبل إباء بكل ما للوصف من معنى، هم علموا أنه سيعدم لا محالة لكن حقدهم الدفين جعلهم يستمرون في أذاه حتى موعد تنفيذ الإعدام...

ويضيف: سألته عن تهدل كتفيه وشلل يديه، فحدثني دكتور عاصم: أنهم نقلوه من دائرة الى أخرى ولم يتركوا أداة للتعذيب لم يجربوها معه وهو يقاوم الجلادين، ذات ليلة فلم يعترف للمحقق بشيء، فظل معلقاً ويداه موثوقتان الى ظهره وقد علقوه من نقطة وثاقها ليتركز ثقل بدنه الفارغ ويعاني أفضع الآلام دون

أن يعطيهم مايريدون... بقي معلقا يتأرجح أربعة عشر ساعة، مما أدى الى خلع مفصلي كتفيه خلعا كاملا وتمزقت أعصابهما وشلت يداه، مع استمرار إصراره على عدم البوح بأي شيء رغم تكرار تعليقه لساعات طويلة، لقد أصر أنه وحده من نفّذ الحادثة ولم يكن معه أي أحد... وبذلك نجى زميله الذي كان معه يومها...

وأردف: كان لشلل يديه أثرا بالغا في نفسه لعدم قدرته على تولي أموره الشخصية، لكنه كان صابرا محتسبا ويضمر مايعانيه ولم أسمع منه الا الحمد والثناء لله سبحانه... جمعتني وإياه زنزانة مظلمة تكاد لا تسع معتقلا واحدا عرضها لا يزيد عن 90 سنتمتر وطولها ربما مترين... ولا أدري لماذا جعلونا معاً، ظننت حينها لانتهاء ظروف التحقيق... أو خشيتهم من أن يموت الشهيد عاصم جوعاً اذ يتعذر عليه تناول الأكل بيديه المشلولتين، وربما لإستراق السمع بما نتحدث لتوسيع قائمة الاتهامات... وجودي معه خفف عنه بعض همومه، وكم كان مطمئنا وهو يصف لي ظروف تعذيبهم الوحشي له وإصراره على عدم الاعتراف وإن فارقت روحه جسده، لولا تنصت الجلادون على حديث بعض الأخوة عنه وعن بطولته، في تلك الظروف الرهيبة أزحت عنه هم صعوبة أداءه الصلاة، إذ كنت أقوم بتيميمه، فضلا عن مساعدته في تناول طعامه.

كانت جدران الزنازين الإنفرادية في سرداب مديرية أمن الموصل على ارتفاع مترين ونصف المتر تقريباً، وتوجد مابين الجدران والسقوف مسافة صغيرة، تسمح بانتقال الأصوات فيما بينها، وذات يوم سمع الشهيد عاصم صوت أخيه الدكتور هاشم من زنزانة أخرى، وكان ظاهراً أن هناك مجموعة أخرى من المعتقلين من بغداد قد جيء بها الى أمن الموصل فهم عادة مايجمعون أطراف عدة قضايا ليربطوا بينها ويتطلب الأمر انتقالهم بين دوائرهم البغيضة ويتفنن الجلادون بتعذيبهم مرارا وتكرارا... ماكان متاحا لعاصم الحديث مع أخيه والحراس يترقبون الأنفاس، إلا أنه حرص على السؤال عمن أعتقل من أخوته المجاهدين همسا خفيف تحسبا لأجهزة التنصت... كان حصيفا يعي جيدا أن

معرفة من أعتقل منهم ومن لم يزل حرا تغير مجرى التحقيق، فلم يسأل أخاه عن حاله في تلك العجالة وهو قد رأى وسمع ماجرى ويجري عليهم.

ويكمل :على الرغم من ظروف أمن الموصل المرعبة ظلمة المكان وضيقه وعفونته، سوء معاملة الحراس فيها وغلظتهم، قذارة أوعية الأكل والشرب، انتشار القمل في رؤوسنا إلى حد أنه بمجرد تحريك شعر رؤوسنا يتساقط كالمطر على أرجلنا، وما نسمع من أنين بعض المعتقلين من الزنزانات المجاورة، موت أحدهم متأثرا بالتعذيب بعد أنينه طوال الليل، نشيج البعض وحنينهم إلى أولادهم، وغير ذلك من مآسٍ، لم أسمع من دكتورعاصم سوى الحمد والشكر وذكر الله والاطمئنان الكبير، وكأنه علم بأن مكوثه في هذا البلاء قليل وقريبا سيلقى ربه ويلتحق بركب أنصار الإمام الحسين... كيف لا وقد أقدم على أمر قد قض مضاجعهم وأرعبهم وهم المدججون بأنواع وسائل الترهيب.

فدى هذا البطل منتسبي مستشفاه بنفسه معترفا بالحادث ليتحمل وحده كل الأذى وينجون... نعم ليس مستبعدا على مؤمن كعاصم فهو روّض نفسه وهيأها لمثل هذا اليوم، كان طالبا الشهادة في كل دعاء ومستعدا لنيلها مهما كلف ذلك من عناء... نعم نذر نفسه للإسلام وواصل ليله بالنهار لقضاء حوائج الأخوان والدعوة الى الله تعالى، ولم يقضي حياته رتيبة ككل من كان في عمره ومستواه الوظيفي، لم يتزوج ويقيد نفسه بقيود إجتماعية، كان يجيبهم لا مجال لنفسي فقد نذرتها لله في كل حين... وكان له ذلك فقد حكموا عليه بالإعدام، وأعدم رضوان الله عليه يوم 20/ 4/ 1981 بعد ذلك الصبر والثبات، وسلّم جثمانه إلى أهله، فوجده بأسوأ حال...

تحدثت لنا غياب باكية عما وصفه أبوها (الحاج حسين جابر) الذي استلم الجثمان، وأخذه وحده إلى مقبرة السلام في النجف الأشرف، إذ دأب البعثيون على الإمعان في أذى من عارضهم بأن منعوا أهل الشهداء من أن يرافق الجنازة مشيعون، ولم يسمحوا إلا لفرد واحد منهم هو الذي يستلم الجثمان من دائرة

الطب العدلي، دخل أبوها تلك الغرفة الشديدة البرودة وهويقلب بالجثث العديدة، وأغلبها جثث لمعتقلين استشهدوا أثناء التعذيب، أخذه الشك بجثة فارعة الطول إلا أنها لاتشبه عاصم فهي مشوهة بشدة، تذكر أن عاصما ذات يوم أطفأ عقب سيكارة كان الحاج قد دخنها على ظاهر معصمه الأيسر ضاحكاً مردداً: "أريد أراوي البعثيين الأنذال شلون يكدرون يطلعون اعتراف مني؟؟"، أطفأ السيكارة صابراً جلداً والحاج مذهول من شجاعته وقوة إرادته.

وفعلا أدار معصم هذه الجثة فإذا بالندبة ما تزل ماثلة عليه، ضيعوا ملامح وجهه الباسم، وأطفأوا عينيه (قلعوهما)، انتزعوا شعر رأسه، شقوا صدره، وكووا جسده في أماكن متفرقة، على الدنيا بعدك العفا يا دكتورعاصم، تمتم محوقلاً حابسا دموعه بين جفنيه وأشار لهم بتعرفه عليها، وعبراته تتكسر في صدره على عاصم وعشرات الشباب ممن ماتوا صبراً في دهاليز البعث... وهو قد رأى بأم عينية كيف تكدست جثث الشباب الغض بعضها فوق بعض في تلك الغرفة الباردة، فلم يعد في الثلاجات متسعا لأعدادها الكبيرة.

أكملوا الإجراءات بسرعة وسيارة الأجرة واقفة تنتظر خارجاً يقودها أحد سائقين معينين من قبل الأمن، وزودوا الحاج بشهادة وفاة الدكتور مثبت فيها سبب الوفاة (الاعدام شنقا حتى الموت)، وأمروه بالإسراع والخروج، حذروه من مرافقة أي مشيع بلهجة تهديد ووعيد، في الطريق تحدث الحاج حسين مع السائق معرّفا بالجنازة في محاولة لتليين قلبه عسى أن يخالف ما شرطه أزلام الأمن عليه بأن يدفن الجثمان كما هو وبتابوته دون غسل وتكفين، توسل الحاج للسائق الذي بدأت مخاوفه تتبدد بعد أن ذكر له أسم شخص يعرفه من أهالي الكرادة، وعلى عجالة أدى الحاج حسين مراسيم الغسل والتكفين وحيدا معه على المغتسل يبكي حسرات على ماشاهد بأم عينيه من آثار الوحشية التي مارسوها بحقه وسط ذهول المغسلين الذين خنقتهم عبراتهم وارتعبت قلوبهم مما رأوه رغم جلادة قلوبهم وتعاملهم اليومي مع أنواع مختلفة من الجثث على اختلاف أسباب الوفاة، بكاه الحاج حسين منتحبا وضحكات عاصم ما زالت ترن في أذنيه... لم يصدق مايراه

أحقا هذا البطل مسجى على عتبة المغتسل؟! كيف خطفوا بسمته الدائمة من وجهه الصبوح وأطفئوا نور عينيه الواسعتين؟؟... كيف تجرأوا على شعره الناعم الجميل؟؟ تبا لهم ولحقدهم علينا ما أبشع ما عذبوه به... من الذي سلّطهم على شبابنا وكفاءاتنا؟!وبأي حق يقتلونها...

دفنوه على عجل في أرض الغري ليدشن عاصم مقبرة آل رشيد ويودعه الحاج حسين بعبراته ويندبه بأسى... نم قرير العين ياعاصم فان مثواك الجنة وستلتحق بركب أنصار الحسين فقد نلت الشهادة التي طالما رجوت الله إياها... نم فما أظلم الكون بعدك...

ياشباب... ياشباب... الما تهنى بزفته بيوم عرسه الدهر طفى شمعته

ياشباب... الما شفت مثلك شباب بيوم عرسك وأنت نايم بالتراب

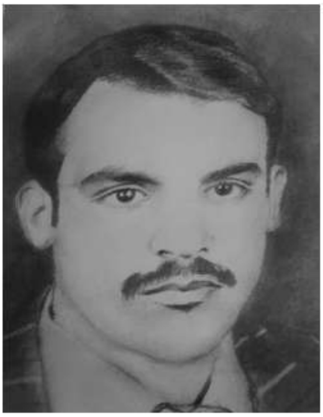

أما شريكه في التخطيط لهذا العمل البطولي سيد عباس العذاري، ظل مختبئا عن أعينهم في بعض قرى الموصل لدى بيوت بعض زملائه، الا أنه بعد أن اشتدت الاعتقالات ورد أسمه بكثرة باعترافات على لسان بعض الطلبة، وأصبح المطلوب الأول وكثّف أزلام السلطة جهودهم بحثا عنه ووسعوا حملة الإعتقالات العشوائية كوسيلة ضغط عليه وهم يرسلون رسائل ضمنية: إن سلّم نفسه سيفرج عنهم...

سجّل موقفا شجاعا وشهما وشريفا وسلّم نفسه ليفديهم جميعا وهو يعلم أنه سيواجه أقسى التعذيب، ولعل مادعاه لتسليم نفسه هو غيرته على الأخوات وفعلا أطلق سراحهن بعدها، صب الجلاوزة المجرمون حقدهم عليه وتعرض لأشد أنواع التعذيب الهمجي ولم يتمكنوا من الحصول على كلمة أو اعتراف واحد منه مطلقا، ونقلوه لعدة مديريات أمن في بغداد والنجف وأعيد للموصل،

حكم عليه بالإعدام بعد كل ماعانه من أساليب وحشية حاقدة قد مزّقت جسده النحيف، ونفذ فيه الحكم يوم 7/ 1/ 1981 لتصعد روحه الصابرة ويلتحق بركب أصحاب الأمام الحسين عليه السلام كأخيه الدكتورعاصم، استلم أهله جثمانه وراعهم ما شاهدوا من آثار الإجرام البعثي المروع، لكن إبتسامته الوديعة لم تزل ماثلة على وجهه وكأنه يهزأ بجلاديه لفوزه بالجنان.

وهكذا تدور رحى الظلم في عراق تسلّطت عليه عصابة البعث وأحالت نهاره الى ليل دائم... ظلم يقتلع الأشجار المثمرة ليحرم منها الملايين... يقتل كفاءات وألقاب علمية ندر وجودها... يطفئ سراج الخيرين في النفوس... نعم لقد رفض صدام أن يكون الإنسان في العراق إنسانا...

الجلاد فؤاد دوش أراد له الله الذلة في الدنيا قبل الآخرة، وبقي معاقا لا يتولى أي شأن من شؤونه بنفسه، ويتحدث أهالي النجف أنه يرفض البقاء بالبيت، وعندما يخرجه أهله على كرسيه المتحرك يلقي الأطفال عليه القاذورات ويبصقون عليه وكأن الله ألهمهم أنه من أعداء الله... ولم يجدي منع أهله لهم أو منعه من الخروج للشارع... حتى وافته المنية بعد عقود من المهانة لينال قصاصه الأخروي من الله جزاء ما فتك بالشباب المؤمنين، وذلك في 11/ 9/ 2020بعد مضي أربعين سنة ونيف قضاها معلولا يرى بعينيه حكم الله فيه، بينما يرفل الشهداء الذين عذبهم منذ ذلك الحين في نعيم الجنان وهم ضيوف الرحمن مع النبيين والصديقين وحسن أولئك رفيقا.

غياب... فريسة لانتقام الجلّادين

بعد أن دفن الحاج حسين جابر الشهيد الدكتور عاصم ليلاً برفقة إجبارية من مفرزة من مفارز الأمن، أمره أزلام البعث بعدم إقامة أيّ مأتم أو إعلان أيّ حداد... وأعتقال أخويه أخوال غياب الدكتور هاشم جاسم والأستاذ أسعد، في

حين استطاع الملازم قاسم رشيد خالها الرابع من الفرار والتخلص من الاعتقال، فقد عبر الحدود إلى سوريا مع زوجته السيدة انتصار عبد الحسين هادي أخت الشهداء الأربعة (سعدون وعبد الحكيم وعلي وعبد الكاظم).

هاهي عائلة (غياب) ظلت مراقبة وملاحقة من قبل عيون أزلام النظام، وقد وقعت اليوم فريسةً بأيديهم، فهم قد اقتصوا من أخوالها بها، فقد كان أبوجواد يعذبها صارخاً: "ولج خالج المجرم كتل أعز أصدقائي"...

عذّبوها بشدة... علقوها... رجّوها بالكهرباء... ضربوها بالعصي والكيبلات، حتى غدا جسدها أسودا، ومزقوا قدميها بالفلقة انتقاماً وحقدا دفينا...

غياب تهمتها أنها جمعت التبرعات الآنفة الذكر من هدى وباسمة الصغيرة وباسمة الكبيرة، واشترت علب حليب لابنة خالها الدكتور هاشم الذي أعتقل وزوجته أماً لابنته البكر أسماء، وحاملاً بإبنته الثانية زينب (شيماء)!! فأتهمن بتهمة جمع التبرعات للعوائل الحاقدة على الحزب والثورة، عوائل حزب الدعوة (العميل)...

غياب كانت في الصف الخامس الأدبي، وعلاقتها مع بنات الكرادة علاقة زمالة في المدرسة وعلاقة جوار، هي وهدى وخيرية وإيمان وباسمة عبد العزيز وباسمة عبد الأمير وسندس وأمل، جميعهن طالبات في إعدادية الهدى للبنات، ومنهن من تخرجن منها ومنهن من لم تزل طالبة فيها...

ولطالما تشاطرن الحديث عن مديرة المدرسة البعثية ذات الدرجة المتقدمة في حزب البعث (راجحة الأسود)، وأفعالها العدائية ضد الفتيات المحجبات، وكيف أنها ارتدت الزيتوني (زي الرفاق والأعضاء البعثيين)... وكم كانت متحمسة لصدام وهي تهتف بأهازيج البعثيين في كل يوم خميس عند رفعة العلم.

وكن يذكرنني بمدرستي إعدادية المعالي، وما كان يجري من أعمال خبيثة بقيادة مديرتها أمل، وعربية محمود رئيسة الاتحاد...

إذ استدعت المديرة ذات يوم دورية من رجال الأمن، وطلبوا عدداً من البنات للأستجواب منهن: ماجدة وفائزة وباسمة، وهن طالبات في المرحلة الإعدادية... الرابع والخامس والسادس القسم العلمي، وأخذوهن إلى دائرة الأمن...

لم يبتن بل عدن في نفس اليوم... وحدثتنا ماجدة أنه كان عبارة عن (قرصة أذن) تحذير منهم يجعلنا نتجنب أي عمل إسلامي يهدد كيان البعث...

هذه هي أمانة البعثيات... مديرة المدرسة التي يفترض أن تحرص على الطالبات، لا أن تسلمهن إلى رجال الأمن بعد أن تستدعيهم لذلك، كانت جزء من منظومتهم الشريرة التي أرعبت العراقيين، وانتهكت كل حقوق الإنسان.

فاطمة المعذبة جارتي الحنونة

فاطمة التي ماعهدناها إلا مبتسمة راضية بما جرى عليها، محتسبة صابرة، ولسانها لاينقطع عن ذكر الله، وعندما زاد عددنا على العشرة صرنا ننام في غرفة التعذيب عقب انتهاء (عملهم) اليومي بها... فاطمة جارتي في ذلك الركن من الغرفة، كنت أخشى النظر إلى جراحها وحروقها، فلا يقوى بشر على رؤية ماحل بجلدها الرقيق، الكاوية الكهربائية أحرقت ظاهر كفيها حروقاً بليغة وصدرها وكتفيها أحرقت بالمكواة الكهربائية، قدماها الصغيرتان تنزفان دماً وقيحاً... عيناها لم تزل تحيطهما هالات زرقاء من جراء الكدمات التي لقيتها منهم... أما يداها فمشلولتان من التعليق المستمر الذي تعرضت له، لأكثر من مرة يرتد مفصل كتفها إلى الأمام ويدور مرفق الكتف دورة كاملة لتستدير يداها من الخلف إلى الأمام، وهذا يعني أنه قد خُلع كلياً... كل هذا الويل والعذاب وابتسامتها الجميلة لم تفارق مُحياها، وأسنانها الناصعة البياض تزيدها جمالا وبهاءا، وصوتها الملائكي العذب ما انفك يصدح بذكر الله... وعندما كنت أسقيها بعض الماء...

تشكرني قائلة: جزاك الله خيراً يا أختاه، وسقاك الله من حوض الكوثر، كانت تتحدث بالفصحى وكنت أبتسم من ذلك، لأني لم أعتده من غيرها...

تشعرني بالخجل لكثرة امتنانها لشربة ماء أسقيها لها، ورغم أني لم أكن أقوى على النظر إلى جراحها، لكني أحببت قربها فهي دافئة حنونة... وعندما نتحدث وتذكر ساعات وأيام تعذيبها... تضحك مزهوة بالنصر عليهم وتقول: ما أكرمك ياربي إذ ثبتني أمام جبروتهم...

كلما نظرت فاطمة لهؤلاء الفتيات اعتصر قلبها وأخذت بالبكاء واحتسبت الله في من كان سبباً في اعتقالهن، وتحسرت على صمودها أمام أنواع العذاب الذي صب عليها فهو لم يجد نفعاً ولم يحل دون اعتقالهن...

وكلما دخلنا إلى مكان نومنا في غرفة التعذيب، دارت أحاديث الشجون، وكلما بكت إحدى الأخوات بكت الأخريات معها تواسيها إلى أن انتهت أيام التحقيق، هدأ الحال نوعاً ما، وتغيرت الأحاديث إلى ذكريات الأيام التي سبقت الإعتقال... كنت أتعمد ذكر بعض المواقف المضحكة كي أضفي على الجو نوعاً من المرح، وكانت بعض الأخوات تضحك ودموعها في عينيها... شعرت لي أقدميةً في المعتقل، وعليّ أن آخذ بيدهن كي يتجاوزن المحنة كما ساعدتني عالية وبتول...

عندما يدخل أبو جواد غفلة إلى غرفة التعذيب، ونحن فيها يحذرنا من الحديث معها، ويهددنا بنبرته النكراء ساخرا منها: "ديرن بالجن منها... تره هاي سعلوة"... وكأننا أطفال لا نعي من هي هذه القمة والتي يتجرأ هذا القزم على النيل منها... نتذاكر معاً بعض الآيات القرآنية التي حفظتها من أيام الدراسة وأتلوها على مسمعها، تسرح في ملكوت آخر وتترقرق دموعها وكأنها تجسد معاني هذه الآيات المباركات... عيناها نابضتان بالحياة، وتشعان حباً لكل من حولها من المعتقلات... أحبتني كثيراً وقالت لي: أنت شفافة الروح طاهرة القلب أنت نقية...

هذه الكلمات كبيرة بحقي فكنت أرد عليها: أنت مؤمنة غير أنك تبالغين لدرجة قد تجعل بعض كلامك كذباً... تضحك ضحكتها الساحرة، وتقول: ابداً بل أنت التي لم تعرف نفسها... أنا أراك بعين الأخت المؤمنة... أنت كذلك فحافظي على نفسك... إياك إياك أن تفقدي هذه الصفات أو بعضها... تحّمر وجنتاي وهي تطريني بهذه الكلمات، وازداد تقرباً منها، ولم أعلم أنها ستعدم وتحرم الحياة ونحرم منها...

لمّا أعيته الحيلة في إخضاعها إستخدم أسلوب التسقيط معها، فقد أخبر الجلاد بنات الكرادة بأنها هي من اعترفت عليهن وهي من (كسرت رقابهن) على حد تعبيره،عملاً منه بدق أسفين البغضاء والعداوة بين الأخوات...

وفعلاً كم عتّبتها الأخوات عن إدلائها باعترافات، وأنها سبب اعتقالهن وعذابهن، وهي بريئة من ذلك براءة الذئب من دم يوسف، كاد أن يحدث ذلك شرخا بينها وبين بنات الكرادة وأن يفسد الود الذي يجمعنا كأخوات وشريكات محنة، لولا العقل الكبير واللب الراجح الذي تتميز به الأخوات وفاطمة أولاهن...

أقسمت بأنها ذاقت ماذاقت من ويلات العذاب حفاظاً على أسمائهن، وكادت تموت ولم تذكر حرفاً واحداً... لكنها فوجئت بأن قائمة الأسماء أمام أبي جواد، وذكرها لها واحداً واحداً بعد أن يئس منها بالإعتراف، وهي نفسها لاتدري كيف جاءت هذه الأسماء إليه...

بقيت فاطمة تجهل سر وصول أسماء بنات الكرادة إلى أبي جواد حتى حكمها بالإعدام ودخولها سجن الرشاد إنتظاراً لتنفيذ الحكم، وفوجئت بعشرات الأخوات قد حكمن قبلها بالسجن المؤبد، والبعض منهن بالإعدام، ومن دوائر أمن أخرى غير أمن الثورة التي كنا فيها... هناك فقط علمت أن هو من أدلى بكل الاعترافات، وكان سبباً في اعتقال عشرات الأخوات ومنهن فاطمة... في البداية لم تصدق بنات الكرادة ماكانت تقوله فاطمة، ولكن تدخلنا أنا وعالية وبتول في إصلاح ذات البين، وأن الامر أصبح واقعاً وعلينا أن نتحد في مواجهة عدونا، وندعو الله أن يكفينا شرورهم، عاد الهدوء إلى النفوس وخابت مساعي الجلاد...

رغم انتهاء التحقيق معها لم ينقطع استجوابها بين حين وآخر، فضلاً على الإهانات المتكررة التي كانوا يوجهونها لها كلما رأوها، وهذا إن دل على شئ فهويدل على إنهزامهم أمام صلابتها...

بقيت معنا مايزيد على سبعة أشهر، وصودق على إفادتها، وإفادة الأخوات إفادة ملفقة في أغلب محتواها، ومن بنات خيال أبي جواد الذي كان يفخر دائماً بأنه لايدع أي أثر أو ريحة لحزب الدعوة، وأنه سيعتقل من له صلة به ولو من سابع ظهر...!!

وهذه سابقة له أن يكون قد ألقى القبض على خط تنظيمي نسوي لحزب الدعوة، وكذلك انتقاماً من فاطمة التي أذلت كبرياءه، وأوهنت قواه، ولم يتحقق ما أراد من إعترافها فآثرت التحمل على أن تكون سبباً في دخول أي فتاة إلى هذا الضيم والعناء...

ظلت فاطمة جارتي في موضع النوم، وكنا نتحدث معاً لساعات بعد أن تماثلت جراحها وحروقها للشفاء، وحدثتني عن أخواتها حمدية وفتحية وبتول، وقالت: أراهن فيك فأنت الآن أختي الصغرى...

وحدثتها عن أخي جمال وعلاقتي الوثيقة به، وعندما عرفت إسمه جمال قالت: سبحان الله، وزوجي اسمه جمال وحدثتني عنه، وكيف أنه ساعدها في السير في طريق ذات الشوكة، فهو إبن خالتها واختارها شريكة لحياته ورضيت به، ولم تهتم أنها من عائلة غنية مترفة وتسكن في شارع فلسطين، وهو من عائلة فقيرة وتسكن في مدينة الثورة... المدينة الشعبية وفي أحد أحيائها المتعبة... سألتها ذات يوم: أنت مثقفة وشابة فلماذا تظهرين بمظهر القروية؟ ترتدين الدشداشة والفوطة بدلاً من الجبّة والربطة؟...

أجابتني بهدوئها وصوتها الحنون وهي باسمة: حبيبتي قصدت ذلك، فأنا أعتقد أني مطلوبة منهم ولذلك أردت تغيير مظهري الخارجي كي لايتعرفوا عليّ، حملني جوابها هذا إلى عالم خيالي، ونبهني إلى حقيقة ماكنت ألمسها، وهي هذه المرأة التي أمامي، وعرفت لماذا انهار الجلادون وهم يحققون معها، كيف تتحداهم وهم بكل هذا الجبروت؟ مم تستمد قوتها وعزيمتها في هذا التحدي

وهي انثى ككل الإناث؟ عرفت حينها أنها قد نذرت نفسها لإعلاء كلمة الله وباعت دنياها لآخرتها...

كانت تكرر الطلب أن أتلو عليها آيات قرآنية من تلك التي أحفظها لتسبح روحها في عالم الملكوت وهي تردد معي... وعندما أكمل تدعو لي دعوات صالحة وقد أغرورقت عيناها بالدموع... وهي ماتركت الذكر طيلة بقاءها معنا كنت ألحظ شفتاها تتمتمان بكلمات متواصلة.

ظلت علاقتي بفاطمة علاقة من نوع خاص، فأنا أرى فيها القدوة الحسنة، وهي ترى بي مستقبل الفتاة المسلمة... كانت تثني عليّ عندما أتدخل لحلّ سوء تفاهم قد يحدث أحياناً بين الأخوات، حتى وإن كن يكبرنني بالعمر... مرة من المرات حدث إشكال بين أختين، وحاولت جاهدة أن أقرب بينهما... ذكّرتهم إننا يجب أن لانتفرق وعدونا يتربص بنا، وذكرتهمّا بآيات قرآنية وأحاديث شريفة لكن دون جدوى، فقد أصرت كل منهما أنها هي المحقة، والأخرى ليست كذلك... عيل صبري وأخذت أبكي، قلت لهما: أنتما الأكبر وأنتما من نتعلم منكما نحن الصغار، أرجو أن تتذكرا أين نحن... نحن بين فكي الوحوش، ولا مجال لهذه الشجارات وأخذتني نوبة بكاء شديدة... لا أدري لماذا أحمّل نفسي مالا تطيق، وأشعر أن عليّ مسؤولية عينية دون الأخريات، أتعبني هذا الطبع كثيرا...

حدث هذا وفاطمة تراقب، عندها احتضنتني، وهدأت من روعي، ومسدت شعري قائلة: ألم أقل لك إنك أكبر من عمرك ولك عقل راجح... ثقي أن دموعك هذه في عين الله، فأنت تحرصين على وحدة المؤمنين، وتشعرين بثقل المسؤولية عليك بالأمر بالمعروف... كففت عن البكاء وبدأت أصغي إليها وكلماتها الحانية تزيل همومي، وتسكن روعي، وتجعلني أهدأ مثل طفل تهدهده أمه وينعم بحنانها وهو في حجرها...

علاقتي بفاطمة علاقة روحية، فأرواحنا كانت تتآلف وإن بعدت أجسادنا، أحسست أن ثمة قواسم مشتركة بيننا ونقاط التقاء بين أرواحنا حتى قبل خلقنا... حتى بعد أن خرجت فاطمة ومجموعتها من المعتقل لتحكم بالإعدام، وينفذ فيها

بعد شهرين من موعد المحكمة، كنت لم أزل في المعتقل، ولم يبق معي سوى بتول وإنتصار وأطفالها... حلمت ذات يوم أن باب المعتقل تفتح وكأنها غير مقفلة بسلسلة حديدية وقفل كبير كعادتها، تفتحها فاطمة بكلتا يديها لتطل علي وهي مبتسمة وفي أبهى صورة وجنتاها متوردتان وأسنانها البيضاء تتلألأ وقد ارتدت ثوباً مائلاً إلى البياض من تلك التي خطناها بأيدينا من قماش الحاجة أم ضياء.. فأستقبلتها بلهفة قلت لها: فاطمة لماذا عدت إلى المعتقل؟ إحتضنتني وقبلتني على خدّي قائلة: حبيبتي عدت لألقي عليك التحية فقط... ودعتني وكأنها تسرع إلى مافيه سرورها، بدت مرتاحة جداً وفي أعلى درجات السعادة، وقالت: إني أودعك وذهبت...

أفقت من نومي مرتاحة فقد كنت مشتاقة لها جداً، وسرتني رؤيتها في المنام، وخاصة أني وجدت علامات الفرح والبهجة عليها، قلت في نفسي هذه أعمالها الصالحة في السجن هي التي تظهرها بهذا المظهر الحسن.

ولم أعلم أن في نفس هذا اليوم كان إعدامها، بل لم أعلم انها قد حكمت بالإعدام... صعدت روحها إلى بارئها وطافت في السموات وجاءت لتودعني...

علمت أن هذا الحلم في نفس موعد إعدامها من أختها بتول علي طالب، التي أعتقلت وأختيها فيما بعد، فقد بقيت أنا في معتقل دائرة أمن الثورة مايزيد على أربعة عشر شهرا، وهي أسوأ أيام وشهور حياتي... أحسست أني قد كبرت فيها عشرات السنين، لهول مارأيته وسمعته وعشته يوماً بيوم وساعة بساعة من عذابات وويلات وانتهاك لكرامة الإنسان وقمع للإرادات، ومئات الناس الذين كانوا يأتون ويخرجون من هذا المعتقل الرهيب، فمنهم من يتم إخلاؤه إلى محكمة الثورة، ومنهم إلى المقابر الجماعية، وآخرين إلى معتقلات أخرى، ومنهم من يتم استدعاؤه إلى الأمن العامة بعد أن يعجز القائمون على التعذيب في هذه الدائرة من إنتزاع إعترافات، أو لأن أحدهم قد إعترف عليه هناك.

معادلة البعث ظالمة

خيار الناس وأبناء أشرف العوائل كانوا أسارى بيد أراذل الناس، فالمعتقل رغم ثيابه الرثة والممزقة من السياط، ورغم شعره الأشعث ولحيته الكثة تراه يشع نوراً من إيمانه وصبره واحتسابه، بينما الجلاد وقد ارتدى أبهى الثياب، وتعطر بأغلى العطور مسود الوجه مكفهر الملامح، يذكرك فوراً بأبي جهل وأبي سفيان...

عندما كنا نجلس تحت السلالم، كانوا يجلسون بعض المعتقلين الذين هم قيد التحقيق فوق السلالم... يوثقون يد المعتقل إلى سياج السلم بالكلبجة وهو معصوب العينين، نفدت الأماكن والدائرة تضج بالمعتقلين، وهم يقصدون إبعاد المعتقل عن باقي أفراد مجموعته كي لايلّقنونه ماجرى معهم، أو يعرّفونه بسير القضية.

تختلط علينا الأصوات ونحن نسمعها تصدر من غرفة التعذيب، ولا ندري أي صوت من الأخوات هل هي هدى؟ أم أمل؟ أم سندس؟ أم باسمه؟ أم غياب؟؟

هي حفلة من حفلات التعذيب التي يتلذذون بها... صرخات المعتقلات لاتحرك فيهم أدنى مشاعر الإنسانية، ولطالما سألت نفسي: كيف يجرؤ صدام بإطلاق نعت (الماجدة) على المرأة العراقية، وها هي خيرة نساء العراق تحت سياط جلاديه؟ كيف يدّعي أنه يدافع عن أعراض العراقيات ويحميهن من هجمة جيران الشرق، وهو يعطي الأوامر والصلاحيات باعتقال النساء مهما كانت الأعمار، ولم يستثنيهن من أساليب التعذيب الوحشية التي تمارس ضد الرجال؟؟ حقا إنها معادلة ظالمة.

سؤالي هذا سؤال العارف، فنحن نعلم جيداً من هو صدام اللقيط والمشرد، والذي أراد الإنتقام من كل لمحة من لمحات المجد والشرف لشعوره بالدونية وعقده النفسية العديدة التي عانى منها بسبب أمه، فلا غرو أن انتقم منا

ومن عوائلنا، فقد أراد اختصار العراق بكل إرثه الحضاري والديني بشخصه الأجوف وأطلق شعار: إذا قال صدام قال العراق!!

ها هو بلد الرافدين... بلد سومر وبابل وآشور... مهبط الأنبياء ومعدن الرسالات... يسعى جاهدا هذا المسخ القروي ليختصره، ويطويه ليصبح صفراً على الشمال... ولكن هيهات هيهات لم ينجح مخططه هذا، تنامي أعداد لمعارضين أقلقه وأفزعه وأرق نومه، وصار يستحدث يومياً عشرات المعتقلات والسجون، ويعد كوادرها بالتدريب خارج العراق، بل أن مصر وإسرائيل قد تكفلت بتدريب كوادر دوائر الأمن التابعة له، واستورد أنواع أجهزة التعذيب الحديثة، فلم تعد العصي والكيبلات تنفع أمام صمود هذه الجموع الغفيرة من المعارضين... حتى (الكلبجات) منها ماهو مستورد من إسبانيا، وهذه واسعة نوعاً ما وتستطيع إخراج كفينا منها، كفوفنا صغيرة ننتزعها من هذا القيد خاصة عندما نأوي إلى غرفة نومنا (غرفة التعذيب)!!

اما (الكلبجة) المصنوعة في أمريكا فهي أقوى وأضيق على المعصم، ويصعب نزعها كما أنها أثقل وزناً من الإسبانية... ياللسخرية... صدام ينفق مال العراق لشراء واستيراد آلات القمع والتعذيب، وشعبه يتحسر على أبسط مقومات الحياة والتطور!!

صار لدينا ولع بقراءة عبارات صنع الكلبجات المنحوت عليها... كما أن أكثر الكلبجات كانت آثار الدماء باقية عليها... ولاعتزازنا بهذه الدماء، كنا نفخر بأنها تطوق معاصمنا، ونشعر بأنتمائنا لقضية سامية... قضية كلمة الحق عند سلطان جائر... والتي عبّر عنها الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: إنها أعظم الجهاد عند الله... لكننا نحاول نزعها من معاصمنا عند الصلاة...

الصلاة التي صليناها وبكل الكيفيات... صليناها إيماءاً في أول أيام الاعتقال، وجلوساً في مواقف يصعب الصلاة فيها بعد التحقيق، لأننا لانقوى على القيام... وفي ساعات الانتظار تحت السلالم، وهم يستخدمون غرفة

التعذيب في ترويع وإرهاب المعتقلين، ولا نستطيع الدخول إليها لنأوي إلى النوم، إلا بعد انتهائهم منها، ويطول الإنتظار حتى ساعات الفجر الأولى أحياناً... وصليناها قياماً في غرفة التعذيب... وواظبنا على صلاة الليل... بل صلينا قضاءً واستحباباً كل صلاتنا طهورها الوحيد هو التيمم، فلا غسل ولا وضوء في هذه الدائرة...

لم نغتسل لمدة ثلاثة شهور، ولم تر أجسامنا الماء، بل لم نستبدل ملابسنا لهذه الشهور الثلاثة، حتى استحالت إلى خرق بالية ليس لها ألوان... حتى العباءات أخذت تلتف وتنعكف على بعضها من كثرة ارتدائنا لها... قد لايصدق أحد أننا بقينا هذه الفترة دون اغتسال ولم يقلل هذا من بهائنا، فها هي وجوه المعتقلات تشع نوراً... رغم الإصفرار والشحوب الذي يعلوها الجبين يتلألا منه نور الإيمان...

أقلّب نظري بين وجوههن، وقد افترشن أرض غرفة التعذيب، متكئات على جدرانها الخشبية الملطخة بدماء المعذبين... وأرى واقعة الطف تتجسد فيهن، والنور الذي كان يتألق من سبايا الحسين، ويلفت أنظار أهل الكوفة والشام، هو ذاته اليوم يعود ليتألق من جديد من وجوه هؤلاء الفتيات المؤمنات واللواتي لم يقترفن أي جرم مخل بالدين أو الشرف أو القانون... هي البراءة قد أضطهدت... والعفاف قد أختطف والشهادات قد أستئصلت من واقع المرأة العراقية، بل هو تجسيد لحقد دفين يحمله أبناء الطلقاء على من حمل الإسلام المحمدي الأصيل من حرائر العراق...

بتول ورؤياها المفرحة

نقضي يومنا تحت سلالم البناية القديمة المتعِبة للأرواح والأجساد، حيث لا حامٍ ولا مدافعٍ عنا غير الله، فمن يمنع هؤلاء الأوغاد من التعدي علينا سواه

سبحانه، ألسنتنا تلهج بالتسبيح والدعاء ونحن نسمع صرخات المعذبين المؤمنين تصدر من غرفة التعذيب ومن غرفة المحقق ومن غرفة جلوسهم فهم لا يتركونهم دون ضرب وأذى يرضون أنفسهم المريضة المتعطشة للدماء، أميرة كانت تشاركنا ذات الفعل فهي حشرت معنا في دوامة العذاب هذه التي تدور دوراناً مخيفاً، على الرغم من عدم التزامها دينياً كانت ذات قلب رحيم وتحسست آلامهم فهي قد ذاقت أغلبها يوم حققوا معها.

نأوي الى غرفة التعذيب كل ليلة (لننعم) بملاذ ننام فيه على الرغم من أجواء التعذيب والألم هي مقر مبيتنا بعد يوم مضنٍ، وننتظرذلك منذ الصباح الباكر... ففي الكثير من الأحيان يداهم الحراس الغرفة ونحن نيام ويقتحمونها لحاجتهم اليها... نخرج مسرعات مرعوبات لنجدهم قد اقتادوا أحد الشباب مكبّلاً والكدمات تعلو وجهه وقد مزّقت ثيابه السياط وسالت الدماء من جسده وقدميه الحافيتين، نعم في غرفة التعذيب من وسائل القمع والرعب مالا يتوفر في مكتب ضابط التحقيق ويجتمع فيها الجلادون ليتولى كل منهم مهمته الوحشية باستخدام تلك الوسائل ويكملوا إجراءاتهم القمعية الإرهابية معه.

نهيء غرفة نومنا بإزالة الدم وآثار التعذيب من أرضها ويبقى جوها خانقا برائحة الدم والعرق وأنفاس المحققين القذرة التي تفوح منها رائحة السكائر وربما المسكرات.

تشرق الشمس على كل أرجاء الأرض دون أن نراها ليأتي الصباح وأي صباح ينتظرنا بعد مساءٍ دامٍ نبيته على صراخ المعذبين!! ذات اليوم استفقنا مرعوبات لا بسبب الجلادين وإنما على نشيج بتول مهللّة مسبّحة وهي تصيح: "اكعدن حبايب اكعدن.. ... الزهرة حاضرة هسه جانت كاعدة على الكرسي ولابسه السواد وتباوعجن بعين اللطف والعناية "... تبكي بتول وهي تردد: اللهم صلِ على محمد وآل محمد... وتصيح بانفعال شديد: "إهنا كاعدة"... تؤشر على جانب من غرفة التعذيب نتركه فارغاً لأنه مقابل بابها وننام على طرفي الغرفة،

بكيت لحظتها بحرقة ليس لأني استفقت من نوم هربت فيه من واقع أليم فحسب، بل لأني أحسست أننا حقاً بنات الزهراء عليها السلام وكيف لا نكون كذلك ولم نقترف جرماً سوى حجابنا والتزامنا بديننا، فتيات في ربيع العمر صمدن أمام التعذيب وثبتن أمام مغريات الدنيا وكنّ نماذج فريدة في مجتمع كان التحلل والإنفلات سمة واضحة عليه في ظل حكومة علمانية جائرة جهدت على محو الهوية الدينية لعراق المقدسات مثوى الأنبياء والأولياء الصالحين... ظلت بتول تكرر ما رأت وأكدت أنه لم يكن حلماً بل كان واقعاً حضورها عليها السلام وجهها يشع نورا يملأ المكان الزاخر بالآهات والحسرات وظلمة الإرهاب البعثي.

كان يوما مميزاً بقينا لأيام نستحضر ما ذكرته بتول ونتزود منه وقوداً تعيننا على ما نحن عليه من محنة هي الأقسى في جميع مراحل حياتنا... كبير في أنفسنا أن تحضرنا الزهراء عليها السلام، وكبير علينا أن نكون أهلاً لهذا الحضور المبارك، ففي عتمة ذلك المكان ومصيرنا المجهول فيه لم يكن لنا سلوى سوى آيات كريمة حفظناها على ظهر قلب وأحاديث شريفة وبعض روايات قرأناها، كنا نتداولها بعد أن تهدأ معمعة التعذيب ويأوي الجلادون الى جحورهم ونأوى الى غرفة التعذيب التي تحمينا من أعينهم لنجد أننا لم نرى أوجه بعضنا البعض، فطيلة وقت مكوثنا تحت السلالم... قبالة تلك الغرفة ونحن نتلفع بعباءاتنا، ولا يسمحوا أن نرى جرائمهم بحق خيرة الشباب المؤمن.

فاطمة شوكة أم حسين... أُم لنا

من مجموعة الكرادة السيدة فاطمة شوكة (أم حسين)... امرأة في نهاية العقد الثالث أو بداية العقد الرابع من عمرها... طويلة القامة... سمراء المحيا... حنونة عطوفة... مرتعبة من فكرة بقائها في المعتقل دون أولادها الخمسة... ثلاث بنات وولدين وهم جميعاً صغار...

أم حسين... امرأة أمية بسيطة التفكير، ليس لها أيّ دخل في السياسة، وساقها القدر إلى ذلك بعد أن طلبت منها إبنة أخيها (أمل عباس) أن تخفي مسدس خطيبها (صباح) الذي أعتقل، وخشيت أن يتم تفتيش دارها فأودعته عند عمتها التي لم ولن تدور الشبهات حولها، فهي تسكن في جزء من بيت أهل زوجها، وربة بيت بكل معنى الكلمة.

عندما اعتقلوها إستغرب كل من سمع بذلك، فهي بعيدة عن العمل السياسي، ولكن البعث الجائر لايستثني أحداً ومهما كانت الظروف... أم حسين هذه أم فقدت أبناءها وفقدوها، تعاني من مرض ضغط الدم... ضغطها يرتفع كلما هاجت أحزانها التي لاتهدأ، وأنى لها الهدوء وهي تذكر بناتها وأولادها الصغار الذين حرموا حنانها دون ذنب ولا جرم فعلته... عجزت فاطمة أم حسين من إقناعهم أنها لم تعرف صاحب المسدس ولم تعلم أنه مسدس، بل كان مغلفاً كأمانة أودعت عندها...

بداية اعتقالها أحتجزت مع إنتصار زوجة عبد الحسن وأطفالها في مكان آخر من نفس المعتقل، كنا نراها عندما تأتي للمرحاض صباحا ومساءا، ولم يكن الحارس يسمح لها بالحديث أو النظر إلينا، فثمة توصيات عليها أن لا تختلط ببنات أخيها أمل وسندس لحين إنتهاء التحقيق.

لم نجتمع بها إلا بعد ما انتقلنا إلى المبنى الثاني... وسيأتي تفصيل ذلك... قضت سبعة شهور في معتقل أمن الثورة وهي تعيش هذه الأمال، وتعيش الإحباطات التي تليها، لكنها لم تنقطع عن الدعاء، فقد توسلت إلى الله أن يحمي صغارها، ويبرد قلبها المحترق على فراقهم، وكانت تدعوه بصوت عالٍ... تقف قرب الشباك وهي تكشف عن جيبها وتدعوه بحرقة وألم: "الهي تقبل غيرتك؟ حسين يظل بلا أم... تقبل غيرتك ياكريم جاسم يظل بلا أم"... وهكذا تعدد أبناءها وبناتها واحداً واحداً بصوت حزين يجعلنا نبكي معها ونسأل الله استجابة دعائها...

كانت آهاتها حرى على فراق صغارها وحسراتها تترى لم نكن نفقهها فلم نكن نشعر بشعور الوالدات بعد، كلنا بنات تحسسنا وجع أمهاتنا في أوجاعها.

نعم... إن مظلومية أم حسين مظلومية مركبة فقد وقع الحيف عليها مرة بصورة مباشرة يوم اعتقلت وتعرضت للإهانات في زنازين البعث مع بنات أخيها وحرمت من صغارها، وأخرى غير مباشرة يوم حرم صغارها من أمومتها ورعايتها لهم.

فمن يعوض هذه السيدة ومن يعوض صغارها عن سنوات الحرمان؟ وأكاد أجزم قاطعة أن كنوز الدنيا لا تعوض صغيرا أفزعه حلم ذات ليلة وحاول اللواذ بحضن أمه، ولن تجد حريصا على طفل مريض ويسهر على راحته حتى يتماثل للشفاء مثل أمه، ومن ذا يخبز لهم أرغفة شهية كالتي خبزتها أمهم، وهي تتنقل كفراشة هادئة تطعم هذا وتساعد ذاك... واليوم حرموا منها وغيبتها سجون البعث وزنازينه...

وكيف تُعوَض أم ذاب قلبها شوقا لضم صغارها وحنّت لتظفر جدائل بناتها في صباح يوم مدرسي، أو لتعد لهم عشاءا ساخنا في مساء شتوي تجتمع فيه العوائل العراقية حول المدفأة، هاهي قد لفّها البرد القارص خلف قضبان السجن، واكتوى فؤادها شوقا وحنينا لأمومة عطلت لعامين ولتجد صغارها غير ماتركتهم فقد تأثروا لفراقها أيمّا تأثير.

أم حسين كانت أماً لنا، فنحن جميعاً أصغر منها، وشعرنا بحنانها، فهي تعتني بنا، وترعى من تتعرض منا لوعكات صحية أو للتعذيب... أحبتنا وأحببناها وواسيناها عندما تمر بمراحل اليأس، ورفعنا من معنوياتها عندما تشعر بأن ثمة من يشمت بها من نساء حيّها وقريباتها، لأنها سجنت فالمجتمع لا يرحم... ونقول لها: إنك قد دخلت التاريخ يا أم حسين، فليس ثمة أدنى عيب فيما أنت عليه، بل عز ومجد يكفي أنك الآن في صفوف المعارضين لصدام وأزلامه الطغاة...

تضحك عندئذ قائلة: "شيجيبني عليجن أنتن مثقفات وانه مره أميّة كلشي ما أعرف"... فتزيدنا حبا وتعلقا بها، حفظّناها آيات القرآن التي نحفظها وأسمعناها أدعية وأذكاراً تلك التي نعرفها، وصلينا معاً صلوات قضاء الحاجة وصلوات الفرج، لم يقتنع الجلاد أبو جواد ببراءتها، وقرر أن يسجنها ولا يبرئها، فحكم عليها بتوصيته إلى رئيس محكمة الثورة سنتين قضتها معنا في سجن الرشاد...

الكذب ديدنهم ولا وفاء لوعودهم

لم يقتصر التعذيب في هذه الدائرة المشؤومة على أساليب الترهيب الجسدي، فكان للعديد من المعتقلين نصيب وافر من التعذيب النفسي، حيث يعمل هذا النوع على التلاعب بمنسوب الأمل لديهم ويحطم المعنويات بين الأمل واليأس، وكان لأم حسين فاطمة قسطا وفيرا منه... حطّم ابو جواد أعصابها بحرب نفسية ممنهجة فهو يومياً كان يناديها قائلاً: استعدي وتهيأي ستخرجين وتعودين إلى أبنائك... وهي تشكره فرحة مستبشرة ومودعة إيانا... لكن دون أيّ صدق لهذه الوعود... أتعبتنا أم حسين بتصديقها له، وكم حاولنا إقناعها أن لا تصدق وعوده الزائفة، إلا أنها كانت تريد التشبث بالأمل وإن كان كاذباً، فقد عاشت أياماً وليال مريرة والشوق يكويها والألم يعتصر فؤادها على فراق أطفالها الصغار، هي إنسانة طيبة القلب مؤمنة، حاولنا جاهدين إخراجها من هذه الدوامة بالتوجه إلى الله والدأب على العبادة وقضاء مافاتها من الصلوات وتلاوة آيات من القران محفوظة في الذاكرة، وليس لنا من سند ومعين غيره سبحانه الحنّان المنّان... عرفنا أن هذا تلاعب بأعصابها، ولطالما أخبرناها أن لاتهتم، ولا تعلّق أمالها على كلامه ووعوده الكاذبة... لكنها أبت إلا التعلق بهذا الخيط الواهن، ولسان حالها يقول:

أعــلـــل الـــنـفـــس بـــالامـــال أرقـــبـــهـــا

مــا أضـيــق الـعـيـش لـولا فـسـحـة الأمـل

ومثلها فعلت بتول، عاشت محنتها شهوراً مريرة، أبو جواد لدهائه ومكره علم أنها تتصنع البلاهة والسذاجة تهرباً من التحقيق، فهو عندما استجوبها سائلاً إياها عن أصدقاء زوجها الدكتور حسن جواد كاظم... تصنعت الغباء لتتخلص من الجواب وأظهرت السذاجة والبساطة في التفكير، وجهدت لإقناعه أن همّها الوحيد هو إبنتها ذات العشرة أيام من العمر والتي تركتها يوم إعتقالها...

أجادت بتول دور المرأة البسيطة، وكانت تعيد السؤال عندما يسألوها، وتقضي أكثر الوقت بالبكاء على فراقها لطفلتها الوليدة (إسلام)، ساعدها في ذلك شحوب وجهها فهي نفساء وخائرة القوى فلم تتعرض للتعذيب، وصحتها لم تكن على مايرام، لكنّ أبا جواد لم تمرر عليه هذه الأساليب، وظن ظناً كبيراً بأن ماتفعله بتول غير واقعي، وظل يراقبها ويتابع حالتها، وكلما رآها صاح بصوته الأجش: "وضلع الزهرة الزجية راح اطلعج علمود تربين بنتج"... فتتأمل بتول فرجاً قريباً، وتظل قلقة منتظرة ساعة الخروج، ولم يحدث هذا... نعم قرر عذابها نفسيا.

هاهي بتول المتهيئة دائماً للخروج... لكن من دون أن يتحقق ذلك... ظنت أنهم سيرحمون حال وليدتها البكر ابنة الأيام القليلة ويرحمون حالها، وهي تعاني من الآم الوضع وأوجاع احتقان الحليب في صدرها!! ظلت بين الأمل واليأس شهوراً عديدة... وكلما رآها أبو جواد جّدد هذا الأمل الكاذب، وهو يحلف بأغلظ الأيمان بأنه في هذه اللحظة ستخرج من المعتقل، ولكن دون جدوى... وتنهار أعصابها كلما مرت مدة على وعد من وعوده لها، وينتابها اليأس فتأخذ بالبكاء وهي محقة، فالألم النفسي يفوق الألم الجسدي...

أدى أبو جواد ذات الدور الماكر مع معتقل موثوق اليد إلى سياج السلم في فسحة في الطابق الثاني لأمن الثورة تطل على الطابق الأرضي، ومعصوب العينين

إسمه كاظم، كان يلقبه أبو جواد بـ (كاظم سياسة) شاب يرتدي الملابس العسكرية، هو جندي يؤدي الخدمة الإلزامية، وتم اعتقاله نتيجة اعتراف من أحد المعتقلين... عزلوه عن الموقوفين وأجلسوه أعلى السلالم، وكم وعده هذا الجلاد بأنه سيطلق سراحه بنفس الطريقة التي كان يكذب بها على بتول وأم حسين، ولا ريب أنه كاذب ودنيء يتسلى بآلآم الأبرياء وتلتمع عيناه فرحا وهو يجد أن مخططه قد نجح وخدع هؤلاء المعتقلين ظلما وينتشي عندما يشاهد علامات اليأس والإحباط قد علت وجوههم بعد أن يمضي الوقت على مواعيده الكاذبة التي يعدهم بها للافراج...

هذه الأساليب الملتوية التي كان يمارسها ضباط التحقيق ومنهم أبو جواد لم تكن موهبة أو ملكة من أنفسهم، بل أن تدريبات متخصصة عديدة توفرها لهم حكومة (البعث) في العراق وخارجه...

يعلمونهم كيف ينزعون عن أنفسهم لباس الإنسانية، وكل رحمة فطرهم الله عليها... بل أنهم يطبقون ماتعلموه على أقرب الناس اليهم... ففي اختبارات يجريها مسؤولون في هذه الدوائر للمنتمين الجدد... يسألونهم إذا كان أبوك أو أخوك معادياً للحزب والثورة فماذا يكون رد فعلك؟ ويقيمونه على قساوة إجابته... هكذا يحرزون كل ولائهم لهم ويجعلونهم خانعين أذلاء، ويحيلونهم إلى أدوات طيعة، يقمعون بها كل معارض كائناً من كان، هم أدوات تنفذ مايراد منها دون أيّ اعتراض، ومن يعترض لايطرد من دائرته فقط، بل يسجن ويعاقب، وبذلك يضمنون التزامهم معهم...

قاضٍ في كيس صمون!!

حكت لي (بتول محسن) أنها رأت بأم عينيها رجلا وقورا متقدم بالسن سيق زجرا الى غرفة التعذيب، والمحققون والجلادون ينادونه بالقاضي فهم وإن أمعنوا

في إذلاله يعرفون في دواخلهم معنى وهيبة هذا المنصب الذي يحكم بين المتخاصمين منذ بدايات وجود القانون في العالم، هاهو اليوم يخرقون كل قوانين الكون باعتقاله دون أمر قضائي وأدانوه لأن إبنه قد عارضهم، ويمارسون معه آليات قمعهم المرعبة أملا في اعتراف منه يدلّهم على مكان ولده لاعتقاله، وهو يرفض الإدلاء بما يريدون... وربما لا يعرف أين ولده ولكن هل يصدقون؟؟ حتى أوسعوه تعذيبا فمات على أيديهم، قالت وهي تغالب دموعها أنه قد طلب منها (رحيم) الحارس أن تأتي إلى غرفة التعذيب، هناك عرفت بأنه يريدها أن تساعده في إدخال جثة هذا القاضي في كيس كبير من قماش (الجادر) كانوا يجلبون لنا فيه (الصمون)، تقول: تفاجأت بمنظرهذا الرجل المسنّ الوقور بدا كأنه نائم بسلام، وقد ارتدى (روباً) صوفياً مربعات هم اعتقلوه بملابس البيت... وقد فارق الحياة دون أن يعترف عن إبنه رياض أو ضياء... ولأنه مسنّ لم يتحمل تعذيبهم الوحشي، ولعل وجوده تحت سياط هؤلاء كان أشد ايلاما في نفسه وهو يرى كل الحقوق التي كان يقضي بإرجاعها الى أهلها ينتهكونها دون وازع من قانون أو رقابة...

استطردت قائلة: ساعدته وأنا أرتجف، ولم أتخيل نفسي يوما بهكذا موقف انا أخشى رؤية الموتى، ولم أشهد موت أحد من أقاربي أبدا... لكنني ماشعرت بأي خوف منه حينها ووجدت نفسي كأني أؤدي واجبا تجاهه وكأنه أحد أرحامي... نعم أدخلناه معاً في كيس الصمون الزيتوني اللون أمسكته من كتفيه... نهضته وسألت رحيم وقلبي يكاد يتوقف من الفزع عليه: "وين راح تودوه؟"

أجابها ضاحكاً شامتا: "خطيه السمج جوعان... راح نسويله عزيمة"... صعقت بتول وذهلت من إجابته... فهاهي كرامة الإنسان العراقي التي جاء البعث عازماً على إذلالها... وهاهي المناصب الإدارية العليا تسحق بالأقدام لأنها قد عارضت الفرعون... حاضر ومستقبل ينتهي بلحظات دون أي مبالاة ودون أن تهتز لهم شعرة كما يعبر عنه كبيرهم...

قاضٍ يموت من التعذيب، ولم يحظَ بمتر مربع واحد من أرض الرافدين لإيواء جثمانه!! بل يلقى إلى أسماك دجلة، ويستكثرون عليه مراسم الغسل والتكفين التي بها ينعم أراذل الناس كرامة لجنس الإنسان.

حدث هذا في تشرين الثاني 1981م قبل اعتقالي، وبتول لم تحدثنا به إلابعد مدة... فقد هددها الحارس رحيم بأنه سيؤذيها إن تحدثت بهذا الأمر... ويبدو أنه قد تطوع للتخلص من جثة الضحية، وأراد من يساعده، ولم يطلب من الحراس الآخرين ذلك، ربما لأنه أراد أن يتباهى أمامهم بأنه قادر على الإنجاز وذو قدرات متميزة، فهم يتملقون ويظهرون فاعليتهم كي يتسلقوا في المناصب القمعية.

أما بتول فعلامات الخوف والوجل لم تفارق محياها الجميل، وكانت ترتجف عندما يمعنون في تعذيب أحد المعتقلين، وحين يسكت صراخه... تقول على الفور وهي بحالة هستيرية: "مات... مات... كتلوه"...

الطلائعي وليد بين المعتقلين!!

من المعتقلين (وليد) فتى صغير في الحادية عشرة من عمره، يرتدي ملابس الطلائع، والطلائع نوع من تشكيلات عسكرة الدولة التي صبغ البعث بها كل واجهات المجتمع، الطلائع للمرحلة الابتدائية، والأشبال للمرحلة الإعدادية وهكذا، كانت هذه واجهات عسكرية اعتقد أنه سيضمن بها ولاء الشعب.

تم اعتقاله بتهمة مشاركته في توزيع منشورات في مدينة الثورة... وليد هذا كان يعاني من مرض في قلبه، إنسداد أو ضيق في صمام القلب، وعندما اعتقلت أنا وجدته قبلي في دائرة أمن الثورة...

عندما يضيق نَفَسُهُ يأتون به إلينا تحت السلالم، ويسلموه لعالية الحمداني

فهي صيدلانية ولديها خبرة في الإسعافات الأولية... فتجري له بعض الإسعافات التي تعيده إلى وضعه الطبيعي، أكثر من مرة أوشك وليد على الموت...

كان يرتجف وترتعد فرائصه كلما سمع صراخ وآهات المعتقلين الصادرة من غرفة التعذيب أثناء التحقيق معهم... كنا نهدأه ونواسيه، والأجدر بنا أن نواسي أنفسنا، فليس في العالم كله أشد وقعاً على النفس من تلك الأصوات المتحشرجة، هي صوت الكرامة الإنسانية المسحوقة وصوت الإرادة المقموعة، وصورة وحشية عن تحول الإنسان إلى آلة قمع وتدمير لخلق الله...

سجد الملائكة أجمعون لخلق آدم

ولكن آدم مزقته سياط الجلّاد

منذ خلق الخليقة والظلم يطغى

وخير عباد الله هم الضحايا

لم يفرق الجلاد بين رجل أو امرأة أو طفل أو شيخ مسنّ

صبَّ عليهم ذات العذاب

ولم يرعَ لله حرمةَ في العباد

بقي وليد معنا طيلة مدة بقائنا في معتقل أمن الثورة، وعندما تحولت الدائرة إلى شارع خير الله طلفاح في منطقة جميلة لم نره، لعله تحول إلى موقف الرجال الذي صار في مكان أبعد في الجانب الخلفي لها...

٢٠ شباط ١٩٨٢م... يوم لن أنساه!!

أوينا إلى غرفة التعذيب مبكراً وقبل الغروب، فقد بدا في هذا اليوم أن لاحاجة لهم باستخدامها، جاؤوا بوجبة عشاء صمون وقطعة دجاج أو لحم...

وبعد أقل من ساعة دخل أبو جواد وبرفقة حارسين حيث لايتجول وحده مطلقاً، وكأنه يخشى من المعتقلين، وهم مكبلين... صاح بصوته الأجش: "عالية... أمل... عطور... كومن بالعجل يريدجن المدير".

نهضنا وتساؤلات عديدة تتلاطمنا كالأمواج... عالية قد أنهوا تحقيقها قبل اعتقالي، أما أنا فمضى أكثر من شهرين على تعذيبي في تلك الحفلة... وحتى أمل فقد أكملوا تحقيقها ونالت مانالت من وابل التعذيب والترهيب، فما القضية إذن؟!؟.

تأكد الحارسان من قيودنا، وسرنا معهما إلى غرفة المدير الأرعن مهدي الدليمي... أسمر البشرة في الأربعينات، شعره أسود حالك... مربوع القامة... ممتلئ الجسد... له شاربان صغيران يتناسبان مع فمه الصغير... عيناه تتطايران شرراً كنت أراه لأول مرة... ولكنني فوراً ميزت صوته يوم اعتقالي وطريقة كلامه، لم أره حينها وقد كانت عيناي معصوبتين...

استقبلنا جالساً وراء منضدته، مرتدياً بجامة من قماش رصاصي أو سمائي ذات خطوط أو مربعات بلون نيلي... والأزرار العليا مفتوحة لتظهر الجزء الأعلى من صدره... قال باسماً بخبث: أهلاً وسهلاً، وترك منضدته وجلس على إحدى أريكات مكتبه الفاره... وجلس إلى ركن قريب منه الجلاد أبو جواد، ولم أره بمثل مارأيته من الخضوع والذلة، وهو يردد بمناسبة وغير مناسبة: سيدي سيدي... احتقرته أكثر من قبل، وعلمت أن كل عنجهياته وتشدقاته التي يمارسها مع المعتقلين هي وسائل تزلف وتملق لسيده هذا (مهدي الدليمي)...

على الطاولة التي أمامه وضع مغلف فيه صور، فأخذه بيده وبدأ يوزع علينا صوراً فوتوغرافية بالأسود والأبيض، وهي صور غير واضحة يظهر فيها معممون بأوضاع لاأخلاقية، ويعلّق قائلاً: أنتم مغرر بكم، هاهم قادتكم، هذا بهشتي وهذا رفسنجاني وهذا... كان يردد أسماء شخصيات إسلامية وكلها إيرانية... كان واضحاً للعيان التلاعب الكبير في الصور، فمثلاً معمم نائم بعمامته في وضع غير أخلاقي.

طبعاً لم نصدق إطلاقاً ماقاله وما أرانا به... كانت الصور تمر علينا تباعاً تبدأ من عالية التي جلست الى اليمين، ومن ثم إليّ وأخيراً إلى أمل، كنا ثلاثتنا نجلس أمامهم على ثلاثة كراسي...

ليس غريباً ما يجري، ولسنا فاقدين وعينا، لتنطلي علينا ألاعيبهم فقد بان الصبح لذي عينين، ومرادهم صار واضحاً، انهم يريدون النيل من رموز دينية، وتشويه صورتهم... ليس بمقدورك أيها الوغد أن تنال من هؤلاء العلماء الربانيين، مهما كان كيدك، فقد سعى أسلافك لتشويه صور أئمتنا ولكنهم لم يفلحوا، ولم يمحوا ذكرهم، وشيدت الصروح على قبورهم، حتى غدت مهوى أفئدة المؤمنين.

نعم ليس غريباً ما يجري، فقد سعى أسلافهم، لطمس فضائل أمير المؤمنين علي عليه السلام، حتى أن أهالي الشام لما بلغهم أن علي ابن ابي طالب عليه السلام قتل في المسجد، سألوا بتعجب: أو كان يصلي؟

فبئس الخلف لبئس السلف انتم أيها الأوغاد، عميت عيونكم بل عميت قلوبكم، وصمت آذانكم، وكمت افواهكم، وأقول لكم كما قالت سيدتنا زينب عليها السلام ليزيدكم: (فكد كيدك واسع سعيك، وناصب جهدك، فو الله لن تمحو ذكرنا...)

كان مهدي الدليمي يتكلم بهدوء مصطنع، ويحاول إخفاء أنياب الكواسر التي ينهش بها أجساد المعتقلين وهو يعذبهم... كما أنه وأثناء كلامه مع كل منا يطيل النظر في وجوهنا، ويمسح على فخذه الأيمن بيده اليمنى، ويداعب صدره بيده اليسرى، كإشارات دنيئة وحقيرة لم أفهم شيئاً منها، غير أن عالية بعد عودتنا إلى غرفة التعذيب نبهتني عليها قائلة: "الحقير النذل عديم الحياء هيجي يقابلنا وبهالمنظر وبهالحركات"... ونحن ننظرإلى الصور يعلق بمكر قائلاً: دقّقوا النظر جيداً فهم أناس ساقطون أخلاقياً، وخدعوكم يوم قالوا إنهم مؤمنون ويريدون إقامة حكومة إسلامية...

ولما وصلت الصور إليّ قال هازئاً: "حقج تستحين لأن انت بنيه مامتزوجه، بس لا حياء في التحقيق"!!

عجبت لهذه الجرأة من التحريف، فهم يحرفون الكلم عن مواضعه، وتعجبت لأنه يعرف أحد الأحاديث الشريفة... بعد أن انتهى فاصل الصور وتصفحها قال: والآن نريد منكم التعاون، وأن نفتح صفحة جديدة، وعليكن أن تعترفن بكل ماعندكن... أجبنا جميعاً: ليس لدينا جديد، لقد قلنا كل الذي نعرفه، ولا يوجد لدينا مانخفيه أبداً...

هنا تغيرت نبرته وصاح ككلب مسعور: "چنت أتصور العيني والأغاتي تفيد وياكم تحجون العدكم لو نعرف شلون نطلّع الحجي منكم"..."منّا الباجر أنطيكم فرصة تفكرون..."وضغط على الجرس فدخل حارسان في حين وقف أبو جواد وهو يقول متذللاً: "تأمر سيدي... عليّ سيدي... آني أخلّيهن يحجن سيدي..."

خرجنا والأفكار تراودنا ولا نعرف مالذي ينتظرنا... أما أنا فلم تزل كتفاي تؤلماني من التعليق، ومرارة عشرات الضربات والركلات التي نلتها منهم لم تزل بعض آثارها على جسدي... ايه عذابات أمن الثورة لاتنتهي... فالتجأت إلى الله سبحانه بكل كياني، ورفعت طرفي إلى السماء وناديته: تعلم بحالي ياكريم أنت ملجأي وليس لي سواك...

عندما وصلنا إلى غرفة التعذيب، صاح أبو جواد بالحرس وأذكر أنه رحيم الرجل الطويل الأسمر الحاقد على كل ذي علم صاح به حرس: "شد ايديهن ليوره وخليهن للصبح هيجي"... أسرع الحرس بفتح الكلبشات من إحدى أيدينا ولف ذراعينا إلى الوراء وأقفلها... عندما لف ذراعي تألمت كثيراً، فما زال التمزق في عضلاتي، بل ليومي هذا وانا أكتب بعد عقود أشعر بخدر في عضلة الكتف، وأتمنى أن ألقى ربي به لأشكو إليه ما أجرموه بحقي وحق الأبرياء...

شدوا وثاقنا إلى الوراء وذهبوا، فالتفتت المعتقلات حولنا وكل منهن تسأل ماالقضية؟ ماالمشكلة؟ هل أن أحدهم اعترف عليكن؟... ولا نعرف مانجيب به؟... كما أن أبا جواد غيّر أماكننا، فقد كانت عالية تنام إلى جانبي، غيّر مكانها إلى جانب الأخوات الثلاث، وأمل في الطرف الآخر من الغرفة...

بقيت أدعو الله وأتوسل إليه بقلب مليء بالايمان، وأشعر بأني أكبر من هذه الآلام، وشعرت بقرب كبير منه سبحانه، بقيت أردد الأدعية والأذكار، وأسأله سبحانه أن لايخذلني كما عودني، وينجيني منهم، حتى غفوت وقد نويت الصيام...

في صباح اليوم الثاني جيء بطعام الإفطار، وجاءت بقربي بتول لتناولني طعاماً، لأن يَدَيَّ موثقتان إلى ظهري... أجبتها أني صائمة فبكت قائلة: "حاشا لله أن يخيّبك... عفيه بنيتي... الله كريم الله كريم"... وفاطمة لم تنقطع عن الدعاء والتوسل إلى الله، وهي تنظر إليّ بطرفها الدامع وتشجعني بنظراتها الحانية.

بعد حوالي ساعة جاء أبو جواد ودفع الباب بعصا غليظة يحملها ولا تفارقه أبداً وصاح: وين أمل؟!؟

عم الوجوم والوجل وجوهنا جميعاً، وسرعان ما عثر عليها وسحبوها للتعذيب، ولكن في غرفة المحقق صرخت أمل، وبكينا جميعاً معها، فأخذت أعد نفسي وأهيأ روحي، فقد أكون أنا التالية... فهوى بعصاه على كتفي وظهري... ضربني ضربة قوية على رأسي شعرت بأنه قد انشق إلى نصفين... ابتلعت غصص الألم، وتمنيت لو كل الضرب هنا وليس في مكان آخر... أخشى أن يتعرضوا إلي بما أخاف عليه...

وبعد حوالي نصف ساعة عاد أبو جواد ولم تعد أمل، وصاح منادياً بصوته الاجش المرعب: عالية؟؟!

نهضت عالية واقتادها الحراس مساعدين إياها، وازداد البكاء والنحيب بيننا دون أن يسمعوا لنا صوتاً لأنهم إذا رأونا أو سمعونا لانسلم من أذاهم...

ساد الصمت في الغرفة ولا نسمع سوى التسبيح والذكر وشهقات من هنا وهناك، وسندس التي ظلت تبكي أختها أمل ونتساءل عن مصيرها...

أما أنا فقد يبس ريقي من الصيام والدعاء والبكاء، ولكن قلبي مطمئن لأني

أخاطبه، وأشعر بأنه يسمعني، وأعيش عالماً خاصاً مليئاً بالنور وهدوءاً نفسياً لم أشعر به، إلّا في لحظات التوجه في صلاة الليل، أو لحظات الخلو به سبحانه... رددت دعاء مقاتل بن سليمان كنت أحفظه والذي رواه يقول إذا دعوت به مائة مرة ولم يستجب لكم فالعنوني: (الهي كيف أدعوك وأنا أنا... وكيف أقطع رجائي منك وأنت أنت... الهي إذا لم اسألك فتعطيني فمن ذا الذي أسأله فيعطيني... الهي إذا لم أتضرع إليك فترحمني فمن ذا الذي أتضرع إليه فيرحمني... إلهي إذا لم أدعوك فتستجب لي فمن ذا الذي أدعوه فيستجيب لي... الهي فكما فلقت البحر لموسى عليه السلام ونجيته أسألك أن تصلي على محمد وآل محمد وأن تنجيني مما أنا فيه وتفرج عني فرجاً عاجلاً غير آجل برحمتك يا أرحم الراحمين)... لا أذكر كم أعدت قراءته لكن المؤكد أكثر من مائة مرة...

فتح الباب ثالثة ودخل أبو جواد صارخاً بصوته الأجش المنكر متصفحاً وجوهنا فقلت لامحالة جاء ليأخذني، لكنه مر بنظره عليّ وكأنه لم يرني، ففتحت سندس عباءتها فرمقها بنظرة وصاح: "هايه هايه أخذوها... ولج أنت أخت أمل؟؟" صرخت سندس بصوتها المميز فهي تعاني من التهاب مزمن في القصبات، وصوتها دائماً فيه حشرجة غريبة... :لا... لا... لم أفعل شيء والله ماعندي شيء...

سحبوها دون رحمة وخرجوا... تحيرت... هل يعقل أنهم لم يميزوني عن سندس، وأخذوها ظانين أنها أنا؟؟! لا... لا يعقل أن يكون هذا واقعاً، فضربات العصا مازالت تستعر على كتفي وظهري، وثمة ورم أحدثته الضربة الأخيرة في رأسي... كما أنه عرفنا جيدا واحدة واحدة ولم تختلط عليه الأمور أبداً، حفظ أسماءنا وأشكالنا، وصار يميزنا حتى وإن أخفينا وجوهنا.

ولكنها بالتأكيد رحمة الله ولطفه وعلمه بحالي هي التي أنقذتني من براثنهم واقتصر على تهديدهم وتكبيلي وتلك الضربات، لم أهدأ ولم يذهب روعي إلّا بعد أن عادت أمل وعالية وسندس، وحكين لنا كيف ضربوهن وأهانوهن أمام

جمع من ضباط التحقيق من الدائرة ودوائر أخرى... هم استضافوا بعضاً من الضباط وأقاموا حفلة من حفلات التعذيب، وعلى ما أظن كان درسا عمليا لضباط تحقيق ناشئين يعلموهم أن يقتلوا كل رحمة في قلوبهم وينسوا أنهم بشر!!...

عندما حل المساء جاء الحارس وبأمر من أبو جواد ليفك قيودنا، ويرجعها إلى الأمام كبقية المعتقلات...

يوم لن أنساه ماحييت، ليس للعذاب النفسي والجسدي الذي عشته وعاشته أخواتي المعتقلات، بل لأني وجدت مصداقاً للآية الكريمة: ادعوني استجب لكم... دعوته فأجابني... لن أنسى قربي منه سبحانه، فقد كانت روحي تسبح في ساحةٍ من نور، تسمو فوق آهات وآلام الجسد... حلقت في فضاءات نقية خالية من أية شائبة... إطمئنان ماشعرته إلا في حالات التوجه الخالص واللجوء إليه سبحانه...

وحاشاه أن يخيبني، فما اقترفت جرماً وأنا في هذا العمر، وقد حرمت من أحضان أمي الدافئة، وحنان أبي الكريم، وسنين شبابي تتصرم وأنا بين جدران سجون البعث... وصارت الجامعة سراب والدراسة من ذكريات الماضي.

وكلما قرأت في دعاء الجوشن الكبير وحتى هذا اليوم (ياصاحب من لاصاحب له، يا أنيس من لا أنيس له، ياذخر من لاذخر له، ياعماد من لاعماد له، ياسند من لاسند...) تذكرت ذلك اليوم وتلك الساعات العصيبة التي عشتها... فالحمد لله في الأول والآخر...

حياة جديدة بعد موت محتم

في أحيان قليلة نبقى في غرفة التعذيب، ولا يخرجونا منها ليوم أو يومين... الغرفة محكمة الإغلاق، فهي مبطنة بالفلين والخشب... الخشب ظاهراً ولها باب

أيضاً مبطن محكم الإغلاق... إذا أقفلت تنحجب الأصوات عن السامعين... وهذه هي الغاية من كل هذه الاجراءات، لأن دائرة الأمن بيت من بيوت (المسفرّين) من الكرد الفيليين، فكما ذكرت هي بيت (سمير غلام)... هم يريدونها طامورة من طوامير الطواغيت، تعذب فيها الأجساد وتزهق فيها الأرواح، وليس ثمة دليل على ذلك.

سيارات داخلة وسيارات خارجة وحراس واقفون أمام بابها، وكأنها دائرة حكومية خدمية ليس إلا... وهي خدمية لصدام وحزبه الظالم لقمع المعارضين له ولسياسته الإرهابية...

في شباط 1982 آوينا مرغمين إلى غرفة التعذيب وبقينا فيها يوماً أو أكثر، فلم يحتاجها ضباط التحقيق... ليس فيها منفذاً للهواء، سوى الباب الخشبي الذي يطل على ممر ضيق فيه باب آخر خشبي ايضاً.

يقفل الحارس الخفر باب الغرفة ليلاً في حوالي الثانية عشرة، ويفتحها صباحاً قبل انتهاء خفارته في السابعة أو الثامنة صباحاً... في ذلك اليوم خرج الحارس رحيم إلى بيته ولم يفتح لنا الباب... ومن الطبيعي أن لا نعرف في أي ساعة نحن... هل هو ليل أم نهار؟... كل ذلك نعرفه من خلال سؤالنا للحراس، وأكثر مانبغي معرفة حلول الآذان ظهراً او مغرباً... والمصباح البرتقالي ذو النور الوهاج موقد طيلة الوقت...

بدأ التنفس يضيق... استيقظت بتول فزعة وأيقظتنا بعد أن تأكدت من أن الباب مازال مقفلاً... صاحت بأعلى صوتها وبهلع شديد: "اكعدن تره راح يموتونا!!" فزعنا بين النوم واليقظة... شعرنا باختناق شديد، وبدت جدران الغرفة الخشبية رطبة ودبقة من كثرة أبخرة التنفس... أخذت بتول تطرق الباب بكفيها، وتصرخ بأعلى صوتها منادية: إفتحوا الباب فقد اختنقنا، وليس من مجيب... فالأصوات تبتلعها طبقات الخشب والفلين التي بطّنوا الغرفة بها...

ساعدتها الأخوات عالية خيرية هدى وأخريات كلّهن يطرقن الباب... عمّ

الخوف والهلع في صفوفنا... النظرات حيرى والأنفاس لهثى... تعبت الأخوات من طرق الباب، وخارت قواهن، ويأسن من مغيث...

عندما بكت الأخوات بدأت أبكي، وجالت في خاطري سنوات عمري، وأحداث مهمة، وغير مهمة من طفولتي وصباي، أهلي، أخوتي، صديقاتي وأقاربي، لكني لم أنسه سبحانه، فطيلة الوقت أردد: يارب ياالهي... أنت العليم بحالنا، ندبت الأخوات أهل البيت عليهم السلام بحرقة قلب وتوجه من يوشك على الموت... مشهد لايمكن وصفه بكلمات يسطرها قلم، ضجيج من مشاعر وأصوات وشهقات ودموع وسعال وجحوظ العيون ويأس القلوب من النجاة...

وبعد التي واللتيا فتح الباب، حيث فتحها هشام، وهو أحد موظفي القلم الذي كان خافراً في ذلك اليوم ولم يذهب إلى بيته بعد...

كنا أشبه بالموتى حيث العرق يتصبب منا، وصدورنا تفتقر إلى الأوكسجين... فتح الباب وهرول مبتعداً فهو لايطيق استنشاق الهواء الفاسد الذي ملأ الغرفة...

أما نحن فاستجمعنا قوانا بسرعة، ولملمنا أنفسنا ورتّبنا حجابنا... حتى الموت لايحول بيننا وبين التزامنا بديننا... وتنفسنا الصعداء... لكن موجة من البكاء انتابت الجميع، وكأنها الفرح بالعودة إلى الحياة بعد أن شارفنا على الموت المحتم... والسرور باستجابة ربّنا لدعائنا ولطفه بنا... بكاء الشاكرين لله على نعمته ولطفه.

(رحيم)... هذا الحاقد اللئيم، لايمكن أن نصدق أنه نسي فتح الباب، بل تعمّد ذلك دون أن يوصي أحد بفتحه بعده...

أصابتنا حالة من التسمم والغثيان فيما بعد... وانتابت بعض الأخوات حالة إسهال استمرت ليومين أو ثلاثة وتقيأت أخريات... إنه الموت المؤكد لولا مشيئة الله سبحانه الذي كتب لنا الحياة رغماً عنهم...

الغريب أن رحيم هذا والذي كنا نسميه (اللا رحيم) او (رجيم) لم يحاسبه أحد اطلاقاً، وهذا ليس غريباً على البعث واستهانته بالأرواح، فمن يحاسب رجل أمن إذا تسبب (خطأً) في موت ثلاث عشرة امرأة تتراوح أعمارهن بين السابعة عشرة والثالثة والثلاثين!!.

والمؤكد أنهم سيأخذونا إلى مقبرة (محمد السكران)، ويدفنوننا دون غسل أو تكفين، أو يرمونا إلى أسماك دجلة كما فعلوا بالقاضي!...

هذه كرامة الإنسان العراقي إبان حكم البعث وزمرة صدام التكريتي... من يحاسبهم ويطالب بشبابنا... بشهاداتنا... بتعب أهلنا... وسهر ليالي التربية التي سهرتها أمهاتنا من أجلنا، أبداً لم ولن يحاسبهم أحد... لكني وأنا أسطر هذه الكلمات، أثبت ذلك في تاريخ هذا البلد الذي لو إجتمع كل كتّاب العالم بأقلامهم ليدونوا جرائم البعث فيه ما استطاعوا إستيفاءها حقها والتعبير عن حقيقة بشاعتها.

أنين علي... يقطع نياط قلوبنا

في حفلة من حفلات التعذيب الساهرة في شهر شباط 1982، ونحن تحت السلالم منذ الظهيرة وحتى ساعات متأخرة من الليل، بدا لنا أن هذا اليوم لن يمر بسلام، وشرارة الحقد والغضب تتطاير من عيون الجلادين، فهم يحققون في قضية (الخالص)، وفريستهم الشاب (علي) الذي صكت أسماعنا صراخاته وآهاته من جراء التعذيب الوحشي، فهو معلق إلى السقف في غرفة التعذيب (وهذا ما نعلمه فور سحب المنضدة الخشبية من تحت أقدام المعذب عندما يبدأ بالصراخ من الألم)...

معلق في السقف... وحوله جلادون... قد اجتمعوا... يكيلونه بأنواع

العذاب، أحدهم يحمل عصا كهربائية، والآخر يحمل عصا غليظة (توثية)، والثالث يربطه بجهاز الكهرباء، ماعدا سيل الشتائم والسباب الذي تنطقه أفواههم العفنة...

أما أبو جواد فكان ساعتها كثور هائج، فقد أعيته الحيلة، ولم يترك وسيلة إلّا واستخدمها من أجل أن ينطق (علي) بما يريدونه، وهو (الاعتراف)... أما علي فلم نسمع منه سوى ذكر الله بصوت متعب مردداً: (يالله) (ياالهي)...

ويختنق صوته، وتتلعثم كلماته عندما يرَجّونه بالكهرباء، وأحياناً يغمى عليه، ثم يفيق من إغماءته عندما يرشون أنفه بالنشادر على ما أظنّ...

الأصوات تتعالى من غرفة التعذيب... فالصدى لايعكس سوى صراخٍ وعويلٍ... الخشب المبطن لجدرانها لو أذن له بالكلام لروى للعالم ملايين الحكايات، هو قد شهد التعدي الصارخ على كرامة آدم الذي كرّمه الله على جميع الخلق، وأمرالملائكة السجود لخلقه...

آدم... الذي مزقت جسده سياط الجلادين، وسحق كرامته أراذل الناس...

لما يئسوا منه أمر أبو جواد عدداً من الحراس أن ينزلوا (علي) من (كلاب) التعليق، ليحملوه إلى أعلى ما يستطيعون ثم يرمونه إلى الأرض... هذا آخرماابتدعه ذلك الجلاد (أبو جواد)... سمعنا صوت ارتطام جسده بالأرض وانقطاع نفسه... ثم يحملوه ويرموه لعدة مرات وكأنهم يطحنون عظامه ولم يبق منها جزءا إلا وقد نال قسطا وفيرا من أذاهم...

انتهت حفلة التعذيب هذه، لا لأنهم أنهوا التحقيق مع علي، بل لأنهم تعبوا وراموا التأجيل لحفلة أخرى... عجباً لهؤلاء ماذا يكون جوابهم يوم يسألون عن شبابهم فيمَ أفنوه؟ وقوتهم وطاقتهم كيف استثمروها؟ هناك سينتقمَ جبار السموات والأرض لكل مظلوم تأذى منهم، ولو بنظرة أدخلت الرعب في قلبه... أو كلمة بذيئة أرادوا بها الاستخفاف به والإهانة لكرامته... ما أجرأهم على الله وقد قرن كرامة المؤمن مع كرامته...

دخلنا ليلا إلى مأوانا الذي ننام فيه بعد تجاوز منتصفه، فقد طالت حفلة تعذيب (علي) أصبح لايقوى على المشي فسحبوه كجثة هامدة.. وجدناه في الممر الضيق الذي يؤدي إلى غرفة التعذيب...

هذه الغرفة لها باب خشبي، يطل على ممر ضيق ملحق بباب خارجي خشبي ايضاً...

ازدواج الأبواب الخشبية نوع من الوقاية، لمنع خروج صوت المعذَبين والمعذِبين...

أنينه يلين له الصخر... يأن من أنواع الألم، فهم لم يستثنوا أي وسيلة، أو أداة إلّا واستخدموها معه...

لحظات مرورنا من قربه لاتوصف مرارتُها وعذاباتها... الحارس يقف قبالتنا كي يحول بين أي حديث يصدر منا أو منه... لكنني وجدت نفسي غير مبالية بهذا الحارس غير الأمين، ولا بعواقب ماستؤول إليه الأمور... وهمست قائلة له: اصبر أخي فالله معك وكلنا ندعو لك... وكررت قولي أخواتي المعتقلات بعدي بكل جرأة.

أوقف (علي) أنينه، وكأن كلماتنا قد غدت بلسماً يداوي جراحه العديدة، ويسكّن آلامه المبرحة... بل إنه تصبّر وكتم أنينه، كي يستمع لهمساتنا الأخوية الحانية، وخيرعزاء له أننا نساء تحت نير هؤلاء الأوباش فعليه أن يعضّ على جراحه...

صبراً يا أخي يا مهشم الأضلاع... فوالله إن أنينك قد مزق نياط قلوبنا... صبراً أخي لا تكترث لهذا الجسد الذي أنهكته السياط ولسعات الكهرباء، قد يخوى الجسد ولا عتب عليه، إنأى بروحك عن الخواء، فلتبقى سامية عالية، تسخر من هؤلاء الجبناء، ولا تهن ولترتقي بها إلى بارئها صافية خالصة من كل شائبة... ها أنت قد سلكت طريق التضحيات، فلا تنسى تلك الأضلع التي رضتها سنابك الخيول في أرض كربلاء، تلك هي سابقة تنبؤنا بهوان الدنيا.

دخلنا الغرفة تباعاً... وأقفلها الحارس كالعادة... وبتنا تلك الليلة قلقات البال على حال أخٍ لنا، جمعتنا وإياه عذابات الاعتقال بتهمة الانتماء لحزب الدعوة...

فهذه رابطة قرابة وصلة رحم جديدة، قد شرّفنا الله بها، مما يزيدنا فخراً واعتزازاً أننا جميعاً في زاوية المعارضة لهذا المجرم، وحزبه الجائر البعث العربي، الذي لم يتصف بأي صفة من صفات العروبة والشهامة العربية...

(علي) لم يتوقف أنينه، وكان يردد كلمات ذكر الله والتوسل بأهل البيت عليهم السلام... نعم كان يحتضر... بقي على هذه الحال ما يقرب يومين أو يوماً وليلتين إلى أن فارقت روحه الطاهرة الحياة...

أخوه مهدي في قاعة الرجال ذات الرحلات المدرسية يسمع أنين وآهات أخيه ويبكي، وكلما يئن علي ينتحب مهدي ويجهش بالبكاء، فيصيح به الحارس موبخاً ويضربه ليسكت...

فعندما أستشهد علي على أثر التعذيب الشديد الذي ناله منهم صرخ مهدي باكياً: "أخويه أخويه... يايابه يايابه"... وانهار غير مبالٍ بالعصي التي تهوي على رأسه وظهره من الحارس الذي خاف من هيجانه...

علم مهدي بوفاة أخيه من توقف أنينه ومن اضطراب الحراس، فهم عادة يتراكضون ويتهامسون ويستدعون الطبيب ليعاين الحالة... بعدها بكل برود يلَفّون الضحية ببطانية ويحملونه إلى مكان مجهول.

بصمت وحسرة بكيناه وكأنه واحد من أهلينا وغبطناه لأنه رحل إلى كنف الحنّان المنان، فهو قد عبر إلى ضفة الأمان، وتركنا بين مخالب هؤلاء الوحوش... بكينا الظلم والقهر... بكينا المبادئ والقيم التي تسحق في هذا المبنى الكئيب...

مهدي... الذي ظل باكياً صارخاً قد انهارت قواه وفقد صبره، فقد أبكانا

وأبكى كل المعتقلين، إلا القلوب المتحجرة لهؤلاء الجلادين... نقلوا مهدي ولا ندري إلى أين؟ فلربما ألحقوه بأخيه كي لايشهد على جريمتهم النكراء هذه...

مهدي... نال مانال من تعذيبهم، ورأى بأم عينه أياديهم الآثِمة تقطر من دمه ودم أخيه المظلوم... هذه الجريمة ليست الأولى ولا الأخيرة التي اقترفها جلادو أمن الثورة، وعلى رأسهم علي الخيكاني أبو جواد المجرم.

سقوطهم الأخلاقي لا يصدق!!

ذات يوم ونحن جالسات تحت السلالم سمعنا صراخ وتوسلات فتى صغير صوته أقرب إلى البنات منه إلى الذكور، خمنت عمره بين الثالثة عشرة والرابعة عشرة...

فقد صاح أبو جواد اللعين بالحارس (محمد علي)، وهذا الحارس سمعنا أنه من أهالي كربلاء، كنا نسميه محمد علي الأثول، في الثلاثينات من عمره، وجهه خال من التعابير وقليل الكلام، شكله كمن أصابته صدمة فأفقدته الكلام، يمشي كالأهبل ويؤدي واجباته أشبه مايكون بالرجل الآلي...

صاح عليه أبو جواد يومها بصوته الأجش ونبرة صوته النكراء التي ترجّ المبنى رجاً قائلاً: ولك محمد.. ... كلمات لاأستطيع كتابتها، وتعني اعتدي على هذا الفتى...

صاح الفتى متوسلاً: "لاعمو عفيه... لا... الله يخليك..."

لم أعرف حقيقة مايدور آنذاك، وكنت إلى جانب عالية فسألتها من وراء العباءة ونحن جالسات تحت السلالم، ماذا يجري؟.

عالية كانت متوترة، ولم يتوقف فمها عن السباب والشتم، فأجابتني: هؤلاء سفلة إذ يطلب أبو جواد من محمد الأثول أن يعتدي على هذا الطفل!!.

فسألتها: أو يكون هذا؟؟!

قالت بعصبية: نعم... وهذه صفة من صفات الشاذين...

لم يحدث الاعتداء فعلياً، فتوسلات الطفل هدأت، وكأنهم تركوه وشأنه... تساؤل كبير يرن في رأسي عن نذالة هؤلاء، وعبوديتهم المهينة هذه وعدم تقاعسهم في أداء مايطلب منهم، أحسست من ذلك الحين أنهم لاينتمون إلى جنس البشر إلا بالهيئة فقط... بل لاينتمون حتى إلى جنس الحيوان، فلم نشهد إعتداء حيوان على آخر كما يفعلون هم...

بعد أن كانت خبرتي قليلة في الحياة، أصبحت أعي وأفهم كثيراً من الأمور التي أجهلها تماماً وإن كانت معلومات مؤلمة وأكبر من عمري... تربيتنا المحافظة وعدم اختلاطنا بمن ليسوا بمثلنا جعلتني لا أعرف سوى مميزات بيئتي... لكن هذه التجارب التي فرضها علي وجودي مكرهة هنا أغنتني كثيراً، ففي الوقت الذي تعرفت على ضحالة هكذا حثالات، تعرفت على سمو وعلو همة الشباب المؤمن الذي يبقى صامداً وصابراً، ويذوق مايذوق من أذاهم وهو غير آبهٍ بهم...

تعلمت أن المبادئ لاتوجد لدى الجميع، بل لمن قرر أن يكون في طريق الله، ويعمل بتواصل معه سبحانه... عرفت أن الجسد وقوته وضعفه لايحدد قوة وضعف الإرادة، فهاهي فاطمة الحسيني قد صمدت وأوهنتهم ولم تهن رغم ضعف بدنها، في حين تخاذل رجال أشداء ماشابهت إرادتهم قوة أجسادهم، فانهاروا معترفين بكل الأسرار، أو اختلقوا اعترافات وكانوا سبباً لاعتقال العشرات من الأبرياء!!!

واقع جديد سماته الضيم والقمع

أصبحت حياتنا رتيبة في هذه الدائرة المشؤومة، رتابة غير مألوفة لدى البشر في أي مكان سواها، نعم صار من الطبيعي جداً أن نفزع من نومنا على صراخ أحد المعتقلين، أو على نباح أحد الجلادين، وهو ينهال على فريسة منهم... ومألوف جداً رؤية الدماء، والكدمات السوداء تغطي الأجساد وتشوه الوجوه، فثمة معادلة قائمة: ظالم ومظلوم... جلاد وضحية... وحش وفريسة، ولم يعد للوقت أهمية، ولم تعد للأيام أية قيمة، لماذا نحصيها؟ هل ننتظر عطلة نهاية الأسبوع؟ أم هناك بارقة أمل في أجل محدود نعدها للوصول إليه؟... في هذا المكان الموحش لافرق لدينا بين ليل ونهار...

طيلة الأشهر الثلاثة التي قضيتها في دائرة أمن الثورة- بيت الشهيد سمير غلام- لم أر الشمس وأشعتها ولا السماء وزرقتها... كانت رقبتي تشرئبُ بين السلالم لعلي أرنو إلى ضوء الشمس من الشباك العلوي لكن دون جدوى...

ضوء المصباح البرتقالي الخافت يضيف إلى المبنى القديم قتامة وظلمة، ويجعله كئيباً أكثر مماهو عليه، وكيف لا وهو يضم تلك المعادلة غير العادلة... أخيار العراقيين شباباً ونساءاً أسارى بيد شراذم وحثالات الخلق، الذين لايمكن أن يصلوا إلى معشار حسبهم ونسبهم وعلمهم.

يبدأ يومنا الروتيني بطعام الإفطار، حيث وقع أقدام الحراس المتثاقل يشير الى حملهم كيس الصمون (كيس كبير من قماش الچادر الزيتوني) يجلب فيه الصمون... يضاف إليه إما بيض مسلوق أو جبنة أو زبدة الألبان العراقية نوع واحد منها فقط... أو يكون الإفطار شوربة عدس، وهذا ما استغربته وأعرضت عن تناوله لفترة طويلة... الشاي معدوم تماماً، فلم نذق طعم الشاي طيلة ستة عشر شهراً في المعتقل، والإدمان على الشاي من أبرز طبائع العراقيين، وربما لأن كل ممنوع مرغوب تقنا له كثيرا.

أما الغداء فمرق يوضع في سطل بلاستيكي، ويتم الغرف منه بإناء

بلاستيكي (دولكة)، ورز في سطل آخر... المرق رديء الطبخ، ولطالما تناولت ما تبقى من الفطور وقت الغداء، حيث لاشهية لهذا الطعام في الحالات الهادئة للدائرة، فكيف أثناء حفلات التعذيب!! حيث يحرم الطعام علينا من شدة الحزن فلا نستطيع أن نأكل والآهات تحيط بنا... لم يكن تفاعلنا مجاملة مع المعتقلين وهم يعذبون، بل إنتماء لقضية سامية هي قضية الكرامة التي يسحقها البعث الجائر كل يوم، وقضية الإرادة التي يقمعها هؤلاء الجلادون أذناب البعث...

أما العشاء قطعة دجاج صغيرة، أو قطعة لحم مع صمونة... نادراً مانأكله لأننا نعتقد أنه غير مذبوح على الطريقة الإسلامية، وهذا ماكان يزعجهم فيستشيطون غضباً صارخين: هل أنتم مضربون عن الطعام؟؟.

مفارقات عجيبة تجري هناك، فهؤلاء الحراس يعانون من جوع قديم هم نهمون ومن مستحدثي النعمة، يعجبون من هذا الطعام الرديء، ويعتبرونه فاخراً ويشيدون به... قائلين: "بعد شتريدون أحسن أكل وانتوا گاعدين لاشغل ولاعمل"!؟

صحيفة الأعمال

مجموعة من الأوراق تحوي عدداً كبيراً من الأسئلة والاستفسارات وتملأ لكل معتقل توثيقاً له، تضم أسئلة عن السيرة الذاتية، وتفاصيل أفراد عائلته: أسماؤهم، أماكن عملهم، وأماكن دراستهم، وكذلك عن الأقارب من الأعمام والأخوال وأبنائهم...

كانوا يركزون على الموظفين والطلبة من الأقارب...

والذي يقوم بملء صحائف الأعمال (جاسم)، موظف من الذاتية أو كما يسمونه (القلم)... رجل بدين في بداية الثلاثين من عمره... صوته أبحّ، بحّتهُ

تجعل منه صوتاً منكراً، فهو أشبه بمن يهمس همساً مزعجاً... بدانته مفرطة لدرجة أن عينيه غائرتان ووجنتيه مرتفعتان... شعره خفيف مجعد، ويختال فرحاً وهو يتنقل بين المعتقلين حاملاً أوراقه وأقلامه، جاسم هذا يتطوع دائماً في تعذيب المعتقلين، ولايألو جهداً في ذلك، بل يشارك مشاركة فاعلة ولسانه البذيء لايكف عن سباب وشتم المعتقلين يطريه أبو جواد مادحاً: "إي عفيه وليدي بعد إيدي"... لأنه ينكل ويضرب بقسوة.

صحيفة الأعمال هذه مُلِئت لي بعد يومين من التعذيب، وقد علمت أنه جاءني ثاني يوم فوجدني نائمة لشدة مانزل بي... كان جسدي يؤلمني آلاماً مبرحة يوم جلست قبالته وأنا أتلفع بعباءتي، وبالكاد أستطيع إجابته، كنت أشعر بأني في كابوس لافواق منه...

وأنا أدلي بمعلومات إجابة له على أسئلته الكثيرة المفصلة وبعضها لم أتمكن من الإجابة عليه، كأسماء أباء أزواج خالاتي وعماتي، حينها دخل أبو جواد إلى الغرفة، وقال مستهزئاً بصوته الأجش القبيح: "اي تلفلفي زين مثل إخت العباس"... يقصد بها السيدة زينب بنت الامام علي عليه السلام لم أجبه، بل ازددت في تلفعي بالعباءة...

ماذا يريد هؤلاء، وهل معيب أن أكون مثل أخت العباس؟! وأين أنا من ذلك الجبل الشامخ بالصبر والإيمان... شعرت بالفخر وأنا أجده يراني هكذا وهل من لنا قدوة غيرها؟... منها نستمد العون وبها نتأسى... وما أشبه اليوم بالأمس وما أشبه صدامهم بيزيد.

ضاقت أمن الثورة بالمعتقلين

بعد قرابة ثلاثة أشهر، حدثنا الحراس أننا سنتحول إلى بناية أخرى جديدة ونظيفة... بعضهم يعدنا بتحسن أحوالنا المعاشية السيئة، والبعض الآخر يزيد خوفنا وقلقنا بقوله: إننا سنودعكن في زنزانات منفردة يعّدونها مخصوصة لكن... بين الأمل بتحسن الحال، واليأس من كرمهم ونداهم، يبقى الأمل بالله وحده خير مؤنس لنا من وحشة العيش مع هؤلاء الأوباش.

في صباح 27/ 3/ 1982 صاح أبو جواد بصوته القبيح: "حضرَن رواحجن وغراضجن راح ننقلجن"... عجيب أمر هذا الجلاد... ألا يخجل من نفسه عندما يقول هكذا، وهو يعلم جيداً إننا لانملك سوى ملابسنا التي ارتديناها من بيوتنا والتي غدت خرقاً بالية... جيء بسيارة كبيرة لنقل المعتقلين حافلة خالية من مقاعد سوى مقعد للسائق وآخر جنبه... أشبه ماتكون بسيارات نقل البضائع حيث يفتح بابها من خلفها وليس من جوانبها بعكس باقي السيارات.

صعدنا الواحدة تلو الأخرى إلى السيارة... كنت منشغلة بالنظر إلى السماء، فقد اشتقت لها كثيراً حيث بدت صافية زرقاء تجمّلها بعض السحب الخفيفة المتناثرة فيها، ورائحة الربيع وعطره الندي لفح نسيمه أنفي، ووددت لو يطول بقائي تحت السماء كي أملأ عيني منها فقد مضت ثلاثة شهور من دون أن أرى الشمس، أو أستنشق هواءً نقياً... ررددت من كل قلبي: سبحان الله... سبحان الله...

لكنني سرعان ماوجدت نفسي داخل السيارة المغلقة، وظلت عيناي ترنوان إلى السماء... لا أدري لماذا شعرت ساعتها بأنها آخر ما سأراه في هذه الدنيا... ربما لما سمعته من الحارس بأنهم سيسجنوننا في زنزانات، وازداد ولهي بمتعة النظر إلى السماء، غير أنهم بخلوا حتى بهذه اللحظات، فقد أغلقوا باب السيارة وبدأت بالتحرك...

هكذا أصبحنا ملك أيمانهم، وقد عاد زمن الرق والعبودية في عراق

البعث... تصفحت وجوه المعتقلات وجدتهن جميعاً تلهج بذكر الله، وعلامات الخوف والوجل اتخذت طابعاً موحداً لهن...

إبتسمت علني أخفف بعضاً من جو التوتر، لكن دون جدوى، فالقلق والرعب سيد الموقف... كانت العيون جامدة والوجوه تعلوها علامات الرعب والهلع... أنا مثلهن ماتوقف لساني عن الأذكار، ذكر الله يهدأني فمنذ أن عاهدته سبحانه أن أسير في طريقه لم يخذلني أبداً... هوحاضر معي...

في تلك السيارة فتحات صغيرة للتنفس، عبارة عن شباك أعلى السيارة على اليمين وآخر على الشمال، الشباك الصغير ليس مفتوحاً، بل مغطى بأسلاك متقاطعة تكاد تغلقه وتحيله إلى فتحات صغيرة...

دخلت شعاعات ضعيفة من الشمس من تلك الفتحات واخترقت ظلمة السيارة، وكلما انعطفت في مسيرها انتقلت الشعاعات على الوجوه...

سارت السيارة بسرعة كبيرة فلم يطل بنا المسير إلى البناية الجديدة الواقعة في شارع (خير الله طلفاح) حي جميلة الموقع ليس بعيداً عن سابقه، توقفت تلك الغرفة المغلقة المتنقلة، وسمعنا وقع أقدام الحرس بين مستقبلٍ لنا ومرافق...

وفتح بابها لنجد أنفسنا في كراج كبير في باحة لأحد هذين البيتين من بيوت التبعية الإيرانية لأخوين... البيتان لهما نفس التصميم، حديقة واسعة، وبناء حديث، ومستلزمات حديثة...

نزلنا تباعاً ووقفنا في الحديقة... حديقة جميلة لكنها مهملة، فالبيت بدا مهجورا أهله تم تسفيرهم وصودر ليصبح دائرة أمن الثورة، أفرغ من أثاثه الفخم بالمصادرة ربما ليزين بيوتهم العفنة، دون أي مراعاة لحرمة الإعتداء على بيوت المسلمين وممتلكاتهم...

كنت أنظر إلى الشارع وأرى السيارات تمر من بعيد... نعم منطقة دوائر الأمن محظورة السير حتى على المارّة، هم يخشون من إطلاع الناس على

جرائمهم، وهم يقتادون عوائل العراق وشبابهم إلى التعذيب، ويحاولون إخفاء هوية الدائرة بعدم وضع لافتة عليها...

بعد أن ضاقت المعتقلات بأعداد المعتقلين تم الاستيلاء على العديد من بيوت المسفّرين في بغداد والمحافظات لتصبح دوائر أمن يعذب فيها الناس ويخفى فيها آلاف العراقيين دون أن يعلم أهل المنطقة بما يجري فيها من قمع وإرهاب، وقد يكون المعتقل أحد سكان الحي ذاته، لكن أهله لن يتمكنوا من معرفة أي خيط يدل عليه، ولو بقي لسنوات في مكان لايبعد سوى أمتار عن بيته... سمعنا أنه تم تهديد أفراد دوائر الأمن بأشد العقوبات إذا هم أدلوا بمعلومة عن أي معتقل، وحتى عندما يأتي أهالي المعتقلين متوسلين بالحراس لمعرفة مصير أبنائهم لايواجهون سوى الإهانات والشتم والسباب وكل أمر بذيء...

وتشاع الروايات التي لاتخلو من الصحة حول إحراق أوإعدام أو رمي في حوض تيزاب كل من يدلي بمعلومة مهما كانت عن معتقل وإن كان قريبهُ... لذلك ترى هؤلاء قد تجردوا من إنسانيتهم، ومن بقيت لديه بعض الإنسانية فهو يعيش في صراع بين مايقوم بفعله من تعذيب المعتقلين على أنهم أناس ضالون وخونة للوطن، وبين حقيقة بات يعرفها عن كثب عنهم من أنهم أشرف عوائل العراق ولم يحملوا سوى قضية تحرير وطنهم من الظلم والطغيان.

كل العراقيين تحت مراقبة البعث

في مطلع الثمانينيات تم تحويل موظفي وزارة الداخلية المدنيين إلى موظفي أمن، ليصبحوا عسكريين يرتدون بدلة زيتونية وذلك للحاجة الماسة لكوادر تدير دوائر أمن عديدة مستحدثة وفي كل المحافظات، ومن رفض ذلك تم فصله من وظيفته كعقوبة لعدم تنفيذ الأوامر... هكذا تمت إدارة مرافق الدولة في العراق، حيث جنّد كل من استطاع تجنيده ليكون جاسوساً على إخوته وأصدقائه، ولم

يخلُ زقاق من عدد من العيون المتربصة بالناس، حدثتني مرة إحدى معارفنا والتي كانت تعمل في بدالة (المأمون) المركزية تقول: كنت أشاهد خارطة منطقة من مناطق بغداد كالكاظمية مثلاً فأجد أن هناك مصابيح حمراء منتشرة على الخارطة ولم أكن أعلم ماهي، وذات يوم أجابتني إحدى زميلاتي قائلة: إنهم أعين السلطة (وكلاء الامن) في تلك المنطقة...

واستطردت تقول: في زقاق واحد وجدت مالايقل عن أربعة، أو خمسة وكلاء أمن وخاصة ممن يمتهنون المهن الشعبية كالحلاق والبقال والنجار...

هذه المرأة أصيبت بصدمة على أثر ذلك، ومن ثم ساءت حالتها النفسية، وتركت الوظيفة وهي إلى الآن تعاني الخوف منهم... كانت عيناها تجحظان وهي تحدثنا عن ذلك، ورأسها لايتوقف عن الحركة، وكأنها تتأكد من خلو المكان من وكلاء الأمن...

هذا هو صدام وبعثه الجائر، قد زعزع الثقة بين الناس، وشكك في أصدق العلاقات، وسعى إلى تفتيتها، وكم زوجة رضيت أن تكون عينا لهم وسجّلت لزوجها شريطا وهو يسب صدام وأرسلته إلى الأمن مقابل منافع ماديّة ليعدم هذا الزوج أو يحكم عليه بالسجن لسنوات في أحسن الأحوال، وكم جارٍ وشى بجاره قد وقع عقداً معهم على أن لايخفي أي معلومة وإن كانت على أهل بيته، ولعل حادثة الأب الذي قتل ابنه حالة فريدة في حياة الشعوب عامة وربما ليس لها نظير الا في العراق، حيث نشرت جريدة الثورة صورة لصدام حسين يكرم شخص من الصويرة يدعى هشام محمد علي عام 1986 لانه قام بقتل إبنه الهارب من الخدمة العسكرية... وبث المشهد تلفزيون العراق وتصدر لعدة أيام هذا الخبر اللا إنساني نشرة الاخبار ليشيع ثقافة الخضوع والممارسات القاسية المدمّرة للنسيج الإجتماعي العراقي وشرعنة القتل والسحل وقص الألسن وقطع الأذان وغيرها من الأفعال الاجرامية لنظام صدام... نعم عمل على نشر ثقافة العنف والوحشية ليميت الضمائر التي أرعبها بحكمه المستبد الذي حمل شعار: إن لم تكن معي فأنت عدوي!!

والتاريخ سوف لن ينسى هذه المواقف المخزية لكل من وشى بثائر أو مجاهد، فهذا يبذل نفسه من أجل أن ينير الطريق، والواشي يحرق نفسه بنار الخيانة والوشاية للظالمين...

كذبة نيسان في حقبة البعث المجرم

إعتاد بعض العراقيين اتخاذ الأول من نيسان يوما للكذب من أجل التسلية... فكان بعضهم يكذب على بعض في مقالب تحت مسمى كذبة نيسان غالبا ما ينتهي المقلب بضحكات وينتهي الامر، ومنذ أن استلم صدام الحكم تردد الكثير ممن يتداول الكذب والنكتة من فعلها خوفا من بطش سلطته التي لا ترحم، فرب نكتة منها تقع في ممنوعات صدام العديدة والتي اتسعت بمرور سنوات حكمه... ولن أنسى يوم الثلاثاء الأول من نيسان عام 1980عندما أعلن تلفزيون العراق نجاة طارق يوحنا عزيز نائب رئيس الوزراء آنذاك من محاولة لاغتياله أدت الى أصابته بجروح وأدت الى قتل وجرح عدد من طلبة الجامعة المستنصرية... للوهلة الأولى كنا نظن أنها كذبة نيسان، ربما أرادت الحكومة أن تحاكي الشعب في شهر احتفالاتها (السعيدة) حيث السابع منه ميلاد حزبهم المشؤوم (حزب البعث العربي الاشتراكي) والبعيد عن قيم العروبة كلها حتى تلك التي تحلى بها أهل الجاهلية... وفي الثامن والعشرين منه ميلاد صدام بن (العز والترف) في محاولة لتبييض تاريخه الأسود وطفولته التي نشأها وهو بين أزواج أمه الأربعة.

في نشرة الأخبار المسائية أظهر التلفزيون صورا لشاب عشريني بزي الجامعة مخضب بدمائه، والمعلّق يشير اليه بأنه المجرم العميل سمير مير غلام الذي قام بالتفجير وتسبب بقتل زملائه الطلبة!!... وفي نفس النشرة الإخبارية خبرا مصورا ينقل مهرجان حضره صدام في مدينة الصويرة، وكان واضحا أن

صدام كان يريد أن يبعد نفسه عن الحادث بالحضور في المدينة التي ترعرع فيها الزعيم عبد الكريم قاسم في إشارة رمزية أنه وريث محبة الناس لذلك الرجل.

بينما حدثنا أحد معارفنا من أساتذة الجامعة عن حقيقة ماجرى: كنا يومها في اجتماع مجلس الكلية لتعديل المناهج العتيقة دون المساس بالتوجيهات المركزية للوزارة وكنا في أوج انفعالنا... كيف نعدل مناهجا أطرها الأساسية خاطئة تصدر من جهلة تداولوا على كرسي الوزارة يوجههم ذلك الطاغية الذي لا يعي معنى للخطط العلمية أو النهوض بها... وخلال الجدل المتصاعد بين الأساتذة والنبرة العالية للمناقشات سمعنا فجأة ضجة غير طبيعة قادمة من الممرات ومن السلالم القريبة كما لو كانت آلاف الأقدام تطأ الأرض، فخرجنا نستطلع الخبر... قالوا: إن تفجيرات قد حدثت أمام البوابة الرئيسية للجامعة، والغريب اننا لم نسمع وربما بسبب حرارة الجدال الدائر، أو لأنه ليس انفجارا وانما قنبلة صغيرة... وقالوا: تم إخراج الطلبة من القاعات على وجه السرعة لئلا تكون قاعات المحاضرات ملغومة!!. كان هناك هلعا حقيقيا، والطالبات يصرخن ويبكين كما لو قد جرى فعلا تفجير قاعات المحاضرات، والرعب قد وصل لدى بعض الطالبات الى أقصاه وأصبح الكثير منهن في حالة هستيرية شديدة.

بعد فترة وصلت مجموعات عسكرية بكامل السلاح والمعدات والخوذ الفولاذية وهي تهرول بكراديس منتظمة وكأنها في ساحات القتال، مما زاد الطالبات رعبا وقد ظهر ذلك من خلال الصراخ والعويل، كان هنالك ارتباك عام وظهر ذلك لأن تلك المجاميع العسكرية لا تعرف ما يجب عليها عمله، دخلوا القاعات مهرولين وخرجوا منها مهرولين واستمروا يهرولون في ممرات الجامعة، وكأنهم مكلفون بأداء مشهد تمثيلي ليس الا.

أتت المعلومات إنه قد تم التاكد من عدم وجود متفجرات في القاعات لذلك فان على الأساتذة التوجه اليها ومباشرة محاضراتهم بشكل اعتيادي، في نفس الوقت إنتشر الطلاب البعثيون بين الطلبة لحثهم على الدخول الى قاعات

المحاضرات... توجهت الى القاعة التي فيها محاضرتي في تلك الساعة ولكن كان من الصعب تهدئة الطلبة فقد كانوا منفعلين ومستثارين ولاسيما وإن أغلب طلبتنا كانوا من الإناث اللواتي كن في وضع يرثى له، بعد فترة قصيرة وجهت عمادة الكلية بأن على الجميع المغادرة الى بيوتهم.

نزلت وجميع من كان معي من الأساتذة والطلبة الى ساحات وحدائق الجامعة والأخبار تأتي سراعاً... قالوا: إن طارق عزيز كان في زيارة للجامعة وإن أحد الطلبة القى على موكبه قنبلة يدوية أثناء دخوله الجامعة، وانه قد أصيب بجروح طفيفة...

... لم يمر اليوم التالي للحادث على خير حيث شهد تصعيدا آخرا يصب في ذات المضمون حين قام طلبة الجامعة المستنصرية بتشييع زملائهم هما: طالبة اسمها فريال وطالب آخر، ووجه إتحاد الطلبة وضابط أمن الجامعة الأساتذة والطلبة المشاركة بالتشييع، لم أشارك حينها لوضوح تفاصيل الخطة المراد تنفيذها -الكلام للدكتور الذي روى لنا الحدث-: سمعنا أن موكب التشييع قد تم ضربه بقنابل يدوية في طريقه الى باب المعظم أمام مدارس إيرانية قديمة وفارغة ومتروكة منذ زمن طويل... وقيل أنه قد ذهب عددا آخرا من الضحايا... وكأن من الواضح أنه سيناريو معد سلفاً من قبل المخابرات العراقية وعلى أعلى مستوى وبإشراف شخصي من صدام ومن يدعمه أقليميا ودوليا... والغريب ان أجهزة الإعلام الحكومية لم تشر بعد ذلك لا من قريب او من بعيد الى الفاعل وماذا تم بشأنه؟؟

في اليوم الثالث للحادث حضر صدام شخصيا الى الجامعة ووقف خطيبا في الساحة القريبة من البوابة الشرقية للجامعة وكان يحيط به مجموعة من أفراد المخابرات والطلبة البعثيين، وهدد - وسط التصفيق والهتافات - بأنه سوف يثأر لكل قطرة دم أريقت على أرض الجامعة، وأعلن في خطابه الشهير ونصه: "البارحة، سالت دماء زكية لشباب ونساء في المستنصرية، الفاعل عميل يدعى

سمير مير غلام هو وأسياده ظنوا أنهم حققوا شيئا كبيرا... نقول لهم ولكل قوى الامبريالية الأجنبية إلي تفكر تتغلب على الثورة دعهم يحاولون... الشعب العراقي هو جبل قوي لن تهزه كل قنابلهم. والله... والله... والله... وبحق كل ذرة في تراب الرافدين الدماء الطاهرة التي سالت في المستنصرية لن تذهب سدى"... وأسرع صدام في نهاية خطابة لاتهام حزب الدعوة بتنفيذ ذلك الهجوم، وتوعد إيران بالرد الحاسم!!. ثم غادر على عجل.

تأكدنا منذ ذلك الحين بأن الموضوع كله ليس أكثر من مسرحية أخرجها واشرف عليها صدام، وربما كان المقصود فعلاً هو قتل طارق عزيز وإلقاء اللوم على إيران كذريعة لإعلان حرب القادسية، ولربما من ضمن الأسباب التي أثارت غيظ صدام المصاب بجنون العظمة ما كان يفعله طارق عزيز وهو يحاكي طريقة صدام بمسك السيجار والتي تضفي عليه مظهرا من مظاهر العظمة الفارغة، ولعل اختياره للبوابة الشرقية للجامعة تعبير رمزي على أنه حامي البوابة الشرقية للوطن العربي، وطالما ردد هذا الوصف على حربه وجيشه المجبر على إطاعته دون أي قناعة بهدف هذه الحرب التي استنزفت الأرواح والموارد دون جدوى.

كانت هذه الحادثة بداية مشؤومة على العراقيين فبعد يومين وفي الخامس من نيسان هو أعتقل السيد محمد باقر الصدر وأخته آمنة الصدر فكانت حادثة المستنصرية ذر الرماد في العيون وإشغالٌ للشعب العراقي عن ما يجري في النجف وفي دهاليز الأمن العامة بحق مرجع كبير ونبراس فكري للبشرية جمعاء وليس للمسلمين فحسب.

أعقبها عمليات تهجير واسعة لمواطنين وعوائل سكنت العراق منذ مئات السنين أباً عن جد، قيل أنهم من التبعية الإيرانية، وتصاعدت حدة الخطاب الإعلامي المضاد لطهران الى أن نشبت الحرب بعد أشهر معدودة في أيلول 1980.

التسفير من بيوت المسفّرين!!

بعد انتقالنا من بيت الشهيد سمير غلام، احتجزونا في مطبخ أحد البيتين من بيوت المسفرين (المقر الجديد)... مطبخ كبير مبطن بالسيراميك الفاخر، ولكبر مساحته وخلوه من الفرش والأثاث كان بارداً جداً، فأعطونا قطع الورق المقوى من علب البيض والبطانيات البالية، فأفترشنا أرض الغرفة متكئات على جدرانها، وبقينا فيه أياماً عديدة، ثم فتح المطبخان والمخزنان على بعضهما بهدم الحائط المشترك الفاصل بين البيتين، فصار معتقلنا المخزنين، ومعتقل الرجال المطبخين، ريثما يتم بناء الموقف ذي السرداب للرجال، وفعلاً بعد أيام أكملوا البناء، وانتقل الرجال إليه، بينما أغلق أحد المخزنين بقاطع خشبي... وذات يوم سمعنا ضجيجا وصراخ أطفال وتهكمات الحراس عليهم اعتقدنا أن أحد عوائل المجاهدين قد دوهمت وساقوهم الى هذا المعتقل المرعب، لكننا رأينا عوائلا عديدة من التبعية جاؤوا بهم الى هذا المبنى كمحطة يجمعونهم فيها لتسفيرهم فيما بعد... نساء وأطفال وأما الرجال هم من كبار السن فقط، ولم نلاحظ أي شاب معهم... كانوا يومياً يجلبون عدداً منهم وصراخ الأطفال والضجة التي تحدث من خلال الصدى الذي يرجع من كلامهم في المطبخ يكسر الجمود الذي نعيشه، هذه العوائل بعضها لم يسمح له بأخذ أي متاع من بيته، وبعضهم استطاع أن يجلب بعض الأطعمة وبعض الملابس... عوائل عادية لا يبدو أن لهم انتماء سياسي لأي جهة معارضة، ولكن سلطة البعث أصرت على تسفيرهم كونهم ينتمون إلى أصول إيرانية ونعتوهم بالتبعية، كانوا يرفضون ترك وطنهم وديار أجدادهم وأبائهم وتجريدهم من مصالحهم وأملاكهم لكنهم مجبرون... إنه التهجير القسري الذي كان سمة بارزة لسياسة البعث الشوفينية وتجسدت بأبشع صورها في عهد صدام.

ظل المطبخان مخصصين لاستقبال عشرات العوائل التي استمر البعثيون بترحيلهم إلى إيران بذريعة التبعية الإيرانية، ولم تخلو يوما من جموعهم العديدة إنهم يحتجزون ويسفرون ويأتون بآخرين.

تذكرت يومها زميلة لي في المرحلة الثانية من الدراسة المتوسطة اسمها بيداء، طفلة مهذبة نظيفة ذكية متفوقة وهي الأولى على مرحلتنا... وجهها الطفولي البرئ يحمل همّا كبيرا وعيناها البريئتان تخفي حزنا عميقا، كنت أحبها وأتقرب اليها لكنها كانت تبتعد عنا جميعا وكأنها تتحاشانا كي لا تضطر لكشف سرها، تعيش مع أمها وأخيها فقط لا والد لها يرعاها... هي ليست يتيمة ربما كان معتقلا أو فارّا من العراق تلافيا لبطش الإعتقال.

فوجئنا ببيداء تترك الدوام على غير عادتها فهي مواظبة حتى في أقصى حالات المرض، سبق ذلك إضطراب في وضعها وكآبة شديدة كانت تعلو وجهها الطفولي الشاحب... تبين أن حملة التسفيرات طالت أقاربها وصارت عائلتها في القائمة، ولأنها حريصة على دراستها راجعت إدارة المدرسة وأخذت أولياتها الدراسية ثم انقطعت عن الدوام لترمى وأسرتها الصغيرة على الحدود كآلاف العراقيين ممن وسمهم النظام بالتبعية الإيرانية.

حملة التسفيرات لم تكن بوقت واحد فمنذ السبعينات بدأت ولم تتوقف، وعندما تسلم صدام سدة الحكم جاهر بالعداء للجارة إيران، وأتخذ التسفيرات وسيلة لزيادة الضغط الاقتصادي عليها وللاستيلاء على أموال وممتلكات المسفرين وهم في الغالب من أغنياء الشيعة وتجّارها.

ونحن نعاني ضنك العيش في المخزنين تحت تحذير وتهديد من الحراس ان لا نتحدث مع هذه العوائل إطلاقا... وعندما نمر من بينهم للذهاب الى المرافق كانوا يهددون العوائل بالعقاب إن هم تحدثوا معنا ولو كلمة... منعوا الكلام لكنهم لم يمنعوا القلوب من إنسانيتها كنت أرى الدموع تنساب من أعين النساء الجالسات على أكوام الملابس بين أطفالهن وهن يرمقنني وأنا أجتازهم ذهابا وإيابا ولسان حالهن يقول: ما أقسى هؤلاء الجلادين... أعان الله قلب أمك... حاولت ان أرفع طرفي في وجوههن المرتعبة من مستقبل مجهول، فرأيت حزنا عميقا وأسى يحكي ضيم عوائل كريمة عاشت في موطن الأجداد منعمة

برزقها الحلال، ولم تتوقع قدوم صدام المجرم يوما ليسلبها كل حقوقها الإنسانية في لحظة طيش وأسقط عنهم جنسيتهم العراقية بكل وقاحة...

في هدوء الليل كنا نسمع عددا من هؤلاء النساء تنتحب وتبكي وتعدد أسماء أولادها الذين غيبوا عنها عندما فصلوا كل الرجال ومن عمر 15 عام فما فوق عن هذه الأسر ليساقوا الى معتقل " نقرة السلمان"... نبادلهن البكاء الصامت ونتذكر أمهاتنا وكيف ينتحبن لفراقنا... حينها قررنا أن نُعلم هؤلاء النساء من نحن؟ولماذا اعتقلونا؟... وبدأنا نهمس تباعا من فتحة صغيرة بين القاطع الخشبي وحائط المخزن، وكلما حدثنا إحداهن بأننا قد أعتقلنا بسبب تديننا ورفضنا الإنتماء لحزب البعث الجائر، قابلتنا بالبكاء والتشجيع والدعاء المصحوب بالحسرات بلهجة هي أقرب الى لهجة الأكراد...

وجود هذه العوائل من المسّفرين قسريا أضفى على المعتقل جوا عائليا وتمتعنا برؤية أزياء قد فارقناها منذ الإعتقال، وبعض البنات كن بأبهى حليهن وقصات الشعر الحديثة، كانت بعض الأخوات تقول متندرة: "عبالك مسلسل تلفزيوني "... نعم ربما هن من عائلة برجوازية لكنهن ذوات قلوب تنبض بالرحمة، وكم علت وجوههن علامات الحزن والتعجب عندما مررن أمامهن مرورا صامتا مسرعا، والحارس يحمل عصاه الغليظة تحسبا لأي ردة فعل غير مسموح بها...

نعم استثمرنا وجودهم المؤقت معنا لينشروا ما أتيح لهم معاناتنا ومظلومية المرأة العراقية التي يتشدق صدام وخطاباته الجوفاء بكرامتها في المحافل وهو يسومنا العذاب لفكر حملناه ولدين اعتنقناه والتزمنا به... كنا نشرح لهم باختصار قضايانا وأعدادنا وفئات أعمارنا، وعلى الرغم من أننا لا نرى الوجوه أثناء الحديث من وراء الفاصل الخشبي لكننا كنا نتحسس الأسى والعبرات التي تختنق تفاعلا وتعاطفا... وذات مرة إحداهن مررت لنا كيسا بلاستيكيا فيه "طرشي " نوع من المقبلات التي تصنع من الخضار والخل... فرحنا به وأقمنا (مأدبة)

للغداء وضعنا الكيس في طبق وكل منا وضعت طبق الرز والفاصوليا حوله وأكلنا وسط نكات ونوادر تبادلناه لنخرج من ركود أيامنا المعتمة... نعم أسعدتنا تلك المرأة ولم يكن لديها ما تدخل السرور على قلوبنا غير هذه المخلل وكان في محله أضفى طعما منزليا على طعامنا الفاقد لصفات الغذاء.

الأب المعتقل وطفله الرضيع

شعرنا بالضيق والعسرة عندما احتجزونا في المخزنين، فالمخزن الأول يضم ثلاثة عشر إمرأة، والثاني مخصص للعوائل: أم علي وأطفالها الثلاث، أم حسين فاطمة، نصرة وطفلتها الصغيرة، وأضافوا إليهم زوجة الحاج آلوس وابنتها حياة وأمل زوجة ولدها وأطفالها الثلاثة، كل هذا العدد في مساحة لاتتجاوز ثلاثة أمتار في أربعة امتار... النوم صعب للغاية والأصعب منه الجلوس، حيث يضيق المكان الا لجلوس القرفصاء، لا منفذ للتهوية الا شباك في أعلى الجدار، وهو الحسنة الوحيدة في هذا المكان، وإلا لاختنقنا لكثرة عددنا... تعاوننا فيما بيننا بتفهم كبير وحس عال بالمسؤولية، إذ كانت تتبرع بعض الأخوات بمكانها المخصص للنوم وتجلس فاسحة المجال لنوم الصغار أو لمن تمرض من الأخوات، للصبر المر طعم آخر لدى المعانين... فيه لذة للروح كالإبتهال والدعاء... هي محبة من الله يودعها بقدرته في قلوب جمعتها كلمة الله وبوتقة ظلم وقسوة البعث حيث ألفّ الله بينها دون سابق ميعاد.

علي ابن انتصار نمى في تلك الظروف الحالكة وصار يناغي ويتبسم، هو في شهره الرابع وأبوه لم يره ولو لمرة واحدة... معتقل الرجال خلف المخزن الذي سكنت فيه العوائل مجاور مخزننا، فكانت انتصار تتعمد أن ترفع (علي) إلى الأعلى ليطل من الشباك الذي يعلو أحد جدران المخزن عسى أن يراه أبوه للمرة الأولى وربما تكون هي الأخيرة، ويبدو أن الخطة قد نجحت، المعتقلون لمحوه

فنادوا عبد الحسن كي يرى ولده المرتقب والذي طالما حلم بأن يرزق به بعد ابنتيه زينب وآلاء، رآه بعينين باكيتين، فرغم صبره وصموده لم يقو على رؤية فلذة كبده بين القضبان... هو كالأسد المأسور في قفص لايقوى على التحررمنه ليضم وليده إلى صدره ولو لمرة واحدة... ليس أمامه سوى اختطاف النظرات دون علم الحارس... كانت دموعنا تنساب شفقةً على الأب الجريح، وعلى الطفل الذي بدا يتيماً منذ يومه الأول... ساعدنا انتصار ورفعنا زينب وآلاء إلى الشباك، كي يراهما أبوهما المحروم منهما ويريَانه...

زينب عرفته واغرورقت عيناها الواسعتان بالدموع، أما آلاء فلم تعرفه، وأنى لها بمعرفته وهي فارقته صغيرة وهو الآن يرتدي أسمالاً بالية، وشعره قد حلق لأقصى درجة لكن عينيه هي عيناه، عينا الوالد الحاني المشتاق لضم صغاره إلى صدره...

شعرت بالإختناق لهذه الآلام... من الذي سلّطهم علينا؟ وبأي حق يحرمون عائلة يافعة من العيش بسلام؟ فها هي أمتار تحول بين والد وأولاده، زوج وزوجته... أخ وأخته، ولم أدرِ هل أخي جلال مازال في هذه الدائرة؟!

حسبت أن دموعي ستجف من كثرة ألبكاء، ومن مرارة مارأيت في هذه الدائرة المشؤومة، لكنها ظلت ندية وتتقاطر بسخاء... أبكي عندما أتذكر والدّي وأخوتي... أبكي لمستقبلي الدراسي الذي ضاع دون جرم... أبكي لصراخ المعذبين... أبكي عندما أجد إحداهن قد نفذ صبرها وهطلت دموعها... أحيا بذكر ربي ولم أنسه أبداً فهو ملجأي، وكلما ضاقت الحياة بي رفلني بسكينة وهدوء بعد كل أزمة، كرمه وحنانه مافارقني، إنه ربي أحن من الوالدة على ولدها...

قضية بنات الزعفرانية

في هذه الأثناء كان الخط النسوي لحزب الدعوة في منطقة الزعفرانية قد تم اعتقاله تباعاً فهو مرتبط بقضية آل آلوس... النساء قد أوقفوهن وبدأوا التحقيق معهن وبين فينة وأخرى نسمع أصوات المعذَب والجلاد تتداخل بين ألم وشماته... يفزعنا نباح الجلادين ويعتصر قلوبنا صراخ المعذبين.

ذات يوم طلبوا منا نحن البنات ال (13) فقط مغادرة المخزن إلى صالة في بداية المبنى قرب المدخل على مايبدو أنها صالة الاستقبال عندما كان بيتا، بقيت العوائل في المخزنين... قلقت انتصار عليّ وخشيت من أنهم سوف يقتلونا أو يدفنونا ونحن أحياء، لكن مخاوفها زالت عندما مرت من صالة الإستقبال مع صغارها إلى المرافق القريبة منها، وتعمدنا أن نسمعها أصواتنا... هي غرفة كبيرة خالية إلّا من ستائر (قديفه) فاخرة وسجادة قديمة تفرش نصف مساحتها وعدد من مقاعد الدراسة (الرحلات)هي ذاتها التي كانت في المعتقل الأول (بيت غلام) مصبوغة بلون رمادي فاتح...

افترشنا ركناً منها، وجلسنا إلى جوار بعضنا نرتجف خوفاً وهلعاً، فنحن لا نعرف حقيقة مايضمرونه لنا، ولا نتوقع منهم إلا الأسوأ لما رأيناه طيلة هذه الأشهر...

بعد الظهر جاؤوا بحياة كاظم زوجة رسول آلوس وهي تعاني من آلام شديدة نتيجة التعذيب، حيث فتح باب الصالة (بابها على شكل سلايد يفتح إلى الجانبين) وتم وضع كلبجة لقفلها من مقبضيها، فتحها وغلقها يحدث ضجة عالية نتيجة ارتطام الحديد بالخشب، وكان الحراس يتعمدون أحياناً تحريكها دون فتح الباب فقط لإدخال الرعب في قلوبنا، فنحن نعلم جيداً أن لاخير يأتي منهم أبداً...

حياة كاظم خريجة معهد إدارة، وتعمل موظفة في مركز التشغيل التابع لوزارة العمل والشؤون الاجتماعية... سيدة جميلة المحيا طويلة القوام، وجهها متعب وشاحب وقد تجرّح معصماها من القيود وجف الدم عليهما من أثر التعليق

الذي خلع كتفيها، شفتاها تشققتا وأحاطت بعينيها هالاتان من السواد ونظراتها فيها حزن عميق، هي قلقة على الدوام لاتأبه لآلام جسدها المعذب، ثمة ألم آخر يعتصر قلبها وتهطل دموعها بصمت، نعم قد أبعدوها عن طفلتها الصغيرة غفران، والشوق يعصف بها لرؤيتها، والخوف ينتابها من أن يجلبوها ليعذبوها أمامها...

هي زوجة المجاهد رسول آلوس موظف في وزارة الأوقاف الدينية، تم اعتقاله في شهر تشرين الثاني 1979، وتم إعدامه في 19/ 3/ 1980، هو من كوادر حزب الدعوة الإسلامية... انتقلت حياة وطفلتها الوحيدة غفران إلى بيت أهلها بعد إعدام زوجها، ومن الطبيعي أن تبقى مطاردة ومراقبة من قبل أزلام الطاغية، فهم ينعتون هذه العوائل بأنها حاقدة على الحزب والثورة ويتوقعون ردود أفعال منها... جواد أخ حياة قد تم اعتقاله هو الآخر مع زوجها، لكن لم يستلموا له جثمان، وتبين إعدامه بالمعلومات التي ظهرت بعد سقوط نظام صدام.

بعد عامين من إعدام زوجها وبالتحديد في يوم الخميس 1/ 4/ 1982، تم اعتقال حياة، ثم بعد يومين فقط أعتقلت أختها بشرى كاظم الموظفة في الشركة الأفريقية التجارية في منطقة 52 قرب حي الغدير، لتثكل العائلة بفقد جميع أبنائها، ولم يبق سوى فاطمة التي تكفلت برعاية الطفلة اليتيمة غفران... في نفس يوم اعتقال بشرى كاظم تم اعتقال الفتيات كريمة حنش وإيمان محمد خلاطي وهناء عذاب، وهنّ طالبات في إعدادية الصمود في الزعفرانية، جميعهن في المرحلة النهائية أي السادس أعدادي... أما ساجدة ظاهر فهي موظفة في الشركة الأفريقية مع بشرى فأعتقلت معها في نفس اليوم من العمل.

ثم اعتقلت حياة آلوس الطالبة في المرحلة الثالثة من أعدادية الصمود أيضاً، وأمينة غزاي طالبة إعدادية من أهالي الكرادة.

السيدة نورية ندى صديقة لهؤلاء المؤمنات، وخاصة بشرى وحياة كاظم، ويربطهن جميعاً عمل إسلامي مشترك، هي أخت المجاهد سمير ندى سمير، وتسكن منطقة الإسكان، سميرة ابنة أختها قرروا اعتقالها وبحثوا عنها ولم يجدوها، علموا أنها مسافرة إلى رومانيا لزيارة أخيها المقيم هناك، وفور عودتها اعتقلوها في المطار.

بعدها تم اعتقال أمل ثنوان زوجة أحد أبناء آلوس وأطفالها، نادية خمس سنوات، عادل أربع سنوات، وياسر سنة ونصف وهو لم يزل يرضع منها.

واعتقلوا أيضاً الزوجة الثانية للحاج آلوس هي الحاجة أم عباس، والدة الطفلة حياة... أم عباس هذه كانت متزوجة ولديها ولد اسمه علوان، ثم توفي زوجها وتزوجها الحاج آلوس، وأنجبت منه (عباس، حسن، كريم، يحيى، حياة) كل هؤلاء تم اعتقالهم حتى ابنها من زوجها الأول علوان!!

وباعتقال هذه العائلة كلها وصل الخبر إلى عائلة الحاج آلوس الأولى الحاجة أم منصور وبناتها ضحى ونضال، فهربوا من البيت وسلمهم الله من الاعتقال، كونهم يسكنون في بيت آخر... أبو جواد قام بفصل مجاميع المعتقلات، العوائل في جهة، والشابات أو كما يقول بنات التنظيم في جهة أخرى...

الصالة خصصها لبنات (التنظيم)، فكنا أنا وبتول وعالية وهدى وخيرية وإيمان وغياب وفاطمة وامل وسندس وباسمة عبد العزيز وباسمة عبد الامير ومعنا أميرة (صديقة مفوض الأمن...) فبدأوا يضيفون البنات علينا تباعاً... حياة كاظم وأختها بشرى، إيمان محمد خلاطي وساجدة طاهر وهناء عذاب وكريمة حنش ونورية ندى أم زياد وابنة أختها سميرة عبد الرضا وأمينة غزاي وأمل، هؤلاء هم خط تنظيمي نسوي لحزب الدعوة في الزعفرانية، فتيات بعمر الزهور من خيرة عوائل الزعفرانية، هدفهن إصلاح المجتمع والحفاظ عليه من مخططات البعث الجائر، لسن مسلّحات بسلاح سوى الإيمان والخلق الحسن، لم يؤذين أحداً ولم يردن سوءاً بهذا الوطن العزيز، كن ينثرن عبير القيم والمبادئ أينما حللن.

ولم يكن نصيبهن سوى التعذيب والقمع الوحشي بكل ما أوتي ضباط تحقيق هذه الدائرة المشؤومة من قوة... نعم راعهم أن تنتظم هؤلاء الشابات في تنظيم حزب الدعوة الإسلامية حزب الفكر والعلم والإيمان وخاصة أن قرار إعدام الدعاة كان مفعّلا آنذاك، فكل من تثبت عليه تهمة الانتماء لحزب الدعوة الإسلامية يحكم عليه بالإعدام وبأثر رجعي... لذا بذل أبو جواد كل جهده في تثبيت هذه التهمة على هؤلاء الفتيات اليافعات دون رحمة ليحكموا عليهن جميعا بالإعدام بعد أن نلن مانلن من تعذيب وحشي من تعليق في السقف وضرب بالعصي الكهربائية والخشبية والكيبلات والرج الكهربائي، فضلا عن أساليب التعذيب النفسي الأشد إيلاما.

صبرا آل ندى انه في عين الله

نورية ندى (أم زياد)... إمرأة في أواخر الثلاثين من عمرها... سمراء ضئيلة البنية، مثقفة واعية وقوية، عملت أم زياد عملا إسلاميا اجتماعيا وتفرغت لخدمة النساء وحثتهن على صلاة الجماعة في جامع الشيخ عبد الجبار البصري حيث خصص مكانا خاصا للنساء، واستثمرته أم زياد في بث الوعي ونشر قيم الإسلام لدى النساء اللواتي يحضرن في الغالب مع أوليائهن، كانت متواضعة وبسيطة ومحبة للناس وصادقة... كلامها يدخل للقلوب وتتأثر به النساء لأنهن أحببنها وتعلقن بها، كرست وقتا لرص صفوف المصليات ولم تتكبر حتى على ترتيب أحذيتهن في مدخل القاعة، كانت قدوة صالحة تعمل أكثر مما تتحدث، لكنها كانت حذرة جدا من كل كلام يصدر منها أومن المصليات، ذلك أن البعثيين زجوا بعضا من بناتهم كأعين تترصد أي نشاط ديني، لم تكن إبتسامتها تفارق وجهها وهي تعرض على النساء التبرع لعوائل الشهداء والمعتقلين، ولا سيما بعد أن تصاعدت حملة الإعتقالات لخيرة الشباب في منطقتهم وتركوا أسرهم بلا

معيل، ولم تبخل بجل راتبها وكانت تردد: "من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة" وكأن الله سبحانه طرح البركة في ما تجمعه منهن وإن كانت فئات نقدية صغيرة، كانت تكفي لدعم العديد من العوائل المنكوبة بحسن إدارتها لهذه الأموال، وتعاطف كل من عرفها مع هذا المشروع الخيري السري لأمانتها وإخلاصها، غرست في نفوس الفتيات الصغيرات قيم العفاف وحثتهن على الحجاب والسير في طريق الهدى وشجعتهن على التمسك بما أوجب الله عليهن، وهن يطعنها ويترقبن يوم الجمعة لتلتقي بهن ويتزودن منها كل جميل، تزويج الشباب ودعمهم كان من ضمن برنامجها الذي ترجو به وجه الله في إكمال نصف دينهم وتتوسط لدى أهالي البنات في التخفيف عن كاهل العريس وتذكر لهم أحاديث شريفة: أفضل نساء أمتي أقلهن مهرا... نعم تركت بصمات خالدة وسنت سننا حسنة وأعادت مجتمعها الى رونق الأسلام المحمدي الأصيل، وجاهدت بقوة على نبذ الخرافات التي أراد البعثيون نشرها توهينا للأسلام وانتشاره في تلك السنوات على أيدي الدعاة الذين نذروا أنفسهم لنصرة الدين وأسلمة المجتمع.

نالت مانالت من تعذيبهم، فلم يكفهم التعليق والكهرباء والضرب بالعصي والكيبلات، بل إنهم سكبوا التيزاب عليها... كانت تتألم كثيراً ولسانها يلهج بذكر الله، وابتسامتها الجميلة لاتفارق محياها... كنت أراها جبلاً شامخاً، وليس مجرد إمرأة ضعيفة، قد تصاغروا أمام صلابتها، وهي مرتاحة الضمير لأنها أتعبتهم ولم تعترف... هي سخّرت وقتها ومالها للعمل الإسلامي، وتسعى لقضاء حوائج العوائل التي يتم إعتقال رجالها، وأبت أن تعترف على أحد ممن كان يعمل معها، فأمعنوا في تعذيبها أيّما تعذيب، هم يكرهون عمل الخير ويقطعون سبيل المعروف ويحسبون مد يد العون لضحاياهم جرما لا يغتفر.

أخوها سمير ندى كان من مجموعة الشباب المؤمن في مدينة الطوبجي المواظبين على حضور الصلاة بإمامة الشيخ عبد الجبار البصري، إمام الجامع والداعية الشجاع الذي كان يتحدى البعثيين جهارا داعيا الناس في خطبه للتمسك

بالدين القويم وعدم الإنجراف مع تيارات البعث الهدامة، والتّف حوله مئات الشباب وهم يتزايدون عند كل جمعة.

بدأت الاعتقالات تطال هؤلاء الشباب بسبب اندساس الأعين الوقحة للبعثيين بين الصفوف المؤمنة، ومنهم (شغاتي) الذي كان مثالا للنفاق البعثي فهو يصلي مع المصلين ويكتب التقارير الظالمة لمسؤوليه وليعتقلوا بسببها خيرة الشباب وكثير منهم من يعدم أو يغيّب.

قرر الشاب المؤمن سمير ندى أن يضع حدا لتمادي شغاتي وزمرته، إذ عمد الى سكب التيزاب على وجهه بمرآى من الجميع وهرب، لكنه لم يفلت من براثنهم سرعان ما أعتقل وأعدم بعد مسلسل من التعذيب الوحشي، حينها نشرت جريدة الثورة حادثة ملفقة مفادها: أحد مجرمي حزب الدعوة (العميل) يحرق أحد المصلين المؤمنين وتلقي عليه القبض حكومة الثورة وتنزل به القصاص العادل!!

هكذا كان الإعلام المضلل وماكنته المسّخرة لتزييف الحقيقة وتزويق وجه نظام البعث الأسود علّ خططهم تنجح في إرساء حكمه البغيض والذي جثى على الصدور عقودا من الزمن المر.

ولم ينته قصاصهم (العادل) بإعدامه وإنما انتقموا منها شر إنتقام... سكبوا عليها التيزاب وظلت رحمها الله تعاني من آلام الحرق مثل فاطمة علي طالب يوم عذّبوها بسكب التيزاب على جسدها!!

اعتقلوها من مكان عملها وكم تمنت لو أنها ارتدت عباءة، ففي هذا المكان للعباءة فوائد أكثر من أي مكان آخر... وعندما خرجت أميرة بالإفراج عنها صارت عباءتها من نصيب أم زياد (نوريه)، هي اكتفت بدشداشة بالية ولم ترتد فستانها الراقي ثانية... هذا الفستان الأسود الشرعي المستورد إستفدنا منه كاحتياط لكل من تستحم لحين جفاف ثوبها الوحيد، ووصل الى سجن الرشاد وارتدته بعض السجينات هناك، وكأن أم زياد أبت الا المكوث في الذاكرة

وصلى ثوبها وسبّح وقرأ القرآن معنا... بنات الكرادة سبقننا الى السجن ووجدنا سيرتها متداولة عند السجينات... نعم مانسيناها وروينا قصتها كبطولة نسوية قل نظيرها في عالم الخنوع والإستكانة للبعث.

(بنات الزعفرانية) هكذا كنا نسميهن، مجموعة خيرة من الشابات المؤمنات على مستوى من الثقافة الرسالية، ويحملن اندفاعاً كبيراً للتغيير... هن منظّمات بطريقة عملية بعيدة عن التنظير، كلهن موظفات وأغلبهن يدرسن دراسة مسائية... ناضجات وواعيات لما يحاك للعراق من سلطة البعث، وقد سرن على طريق ذويهن الشهداء... كن مختلفات عني وعن بنات الكرادة... هكذا شعرت بهن من الوهلة الأولى وهذا ماجعلني أقترب منهن أكثر لأتزود بما يعزز شخصيتي ويقويني في هذه المحنة التي بدت إنها لن تزول...

نقلن لنا مايدور خارج المعتقل، وما طرأ من أحداث طيلة الشهور الستة لإعتقالنا، حيث كانت الحرب العراقية الإيرانية على أشدها، سألناهن عن تفاصيلها وعن كل مايدور من أحداث ساخنة في بلدنا الذي وقع في دوامة تلك الحرب العقيمة... نعم نحن نطلب الفرج بخسارة صدام الحرب، عسى هزيمته تكسر استبداده وديكتاتوريته...

ولأن بنات الزعفرانية قد تم اعتقالهن من مدارسهن وأماكن عملهن، فقد كن يرتدين الجبة والربطة وليس مثلنا اعتقلنا من بيوتنا ونرتدي العباءة... استمعنا لقصصهن الأليمة وقصص عوائل معارضة كن يساعدنها يوم أعتقل أربابها... واللطيف فيهن أنهن أحببن لقاءهن واجتماعهن معا هنا وخاصة بعد اكتمال التحقيق وصولات التعذيب الوحشي وجعلنها إستراحة مقاتل، فلا عمل ولا دراسة تمنعهن من التواصل والتباحث... كن يتحاورن بود عميق فهن أكثر من صديقات... عاطفة وحنان وإلفة فريدة طبعت علاقتهن، وشجاعة وواقعية هان بها كل صعب في هذه الدائرة المشؤومة.

حكايات مع بنات الزعفرانية

قضية الزعفرانية صعبة ومتشعبة، وتم اعتقال العديد من الرجال عدا النساء اللواتي كن معنا... إزداد عددنا زيادة كبيرة، وكادت تمتلئ الصالة بوجودهن معنا، لكننا شعرنا بالإلفة والإنتماء لهن فقمنا بواجبنا اتجاههن بعد صولات التعذيب الهمجي بالمواساة وتقديم مايمكن تقديمه من رفع للمعنويات وتخفيف للآلام.

حياة كاظم أم غفران زوجة رسول آلوس... شابة في الثالثة والعشرين من عمرها... عذبت تعذيباً شديداً بشتى أنواعه... لم تأبه للعذاب ولم يبكها، بل أبكتها طفلتها غفران بنت الأعوام الثلاثة... كانت في شوق دائم لها، شاردة البال

وقد حبست عيناها الدموع، ولم تخف قسمات وجهها حزنها العميق... شابهت مصيبتها مصيبة بتول محسن يوم تركت ابنتها إسلام وهي بنت عشرة أيام، فكنا نواسيها بها ونذكرها بمصاب أبي عبد الله الحسين (عليه السلام)، ومصاب الرباب أم عبد الله الرضيع...

بشرى كاظم... أخت حياة... شابة في بداية العشرينات... سمراء المحيا... هادئة الملامح... ودودة ومؤمنة... تحملت من التعذيب صنوفاً وصمدت وصبرت، فهي قد اختارت الطريق ذاته يوم انتمت لعائلة عارضت البعث ومخططاته، شاركت أختها حياة محنة إعدام زوجها رسول آلوس ومحنة اعتقال أخيهما جواد... نذرت نفسها للعمل الإسلامي، فهي جزء من هذا التنظيم النسوي الذي لم يفّجر أو يقتل، وإنما كان يدعو إلى الإيمان والفضيلة، ويساعد العوائل المحتاجة من ضحايا البعث على الرغم من ضيق ذات اليد... نعم كانت هذه الثلة الخيرة من النساء ترتق ما يفتقه البعثيون بمصائب صبت على الناس جراء سياسات همجية فاقت كل معقول.

سميرة عبد الرضا إبنة أخت نوريه أم زياد... فتاة في بداية العشرين سمراء سمحة المحيا، سجيتها نقية كبراءة الأطفال، لكنها واعية جداً لمخططاتهم، عادت للتو من رومانيا حيث كانت في زيارة لأخيها هناك، وعندما وصلت مطار بغداد اختطفوها لوجود اعتراف عليها، فهي جزء من هذا التنظيم النسوي!!.

حدثتنا عن رومانيا وطبيعتها الخلابة وعن التقدم الذي وصلته الشعوب هناك والحريات السياسية من تعبير عن الرأي وإحترام التنوع، وكانت كلّما تتحدث تقول: سبحان مغير الأحوال، بالأمس كنت في جنانه واليوم بين أيدي الجلادين، وتضحك للمفارقة الكبيرة التي حصلت معها، فتقول بدلاً من أن أستقبل بأحضان أهلي وجدت الكلبشات مهيأة لتقيد معصمي!! وتقارن بين إنسانية من هم (كفرة) في رومانيا، ووحشية الذين يحملون الإسلام هويةً وخاصة عند تعذيبها...

ساجدة ظاهر... فتاة في العشرين من عمرها... طويلة القوام رشيقة جميلة

الملامح شجاعة وصبورة، أكثر ماكان يبكيها والدتها العمياء، فهي وأخوها عبد الله كل ذرية هذه المرأة الضريرة الأرملة، وقد أعتقلا معاً... ساجدة كانت تذكر أمها في كل لحظة، وكأنها تتواصل معها روحياً، وكنا نهدأها بأن الله لاينسى عباده، توكلي عليه هو يرعاها ويعوضها عنكما فهو المعين لعبادة الصالحين، نالت مانالت من التعذيب ككل عضوات هذا التنظيم النسوي.

هناء محمد عذاب... فتاة سمراء المحيا جميلة الملامح هادئة الطباع في العشرين من عمرها مؤمنة ذاكرة لله لاتفارق الصلاة والعبادة، وكأنها علمت أنها ستموت قريباً، وربما نوهوا لها بأن قضايا التنظيم إعدام حتماً... عذبوها عذاباً مبرحاً، وبعد خلاصها من التعذيب، قضت وقتها كله صياماً وصلاةً...

أمينة غزاي... فتاة في العشرين من عمرها... هادئة الطباع خلوقة مهذبة، تبدو أكبر من عمرها لنضج فكرها ودماثة خلقها، هي من أهالي الكرادة الشرقية، وإحدى طالبات إعدادية الهدى للبنات، وهي نفس إعدادية بنات الكرادة... هدى وخيرية وإيمان وباسمة وغياب وأمل وسندس، كانت دؤوبة على صلاة الليل والدعاء والختمات، حنونة وتتعاطف بأسى مع المعذبين وتنقطع للذكر والدعاء كلما سمعت صراخ أحدهم.

إيمان محمد خلاطي... فتاة في العشرين من عمرها... ناعمة البنية بيضاء البشرة عيناها زرقاوتان... هي طالبة في السادس إعدادي، وتعمل بعد الدوام في محل... ذكية وصبورة، واستطاعت أن تصمد أمام التعذيب، ولم تتفوه بأيّ اعتراف شأنها شأن كل بنات الزعفرانية.

كريمة حنش... في العشرين من عمرها... فتاة هادئة الطباع خلوقة دافئة الصوت، قليلة الكلام وان تكلمت فكلمات رقيقة... هي جزء من هذا التنظيم النسوي، لذلك نالت مانالت من التعذيب...

أمل جبر... فتاة في الثامنة عشرة، أو التاسعة عشرة سمراء المحيا ناعمة القوام، خجولة وصبرت أمام تعذيبهم بما لايصدق أن يتحمله جسدها النحيف.

لم تعرف بنات الزعفرانية كيف تم اعتقالهن ومن أدلى عليهن باعتراف، صبرن على المحنة واستثمرن وجودهن بالحلقات والجلسات التوعوية... لم نشعر بأي غربة عنهن، جمعتنا وإياهن المظلومية التي وقعت علينا جميعاً من مصادرة حرياتنا، وحرماننا من أبسط مقومات الحياة... كن يتفاخرن بآثار التعذيب على أجسادهن وتلاطف إحداهن الأخرى متفاخرة بعمق الجراح التي خلفتها القيود على معاصمهن الرقيقة وخلع الأكتاف بفعل التعليق بكلاليب السقف، يتندرن وهن يتذاكرن الصعقات الكهربائية التي رجت أجسادهن النحيلة أثناء التحقيق، وتتعالى ضحكاتهن البريئة وهن يصفن ذهول الجلادين من صبرهن وانهيار بعضهم وهم يعذبونهن مرددات كلمات الخيبة التي نطقوها ونعتوهن بها: " يمكن انت جنية شلون تتحملين "... وغبطن أم زياد على تحملها عذابات الكي بالتيزاب ومانالته من أجر لصبرها واحتسابها فاقهن جميعا... كن حقا نماذج فريدة بالصمود والثبات والاستهانة بالدنيا... كن" بنات آخرة " كما كان يقول بعض الناس واصفا الصالحين... تواصين بالحق وتواصين بالصبر هن مصداقا للذين آمنوا في سورة العصر...

عنهن وعن العديد من معتقلي هذه الدائرة المشؤومة راودتني جملة تساؤلات: من أين يأتي هذا الكبرياء والعلو في الهمم؟ وكيف يصر هؤلاء على المضي بهذا الطريق الدامي؟ كيف حولن هذا الرعب والقمع الوحشي الى نكات يتبادلنها بسخرية؟ أنّى لهن كل هذا الايمان؟ رددت هذه الأسئلة ولم أزل أرددها ولم أجد جوابا، الا إنه صدق اليقين ونقاء العقيدة.

وحل الصيف في أمن الثورة...

تجاوز عددنا العشرين لكن القاعة تسعنا... صار وضعنا في هذه القاعة أفضل من سابقه بكثير، حيث يدخل ضوء الشمس من نوافذها الواسعة الكبيرة.

هاهو الصيف قد حل بنا ونحن مازلنا معتقلات، ولا نعرف أي مصير ينتظرنا...

الإستحمام كان معضلة كبيرة، نخشى أن يسترقوا النظر إن طلبنا استخدام الحمامات العديدة في هذا البيت الواسع، أو أن يكونوا قد وضعوا كاميرات تصوير فيه، كنا نغتسل عند دورنا في الذهاب إلى المرافق... وهي عبارة عن مجمع صغير فيه باب خارجي ومغسلة، ومن ثم باب آخر فيه مرحاض... نغتسل قرب المغسلة...

طلبنا منهم (ترمس) ماء وسطل كبير وجدناهما في المطبخ، نستخدم للوضوء الماء النظيف في الترمس، والسطل لماء الغسالة، فمن عندها غسل واجب عليها أن تغسل شعرها في هذا الماء ومسحوق الغسيل الذي يعطوننا علبة منه لغسل أواني الطعام، لا وجود للصابون!! نعم وجود سائل غسيل الشعر (الشامبو) أشبه بالمستحيل، وعند ذهابها إلى المرحاض تغتسل الغسل الواجب بالدقائق المسموح لها بها... وتغير ملابسها بالدشداشة الوحيدة التي زودتنا بها إنتصار... تقوم بذلك بأسرع مايكون.

قد لايصدق أحد هذا الحرمان من أهم مقومات الحياة وأبسط أساسياتها... بتعاوننا تغلبنا على صعابها فواحدة تغسل، والأخرى تأخذ عباءتها وثوبها لتغسلهما، لأن الوقت المخصص للمرافق دقائق لاغير والحارس يضرب الباب بعصاه إن تأخرت أكثر!!... في هذه البناية لم يعد للتيمم صلاحية (إذا حضر الماء بطل التيمم) كما تقول القاعدة الفقهية، لذلك كنا نغتسل مرة كل شهر مستثمرين وقتنا المحدود في استخدام المرافق، ونتوضأ داخل الصالة حيث وضعنا في إحدى جوانبها الترمس على إحدى الرحلات والسطل تحته ليجمع الماء المستعمل... ولكي تدوم هذه النعمة توجب علينا التعاون والإلتزام باستعمال الماء وملأ الترمس لمرات وحمل الماء المستخدم للتخلص منه... تميزت المعتقلات بالتسارع لخدمة بعضهن بحنان ومحبة خالصة لله قد يندر وجودها بين

الشقيقات، فلا تكبر ولا تجاهل لأي مطلب لأي من الأخوات ولا وجود للأنا... كلنا واحد وكلنا راع وكلنا مسؤول عن رعيته...

حين تنعدم مقومات أساسية للعيش لامجال أبدا لفرشة أسنان... استخدمنا قشر البرتقال كسواك، ووصفت لنا الصيدلانية عاليه حبوب البراسيتول لدعك الأسنان لمن تعاني من التهاب لثة، وأصبحنا جميعا نعاني منه بسبب سوء الغذاء وغياب الأخضر منه... وكيس للدواء خيطناه من القماش لندّخر به أنواعا من الحبوب التي نحصل عليها من زيارات ذلك الطبيب مرة أو مرتين بالشهر، أوعند وقوع حالة طوارئ قصوى يعتقدون أنها تستحق استدعاءه... نستثمر وجوده لنصف له حالات مرضية نتوقع أن نعانيها ونوفر علاجا لمن تحتاجه منا عندما يشحوا علينا بزياراته لنا.

نشعر بالأمان عندما يغيب المحققون ويبتعد الحراس عنّا... تنعم الدائرة بساعات هدنة من تعسفهم وجبروتهم، فنعقد جلسات وبصوت هادئ يكاد يكون همسا، نتناول مواضيع ثقافية ودينية... حال بلدنا والمخاطر التي تهدد إسلامنا... نفسر بعض الآيات القرآنية، ونتلو القرآن والأدعية، ونحفظها بعضنا من بعض... لم نضيع وقتنا بل نعمره بذكر الله، وأحياناً عندما تضيق بنا الأمور ونصاب بالإحباط نتناول مواضيع طريفة، مواقف مرت بنا منذ طفولتنا، أو صادفناها في مدارسنا لإضفاء جو من البهجة...

نصلي جماعة إذا أمّنا مكرهم، فنحن نخشى أن يدخلوا الصالة فجأة ويصيبنا أذاهم... كانوا يرتعبون منا عندما نصلي، وأما أبو جواد فيصيح عندما يمر بالصالة في أوقات الصلاة: "ها ولج فاطمة تصلين قضاء حاجة وتدعين عليّ"، فهو يعلم جيداً أنه مخطئ وقد اقترف جرماً بحقنا، لذلك لايتوقع سوى الدعاء عليه... قطع صغيرة من الورق المقوى صارت مواضع سجود جباهنا وسلّاميات أصابع أيدينا خرزات تسبيحنا... وحافظة ذهننا قرآننا وكتب أدعيتنا... وذكر الله أنيسنا في وحشتنا.

رغم قلة الإمكانيات المادية أو انعدامها في هذا المكان كنت أشعر بالفخر وأنا أنتمي إلى هذه الثلة الطيبة من النساء المؤمنات، فقد جمعتنا هذه الصالة كزهور ملونة أختيرت بدقة من كل عائلة زهرة أو زهرتين، ورغم اختلاف أعمارنا إلاأننا وجدنا قواسم للتفاهم والود والإحترام، فكانت الكبيرة منا تبدي احترامها للأصغر منها قائلة: أنت ذنوبك أقل مني، والصغرى تبدي احترامها للكبرى قائلة: إنك تدخرين من الحسنات أكثر مني لأنك سبقتني للإيمان... علاقات ودية وأخوية طيبة، فكما كنت أعتز بصديقاتي المحجبات في إعدادية المعالي شعرت بذات الشعور مع معتقلات أمن الثورة.

شهر محرم وانتمائنا لقضية أبي الإحرار

لشهر الحسين عليه السلام في تلك الدائرة المشؤومة واقع فريد، لن أبالغ إذا قلت إننا كل لحظة نستحضر سبايا الطف، نشم عبق الشهادة ومواقف الإباء في صمود المعارضين واستشهادهم تحت سياط الجلادين صبرا واحتسابا، نكاد نستشعر سياط الشمر اللئيمة يهوي بها على أطفال ونساء آل البيت، وحادي الركب يسوق الأسارى يمثل أمامنا كلما شن هؤلاء الأوباش حملة اعتقال لعوائل المعارضين...

في أوقات الهدوء النسبي والتي غالبا ماتكون أيام الجمع كنا نعقد مجلسا حسينيا خال من أي مستلزم العزاء الا قلوبا حرّى لمصيبة تجددت على يد يزيد العراق، العيون تذرف دمعا غزيرا سخيا يغسل ماجثى على القلب من هم وكرب رافقانا مذ ساقنا الجلّاد الى هذا المعتقل الرهيب... (يمه ذكريني من تمر زفة شباب... من العرس محروم حنتي دم المصاب... شمعة شبابي من يطفوها... حنتي دمي والجفن ذاري التراب) كانت رثاءا حيا لأخوة تزهق أرواحهم تباعا بوسائل القمع والترهيب البعثي، فنستذكر مواقف شباب الطف وبطولاتهم وحبهم للاستشهاد بين يدي سيد الشهداء.

(زينب ياغريبة... الله شمصيبه... وجهج يازينب وين... مذبوح أخوج حسين... والجثة سليبه... الله شمصيبه) كانت مصداقا لحالنا ونحن في قبضة هؤلاء الجلادين دون أن نعرف مصير أخوتنا المعذبين، نستحضر إباء سيدة العفاف بطلة كربلاء ومواقفها الفذة وقد تسلمت راية النهضة الحسينية بعد أخيها ولم تهن ولم تنكل عن مقارعة طاغوت زمانها ولم تكسرها النوائب، وإنما أرعبته في قصر إمارته وأحالت نصره المزعوم الى هزيمة نكراء ونكاد نسمع خطابها له عبر التاريخ: فكد كيدك واسع سعيك فوالله لن تمحو ذكرنا ولا تميت وحينا وهل أمرك الا فند وأيامك الا عدد، فيشتد عزمنا ويترسخ ثباتنا ونعاهد الله أن نبقى أوفياء لتلك النهضة المباركة، ونردد بيقين: كل يوم عاشوراء وكل أرض كربلاء... عبر قصيدة ياحسين بضمايرنا (صحنا بيك آمنا ياحسين بضمايرنا... لا صيحة عواطف هاي... لا دعوة ومجرد راي... هذي من مبادئنا صحنا بيك آمنا)، كنا جميعا قد حفظنا مقاطع منها على ظهر قلب وكملت إحدانا الأخرى لتغدوا نشيدا ملائكيا يتلو ترانيم سماوية ولتحلق أرواحنا بعيدا عن أجواء الرعب الصدامي في دهاليز أمن الثورة، عُدّت هذه القصيدة سمة للدعاة ولم يخلو بيتا من بيوتهم الا وقد حوى تسجيلا لها ولطالما رددوها في مجالسهم وأولوها اهتماما على غيرها، وكم منهم أعتقل فقط لأنهم وجدوا (كاسيت) تسجيل لهذه القصيدة في بيته أثناء هجماتهم التفتيشية الهمجية... نعم كانت تهمة جاهزة لمن وجدت في حوزته، لقد علم البعثيون أن هذه القصيدة ترسم سيناريو واضح لما يدور في العراق وما أعاده الطاغية من وجه قبيح ليزيد بني أمية بعد تلك القرون العديدة، هي تحكي للأجيال أن الحسين مخلد بأنصاره في كل مكان وزمان.

تذكرت ماتعودنا عليه في أيام الحزن كل عام منذ صغرنا، نستقبل شهر الحزن باهتمام كبير حيث صبغ الملابس بالسواد... تجتمع جاراتنا وأحيانا عماتي ويتعاونن على إتمام الصبغ استعدادا لأيام شهر محرم وصفر، تذكرت القدر الكبير وماءه الأسود المغلي ووالدتي تضع قطع الملابس تباعا فيه وتغمرهن بعصا غليظة تجنبا للحرارة، ثم تنشرها على الحبل وتردد: عليك يا أبا عبد الله حزننا

وليس على أي عزيز غيرك... ونحن نقفز ونلعب حولها على سطح الدار مما يسبب لها قلقا من إصابتنا بأذى أو حرق... وكم ضحكن وهن يجدن بعض قطع الملابس قد انكمشت بالحرارة وصغر حجمها وصارت تصلح للصغار وخاصة تلك التي من القطن الخالص.

رفع الأعلام والرايات على السطوح منذ ليلة شهر محرم لغاية نهاية شهر صفر وحلول (فرحة الزهراء) في شهر ربيع الأول الهجري... مظهرا واضحا من مظاهر شهري الحزن، رايات خضراء وسوداء ومنها الموشاة بكلمات وعبارات: ياحسين يامظلوم... يا أبا الفضل العباس... مع مجالس العزاء النسوية المكتظة بالحضور والتي تقام منذ أول محرم... مجالس فيها العِبرة والعَبرة والتكافل الاجتماعي حيث يحضر الجميع متساوين لتعزية الرسول وأهل بيته بمصابهم الجلل يجمعهم الحزن المتجدد كل عام، وعمتي فاطمة خادمة الحسين تقيم مجلسا في بيتنا لمدة عشرة أيام متتالية، تلك العلوية التي نذرت نفسها لمواساة الزهراء عليها السلام، على الرغم من أنها أمية وتحفظ عددا من المراثي الحسينية عن ظهر قلب، الا أن مجلسها كان مميزا حيث العبرة والدموع السخية وصوتها الحنين وخشوعها وهي تنعى شهداء الطف، كانت تَبكي وتُبكي الحضور، والنساء يتبركن بقطرات عرق جبينها بعد المجلس ويسألنها الدعاء لحل مشكلات يعانينها ويعقدن عقدة في خيوط كتاب قصائدها لنيل المراد، وهي تقول وهي تضرب الكتاب كمن يقسم به: "بجاه جدي رسول الله ومصاب ولده الحسين تقضى إن شاء الله"... وفعلا عاما بعد عام تتشبث بها النسوة ويعتقدن بكرامتها عند الله، وأنا طفلة كنت أرافقها في بعض أيام الجمعة وأنعم بالرعاية والاهتمام وجلوسي في صدر المجلس والجميع يرحب بي ويمنحني قبلات سخية كوني (بنت الملايه)، وفي اليوم المخصص لرثاء القاسم بن الحسن عليه السلام يمتلئ كيسي بالشموع والحلوى وبعض القطع النقدية التي ينذرنها لصينية القاسم، عمتي تفتخر بي أمامهن: "هاي العلويه بت أخويه الأولى على صفها وجتي تعاونني بخدمة الحسين وامه الزهره الزجية"، شجعتني عمتي أن أغدو خادمة للحسين مثلها، وربما احتاجتني لأقرأ لها قصائد جديدة غير التي حفظتها، وبالفعل كنا نمضي

وقتا جميلا في المساء بعد المجالس أقرأ لها أبياتا من شعر الرثاء الحسيني الشعبي، وهي تصوغ طورا لها وتصنع منها قصيدة جديدة، وتمطرني بكلمات الشكر وبعض القبلات الدافئة، وهي تمسح دمعات تتساقط على وجنتيها تأثرا بالكلمات وتقول: "عمت عيني عليك يابو السجاد".

استذكرنا تجمعات الإطعام الحسيني التي تنتشر في كل زقاق يسهر الناس ليلهم بإعدادها مجتمعين حول قدور كبيرة وقودها الحطب ورائحته الزكية تنتشر بالأجواء، عند الصباح يفطر أهل الحي بطبق "الهريسه" أو يتغدون بطبق " القيمه والتمن المهيل"...

ليلة العاشر من محرم كنا نقضيها كل عام في كربلاء، ونبيت فيها لنشهد يوم العاشر ومراسيم التطبير وقراءة المقتل وركضة طويريج، والتشابيه التي تجسد أحداث واقعة الطف في ساحات واسعة في المناطق السكنية ويأمها الناس صبيحة يوم عاشوراء، وهم يعيشون المأساة وكأنها واقع حاضر متفاعلين بالبكاء والدعاء ومتزودين من قيم الإباء والإيثار لأبطال ملحمة الطف.

ولما شددت سلطة البعث على الشعائر ومنعها صدام بعد أن غدى رئيسا للعراق، فقد الناس أجواءا روحية عاشوها بوئام وود وصفاء سريرة وهم يشعرون أنهم يوفوا بعضا من الفضل لرسول الله وأهل بيته بالمودة لقرباه...

وصار الرفاق البعثيين يضيقون الخناق على الناس ويتابعون حتى من يرتدي السواد ويرفع راية أعلى داره وتقاريرهم الصفراء ترفع تباعا لتثّبت تهما عليهم ويعتقلون، ومنعوا خادمات المنبر الحسيني من ممارسة هذه الشعيرة، الا أن عمتي استمرت ولم تخشاهم حتى بعد اعتقال عمي السيد حسن وأخي جمال، كانت تردد: "الزهره حاضره ويايه"... في حين تركت العديد من قريناتها حضور المجالس وصارت موحشة بسبب الرعب الذي أشاعه البعثيون، نعم لم يصل صدام الى طغيانه الأعمى هذا لولا هؤلاء المتنصلين عن إنسانيتهم والراضين بذل

استعباده وقد باعوا دينهم بدنياه الدنية... وتشظّت لحمة المجتمع وصار الشك والريبة معيار العلاقات الاجتماعية ووصل الأمر الى البيت الواحد فضلا عن العشيرة وفقدت الثقة بأقرب الناس... وتحولت مواسم عاشوراء الى حصاد بعثي لكل من تمسك بحب آل محمد عليهم السلام ورفض الانصياع لممنوعاتهم غير المنطقية، وهذا إن دل على شئ فهو يدل على أن صدام وزمرته عرفوا أنهم قد اصطفوا في جيش يزيد، وصار الكلام عنه يمسهم ويعّري شعاراتهم الزائفة تماما كما عرّت واقعة الطف الإنحطاط القيمي لدى بني أمية حين ناداهم الأمام الحسين عليه السلام: (وَيحكم يا شيعة آل أبي سفيان! إن لم يكن لكم دين، وكنتم لا تخافون المعاد، فكونوا أحرارا في دنياكم هذه، وارجعوا إلى أحسابكم إن كنتم عربا كما تزعمون)...

عمتي فاطمة ماتركت مجالس الحسين عليه السلام، حتى عندما مرضت بالسل الرئوي وتردت صحتها ومكثت مدة في مستشفى الأمراض السارية (التويثة) لم تتوانى عن إقامتها، نعم ذات يوم من أوائل أيام شهر محرم عام 1985إتصلت هاتفيا بعمتي الصغيرة من المستشفى تطلب منها أن تجلب لها كعكا وشايا وموقدا كهربائيا وأن لا تنسى كتب قصائدها الحسينية... أستغربت عمتي من طلبها وهي تعلم أنها مريضة لدرجة خطيرة، لكنها استجابت لطلبها وزارتها عصر نفس اليوم لتجدها بحالة جيدة ووجه نوراني معافى والبهجة تعلو وجهها وهي تساعد عددا من المريضات وهن يفرشن أرضية باحة داخلية للمستشفى بما متاح لديهن من فراش وأغطية ليهيأهن مجلسهن الحسيني ولتقرأ لهم عمتي خادمة المنبر العلوية المخلصة، ولما سألتها عمتي الصغرى، أجابتها: كنت نائمة وأنا أتحسر على مجالسي التي كنت أقيمها في كل عام مواساة للزهراء بمصاب ولدها، وإذا بي أرى في عالم الرؤيا إمرأة وقورة تتشح بالسواد ويشع منها النور توقظني من نومي وتربت على كتفي قائلة: "كومي علويه... يلله بالعجل اقري مجلسنا"...

تقول نهضت من نومي وأنا في أتم الصحة والنشاط وأتصلت بك حينها وشجعت الموجودات لتهيأة المكان ريثما تأتين... وأقيم المجلس على بساطته

وخشعت القلوب وبكت العيون وشاركت كل النساء في تلك المستشفى نزيلات وطبيبات وعاملات وزائرات... هذه عمتي التي ما بغت إلا مودة محمد وأهل بيته، وعشقت ولايتهم في كل الظروف.

حليمه فتاة آل المبرقع الوديعة

فتح باب المعتقل ذات يوم ونحن في نهاية شهر نيسان 1982 لتدخل فتاة ترتدي الجبة السوداء، وربطة بنية اللون تضع على عينها نظارة طبية، عند دخولها فتح الحارس القيود من يديها على عجل ثم أغلق الباب...

إنها حليمة نعمة يوسف الموسوي... فتاة جميلة المحيا في العشرين من عمرها... طالبة في السادس إعدادي، اعتقلوها من مدرستها إلى (أمن الرشاد) في منطقة المشتل شرق بغداد بعد أن استدعتها مديرة المدرسة البعثية، ظنت حليمة لحظتها أنها ستعود إلى بيتها يوم أخذوها من المدرسة ولم يسمحوا لها أن تأخذ عباءتها من أسفل مقعد الدراسة، بعد تحقيق أولي لم يقصروا فيه من السباب وكل بذئ من الكلام، ومن ثم ساقوها إلى أمن الثورة، هي لم تتوقع أن يطلقوا سراحها وأمها تنتمي إلى عائلة السيد المبرقع، وتم اعتقال أختها الكبرى كرامة نعمة يوسف، وأخاها محمد وعمها حميد والعديد من عائلة المبرقع، يوم خرجوا بتظاهرة في مدينة الثورة احتجاجاً على اعتقال الشهيد الصدر وبعد استشهاده تم اعتقالهم ليختفوا عن الوجود.

لم تنل تعذيباً قاسياً، فهم لم يجدوا لها أي تهمة يلصقونها بها، فاستخدموا معها التعذيب النفسي، لكنها كانت واعية لمخططاتهم تلك... حليمة... رقيقة هادئة أحبت حياة المعتقل رغم صعوبتها عبرت لي عن فرحها لأنها إلتقت بنا وفخرها لأنها معتقلة وينظر الناس لها أنها مجاهدة كأختها وأخيها، وأنها سترتاح من مضايقات البعثيين لهم ومتابعاتهم وزياراتهم القسرية!!... نعم أرّقها ماكانت تلاقيه أسرتها الثكلى منهم والرعب الذي ينشروه في نفوس أخواتها الصغيرات ووالديها وشعرت عند اعتقالها أنهم سيكفون عن مضايقة أهلها، وأنه الخلاص من كل مضايقات البعثيين لعائلتها بالزيارات القسرية واستمارات المعلومات المتواصلة، أيدتُها بمشاعرها تلك، عبرّت عمّا عانينا بعد اعتقال أخي جمال منهم ومن ترددهم علينا، حيث أرعبنا حتى رنين الهاتف الأرضي، فهم موجودون في كل محيطنا يراقبون تحركاتنا ويعدّون أنفاسنا...

وجدت في حليمه عبق أهلي ربما لأني عرفت أنها من منطقة سكناي في (المشتل)، حلمنا معاً بأننا سنخرج من المعتقل ونقيم علاقات عائلية ونذهب لزيارة المراقد الشريفة معاً... سألتها عن المنطقة وهل تغيرت طيلة الست شهور التي غبتها عنها وكانت تسهب لي في وصف الأزقة وأتخيلها والشوق يأخذني لأهلي وبيتنا الدافئ، لكتبي ودوامي في كلية العلوم، لزميلاتي ومنهم ذكرى رفيقتي في العودة كل يوم كنا نخطط أن يجمعنا خط نقل كي أخفف عن والدي عبأ إيصالي صباح كل يوم الى مدينة الأعظمية البعيدة عن بيتنا وعن طريق عمله جنوب بغداد...

صداقات المعتقل رغم نقائها غير أنها مهددة بخطر الفراق فما ندري ماالذي ينتظرنا، كل منّا تنتظر مصيراً مجهولاً... فتح باب القاعة يؤرقنا إذا كان خارج أوقات الطعام أو الحمام، الحراس يتعمدون تحريك القيود التي ربطوا بها مقبضي الباب الخشبية، ليحدثوا تلك الضجة المزعجة والمؤلمة لنا... ترعبنا... تفزعنا... تشعرنا بعدم الأمان دوماً، فكم مرة فتحت هذه الباب لأخذ إحدى المعتقلات لإعادة التحقيق معها... والأمرّ من هذا عندما تفتح الباب ويعيدوا هذه

المعتقلة، وقد نالها مانالها من التعذيب، مشاعر مؤلمة مزيج من الأسى والقلق ووجع في القلب، من أسئلة شتى تلح عليّ: ماذنبها؟ ماجرمها؟ بأي حقٍ يتجرأون عليها؟ أسئلة عديدة لاجواب لها أبداً إلا قساوة قلوبهم وموت إنسانيتهم وطاعتهم العمياء لأسيادهم الطغاة، جعلتهم صماً بكماً عمياً فهم لايفقهون...

شهر الرحمة والغفران بين جدران العذاب

في آواخر شهر حزيران عام 1982حلّ علينا شهر رمضان المبارك، ونحن خلف جدران هذا المعتقل الرهيب، زادنا الخوف وقوت يومنا الألم، والصراخ الصادر من غرفة التعذيب ما انفك يؤرقنا...

لم يصعب علينا الصيام، فقد اعتدنا عليه منذ الأيام الأولى للاعتقال، فهو يعزز روحيتنا، ويخفف عنا متاعب هذه الدوامة التي نعيشها... يجعلنا نشعر بالقرب من الله سبحانه أكثر... الصوم يقوي إرادتنا التي يسعون لكسرها... نسمو فوق الالآم ونستشعر نفحات الرحمة في ذلك المكان الموحش.

في تلك الصالة توجد خزانة معدنية صغيرة أسفل الجدار مخصصة للأسلاك الكهربائية (ميزانية) ولها باب سهل الفتح... فتحتهُ باسمة الكبيرة فوجدت بعض أوراق من مفاتيح الجنان، وأذكر أنها من دعاء السحر للصحابي أبي حمزة الثمالي (رض)... فرحنا كثيراً وكنا نقرأها يومياً بعد الصلاة أحيانا بصمت وأخرى بأطوار جميلة بملكة وهبها الله لبعض الأخوات وتنساب الدموع خشوعا لله... تذاكرنا أعمال ليالي رمضان، فكل منا تعلم الأخريات ماتعرفه من أعماله ودعواته... ودعونا بدعاء الإفتتاح بما تحفظ الذاكرة منه تذّكر إحدانا الأخرى.

بعض الحراس كان يجيبنا عندما نسأله عن موعد الصلاة، أو تأريخ اليوم ويتعاطف معنا وبعضهم كان يرفض الإجابة، بل يأخذه الزهو والاعتزاز الأجوف

بنفسه أنه مصدر معلومات لأناس يفوقونه في كل شيء، لذلك يمتنع وكأنه يريد منا التوسل إليه... نعم هم شراذم المجتمع وحثالاته، قد غرّتهم الدنيا يوم أصبحوا أعواناً لذلك الطاغية وحزبه الجائر... هم يعيشون إزدواجية غريبة إنهم في المجتمع من أراذل الناس ويخفون وظيفتهم هذه وقد لايعلم حتى أهليهم بحقيقة عملهم أو مكانه... وفي هذه الدائرة يجدون أنفسهم أسياداً على أشراف العراقيين وبيدهم مقاليد الأمور، ولكن في غفلة من هذه العنجهيه تجدهم يذهلون لسماعهم تحصيل علمي لأحد المعتقلين، أو المعتقلات ويلجأون إلى معتقل طبيب أو صيدلاني وما أكثرهم ليصف لهم أو لأولادهم دواء...

في رمضان لم يتغير جدول الطعام، وبقي ثلاث وجبات، لكننا ندخر مانريده منه إلى الفطور أو السحور... وحاولنا قدر إمكاننا تجنب أكل اللحم والدجاج ظنا منا بعدم حلّيته وهم يغضبون إن علموا، فهم يقمعون لنا كل رأي ويريدون التحكم في كل شؤوننا.

وبعد يوم مضنٍ نقضيه بالتسبيح والصلاة والدعاء دون أي كتاب أو قرآن سوى ذاكرتنا وتلك الوريقات... يحل موعد الغروب وقت الإفطار... ننظر من الشباك المطل على الحديقة الواسعة وننظرإلى الحمرة المشرقية وهي تختفي من الأفق لنتناول إفطارنا الذي يفتقر لأي سوائل دافئة، لاحساء ولا ماء دافئ ولا شاي، وفي أحسن الأحوال يوزعون التمر مع الوجبات فندخره للإفطار... طعام بارد قد تجمد الدهن عليه، والخبز أوشك على الجفاف... لكننا كنا نأكل ونشكر الله على نعمه، إذ وُفِقنا لأداء فريضة الصيام، وحفظنا من أياديهم الدنيئة.

وقت الإفطار غير مستثنى من حفلات التعذيب، فهم يتعمدون إشاعة الخوف والقلق بين صفوف المعتقلين، وفي أحيان كثيرة يشتاقون إلى ممارسة هوايتهم في التعذيب ورؤية الدماء، فيرسلون إلى أي معتقل لا على التعيين ليعيدوا معه التحقيق، أو يوهمونه بأن ما زالت لديه متعلقات وأسرار لم يبح بها...

صاروا يتحكمون بأوقات نومنا وطعامنا... وكانت من أسعد الساعات عندما

يخلو المبنى من الجلادين أبو جواد وفراس، حيث تعم السكينة والهدوء النسبيين، وننعم ببعض النوم الهادئ، ولا تصل أسماعنا سياطهم وهي تنهال على الأجساد، أو صرير تلك المنضدة الخشبية العتيقة المتزامن مع صراخ المعتقلين عندما تسحب من تحت أقدامهم وهم معلقون في سقف غرفة التعذيب...

ساعات السحر... من أفضل الأوقات لديهم في إجراء التحقيقات وسهرات التعذيب... ومن أخلص ساعات العبادة عندنا، حيث نتوجه إلى الله تعالى بكل جوارحنا، مبتهلين له سبحانه أن يذيقنا حلاوة الفرج والخلاص من هذا الضيم المقيم بكل ما فيه... آلمنا كثيراً عدم معرفة موعد ليلة القدر، أحيينا عدة ليال على أنها ليلة القدر، وسألنا الله القبول...

وبعد الإفطار كنا نجلس ونتذكر أهالينا، وموائد الإفطار العامرة، وزياراتنا مع أقاربنا وساعات السحر، وزياراتنا إلى المراقد الشريفة في تلك الليالي الكريمة... كانت الأحاديث ذات شجون، فمنها مايفرحنا وينسينا ذلك الواقع الأليم، ومنها مايجعلنا نبكي شوقاً وحنيناً إلى أحضان أهلينا الدافئة، لكننا عندما نصل إلى مرحلة البكاء نوصي بعضنا البعض أن لانجزع فأجرنا عند الله هو العليم بحالنا، ما كنا في هذا المكان لولا أننا سرنا في طريقه، ورفضنا إرادة الطاغية...

تذاكرنا حضورنا مع عوائلنا إلى محاضرات الشيخ الدكتور أحمد الوائلي، في جامع الهاشمي في مدينة الكاظمية المقدسة، والغريب أن جل الأخوات كن يحضرنها إذ كانت محورا لكل ذي لب ودين، وكانت تقدم كل يوم بعد المغرب في ليل شهر رمضان، وتأتي جموع المؤمنين من كل أرجاء مدينة بغداد الشاسعة، وهم متلهفون لسماعه حيث تمتلئ أروقة الجامع، وتنتشر تلك الوفود لتفترش الشارع العام والأزقة المحيطة به، أما نحن فكنا نسمعها جلوسا في سيارتنا التي يركنها أخي جمال حيثما تمكن من القرب من المسجد، ويتركنا ليلتحق بالرجال، وأينما وجد متسعا يجلس، كانت محاضرات مميزة راقية رائعة تزيل أي خرافة

عن الدين المحمدي الأصيل، وتخاطب العقل والوجدان بتناغم يّزود السامعين بروحانية عالية، فهو يبدأ بآيات كريمة وينتهي بأبيات شعر ونعي للإمام الحسين عليه السلام...

زادنا الصيام ثباتا ويقينا وعلت الوجوه سمات البهاء وكنت أرقب وجوه المعتقلات فأجدها تشع نوراً إيمانياً، وسيماء الصالحين ترتسم على محياهن رغم ثيابهن الرثة، كن كالأميرات أو حور العين... فما ذنبهن يقضين تلك الشهور الطوال بعيداً عن أبسط مقومات الحياة، وتحت عذابات أعتى الجلادين... هون علينا ذلك أنه في عين الله.

ثبتنا الله وخاب سعيهم...

إنه صراع الحق مع الباطل منذ الخليقة وليومنا هذا، لم ولن تلتقي الفضيلة مع الرذيلة وشتان بينهما، كنا قد أكملنا جميعنا التحقيق، وشعرنا بنوع من الإطمئنان أن لاعودة إلى تلك الغرفة المرعبة غرفة التعذيب، لكنهم لم يتوقفوا عن مآربهم... أستدعى أبو جواد إحدى معتقلات قضية الزعفرانية (...) وطلب منها أن تتعاون معه ضدنا، لكنها رفضت أن تكون جاسوسة علينا، وحاولت إقناعه بأن كل مالدى المعتقلات قد قلنه ولم يبق من الأسرار مالايعرفونه... غير أنه أصر عليها مرغبّاً إياها بأنه سيخرجها من المعتقل لتعود إلى مدرستها وحياتها العادية ككل البنات...

صراعاً مريراً عاشته تلك الفتاة المؤمنة، فكانت تذهب إليه مرتجفة خائفة وتعود باكية حيرى ولا تحدثنا عندما نسألها... لكنها في لحظة إنتصار على الشيطان وإغراءاته باحت لنا بما طلب منها وقررت قائلة: أموت ولا أشي بكم فأنتن أخواتي... بكينا إشفاقاً عليها واعتزازاً بموقفها هذا، كما دعونا الله دعاءاً جماعياً في أن يحل هذه المشكلة الصعبة، واستمر الجلاد باستدعائها والضغط

عليها ووعدها وعودا مغرية قاسما بأغلظ الأيمان ولم تذعن له فضربها وصعقها بالكهرباء مهددا إياها بكل مايملك من بذاءة، لكن صمودها وقوتها خيبته وخسر الرهان.

عند السحر رحيل دون وداع

أراد أبو جواد أن ينهي ملف قضية الزعفرانية التي طال وتوسع، وقد غصّ المبنى بالرجال والنساء والأطفال، كلهم معتقلون بتهمة قضية (آل آلوس)...

ذات ليلة ونحن قد أكملنا للتو طعام السحور، وبانتظار آذان الفجر، فمنا من تصلي صلاة الليل، ومنا من تسبح ذاكرة الله، وأخريات يقرأن بعض ماحفظن من القرآن، وإذا بالباب يفتح على حين غفلة، وتوقدت مصابيح الغرفة.

ارتعبنا ودبت حركة سريعة في الصالة على الفور، ارتدت المعتقلات عباءاتهن، ونهضت من كانت مستلقية وبأسرع مايمكن... خيمت بعضنا لبعض بالعباءة ريثما ترتدي الحجاب... ساجده كانت قرب الباب حيث سطل الماء تدعك أسنانها بنصف حبة من الاسبرين فهي تعاني من نزف اللثة كأغلبنا، ركضت الى حيث ربطتها والدواء مازال في فمها دون أن تتمكن من شطفه بالماء...

مداهمة غير متوقعة... القلوب ترتجف، وانعقدت الألسن، وجف الريق، والعيون حيرى، مالذي يريده هذا الوحش في هذا الليل البهيم؟! كان واقفاً وهو يقاوم النعاس وعيناه الجاحظتين بالكاد تفتحان، وبرفقته إثنان من الحراس وجوههم خلت من أي تعابير، فصاح مزمجراً: "وينجن بنات الزعفرانية؟" وأخذ يعدّهُن واحدة تلو الأخرى: حياة، بشرى، نورية، سميرة، هناء، ساجدة، ايمان، أمينة، كريمة، أمل... وهن يقفن إلى جهة من جهات الصالة وسط ذهول

ودهشة... إلى أين يأخذونهن في هذا الساعة؟ وبسرعة انتهى المشهد، وأوصدت الباب فسمعنا وقع أقدامهن المتعثرة وهي تغادر الممر وضجيج أحذية الحراس يسوقوهن وهم يسحبون أقسام اسلحتهم تأهبا، تلاشت الأصوات باتجاه كراج المبنى، بعد لحظات قليلة سمعنا أصوات الأبواب تغلق بقوة، وتنطلق السيارات خارجة بسرعة جنونية محدثة صوتاً عالياً كأنه زئير الأسد، ورائحة الإطارات ملأت المكان نتيجة احتكاكها الشديد ببلاط الكراج، هاهم قد أخذوهن جميعاً ولكن إلى أين؟

اعتقدنا حولوهن إلى دائرة أخرى من دوائر الأمن كالأمن العامة، أو أمن بغداد، ولكن الحقيقة غير ذلك... فقد تم دفنهن في مقبرة ما من المقابر الجماعية، ولم نتيقن ذلك إلا بعد سقوط الصنم... نعم حينها تذكرت عندما عادت يومها بتول من المرحاض وعيناها الزرقاوتان جاحظتان فزعاً، وهي تحمل عباءة ملوثة بالتراب قد أعطاها إياها الحارس رحيم، فقالت مرتجفةً: رأيته حاملاً لهذه العباءة وهو وبقية الحراس ينزلون أدوات حفر (كرك ومعول)، فرمى العباءة في وجهي قائلاً: "هاج هاي الج"... فسألته: "وين وديتو البنات؟؟!" فأجاب ضاحكاً: "الله يرحمهن ويرحمج وياهن"...

تجمدت أوصالها وصعقت من جوابه، فمن غير المعقول أن يكون مازحاً، كما أنها رأت بأم عينيها تلك المعاول، وعباءات أخرى ملفوفة ومرمية تحت السلالم... عندما حدثتنا سخرنا منها ولم نصدقها، فما الذي فعلته الفتيات حتى يدفنونهن؟! ظننا أنهم بشر ولن يجرؤ على هذا الجرم، ورددنا عليها القول إنك تهولين الأمور، بل إنك تتخيلين ذلك... ارحمينا... لسنا بحاجة إلى قلق أكثر مما نحن فيه...

مظلومة غيبوها وضاع أثرها ولم يسلموها لأهل امها نصره، أولاد حياة منى وعمار وياسر أخذوهم الى منطقة سكناهم في الزعفرانية ورموهم على كومة أزبال وهم يتصارخون مرعوبين، الناس لا تجرؤ من التقرب اليهم بعد أن شاهدوا أزلام البعث المسلحين وهم يرمونهم بهكذا وضع مؤلم وبتحد وصلافة

دون خوف من الله ولا من عباده... لكننا لم نطمئن ولم نتساهن بالدعاء، وشعرنا بفراغ كبير لغيابهن... ولم ندرِ أنهن ما أتممن صيامهن، بل ارتفعت أرواحهن إلى بارئها، تشكو ظلم الظالمين... كانت وجبة السحور الشحيحة تلك آخر زاد لهن من الدنيا... قتلوهن وهن صائمات فيالها من ميتة تتوق لها ملائكة السماء.

لم نكن نتصور إجرامهم يصل إلى حد هذه الوحشية، ولم ندر أنهن قد دفن في مقبرة جماعية، وربما وهن أحياء، فلقد كنا نسأل عنهن بعد أن حكم علينا وأودعونا إلى سجن الرشاد، ولم يراهن أحد من السجينات ولم نعرف مصيرهن إلا بعد سقوط الصنم...

إنه من نعم الله علينا عدم علمنا ومعرفتنا بجرائمهم هذه، ولو حدثونا أو أطلعونا على كل من قتلوه، أو مات في التعذيب لكان من المؤكد أن نصاب بالجنون، فالعقل لايستوعب مايحدث في دائرة أمن الثورة، لا الوحوش ولا الكواسر نهشت لحم أبناء فصيلتها مثل مافعل جلادو هذه الدائرة، بقينا يومياً نتذكر هؤلاء الفتيات المؤمنات، وكل منهن قصة لعائلة عراقية التاعت واكتوت بنيران البعث الجائر، وفي أحيان اثنان من عائلة واحدة، فيا لله وصبر الأمهات الثكالى أعانهن الله على تحمل هذه المحنة؟!.

تأملنا كثيرا أنهن قد ذهبن إلى المحكمة، ومن المحتمل أنهن حكمن بالسجن، وربما تم إطلاق سراح بعضهن، فلم يقمن بجرم فادح، ولم يسرقن أو يقتلن، كن حمامات بيضاء أردن نشر الفضيلة والإيمان في وطنهن، ومددن يد العون للمحتاجين ممن هدم بيوتهم الطاغية وأزلامه بأعتقال المعيل أو إعدامه، لقد قطع صدام أواصر الإلفه والمحبة بين مكونات الشعب، وزرع الشك والريبة حتى بين الأخ وأخيه والزوج وزوجه، ولم يتوانى عن كل كبيرة لإدخال الرعب ولترويع الناس، لكن ذلك لم يحد من نشاط المعارضين، ورجال الأمن أنفسهم مذهولون من الأعداد الكبيرة والكوادر العلمية الكفوءة التي تعتقل تباعاً على أنها تنظيمات لحزب الدعوة، ذلك الحزب الذي أرق الجلادين، وجعل أبو جواد

يهذي قائلاً: "شلون بيكم حزب الدعوة نحصد بيكم وتنبعون من الگاع مثل الثيل"

نعم سار الشباب بهذا الطريق غير آبهين بكل القمع والترهيب، رافضين مارامه البعث وأراده لعراقهم، فالوعي الديني والسياسي كان على أوجه في الثمانينات، فلا إعدام الدعاة أوقف هذه العجلة الدوارة الكبيرة، ولا أساليب التعذيب الوحشية حطمت عزم المعارضين رجالاً ونساءاً شيوخاً وأطفالاً، وبذلك لم يكن أمام الطاغية سوى القتل عبر المقابر الجماعية لكل هؤلاء، فالمشانق لم تعد تكفي، ولا جلادوه يسعهم تنفيذ الموت شنقاً بهذا العدد الكبير...

مضت أيام رمضان تباعاً طويناها بصبرنا وإيماننا، متأسين بأهل البيت عليهم السلام، وسيما سيد العابدين راهب آل محمد الإمام موسى الكاظم (عليه السلام)، فقد شعرنا بالإنتماء لقضيته مع الفارق الكبير بيننا... نعم شحذنا هممنا، وتغلبنا على مصاعب هذه المحنة باقتدائنا به، ولم نكن نتنظر سوى الموت على أيدي هؤلاء... وكلما مرت الشهورلم تبق أي بارقةٍ لأمل في العودة إلى عوائلنا، بل إن الكثير من المعتقلات لم تتمنَ العودة إلى بيتها حيث الملاحقات والزيارات القسرية التي عاشتها قبل الاعتقال...

ها هم يقتلون الأمل في الحياة ماداموا هم فيها، ويئدون الأحلام حتى قبل أن تولد، فقد سعوا دائبين على قمع كل معارض وإن عارضهم بالضمير...

جدول أعمال المحكمة ـــــــ م

• أشاره الى أمر الاحاله المرقم ٢٣/٢/١٠٤٢ في ٧/٨/١٩٨٢
حسمت محكمتنا القضيه المرقمه ٣٣/١٩٨٢أ من ذي قار في الدعوى المرقمه ١٦١٢/ج/٩٨٢ والخاصه بالمتهمين كل من شويع عبد ياسر وجماعته وقـررت مايلـي :ــ

أ• الحكم على كل من شويع عبد ياسر وعلي جابر تميم ونجيب عبد الحسن جياد وكامل ديوان عباس وحسن عجيمي سعيد ى بالحبس لمدة سبع سنوات وفق الماده ٢/٢٠٠ ـــــ ٤٩و٥٠و٥٣

من ق•ع على أن تحسب موقوفيتهم ومصادرة أموالهم المنقوله وغير المنقوله •

ب• الحكم على رسن شعيث حسين بالسجن لمدة عشر سنوات وفق الماده ٢٩/٢/أ أسلحه على أن تحسب موقوفيته ومصادرة البندقيه وملحقاتها المضبوطه والايصاء بأرسالهـــــا

ج • الحكم على كريم محمد وجبر بالحبس لمدة خمس سنوات وفق الماده ٣٤٧ من ق•ع على أن تحسب موقوفيتـــه ••

د • لانعدام القصد الجنائي لدى المتهم هاشم شمخي جابر قررت المحكمه الغاء التهمه والافراج عنه وفق الماده ١٨٢ من الاصول •

٢•أشاره الى أمر الاحاله ... ١٢٤٢/٣ في ٢٣/٩/١٩٨٢ •
وحسمت محكمتنا القضيه المرقمه ... /١٩٨٢أ من بغداد س٥٢ في الدعوى المرقمه ١٨٤٨/ج/٩٨٢ والخاصه بالمتهمين كل من عبد الرسول مهدى أسعد وفالح مهدى صالح وكريم صالح علي وناجي ... جبر وعلي راشد ... حسين محمد ... محي الدين عبد الوهاب ومحمد جاسم ... حسن موزان وجنان حسين محمد ... عبد ... طاه مهدى وهديه سعيد محمد ... وسلطان داود سلمان وعلي أبراهيم عيسى ونايف ... جلاب ووليد جاسم جلوب وجبار كاظم محمد وفاضل طاه مجيد وعلي محمود ... وعباس جابر محمد ومحمد آلوس حسوني وسعيده جاسم علي وآلوس حسوني سلطان وعلوان زغير طاهر وكاظم آلوس حسوني وطه آلوس حسوني وعلي آلوس حسوني وعارف حسين محسن وعلي حسين محمد وأمل فارس ثنوان وحياة آلوس حسوني وأحمد هادى فاضل وناصر ناجي جاسم ومهدى كباشي محمود وبشرى كاظم حسن وساجده ظاهر رجاب وأيمان مهدى خلاطي وهناء عذاب ديوان وسمير عبد الرضا حسن وحياة كاظم حسن ونوريه نداسمير وكريمه حنش راضي ومحمد نعمه يوسف وحميد حسن شمس وأمل عبد الله جبر وحليمه نعمه يوسف وأميه غزاى عمران ومحمود علي عباس وأديب عبد الجليل جبر ونعمه عبد خلف وقررت الحكم عليهم بالاعدام شنقاً حتى الموت وفق الماده ١٥٦ و٤٩ و٥٠ و٥٣ من ق•ع ومصادرة أموالهم المنقوله وغير المنقوله

راجين التفضل بالاطلاع مع التقديـــر •••

موقع/عواد حمد البنـــدر
رئيس محكمـــة الثــــورة

((يتصبح لطفـاً))

وحلّ العيد...

بعد رمضان إحترنا في موعد العيد، فنحن لانثق بتوقيت العيد الذي تعلنه وسائل الإعلام آنذاك، وغالبا ماكنا نصوم إكمالاً لعدة شهر رمضان عندما لايردنا من النجف إعلان، وبذلك صمنا ولم نفطر عندما قال أحد الحراس إنه عيد!!

وفي صبيحة اليوم التالي جاء العيد الذي لايشبه أي عيد، فلم يكن يخطرعلى بالنا يوماً أن العيد سيحل علينا ونحن هنا في أمن الثورة موطن العذاب والألم والترويع والترهيب...

عــيــدٌ بــأيــة حــالٍ عــدت يــاعــيــدُ

بــمــا مــضــى أم بــأمــر فــيــك تــجــديــدُ

أمــا الأحــبــة فــالــبــيــداء دونــهــم

فــلــيــت دونــك دونــنــا بــيــداً دونــهــا بــيــدُ

مر عليّ أول عيد فطر، وأنا في دائرة أمن الثورة... مشاعر غريبة إكتنفتني بين فراقي أهلي وأحبتي وتواجدي مع شركاء في محنتي من هؤلاء النسوة اللواتي كن يتوافدن تباعاً عبرالإعتقالات الهمجية الكبيرة التي لم تستثنِ أي بيت من البيوت المعارضة لصدام وحزبه.

عيد خالٍ من أي مظاهر البهجة... لا ثياب جديدة، ولا أطعمة مميزة، ولاحتى غسل استعدادا له... سوى أنه قد حرّم علينا الصيام الذي واظبنا عليه.

العيد نكأ كل جراحنا وأدماها من جديد، فها نحن نتذاكر أهالينا وصديقاتنا وجيراننا، كنا نتذاكر أدق التفاصيل، واشتقنا لكل من فارقناهم، حتى من لم تكن لنا صلة وثيقة به، زميلة في المدرسة، جار لصيق أو بعيد، قريب قد لانزوره إلا بالعمر مرة، بل حتى صاحب دكان في حينا... كنا نحاول الخروج من قوقعة الحزن، ونحاول إيناس بعضنا البعض بأفتعال ضحكات من هنا وهناك وتذاكر نوادر قد حدثت لنا أو سمعناها...

عالم المعتقل عالم غريب في لحظة واحدة تدخل فيه وتجد أن كل ماسبقه عالم منفصل عنه في كل شيء... تتغير فيه كل سمات الحياة، بل إن كل نظام حياتك يتبرمج وفق تعليمات الدائرة التي ساقك ظلم البعث بأن تكون رهينها وفي قبضة القائمين على إدارتها مهما كانوا ومم انحدروا، ومهما كابرت هم سادة

الموقف... لايترددون لحظة في فعل أي شيء لقهر السجناء، وإضطهادهم بغياب أي حديث عن حقوق السجناء والدفاع عنهم، بل بغياب أي مفهوم عن حقوق الإنسان في بلد الحضارات، ولِمَ لاتغيب وقد حكمها هؤلاء الأجلاف عصابة البعث الجائر، فأنى لنا أن نجد طعما للعيد!!

العيد هنا ليس كعيدنا ونحن صغار، حيث يصحبنا والدي ليلته إلى السوق ليشتري لنا ما نحب ونطلب بدلال... وأتذكر مرة عندما إصطحبنا إلى محل أحذية، وأختار أخي جلال زوجاً منها وساعده البائع في انتعاله ولم يتح له ذلك تسرعا منه بل صاح فرحا: "زين كلش زين"... فوضعه البائع في العلبة وأعطاه إياه فتلقفه أخي بسعادة... وصباح العيد لم يستطع لبسه لصغر حجمه، فهو لم يكن بالمقاس المطلوب حيث اشتراه لإعجابه وسروره به، مما اضطر أن يعيّد بحذائه القديم، فالمحلات مقفلة أول أيام العيد...

وتذكرت جولتنا في السوق مع أبي ونحن نختار حقيبة العيد الملونة، وشرائط الشعر، وسوار من هناك وخاتم من هناك ومنديلاً منقوشاً بزهور وفراشات ونظارات شمسية صغيرة وأشياء جميلة أخرى.

نترقب شروق شمس العيد، ونتشوق لارتداء ملابسنا الجديدة متسابقين لإلقاء تحية العيد على الوالدين مقبلين أيديهما... كنا نخجل من أبينا حين نتدافع للثم يديه... أقول لأخي جمال أنت الكبير إبدأ أولاً بمعايدته، وهو يقول بل أنت لأن البنات أولا، وهكذا يراقبنا أبونا باسماً وضاحكاً: "الما يعايدني زين ما انطيه عيدية"... تنكسر حواجز الخجل بهذا التحفيز السخي، والكل يسرع لمعايدته بقبلة على يده الكريمة تقابلها منه قبلات ملؤها الحنان الموشح بالسرور، ومثلها لأمي التي عودتنا في يوم العيد أن تستيقظ قبلنا لنجد الفطور قد تهيأ، ورائحة الشاي تملأ الدار، وطبق (الكليجة) والحلويات يتصدران المائدة، وهي قد ارتدت دشداشة جديدة فنفرح معا لأنها ليست متعبة مثل كل يوم بالعمل وإدارة شؤون البيت.

تذكرت يوم صفت الصفوف وأخي جمال يصلي بنا صلاة العيد جماعة، جمال هوالإمام وبعده أمي وعمتي وأختي، أما أنا فتركت الصف كي أكل الحلوى وأنا مرتدية إزار الصلاة، وعندما افتقدني جمال صاح بي ملاطفاً: "الأكل ماطاير الصلاة أهم"... ضحكوا جميعاً ملتمسين العذر لي، فقد كنت أصوم لأول مرة شهر رمضان كاملا، وفرحة جداً بانتهاء شهر الصيام وساعات نهاره الطويلة.

تذكرت العيديات السخية التي يغدقها والدي علينا، وأضعها في حقيبة العيد الصغيرة الملونة ومعها (الكليجة) و (الجكليت)... كم كانت تفرحني خرخشة النقود، وهي تحتل حقيبتي الصغيرة الملونة، وتتضاءل نقودي بنهاية أيام العيد تاركة فرحة في نفسي، فقد اشتريت كل ما أردت وأحببت، وركبت فيها (المرجوحة)و (دولاب الهواء)، بل أكرمت صديقاتي بقدح عصير، أو إصبع (بوظة) على حسابي.

أخذتني الذاكرة إلى اليوم الذي سرق أحدهم حقيبة يد أختي الكبرى في أول يوم العيد، ونحن عند المراجيح، وصحنا سوية بصوت واحد: "حرامي... حرامي" فأمسكوا به وأعادوها لنا...

أحببت العيد وأنا أعايد عمتي فاطمة التي تسكن معنا مذ كنا صغارا، وهي توقد الفحم في (المنقلة) ترجو منها الدفء لغرفتها و (تخدّر) الشاي بنكهة الفحم المتميزة، ناثرة عليها بعض (الحرمل الممزوج بالملح الخشن)... هذه الحبات التي تعتقد أن فرقعتها وانفجارها بفعل النار يعني ذهاب عيون الحاسدين عنا، وتطلب مني الإقتراب من دخانها بكل محبة وحنان، وأجعله يمر على وجهي لكي يذهب الحسد عني... وللبخور خصوصية لديها في صباح العيد، رغم أن دخانه ورائحته النفاثة تزعج بعضنا، لكنها أجواء مميزة، وتقاليد موروثة باتت جزءاً من طقوس العيد.

في هذا العيد حاولت أن أتذكر دعاء الصلاة (اللهم أهل الكبرياء والعظمة

وأهل الجود والجبروت وأهل العفو والرحمة وأهل التقوى والمغفرة اسألك بحق هذا اليوم الذي جعلته للمسلمين عيداً ولمحمد صلى الله عليه وآله ذخراً وشرفاً وكرامةً ومزيداً أن تصلي على محمد وآل محمد وأن تدخلني في كل خير أدخلت فيه محمداً وآل محمد وأن تخرجني من كل سوء أخرجت منه محمداً وآل محمد صلواتك عليه وعليهم، اللهم إني أسألك خير ما سألك عبادك الصالحون، وأعوذ بك من شر ما استعاذ منه عبادك الصالحون)، وتذاكرنا سورتي الشمس والأعلى، وأقمنا الصلاة بعدها، تعايدنا وتمنينا زوال صدام وأزلامه من الوجود، وليس من العراق فحسب.

تندرت إحداهن مازحة: "أكلنا جكليت وكليجة وماكنتوش لعدة سنين كافي بعد لازم نغيرونذوق أشياء جديدة" تقصد طعام هذه دائرة الفاقد لكل مواصفات الطعام...

العيد هنا بين أخوات تجمعنا معهم صلة الرفض للبعث وقمعه لنا بمصادرة حرياتنا، إنه عيد الأحرار من فكر البعث الهدّام، حيث نعيش أجواء روحية عالية، ونشعر أننا قريبات من الله سبحانه وتعالى، فهو معنا ولن يخذلنا مادمنا في سبيله، إنه عيدنا ونحن اللواتي لم نذعن لوعود ووعيد هؤلاء المجرمين، في هذا العيد شعرت كل منا أنها شامخة كالجبال حين تصاغر جلادها وتضاءل ليصبح قزماً حقيراً أمام ثباتها ورسوخ إيمانها... نعم هوعيد لأمرأة قوية الإرادة وإن كانت جراحها تنزف... وكما ورد في الأثر: ليس العيد لمن لبس الجديد، وإنما العيد لمن فاز بالوعيد... وكل يوم لا يعصى الله فيه فهو عيد...

محنة عوائل المعارضين

فتحت باب القاعة بوحشية أكثر من كل مرة، فإذا بالمجرم أبو جواد أمامنا ومعه ثلاثة حراس رحيم ومحمد الأسود وأبو صباح، وأدخلوا على عجل عائلة

وأطفال عائلة المجاهد حسن سعيد من ديالى الخالص منطقة الحويش، وهي عائلة عبد الأمير (أموري) الصغير أمه (فطومه)، وأختاه هدى وندى طفلتان صغيرتان ثلاث سنوات، وأربع سنوات... وياسر سنة ونصف... وجابر ستة أو سبعة أعوام، غير أنه طفل مصاب بنقص النمو، أو لين العظام محمول في بطانية مطوي الجسد كأنه جنين في رحم أمه**!!** معهم عمتهم هدية سعيد وابنتها جنان الفتاة الصغيرة ابنة الخمسة عشر ربيعاً.

وكذلك جلبوا عائلة آلوس الحاجة زوجة الحاج آلوس وابنتها حياة بنت الخامسة عشر ربيعاً وزوجة ولدها أمل ثنوان وأطفالها الصغار... منى أربع سنوات... وعمار ثلاث سنوات... وياسر سنة ونصف، ومازالت ترضعه أمه...

والمرأة الريفية الشجاعة نصرة عبدكه زوجة ذلك المجاهد البطل تحمل بين ذراعيها طفلتها الصغيرة والتي كانت حاملاً بها عند اعتقالها ولدتها في معتقل أمن الثورة وأسمتها مظلومة...

وهاهي قد كبرت وأصبح عمرها أربعة أشهر تقريباً... مظلومة التي احترنا في ملابسها، وأخذنا نلتقط بعض ملابس المعتقلين من غرفة التعذيب لنخيطها لها ثياباً، هذه الطفلة الصغيرة التي فتحت عينيها على الحياة، وهي في أشد الأماكن وحشيةً في العالم، وأمها العروس التي قضت أيام حملها البكر في ذلك المكان الموحش، ووضعت طفلتها

البكر بين التعذيب وعويل المعذبين، دموعي تنساب بسخاء، وأنا أرى وجهها الجميل حين تضحك ببراءة، والظلم قد تجسد بأبشع صورة ليحرم هذه الرضيعة من أن تعيش ككل الأطفال، أي ذنب اقترفته وأمها الشابة لتجبران على العيش في ظروف تنعدم فيها أبسط مقومات الحياة.

نصرة لم تفارق صغيرتها ولا لحظة واحدة، سوى عند ذهابها إلى الحمام في المرتين المخصصة لكل معتقل يومياً...

كانت تقبلها بشغف وحنان وتلثم قدميها الصغيرتين فرحة بها، وكأنها تهرب من واقع الألم الذي نعيشه في هذا المعتقل الكئيب، كلمات هدهدتها لصغيرتها تعصر القلوب، نبرتها حزينة وصوتها ناعم رخيم، تردد كلمات تراثية اعتادت الأمهات في عراق الخيرعلى الهمس بها كأنشودة ملائكية، ينام الأطفال على ترانيمها: "دللّول يامظلومة يمه دللّول عدوج عليل وساكن الجول".

أمل زوجة المجاهد من آل آلوس تكاد لاتتحرك من مكانها، إلا والتف صغارها حولها، هاهي الشهور تمر عليهم تباعاً وهم في هذا المعتقل الكئيب، لايسمعون سوى صراخ المعذبين ونباح الجلادين، ولم يعيشوا سوى الألم والحرمان، وياسر صغيرهم قد تجاوز عمره العام والنصف وهي ماتزال ترضعه... كانت تشير عليها بعض الأخوات أن تفطمه، ولكن هيهات ذلك وكلنا يعرف مايحتاجه المفطوم من بدائل عديدة تغنيه عن حليب أمه، ولا يوجد واحد من هذه البدائل في هذا المكان الموحش... وكلما مرت الأيام يزداد ياسر تعلقاً بها حتى عندما تنهض من النوم بمجرد أن تتحرك من مكانها يفزع باحثاً عنها...

فطومة زوجة المجاهد حسن سعيد وأطفالها الصغار حكاية جمعت ضيم كل الأمهات وزوجات المجاهدين... فهي تبحث عن ابنها البكر أموري الصغير، والذي اعتقلوه مع أبيه وزوج عمته، فهي لم تره منذ مايقرب العامين، ودموعها تصب عندما تذكره، هي تعلم جيداً أي وحوش في هذا المكان المشؤوم.

وجابر المريض ما انفك يموء بصوت ضعيف مواء القطة الجائعة، لايهجع

ولا يهدأ أبداً تطعمه سقيا بالملعقة... لايقوى أي ذي لب أن يمعن النظر فيه، هو كهيكل عظمي من الضعف، وعيناه مغلقتان غائرتان في محاجرهما، وفمه مفتوح يصدر ذلك الأنين... إلى اليوم يعتصر قلبي لذكراه... وإلى اليوم أسأل: ماذنبه؟!

هدى وندى طفلتان جميلتان بشعر أشقر وملامح ملائكية تلازمان أمهما أينما تحركت، وأحيانا تعيقان حركتها ماعتادتا علينا بعد واستغربتا وجودهما معنا، أما ياسر فهو طفل جميل الخلقة لم يكمل عامه الثاني يلتصق بأمه التصاقاً.

والأم حيرى تنوء بحملين رعايتهم في هذا المعتقل الرهيب، وحملها لجنينها هي حامل مقرب وتصعب حركتها، والضعف وسوء التغذية أخذا منها مأخذاً وعلت بقع الكلف وجنتيها وتشققت شفتاها... ليس أمام هذه الأم الصابرة سوى الدعاء ودموعها تهطل ساخنة وسخية كأمطار الربيع... وقفنا عاجزين عن فعل أي شيء لها، فأطفالها لم يألفونا وطفلها العليل لايعرف علته ومداراته إلا هي...

عربة الموت تخطف الأمهات

لم تستمر حيرتنا طويلا حول هذه العوائل المضحية، ذات يوم في صباح حزين لن أنساه ماحييت، سمعناهم يتوجهون للصالة ودخل الخوف والرعب إلى قلوبنا مع حركة القيود الحديدية التي تقفل الباب، فقد علمنا أن ثمة شراً ما أو مصيبة كبرى ستحل بنا، فلم يكن فتح الباب في هذا الوقت لأجل مواعيد الذهاب إلى المرحاض، أو موعد جلب الفطور، فهي إذن حالة أخرى؟!

تسارعنا في ارتداء عباءاتنا، ونهضنا وتأهبنا في انتظار وترقب... هي لحظات قد تكون أقل من دقيقة، لكنها تجعل النفس تدور في دوامات السؤال: ماالذي يريدونه؟!وما المصيبة الجديدة؟

وبسرعة فائقة انفتحت الباب على مصراعيها ليطل منها الجلاد أبو جواد، ومعه ثلاثة من الحراس يحملون قيوداً وخرقاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

رئاسة الجمهورية

السكرتير

مديرية الأمن العامة

مديرية امن بغداد / ش م ١

العدد / ٢٨٥

التاريخ / ٥ / ١١ / ١٩٩٤م

سري

مديرية امن بغداد

العدد / ١٨٣٢٤

التاريخ / ٦ / ١١ / ١٩٩٤

الى / مديرية الامن العامه / م س ٥ / ش ١٥

م / شهادات وفاة

كتابكم ٤٠٨٧٢ في ١٦ / ت١ / ١٩٩٤

نرفق طيا شهادات الوفاة المرقمه ط ٣ / ٣٢٩٨٩٤ و ٣٢٩٨٩٥ في ٨ / ٢ / ١٩٨٣ والخاصه بالمجرمين المعدومين ([illegible] سعيد محمد وجنان حسين محمد) ، اما بخصوص شهادة وفاة المجرم المعدوم حسن سعيد محمد فقد ارسلت الى مديرية امن محافظة ديالى بموجب كتابنا ش ٥ / م ١ / ٢٧٥٠٤١ في ١٨ / ١٢ / ١٩٨٩ ليتسنى تسليم شهادات وفاة الى المجرمين (حسين محمد يوسف وظومه طه مهدي) ونرسلها اليكم لاجلها

للتفضل بالعلم مع التقدير

مدير امن بغداد وكالة

/ ١١ / ١٩٩٤

المرفقات

شهادات وفاة عدد (٢)

نسخة منه الى /

مديرية امن محافظة ديالى / اشاره الى كتابنا اعلاه وكتابكم ش ٥ / ٣ / ١٠٠٦٣ في ٢٥ / ١٢ / ١٩٨٩

للتفضل بالعلم مع التقدير

صاح أبو جواد: وين عالية؟ فنهضت بهلع قائلة: نعم، فصاح شامتا: "ولك شد عيونها وايديها ليوره".

فأجاب الحارس: حاضر سيدي...

شدّ عينيها بخرقة ما وكبّل يديها، ووقفت إلى جانب الغرفة حيث أشار إليه أبو جواد أن يوقفها، منظرها يبكي الصخر هذه الصيدلانية المخلصة المجتهدة هكذا يسوقونها كالإماء!!.

ثم صاح: نصرة عبدكه التي وكانت تحمل وليدتها ذات الأربعة شهور بين ذراعيها، وهي ذاهلة لما يجري، فصاح بها ناهرا: "عوفي بنتج وتعاي"... فرمت بوليدتها بهلع إلى حضن إحدى الأخوات وهي مرتعبة كانت تخافه خوفا شديدا... ترتعد من صوته وحتى من وقع أقدامه... ثم نادى شامتا على الحاجة أم عباس زوجة الحاج آلوس، وابنتها الطفلة حياة وزوجة إبنها أمل ثنوان، وهنا تصارخ صغار أمل فصاح بهم الجلاد بصوته الأجش صرخة إرتعبت أوصالنا جميعاً منها متلفظا أقبح ألفاظ السب والشتائم، فأخرس صراخ الأطفال وصاروا جميعاً يبكون باختناق وأنفاس متحشرجة.

التفت الى عائلة المجاهد حسن سعيد زوجته فطومه حاملا وترعى صغارها الأربعة ومنهم عليل لا دواء له... فصاح بإسمها... هرعت تنوء بحملها مصفرة الوجه ولسان حالها يقول: كفى ظلما دعوني مع صغاري رضيت بالسجن معهم ليس لهم إياي معينا...

ثم صاح: "هدية سعيد وبتها جنان"... هي إمرأة ريفية نقية الثياب طاهرة الأصل، أخت حسن سعيد (والد اموري) ومعها ابنتها التي تلوذ بها، نهضتا الإثنتان ممسكتان بأيدي بعضهما، وعيناهما تحمل إستفسارا كبيرا.

فصاح الجلاد بالحارس مؤكدا: " شد ايديهن وعيونهن ولك"...

وصاح أخيراً على حليمة نعمة يوسف وكانت تقف إلى جانبي، فتوجهت

اليهم بخطوات ثقيلة وكأنها لم تصدق مايجري... شعرت بأني سوف لن أراها ثانية... أحسست بالعجز لأني لاأستطيع تقديم أي شيء لها أو إسعافها.

عندما اكتمل عددهن ساقوهن تباعاً إلى سيارة حمل كبيرة، لكنها مفرغة من مقاعدها وبابها من الخلف تماماً محكمة الإغلاق، كالتي تستخدم لنقل البضائع والمواد الغذائية... نظرنا اليهن من فتحة بين الستائر وهن يصعدن السيارة بصعوبة بالغة، فمثل هذه السيارة تكون مرتفعة، الحرس يصعدونهن لأن أيديهن مكتوفة إلى الخلف.

ساقوهن زجرا مستبعدين إنهن من البشر ولهن كرامة عند الله... تعاملوا معهن كبضاعة مما حملت هذه السيارات من متاجر ومحلات قبل أن يستخدموها في هذا المعتقل، منظر مؤلم... هم يصفونهن في تلك العجلة بلا مبالاة... ماذنبهن؟ ماجرمهن؟ حقا لا جواب...

وبسرعة تمت الإجراءات فهم محترفون في الإيذاء... وسارت السيارة خارجة من كراج الدائرة، وتبعتها سيارات فيها مسلحون ومعهم أبو جواد، وكأن الدائرة قد أفرغت تماماً إلا من بعض الحراس... حتما وقع عليهن القتل والدفن كبنات الزعفرانية.

محنتنا العصيبة مع الصغار

لم يتركوا لنا مجالا للحزن على فراقهن إذ تعالى صراخ الصغار جميعهم يبكي، بدت الصالة موحشة وهي التي كانت قبل دقائق تضج بالناس والحراس، شعرنا بيتم الأطفال من لحظة خروج السيارات من كراج هذا المعتقل.

وهنا بدأ هم جديد وألم أكبر حيث الأطفال يبكون بتشنج ولا يهدأون ونحن في حيرة كبيرة، كنا نبكي على الرضيعة مظلومة بنت نصرة عمرها أربعة أشهر تصرخ وتتضور جوعاً لأنها ترضع من أمها...

ياسر ابن أمل يصرخ صراخاً عالياً ويتلوى في الأرض فهو لم يعتد على فراق أمه ولو للحظة، حتى عندما تذهب إلى المرحاض تأخذه معها، منى وعمار يصرخون ويبكون مع أخيهم الصغير خوفا وحزنا على فراق أمهم، أولاد فطومه ليس أقل من عويلهم... ياسر يكاد يموت من البكاء، وأختاه ذابت عيناهما من الدموع، وأما جابر العليل فبدأ بالمواء وكأنه أحس أن أمه قد فارقته ويحق له أن يرتعب مما حدث فبدونها يموت حتما...

نحن ذاهلات لانعرف مانفعله ولا ندري أين أخذوا الأمهات؟ اعتنينا بهم قدر استطاعتنا فنحن لم نعتد على رعاية الأطفال... حاولنا إسكاتهم وإقناعهم بأن أمهم ستعود لكن دون جدوى... موقف عسير جدا ظننت لحظتها هو نوع من عذابات هذا المعتقل.

مظلومة بنت نصره لم يتوقف بكاءها أبداً ونحن قد حملناها تباعاً نهدهدها ونحضنها علّها تهدأ قليلا، كانت تنام للحظات عندما تتعب من البكاء وسرعان ما تصرخ، فالجوع يعتصر معدتها الصغيرة ولا بديل لأمها... فطرقنا الباب إلى أن جاء أحد الحراس صاح مستاءاً ما الموضوع؟ وكأنهم لا يسمعون كل هذه الضجة والصخب المؤلم، فحدثته باسمه عبد الامير قائلة: "شلون بهذوله الأطفال؟" فأجاب مستهزئاً: "سكتوهم انتن شعدجن شغل... عمل؟!"

فقالت باسمة: "زين جيبوا حليب لهاي الطفلة راح تموت من البجي"... فقال: "ماكو حليب انطوها ماي"...

بقينا على هذه الحال حتى المساء... نام بعض الصغار، وبعضهم مازال يبكي، أما نحن فلم نمر بمثل هكذا محنة... وخاصة الطفلة مظلومة التي أبكتنا جميعاً.

بعد ظهر نفس اليوم عاد الجلاد أبو جواد، وفتح الحراس له الباب ليأخذ صغار المجاهد حسن سعيد وحتى العليل منهم، حمله الحراس واقتادوا هدى وندى وياسر إلى غرفة أخرى داخل البناية... حيث جمعوهم بأخيهم عبد الامير (أموري) وأخذوهم إلى الخالص كما أسلفت مفصلاً.

وفي الليل أخذوا صغار أمل آلوس ومظلومة بنت نصره، وبقينا نأمل أنهم سيسلمونهم إلى أمهاتهم... بدت القاعة موحشة وصدى بكائهم المبحوح لم يزل ماثلا في أسماعنا... سيقت أخواتنا الى مصير مجهول... وانقضت ليلة حزينة أخرى من ليالي الإعتقال في أمن الثورة... حيث لا رحمة ولا إنسانية ولا أدنى إحساس أو مشاعر لكل عذابات العراقيين هناك... نعم لم يهتز طرف لهؤلاء الحراس وهم يسمعون صراخ ونحيب الأطفال، ولا لعويل مظلومة التي بُحّ صوتها من البكاء، ولا للمواء الذي يصدره جابر العليل الذي ماعفي من الإعتقال لأنه ينتمي إلى عائلة عارضت الطغاة...

عم الهدوء وساد صمت موجع وافتقدت حليمة كثيراً وشعرت بفراغ كبير بعدها كانت دافئة حنونة وواعية، ودعوت لها ولجميع الأخوات اللواتي فارقننا هذا اليوم بالراحة والخلاص... فقد اعتقدنا أنهن قد حوكمن، وتم إطلاق سراحهن، فليس فيهن من أجرمت أو سرقت أو تعدت على الحقوق العامة والخاصة.

مظلومة غيبوها وضاع أثرها ولم يسلموها لأهل أمها نصره، أولاد حياة منى وعمار وياسر أخذوهم إلى منطقة سكناهم في الزعفرانية ورموهم على كومة أزبال وهم يتصارخون مرعوبين، الناس لا تجرؤ من التقرب إليهم بعد أن شاهدوا أزلام البعث المسلحين وهم يرمونهم بهكذا وضع مؤلم وبتحد وصلافة دون خوف من الله ولا من عباده، ظلوا يبكون بهلع حتى الليل ولا من معين!! لا أحد يمكنه وصف جوعهم وعطشهم ومدى الوحشة التي أحاطت بهم ومقدار الإهانة التي استشعروها... الخوف أطبق على النفوس... الضمائر نامت في سبات عميق والإنسانية جفت منابعها، ولكن لطف الله ليس ببعيد إذ وصل الخبر الى عمتهم سرا من أحد أهالي المنطقة فاحتضنتهم في بيتها وصارت لهم أما وأبا... وليومنا هذا أتساءل كيف نسي هؤلاء الصغار ما مروا به من محنة اليتم والتعذيب الذي عاشوه مع أمهم والخوف الذي احتواهم عندما رموهم كنفاية وسط الأزبال بين القطط والكلاب السائبة!! في نهار صيفي قائظ... ولكن لا غريب في قاموس البعث.

كسوة اللئيم للكريم

عـرفـتـك مـنّـانـا فـلـسـت بـآمـل نـداك

ولـو كـنـت غـرثـان عـطـشـان عـاريـا

في حزيران من عام 1982 فتح الباب آمر الحرس اسمه المستعار (أبو حكمت)... أربعيني العمر... لهجته عربية مشوبة بألفاظ كردية... فهو على الأرجح من الأكراد الفيليين، سأل هذا: "انتن جم وحده لأن راح يجيبولجن ملابس"

وهكذا تذّكرونا بعد ستة أشهر بالنسبة لي، ومدة أطول من ذلك بالنسبة لعالية وبتول وأميرة، ياله من إحساس عالٍ بقيمة الإنسان!! أخيرا شعروا أننا من البشر ونحتاج الى أبسط مقومات الحياة الملابس... تناسوا بل تعمدوا أن يجعلونا في حيرة من أمرنا وهم يعلمون جيدا إحتياجات المرأة، فضلا عن الأطفال الذين كانوا أحوج مايكون لها كونهم في مرحلة نمو... وعلى عجل طلب إحصائية بعددنا وأقفل الباب.

سخرنا وضحكنا من هذا الواقع المزري وشر البلية مايضحك، فليس غريبا كل مايصدر من هؤلاء، ونحن لم نعتد الا على الضيق والخوف في هذا المعتقل... وكعادتها ورغبة منها بإضفاء بعض المرح على الأجواء الكئيبة... بدأت بسّومة تجري لقاءاتها الصحفية معنا تباعاً وبطريقتها المعهودة: ماالذي تتوقعينه ستكون عليه الثياب المرتقبة؟ فتجيب الأخوات بإجابات مختلفة فمنهن من تقول: أتوقع أن تكون ثياباً سوداء فهم لايريدون لنا غير الحزن...

وأخرى تبوح باحتياجها لملابس تناسب صيفنا الحار قائلة: أرجو أن يصحو ضميرهم ويجلبوا لنا ثياباً قطنية تعيننا على تحمل هذا الحر بامتصاص العرق!!

وأخرى تضحك قائلة: أي ثياب يجلبونها سنلبسها بالتأكيد وإن كانت ثياب أرياف، فهي على الأقل جديدة ونظيفة... ومنهن من تقول: لا أصدق أنهم سيجلبونها...

في عصر نفس اليوم جيء بالثياب وكانت الدهشة سيدة الموقف، فقد كانت عبارة عن دشاديش طويلة بأكمام طويلة ومن قماش (الدايولين) الذي يحوي على نسبة عالية من (النايلون)، مع ملابس داخلية بسيطة رديئة الصنع... أما ألوانها فتنم عن ذوقهم (الرفيع)!... وبعد أن سلمت إلى عالية التي تتصدى عادة للتحدث معهم، فهي تمنعنا من ذلك قائلة: إنها أكبرنا سناً وهي متزوجة، ولتجاربها في الحياة هي قادرة على فهم تصرفاتهم الدنيئة... عالية بتصرفها الحنون هذا وَقتنا كل ما يتوقع من أفعالهم ومآربهم فهم من أراذل الخلق...

تم توزيعها أعطينا أكبرها حجماً لأميرة فهي ممتلئة القوام وطويلة، أما بتول فقد اضطرت إلى قص بعضاً من طولها... وتوزع المتبقي علينا، وعلى الرغم من بعدها عن أذواقنا الا أنها أضفت بعض الراحة النفسية علينا... يا لأمنياتنا التي ضاقت وباتت لا تطيق الخروج من إطار جدران بناية الرعب هذه!!

هذه حقوق السجناء والمعتقلين في أمن الثورة... تلك الدائرة التي ماسمعنا بمثل بطش محققها أبو جواد ولا كرداءة خدماتها، فقد التقينا في سجن الرشاد بأخواتنا السجينات القادمات من معتقل الأمن العامة كن يرفدن بالثياب والصابون وسوائل غسيل الشعر (شامبو)... إلا أبو جواد الحاقد على حزب الدعوة، والذي يريد إظهار أبشع صور ألأذى بحقهم كي يبرهن لأسياده مهدي الدليمي المدير والمقدم فراس التكريتي الضابط المناوب له بأنه مخلص لهم ومتبرئ من الشيعة... بل أكاد أجزم أنه يسرق المبالغ المخصصة لهذا الغرض، فهو لايتورع عن فعل الحرام مادامت يده تقطر دماً من جراحنا...

أميرة تنطلق الى فضاء الحرية

ذات يوم استدعوا أميرة ففزعت وارتعبت وتذكرت أيام تعذيبها، فقد آذوها كثيراً في التحقيق علّهم يستدلون إلى من قتل حاتم.

أسرعت مصفرة الوجه خائفة، وشفتاها تتمتمان بالذكر... أشفقنا عليها ودعونا الله لها، فقد كانت نظراتها وهي تخرج من القاعة تعبّر عن توسلاتها بأن لا ننساها من الدعاء، وكم مرة ومرة طلبت منا أن ندعو لها بالفرج، دعاؤنا مستجاب حسب ماتقول: لأننا مؤمنات طاهرات.

غابت أميرة قرابة ساعة ربما ليوقعوها على تعهدات ويصيّروها عينا لهم، ودعاؤنا لها لم يتوقف، فهي رغم كل شيء إنسان معذبة وذاقت ماذاقت منهم... عادت أميرة ضاحكة مستبشرة، وعيناها الصغيرتان تفيضان من الدمع فرحاً، فقد تم اطلاق سراحها، لكنهم أمروها بارتداء نفس ملابسها السوداء التي اعتقلوها بها وهي محتفظة بها في كيس تستخدمه وسادة وها قد حان وقتها لتخلع تلك الدشداشة ذات اللون الفاقع والموديل الغريب.

ارتدت ملابسها مسرعة وقبلتنا تباعاً بخوف وسرعة مودعة إيانا وقدماها تتسابقان إلى فضاء الحرية... أكّدنا عليها أن تلتزم بصلاتها التي واظبت عليها مؤخراً، وأوصيناها أن تدعو لنا بالفرج عند زيارتها الائمة (عليهم السلام)، أما أنا فقد أوصيتها مسبقاً أن تخبر أهلي بأني بخير، فقد علمت منها بأن أختها تسكن في الزقاق المجاور لزقاق دارنا، وعندما وصفت لها دارنا الذي يحمل صفة معروفة لدى أهالي المشتل بأنه مستوصف المشتل القديم، فقد كان بيتنا مؤجراً بذلك العنوان قبل أن يخلى ونسكن فيه بعد أن اشتراه والدي، لكنني عرفت أنها لم تتصل بأهلي مطلقاً عندما التقيتهم في سجن الرشاد، وأنا اعذرها فمن يجرؤ على التواصل مع عوائل حزب الدعوة التي كان يسميها الطاغية بالعوائل الحاقدة على الحزب والثورة.

تركت أميرة عباءتها قائلة: ربما تستفيدون منها... وخرجت سافرة كما كانت... لكنها أخذت معها الدشداشة الرجالية والشماغ للذكرى، أميرة هذه لم تعد تلك المراة التي شغفها حب ذلك الجلاد ووسامته، رأت بأم عينيها مايجري على أيدي رفاقه من قمع وترهيب ولو كان موجودا بينهم لم يكن ليتوانى عن فعلهم الهمجي هذا.

خروج أميرة أعطانا بعض الأمل في الخلاص، ولاسيما بتول فقد كان أبو جواد يعدها على الدوام بأنه سيخرجها لطفلتها الصغيرة لكنه لم يفِ أبداً... ومثلها فاطمة شوكة (أم حسين) التي ماخفّ بصيص أملها بالعودة لصغارها، رغم نصائحنا لها بأن لاتصدق ذلك الجلاد الذي يتلذذ بحربه النفسية تلك...

بنات الكرادة إلى محكمة الثورة

في 25 من شهر تموز من عام 1982 حان موعد محكمة بنات الكرادة، وكما هو الحال في كل مرة تفتح باب القاعة بطريقة همجية... أطل الجلاد أبو جواد هذا اليوم طالباً بنات الكرادة... تحدث بهدوء غريب: "يلّه تحضرن راح ننقلجن منا"... وفورا حضر بالذاكرة مشهد العوائل التي نقلوها بذات الكيفية.

عم الخوف والهلع في القاعة... أين سينقلوهن؟ وأي مصائب ستواجههن؟ فما علمنا خيراً من هؤلاء الجلادين منذ أن ساقنا قدرنا لنُعتقل في هذه الدائرة المشؤومة.

ترك الباب مفتوحاً وانشغل مع الحراس وهم يتراكضون كما في كل حالة خروج إلى الشارع، يتفحصون أسلحتهم ويستعدون لحراسة هذا الجلاد.

ثم بدأ يعدد أسماءهن الواحدة تلو الأخرى، بدأ بفاطمة الحسيني فنهضت كاللبوة ونظرات التحدي ترتسم على محياها، ساءهُ هذا فصاح حاقداً مزمجراً: "مثل البزازين بسبع أرواح كل السونياه بيج وبعدج ما متّي!!" وضربها على رأسها لكنها لم تهتم وظلت البسمة على محياها.

وبعدها نادى على الأختين أمل وسندس عباس ثم الأخوات خيرية وإيمان وهدى، ثم البواسم كما كان يشير بذلك إلى باسمة عبد الأمير وباسمة عبد العزيزوغياب، وأخيراً أم حسين فاطمة شوكة.

فاطمة شوكة التي حطم نفسيتها بكثرة أكاذيبه عليها بدت اليوم غير مبالية به

بسم الله الرحمن الرحيم

سري للغاية وشخصي

رئاسة محكمة الثورة

بغداد

العدد/ ٢٣٣٣٢

التاريخ/ ١٩٨٢/٧/٢٧

رئاسة ديوان رئاسة الجمهورية

م/ جدول اعمال المحكمة ليوم ٨٢/٧/٢٥ صباحا

١- اشارة الى امر الاحالة المرقم ٨٣٨/٢٢ في ١٩٨٢/٦/٢٧ .

حسمت محكمتنا القضية المرقمة ١/١٩٨٢ امن الثورة في الدعوى المرقمة ١٣٢٢/ج/١٩٨٢ والخاصة

بالمتهمين مجيد عبد العزيز علي وجماعته وقررت ما يلي :-

أ- الحكم على كل من مجيد عبد العزيز علي [redacted] وآمل عباس شوكت وعبد الكريم عباس نجم وناظم كاظم نجم بالاعدام شنقا حتى الموت وفق المادة ١٥٦/٤٩و٥٠و٥٣ من ق ع ومصادرة اموالهم المنقولة وغير المنقولة .

ب- الحكم على كل من سعد بن عباس شوكت ومهدي كاظم عباس بالسجن المؤبد وفق المادة ١٥٦/٤٩و٥٠و ٥٣/٢٦ من ق ع على ان تحسب موقوفيتهما ومصادرة اموالهما المنقولة وغير المنقولة .

ج- الحكم على ياسين عبد الامير حسين بالسجن المؤبد وفق المادة ١٥٦/٤٩و٥٠و٥٣/١٣٢ من ق ع على ان تحسب موقوفيتهما ومصادرة اموالهما المنقولة وغير المنقولة .

د- الحكم على كل من شيرين كاظم عباس وشهاب حسين جابر وايمان كاظم عباس بالسجن لمدة سبع سنوات وفق المادة ٢٠٠/١ من ق ع على ان تحسب موقوفيتهما ومصادرة اموالهما المنقولة وغير المنقولة .

هـ- الحكم على ... عبد العزيز علي بالحجز في مدرسة الفتيان الجانحين لمدة عشر سنوات وفق المادة ١٥٦/٤٩و٥٠و٥٣/٧٢ من ق ع على ان تحسب موقوفيتهما .

و- الحكم على الفتى حسين عامر شوكت بالحجز في مدرسة الفتيان الجانحين لمدة ثلاث سنوات وفق المادة ٢٠٠/٢ من ق ع على ان تحسب موقوفيته .

ز- الحكم على ... شوكت عبد بالحبس لمدة ثلاث سنوات وفق المادة ٢٩/ ... على ان تحسب موقوفيتهما .

ح- مصادرة الاسلحة والمبرزات المضبوطة .

٢- اشارة الى امر الاحالة المرقم ٦٠٩/٢٢ في ١٩٨٢/٥/١٥ .

حسمت محكمتنا القضية المرقمة ٢/١٩٨٢ امن الثورة في الدعوى المرقمة ٢٥ ... /١٩٨٢ والخاصة

بالمتهمين حسن علوان حسن وجماعته وقررت ما يلي :-

أ- الحكم على كل من محسن علوان حسن وعبد المحسن كاظم راضي وناصر عبد العزيز عبد الجليل وعبد الهادي حسن حادي وعبد الهادي مهدي مزيد وحسين احمد سمير وصادق جهاد خداد وخليل عبد الله عجوش وعلي جمعة حمزة وعلي حسين محسن وحسين جبر شلاح بالاعدام شنقا حتى الموت وفق المادة ١٥٦/٤٩/ ٥٠و٥٣ من ق ع ومصادرة اموالهم المنقولة وغير المنقولة .

ب- الحكم على عامر راشد راضي بالسجن المؤبد وفق المادة ١٥٦/٤٩و٥٠و٥٣ /١٣٢ من ق ع على ان تحسب موقوفيته ومصادرة امواله المنقولة وغير المنقولة .

ج- الحكم على محمد كريم صدام بالحبس لمدة خمس سنوات وفق المادة ٢٤٧ من ق ع على ان تحسب موقوفيته .

د- مصادرة العدد ... المطبوعات وملحقاتهما .

٣- اشارة الى امر الاحالة المرقم ٨٨٠/٢٣ في ١٩٨٢/٧/٤ .

حسمت محكمتنا القضية المرقمة ١٩٨١/١٨ الامن العامة /م/ ٣٢ في الدعوى المرقمة ٨٨ ج/١٩٨٢

والخاصة بالمتهمين كل من عبد الرحيم سلمان داود وجعفر جاسم حمادي وعبد الجبار داخل موسى وجواد جدة عبد الرسول وكاظم حسن مرعي وجرار محسن سهم وكريم خضير خلف وعبد الحسين محمد عبد وناظم مزيد سالم ومجيد جبر علي وخليج قاسم حسن ومحمد سالم حسين وصادق محمد علي وهادي حسن وعلي رشيد مسلم بدر وقاسم حسين حبيب وعلي صيوان كريم الله وشكري عبد الشهيد محسن وزهير عبد الحميد بلال وحسن كريم مهدي وعماد نوري حمودي وصارم اسماعيل محمد وعبد الخالق عبد الزهرة نافع وسمير عبد العزيز وعبد الكاظم كريم شويلي وعبد الرضا موسى عطية وعبد الله ناجي سلطان ... قررت المحكمة ... الاعدام ...

فهي كشفت زيفه وخداعه... فمنذ اعتقالها وهو يعدها بأنه سيطلق سراحها، وأنها ستعود إلى زوجها وصغارها، وكان يقسم بأيمان مغلّظة، ويعدها بشرفه، وأن شاربه الغليظ هذا ليس على وجهه إن لم يخرجها غدا بل أكثر من ذلك كان يقسم بضلع الزهراء عليها السلام... أنّى لمثل هذا الجلاد من عهدٍ أو وفاء، وقد أثبت لها كذبه بوضوح وهويقتادها معهن الى المحكمة!!

تم توثيقهن بالقيود لكن أيديهن مكبلة الى الامام وليس كمن سبقهن الى ظهورهن... تم إقفال باب القاعة علينا، ليأخذوا بنات الكرادة إلى حيث لاندري، ودعّناهن بالدعاء وبآيات الحفظ، فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين...

خلت القاعة الواسعة فلم يبق سوى أنا وبتول محسن وانتصار وصغارها... أيقنت ساعتها ماكان عليّ التعلق بأي صديقة في هذه الدائرة، فليس ثمة مجال للعواطف في مستنقع الرعب والألم الذي يصب يومياً على رؤوس معتقلي أمن الثورة بكل أنواعه... ألم فراق الأهل والأحباب... ألم التعذيب الجسدي والنفسي... ألم الاستهانة بكرامة الإنسان وسحقها... ألم الانتظار والترقب... ألم صراخ المعذبين... ألم الاستماع الإجباري إلى نباح المحققين وكلماتهم النابية... وألم استقبال وتوديع نساء من خيرة عوائل العراق...

وتتسرب شهور العمر في دائرة القمع البعثي

هاهي الشهور تمر تباعاً وأمن الثورة تتمسك بنا وكأنها لم تكتف بماعانينا ومازالت تضمر لنا مزيدا من الخوف والألم، هاهي كل النساء اللواتي اعتقلن بعدنا قد ودعّناهن إلى مصائرهن... الموت أهون من هذا الإنتظار الممل في مكان ليس للأمان فيه وجود ولا للحظة واحدة.

صار السجن أمنيتي، إن لم يرد الله اختياري للشهادة... لم يعد للكلمة أو

للحياة معنى لدي... كل ماكنت أتمناه هو الخلاص من هذا المكان الذي امتزج فيه طعامنا بدموعنا، ومزق هدوء ليلنا صراخ وآهات المعذبين... وصكت أسماعنا اصوات معاناتهم، وقهقهات الجلادين، وهم يحيون سهرة حافلة بتعذيب المعتقلين...

عندما أحدّث انتصار بأني أتمنى السجن وإن كان مؤبداً، تتألم من كلامي، وتنهرني قائلة: "الله لايسمع منك... بعد شفتي من حياتك؟ حتى تقضين الباقي في السجن؟!"

حقا ماكنت أتمنى أن أعود للحياة ثانية وكابوس البعث لم يزل جاثما على بلادي... إن خرجت لن أتوقع الا مزيدا من المضايقات من أذناب البعث وأزلامه وزيارتهم القسرية لبيتنا، فهم ماتركونا أسبوعا واحدا بعد اعتقال أخي الأكبر جمال، فكيف الآن؟! ومن المؤكد أنهم لن يسمحوا لي بالعودة الى مقعد الدراسة وها أنا فقدت عاما دراسيا وتخلفت عن زملائي...

كانت إنتصار تغمرني بحنانها وتحرص علي كما تحرص على صغارها... فهي قد شعرت بالذنب أنه بسبب زوجها قد أعتقلنا أنا وجلال... لكنني اجتهدت أن لا أشعرها بذلك، فظلم سلطة البعث تجاوز كل إعتبار.

أحببت صغارها وحنوت عليهم... زينب وقد قارب عمرها أربع سنوات، كانت أشدهم حساسية وشعورها مرهف... ترتجف عندما تسمع وقع أقدام أبي جواد في الممر القريب للقاعة... نعم كانت تميز خطواته، فثقل وزنه جعله لايقوى على رفع قدميه عند السير، وحمله للعصا الغليظة علامة فارقة أخرى على خطواته، فكان يتعمد أن يضرب الأرض بها لتصدر صوتاً مرعباً وكأنه يقصدها بالضرب بها.

آلاء... بنت العامين والنصف... هادئة كأختها زينب... وملامحها الطفولية أكثر تعبيراً... فلم تتعلم التلفظ الصحيح بعد... كلماتها الطفولية تنعش فيّ الأمل، وأتناسى آلامي وأنا أحدثها بلهجتها

كالأطفال... آلاء كانت تحتاج إلى الحنان تلتصق بي دوما، وتجلس في حجري، بل إنها عندما تراني نائمة تفتح ذراعي لتوسد رأسها الصغير ثم تطويه عليها... وكأنها تقول لي: ضميني إليك...

أما علي الذي فتح عينيه على الدنيا ليجد أن عائلته كلها معتقلة، وأمه مكبلة بالقيود وهي على سرير الولادة، فهذا بحد ذاته حكاية طويلة... ها هو بدأ يجلس متكئاً على أمه، ثم بدأ يحبو ويتجول، مستعيناً بكفيه وساقيه فرحاً ضاحكاً، فهو لايعلم أين هو؟ عيناه واسعتان... وفمه صغير... وشعره أخيرا قد نما فأصبح حلقات بنية تطوق رأسه الصغير.

علي... ما ارتوى من ثدي أمه، فالمصائب التي مرت بها جففت حليبها وما شبع منه، وهم يتعمدون التأخير في جلب علبة الحليب له... قلقنا عليه كثيراً من حدوث لين العظام لديه، فهو بعد غض صغير ولم ير الشمس أبداً طيلة هذه الشهور... وكم حاولت انتصار من الحراس أن يأخذوه لدقائق تحت الشمس، لكنهم كانوا يخشون الجلاد أبا جواد، والمدير مهدي الدليمي، فأي تعاون مع المعتقلين يعد جريمة كبرى يستحق مرتكبها أقصى العقوبات... بعض الحراس يتفاعلون أحياناً مع الصغار، ويشفقون على انتصار وهي تنوء بحمل رعايتهم... لكنهم لايتقربون منهم أبداً...

الأطفال يضجرون من هدوء القاعة الموحشة، وأحياناً لاتجدي معهم القصص والأناشيد التي نتلوها عليهم، يركضون نحو الباب فيجدونه مقفلاً بالقيود... فليتجئون إلى الشباك ونخشى الحراس أن يضربوهم... في أحيان قليلة جداً وعندما يغيب الجلاد أبو جواد في واجب من واجباته الهدّامة للبيوت... يحل الهدوء على الدائرة ونستطيع أن نفتح الشباك ليقف الصغار يتفرجون على الكراج والحديقة... ذات مرة صرخوا جميعاً بهلع وخوف لأنهم رأوا قطة اقتربت منهم، فهم لايعرفون ماهذا الكائن؟!! ويطيلون النظر الى السماء متعجبين مما

يرون من طيور... كيف يعلمون مكونات بيئة قد حرموا منها وهم في سنوات المعرفة بها!؟!

أعطاهم أحد الحراس قطعاً من البسكويت كان يتناول منها... فأخذوها يقلبونها ولايعرفون ماهي... قالت زينب: ماما ضعيها وسط الصمونة كي أكلها... بعد أن أخبرتها أمها بأنها طعام... أما الحلوى والسكاكر فلم يتذوقوها، إلا مرة أو مرتين عن طريق الحراس.

هاهي الطفولة التي أرادها البعث لأبناء العراق... وهاهي حقوق الإنسان في العراق تنتهك بمجرد أن يولد المرء من عائلة معارضة... ففي قاموس البعث لاحياة للمعارضين صغارا وكبارا.

بتول طالت محنة فراقها لطفلتها

بتول... وجدت في أطفال انتصار طفلتها إسلام التي فارقتها وهي وليدة لأيام فقط... أحبتهم وقبلتهم بحنان وشغف، وراقبت نموهم ولا سيما علي، فهو مقارب جدا لعمر (سلومه)... فعندما ضحك علي ضحكته الأولى بكت بتول وقالت: "سلومه المن راح تضحك؟!" وعندما نطق ماما لأول مرة بكت قائلة: "حبيب ماما وسلومه المن تكول ماما"... وهكذا عندما ظهرت أسنانه الصغيرة بعد معاناة لسوء تغذيته...

ظل حنينها لطفلتها ناراً تحرق أحشاءها، ووجدت سلوتها في هؤلاء الأطفال الصغار... ذات يوم وبعد بكاء مرير شوقا لصغيرتها المحرومة منها وهي لا تتخيل كيف صار شكلها بعد هذه الشهور الطوال... وهي لم ترعها سوى خمسة عشر يوماً لا غير وقد أرضعتها لبنا مشوبا بالخوف والقلق... حلمت أن الإمام الحسين (عليه السلام) جاء على صهوة فرسه الميمون والنور يسطع من

جبينه حاملاً طفله الرضيع مذبوحا من الوريد الى الوريد، وبتول تسير متعثرة في طريق وعرة ويوم قائظ، فدنى الإمام منها وناولها طفله ووضعه بين ذراعيها، ففزعت بتول من نومها صائحة: اللهم صل على محمد وآل محمد، وبقيت ترددها للحظات، وكأنها تتأكد أنها قد صحت من نومها، هرعنا إليها مستفسرين، فقصت لنا مارأته في عالم الرؤيا... بعدها هدأ روعها وبردت نار قلبها المشتاق ورددت: إسلام ليس أفضل من عبد الله الرضيع ومادمنا على خط الإمام الحسين عليه السلام سأصبر وأتحمل... وكلما اشتدت نار الفراق في قلبها نعت الطفل الرضيع وبكته..." أهز مهدك يا عبد الله واعاين عالمهد خالي يابني وثمر دلالي "..." اجاني الليل وانه تايهه البال يابني خابت ظنوني والامال... اشمن ريحتك عبد الله ماني اميمتك عبد الله يابني المهد خالي" ونبكي معها لوعة وأسى، ثم تردد: لا يوم كيومك يا أبا عبد الله.

لوعات وحسرات يعجز القلم عن وصفها عاشتها الأمهات والأطفال، وقد لا تحدث إلا في الخيال، الا أن حكم البعث البائد جعلها وقائع حية عاشتها العوائل في ربوع عراقنا الحبيب، فكل معارض تحل عليه وعلى عائلته لعنة البعث يمكنه أن يحكي الآف القصص من هذه...

طفولة محرومة

ولأن القاعة قد خلت من المعتقلات إلا أنا وانتصار وصغارها وبتول، صار الصوت واضحاً وحتى همسات وضحكات صغار انتصار تسمع من قبل الحراس والمجرم أبي جواد، ومهما حاولنا أن نسكتهم، أو نحد من حركتهم ما استطعنا أبدا، فهم معذورون أطفال صغار وفي قمة نشاطهم وحيويتهم محرمون من أي لعبة أو وسيلة لهو لمثل أعمارهم...

الجلاد أبو جواد يضرب الباب بالعصا صارخاً بصوته الأجش موبخاً

انتصار بالسباب واللعن طالباً منها إسكاتهم، وفي غيابه يقوم بعض الحراس بنفس دوره البغيض هذا... في أول الأيام كان يكتفي بضرب الباب والسباب، ومن بعد بدأ يهددها بأنه سيأخذهم إلى ملجأ الأيتام إن بقي الحال على ماهو عليه... وانتصار ترتجف ويصفر لونها وتكم أفواه صغارها بكفيها... زينب وآلاء لهما من الإدراك مايجعلهما يدركان بعضاً من الواقع المرعب ويمتثلون أحيانا لتوجيهها وتوسلاتها، لكن علاوي لايعي شيئاً، فهو بعد طفل رضيع قد تجاوز العام ببضع أيام، كانت تتمنى أن يناموا ولا يستيقظوا أبداً، كي لاتتعرض لهذا الهلع... أي ظروف تعيسة عاشتها هذه الأم الشابة وأطفالها الصغار...

لم يكفهم الحرمان من أبسط مقومات الحياة، حتى ملابسهم كانت عبارة عن قطع ملابس للمعتقلين تمزق على أجسادهم من التعذيب أو تخلع عنوة بتمزيقها من قبل الجلادين لإيقاع ألما أكبر على الجسد العاري، هذه الأسمال تعاد خياطتها لتحال إلى ملابس للصغار، كانت أي معتقلة منا تخرج لتنظف غرفة التعذيب وتجد قميصاً أو رداءاً (دشداشة) من قماش قطني تجلبه معها كمن يظفر بغنيمة، وتهديها إلى انتصار أو إلى نصرة وابنتها مظلومة، وقد أعطانا أحد الحراس بكرة خيوط وإبرة، والتقطت بتول مقصاً صغيراً من شباك المرحاض كان قد تركه أحد الحراس بعد أن حلق ذقنه.

عملية التفصيل والخياطة مستمرة لإكساء هؤلاء الأطفال، وتتعاون المعتقلات ممن تجيد الخياطة على إنتاج تلك الملابس التي صنعت من قميص الألم لتكسوا طفلاً حكم عليه باليتم منذ لحظة دخوله، بل إن لليتيم في مجتمعات الإسلام حظوة واهتماماً لما لذلك من أجر جزيل عند الله سبحانه... هم يكبرون وملابسهم تضيق وتقصر عليهم وخاصة علاوي الذي كان يستهلك أكثر من أختيه... وغسل تلك الملابس بأسرع مايكون فلم يرحموا انتصار ويعطوها بعضاً من الوقت في المرحاض أكثر من المحدد لنا فلا امتياز لها، إلافي حالات نادرة عندما تتوسل إلى أحد الحراس طالبة منه أن تبقى آخر من يذهب للمرحاض كي تحمم أطفالها وتغسل ثيابهم، وبعض هؤلاء الحراس كان يرفض طلبها هذا بعنت وتجبر...

حقيقة يكاد العقل لايصدق كيف كانت هذه الأم الصابرة تدير شؤون صغارها في دائرة الرعب والإرهاب تلك؟!! ومهما ضاقت بها الأمور ومهما عانت، لم تكن تطيق فكرة الابتعاد عنهم، فقد كانت ترعبها كلمات الجلاد أبي جواد عندما يهددها بأخذهم إلى دور الأيتام أو الملجأ كما كان يعبر عنه...

لقد أنزل الله عليها صبراً، وزودها بطاقة غيبية كي تعض على الجراح وتمنح الدفء والحنان لأطفالها وأنا معهم، فقد كانت تحنو عليّ وتراقب مزاجي وتحس بي أكثر من نفسي... كنت أعجب كيف تراقبني وتشعرني دوما بأني لست وحيدة، حينما تراني أبكي أو أشعر بالكآبة كانت تحدثني باهتمام وتعمل جاهدة أن تخرجني وبقدرة فائقة من دوّامات الحزن والأسى... كانت تأخذ بيدي وسرعان مايبتعد عني شعور الوحدة والغربة وخاصة بعد أن خلت تلك القاعة من المعتقلات، ومنهم الأثيرات إلى نفسي حليمة المبرقع... هدى... باسمة... عالية وأخريات...

ومرّ فصل الصيف...

آب 1982... ها هي أشهر الصيف تمر تباعاً عليّ وأنا في هذا المعتقل (أمن الثورة)... ماعدتُ أتواصل مع ذكرياتي، ومواقف عديدة مرت بي منذ طفولتي، بل صرت أتذكر صفحات جديدة زاخرة بالألم والمعاناة... صفحات دامية من ساعات وأيام أمن الثورة... صفحات كتبت بعذابات المعتقلين وقسوة الجلادين، وملاحم بطولية سجلها المعارضون للبعث... نعم حتى أحلامي تغيرت فنادراً ما أحلم بأهلي، كل أحلامي بأخواتي المعتقلات وكوابيس عن الجلادين ولحظات تعذيبي...

مؤلم للنفس أن ترى سنين عمرك وشبابك تأكله جدران معتقل دون أن يعلم بك ذووك، وإن كنت تبعد عنهم بضع أمتار... عزلة تامة عن العالم الخارجي إلا بيانات حرب (القادسية)، التي تصل إلى أسماعنا من المذياع الموجود في غرفة الحراس... لم يكن لدي في عائلتي أحد في جبهات القتال الممتدة على طول

الحدود العراقية الإيرانية فأخواي جمال وجلال بين قضبان المعتقلات، أما عدنان وحسان فمازالا صغيرين على الخدمة العسكرية...

غير أن الأخوات الثلاث هدى وخيرية وإيمان كاظم كن يرتعبن عند سماع بيانات الحرب المزوقة لفظياً لدرجة تجعلها كذبة كبيرة... عبارة: (منتصرون) ولاخسائر بشرية وتكبيرة المذيع (مقداد مسلم) تثير في النفوس القرف، والاشمئزاز رغم قدسية عبارة (الله أكبر)، طريقة تلاوته لها يجعلك تدعو بأن ينتقم منه الله بحق الله أكبر... نبرة كلها تصنّع وتملّق لـ (القائد الضرورة)، واستهانة بمشاعر العراقيين الذين زج أبناءهم في أتون حرب لاناقة لهم فيها ولا جمل... وكلنا يعرف كذب هذه البيانات التي تذاع من إذاعة صوت الجماهير وإذاعة بغداد وتلفزيون العراق في ذات الوقت وذات الصوت... وعلى أرض الواقع قوافل من التوابيت ملفوفة بالأعلام العراقية تشق العباب لتصل الى أرض الغري حيث مثواها الأخير... ومجالس عزاء توزعت بسخاء في أزقة مدن العراق ثكلا بفلذات الأكباد.

قلق الأخوات على أخيهن سعد الذي كان ضابطاً في الجيش عند اعتقالهن، ولم يعلمن أنه تم فصله وعزله عن وظيفته بتهمة التستر على عناصر حزب الدعوة (العميل).

قضية شارع فلسطين

في ظهيرة يوم من أيام آب هذا الشهر القائظ، سمعنا تحركات سريعة للحراس، وزمجرة صوت أبو جواد المرعب يدعوهم إلى الإسراع وهم يحملون أسلحتهم ويسحبون (أقسام)... علمنا على الفور أنهم ذاهبون للهجوم على أحد البيوتات العراقية الآمنة، وسيحل معهم القمع والإرهاب...

وفعلاً عادوا بعد حوالي نصف ساعة، والسيارات محملة بالنساء والرجال

ومن الشباك المطل على الكراج شاهدناهم عبر الستارة التي منعنا منعاً باتاً من فتحها، كانوا ينزلونهم واحداً بعد الآخر من السيارة، ويعصبون أعينهم، ويوثقون أيديهم بالقيود، ويوقفونهم قبالة الجدار المقابل لتلك الفتحة المستطيلة لقاعتنا، شاهدنا ذلك من باب الصالة الخشبي وهو على شكل قطع متواصلة تشكل (سلايد)، حتى عند قفلها يبقى شريطاً طولياً من المجال للرؤية...

امتلأ الممر بهم... امرأة كبيرة وفتيات صغيرات وشابات في مقتبل العمر معهما فتى يافعا وشابا في عشرينات العمر... من هؤلاء؟ وماجرمهم؟ لاندري!! ولامن مجيب إن سُمح بالسؤال.

بنات النجار هادي عبد الحسين

كما كان يسميهن الجلاد أبو جواد... أنهم عائلة كبيرة مكونة من أمهم (أم هيثم) السيدة عربية، وأبوهم الحاج هادي عبد الحسين الكروي (أبو هيثم)، وأربعة أولاد، وتسع بنات... حالتهم ميسورة هو يعمل في مهنة النجارة، ويمتلك محلات للأثاث والموبليات، ولهم دار واسعة في شارع فلسطين ذات حديقة غناء وأثاث فاخر وسيارات.

في صيف 1980بدأت مأساة هذه العائلة... رن جرس دارهم وجاء من يخبرهم باعتقال أصدقاء والدهم الحاج هادي المقربين منه والمرتبط بهم حزبياً، هو أحد أعضاء حركة (المسلمون العقائديون)، حيث بدأت حملة الاعتقالات بعد شهور معدودة من استلام صدام السلطة في 17 تموز 1979، فيه استقبل الخبر بالحيرة على الرغم من أنه لم يتوقع من أزلام البعث إلا التنكيل بكل من خالف

مسيرتهم الجائرة... فما الذي سيفعله هذا الأب المسؤول عن ثلاثة عشر فردا زوجته وأولاده؟

زوجته المؤمنة هونت عليه حيرته، ووقفت معه تسانده وتشاركه التفكير، فليس هناك متسع من الوقت... لم يجد الزوجان سوى حلا واحدا، هو أن يترك الوالد أرض الوطن فارّاً بدينه ودمه وبأسرع مايكون، وفعلا بعد أيام قلائل شد رحاله إلى سوريا مأوى العراقيين المعارضين، كان متأملاً أن تكون هذه الهجمة مؤقتة، وأن تنتهي بنصر المجاهدين، وخلاص العراق من ضيم البعث الذي جثى على الصدور...

وتحملت زوجته الطيبة مسؤولية العائلة، وكانت له خير خلف، ما ضعفت ولا تأوهت من أداء دورَي الأم والأب في آن واحد، ولم تظهر حزنها على فراق شريك حياتها أمام أولادها... إلا أنها متى ما هدأت العيون وساد الصمت في ساعات الليل المتأخرة جلست تناجي ربها ومعينها في شدتها هذه... ولم تدع لزوجها فقط، بل دعت لكل مؤمن وقف بوجه البعث: اللهم أعم عيون الظالمين عن المؤمنين وأرجعهم الى أوطانهم سالمين غانمين بنصرك المبين.

انقطعت أخبار الوالد وقلقت العائلة عليه، إلا أنه أرسل من يخبرهم أنه بخير، وبحاجة إلى بعض المال في غربته التي ما احتسب أنها تطول، لم تتوان الزوجة المخلصة عن تلبية طلبه، وأكملت إجراءات السفر وسافرت إليه بعد أن أوصت بناتها الكبار بصغارها، ووجهتهم جميعا بتمشية الأمور ريثما تعود، إذ كان ولدها الكبير هيثم متزوجاً ويسكن مكاناً آخراً، وولدها الثاني علي طالبا في كلية طب الكوفة.

لم تدرك العائلة أن جميع تحركاتها مراقبة بعد اعتقال مجموعة رفاق الوالد، لم تطل رحلتها سوى أيام قلائل، عادت بعدها لتظلل بفيئها على عيالها، وعاد الأمان ثانية لصغارها، حرصت أن لاتظهر أي قلق أو مخاوف أمامهم، إلا أن قلبها يحدثها بأنهم لن يتركوا عائلتها أبدا، واستحضرت ذاكرتها اعتقال عوائل بأكملها... فالبعثيون لا يتورعون عن قتل كل معارض لهم وكل متعلقيه.

لم يمهلها البعثيون كثيراً، فبعد أيام فقط وتحديداً يوم 8/ 10/ 1980، هجموا على دارهم طالبين ولدها علي بحجة أن ثمة اشتباهاً برقم السيارة التي أقلها جالبا قناني الغاز لعائلته (السيارة عائدة للوالد)، كان علي في إجازته الإسبوعية من كلية طب الكوفة يعود الى بيته كل أسبوع، هو في المرحلة الثالثة من هذه الكلية، مواليد 1958م شاب مؤمن وسيم دمث الخلق... حنونا على إخوته يعوضهم حنان الوالد المغترب، لم تستسلم الوالدة وتسلمهم علي ووقفت بوجههم بقوة لكنهم لا يرتدعون عن جرمهم وأصروا على اعتقاله، فشرطت عليهم أن ترافقه... رفضوا شرطها بعد أن أخبروها هو مجرد استفسار ليس إلا، وركبوا سيارة الوالد وأخذوا علي عنوة وتبعتهم سيارتهم... لتبقى الأم حيرى، ثكلى والهة على فلذة كبدها، ومرت الساعات ثقيلة على العائلة والوالدة تضرب راحاً براح، لم تهدأ ولم تأكل بل لم تستقر بمكان وهي تردد: كيف حاله؟هل أكل؟ هل نام؟ مالذي فعلوا به؟ فهي تعي جيدا معنى وجوده في غياهب سجون البعث.

في اليوم التالي 9/ 10 قام المجرمون باعتقال ولدها البكر هيثم مواليد1953 متزوج ولديه ثلاثةأطفال من داره، إلا أنها لم تعلم حينها ولتزداد لوعة وحيرة وألماً، حقا ما الذي تفعله بغياب والدهما، وهاهي ترى الدنيا قد كشرت لها أنياب الضيم، وسلطت عليها من لا يرحمها؟

ثكلت هذه الأم الصابرة المؤمنة في فقد ولديها وغياب زوجها... رفضت الأكل والشرب... وهجرت النوم، ولم يكن لديها سوى الانتظار ليلاً نهاراً، فهي تعتقد أنهما سيعودان قريباً، ومرت أيام وهي على هذه الحال، ودموعها لم تجف، وعيناها قد تقرحتا من البكاء، فأين تذهب؟ وإلى من تشتكي سوى لله سبحانه العليم المجيب؟

يختلج قلبها كمداً وهي تتخيل ولديها تحت سياط الجلادين، هي تعلم جيدا قسوة أساليب التعذيب العديدة التي كان البعثيون يشيعون أخبارها إدخالاً للرعب في القلوب... تمنت لو تفتديهم بروحها وبكل ماتملك من متاع الدنيا، فلا دنيا للأم بعد فقد الولد.

وبعد بضعة أيام وتحديدا في 17 تشرين الأول من عام 1980عادت غربان الشر وبحيلة جديدة لهذا البيت الذي بدأ يفقد أمنه وأمانه يوما بعد يوم، قدموا هذه المرة طالبين من الأم الثكلى اصطحابهم لتوقع على استلام ولدها علي من دائرة الأمن، رفرفت روحها وخفق قلبها سريعا، وعاد إليه نبض الأمل بمجرد سماعها ذلك، صدقتهم ودافعها حنانها وشوقها لهما، وبدقائق قليلة ارتدت ما يتوجب عليها لبسه وهي توصي بناتها بأخوتهن، وتطمئن صغارها الذين تشبثوا بأذيالها، سأعود أنا وعلي لا تبكوا ياصغاري، كانت لحظات سريعة وخاطفة لا تكفي لأن تمتلئ أعين صغارها من وجهها الحنون، أسرعت معهم فرحة مسرورة، يشدها حنان الأم للقاء ولديها وهي لم تفارقهما من قبل... فذهبت دون عودة... كان ذلك اليوم يوم عرفة، والعوائل تستعد لاستقبال عيد الأضحى، وتعد ما تعد من المعجنات والحلوى، إلا هذه العائلة صارعيدها مُراً علقماً بدموع وعويل الصغار وآهات وأنّات الكبار، حقا كان عيداً مظلماً، ساعاته خانقة وكل ركن من الدار يكاد ينتحب على الأحباب، وأنى لهم نسيان أمهم وعبقها مازال يملأ الدار... ومازالت أرغفة الخبز في الثلاجة وعبوات المربى والمخلل ماثلة على رفوف المطبخ، وتنور الطين يبكيها ويشتاق لدعائها اليومي حيث اعتادت تسأل ربها الحفظ والأمان لأولادها وللمومنين جميعا، حينما تخبز يلهج لسانها بالذكر والدعاء... هي تقول: "هذا تنور الزهرة" وتلجأ عند كل شدة اليه... بكتها شجيرات الحديقة وزهراتها والتاعت عليها بناتها وهن يسقين شجرة الزيتون وقد نضجت حباته.

الأمر لم يكن سوى مكيدة قام بها هؤلاء الأوغاد، فقد اعتقلوها وحققوا معها حول سفرتها إلى سوريا، واتهموها بأنها تسترت على زوجها الهارب، وأنها تعلم بنشاط ولديها، وأنها كانت واسطة بين زوجها والمعارضين... و... وربما لفقوا لها العديد من التهم، فالمطلوب أن تبقى لديهم حتى الموت وبالوسيلة التي يرونها مناسبة في حينها، لم تكن أم هيثم في مقتبل العمر بل ناهزت الخامسة والأربعين عاما، لم يراعوا حرمة سنها ولا شيبتها، فالمعارضون هم سواء في عيون البعث الوقحة...

بقيت العائلة الكبيرة بدون معيل، وهدّمت الخيمة التي تضمها والتاع صغارها، رغد بنت ثلاث أعوام كانت تبكي وتردد بوجع: "أريد أمي... أريد أمي" لتزيد أجواء البيت حزنا وألما، أحمد بن أربع سنوات هو الآخر يضج بالبكاء اللجوج بحثا عن حنانها... يصعب إسكاتهما فهما لايرضيان بديلا لأمهما، كلهم أضحوا أيتام الأبوين صغارا وكبارا.

لا معيل لهم الا أكبرالمتواجدين معهم أختهم شذى (نضال) مواليد 1959... كلهم بنات عدا الطفل أحمد والفتى اليافع حسين طالب في المرحلة الرابعة من دراسته الإعدادية مواليد 1964، وجد حسين نفسه رجل البيت وهو بعد لم يبلغ الثامنة عشرة من عمره، فتى جميل المحيى نحيل الجسد دمث الخلق هادئ الطباع، ذكي حريص على دروسه والتفوق كان حليفه كل عام.

وإذ اختل وضع العائلة بعد الوالدين والأخوة الكبار، لم يظهر حسين غير ما اعتادت عليه أخواته، سماحة ولطف دائمين، يلاعب الصغيرة ويحترم الكبيرة، ومهما تكالبت عليه الأحزان تجّمل وذكّر نفسه أنه رجل الدار، وعليه الصبر والتحمل، نعم تحمل المسؤلية باكراً ولم يحظ بفرصة صباه كأقرانه، وإنما تهدمت أسواره ليجد نفسه سوراً لهذه العائلة، رغم عمره اليافع وعوده الغض...

لحسن الحظ أن والدهم قد ترك لهم أموالاً، وحُلياً ذهبية إدخرها لوقت الفاقة ولا فاقة مثل التي حلت بهم، فعاشوا ينفقون منها لعامين كاملين، شذى (نضال) الشجاعة قد أخذت على عاتقها مسؤوليتهم، هي إرتدت فوطة أمها وآلت على نفسها أن لا تتخلى عنه حتى يحدث الله بعد ذلك أمرا... هي من تتبضع إحتياجات العائلة من الأسواق وتعود مسرعة لإعداد الطعام ريثما يرجع أخوتها وأخواتها من مدارسهم... نعم تظل تدعو لهم عند ذهابهم وعودتهم منها، وتكاد تعوضهم عن والدتهم وأخويهم تقمصت دور الأم لهذا العدد الكبير من الأبناء المختلفين في مراحل أعمارهم.

انقطعت أخبار والدهم تمام لمدة تزيد على سنة والقلق عليه يضاعف الحزن

على ماتبقى من عائلته، وذات يوم وصلت رسالة منه الى مطعم يعمل فيه نسيبه فخري أبو علي زوج ابنته الكبرى هدى والذي بدوره يوصلها لها لتنقلها الى أخواتها... وكانت الرسائل بسرية شديدة لتطمئنه بانهم بخير، ولم تخبره عما حدث بزوجته وولديه كي لاتضيف على همه هماً آخراً...

استمرت العائلة المنكوبة مايقرب عامين تدبر أمورها، كبيرهم يصّبر صغيرهم، وصغيرهم يساعد كبيرهم، فالمحنة تجمع وتوآزر، قاطعهم الأهل والأصدقاء والجيران، وزادت وحشتهم فلم يطرق بابهم ضيف، ولا مواسٍ بعد أن كانت الدار عامرة بأهلها، فبين ضيوف الوالد، وموائد الافطار التي تعد سنويا لأصدقائه ومأدبات الأهل، والأقارب في الأعياد والمناسبات، فضلا عن مراسيم عاشوراء ومجالسها السنوية... كان بيتهم يستقبل ويودع وكراجه يكتظ بالسيارات لتخرج طوابيرها إلى الرصيف، حينما يضيق الدار الواسع بالضيوف تكون الحديقة مجلسا لهم في ليالي الصيف ونهار الشتاء الدافئة.

لم يعد لصغارها سلوى، ولم يستشعروا طعماً للحياة، كرهوا كل ما يمجد صدام وحكمه الذي يتّمهم من صغر سنهم، حتى مجلة (مجلتي) وصحيفة (المزمار) التي تصدر عن دار ثقافة الأطفال وظّفت لمدحه، وتبييض وجهه الأسود، ورسم هالة كاذبة من المجد والانتصارالموهوم سيما وأن أتون قادسيته كان مشتعلا يلتهم الشباب... كرهن (مجلتي)، ورحن يصممن مجلة من بنات أفكارهن... هما إخلاص طالبة في مرحلة الثالث متوسط، وسندس في مرحلة الأول متوسط، دوّنَ بعض الأحاديث، وكتبن خواطر جالت في نفسيهما، لم تكونا بعيدتين عما ما يدور في الواقع السياسي في العراق، العائلة كلها تتابع الأحداث، وما يبث من راديو جمهورية إيران الإسلامية، وجدوا أنفسهم مقطوعين عن العالم، وبدأ وعيهم السياسي ينمو ويواكب ويحلل مايدور على الساحة العراقية... هم مضطرون لذلك بعد أن عقدوا كل آمالهم بالخلاص من زمرة البعث التي يتمتهم على صغر أعمارهم.

وبدأ العام الدراسي الجديد عاما أليماً غاب عنه حضن الأم الدافئ، وافتقدوا صوتها الحنون الذي يخترق آذان صغارها يوقظهم بكلمات عذبة ملؤها الايمان والذكر، تشجع هذا وتساعد ذاك، ليذهبوا إلى مدارسهم آمنين مطمئنين بوجودها محّملين بما تحرص على تزويدهم به من وجبات صغيرة لذيذة، تاقت نفوس بناتها لأناملها وهي تمشط شعورهن وتتقن تصفيفه ظفائرا بشرائط بيضاء تحيل إحداهن الى فراشة ترفرف إلى مقعد الدراسة مزهوة بذخرها وسندها أم مؤمنة واعية، فقدوا طعم تلك الأرغفة الشهية الطازجة من خبز التنور الطيني ورائحتها تستقبلهم قبل دخولهم الدار ليسرع كل منهم ويلتهم بعضاً منها وقد تنوعت بالسمسم والجبن واللحم... وتنهرهم بلطف: لاتشبعوا بالخبز فقط، وانتظروا لنتغدى معا... طهوت لكم كذا وكذا، أطباقاً كادت عائلتها تجزم أنها لم ولن تتذوق مثلها، هي تختلط بأنفاسها الزكية، وربما قرأت عليها آيات من الذكر فكانت غذاءا ودواءا.

مهما أدت أختهم شذى من دوركبير، ورعتهم رعاية مخلصة وبذلت جهدها وبمساعدة أختيها زينب وسوسن، إلا إن مكان الأم له طعم ثان لا يعوضه أحد، أو يسد شاغره في قلوب الأطفال.

صديقات مخلصات سندا في المحنة

تعرفت الفتيات على فتحية وحمدية أخوات فاطمة الحسيني وتآلفن معاً، جمعهن الحجاب، وبدأ بعض الضيوف من المخلصين يزورونهم لتسعد العائلة جميعها، وتستشعر بأن حياتها عادت طبيعية، على الأقل تخف وحشتها، ويكسر الروتين الممل الذي تعيشه في أجواء الحصار الاجتماعي، إنهن فاطمة الحسيني، وإيمان عزيز الموسوي، وفاطمة حسان المقدادي كن زميلات لزينب في الإعدادية المركزية، وكن من أوائل المحجبات في هذه المدرسة، وحوربن وضايقهن اتحاد

بسم الله الرحمن الرحيم

وزارة الداخليه
مديرية الامن العامـــــه

الجمهوريه العراقيـه
سري وشخصـــــي

العدد / ب م ٥٢/٤٦٧٧٤
التاريخ ١٩٨٣/٦/٧

وزارة الماليه / الدائره القانونيه / المحقق
م/ مصادرة اموال

كتابكم ١٠٣٨٦/٢٥٣٢/٨٠١ فـي ١٩٨٣/٦/٢١
ندرج ادناه المعلومات المطلوبه بكتابكم اعلاه ٠ راجين التفضل بالاطلاع ٠٠ مع التقدير ٠

تدقيق و تحفظ
الاصل ٨٣/٧/٢

موقع/ عقيد أمن
ع/ مدير الامن العـــام

نسخة منه الى /

٨٣/٩/١٤

مديرية الامن العامه / ٤٥ / أن المتهمين المبينه اسماءهم ادناه احيلوا الى رئاسة محكمة الثوره بموجب القضيه المرقمه ٨٣/٤١ امن بغداد م ٥٢ وفق الماده ١٥٦ ق ع للعلم والتأشير لديكم رجاء ٠ — لم تم صدور حكم القرار

المعلومات :ـــ

١ ٠ ماجد حميد لفته / طالب يسكن شارع فلسطين
٢ ٠ طارق محمود حسن / شغله كاسب / يسكن مدينة صدام ٢٥/٥/١٦ ٠
٣ ٠ محمد عكار جبر / شغله ن ٠ ض/ يسكن مدينة صدام ٠
٤ ٠ طه رضا عبد الحسين / ضابط متقاعد / يسكن زيونه بالدار ٢٢٢٨/١١/٤
٥ ٠ كاظم مطلك فارس / شغله كاسب / يسكن مدينة صدام بالدار ٢٩/٢٦/٢٠ ٠
٦ ٠ كاظم عبد الحسين هادي / شغله طالب / يسكن الزعفرانيه بالدار ٣/١٩ ٠
٧ ٠ كاظم كريم محمد / شغله خياط / يسكن الحريه بالدار ٦٦/٢/٢٣ ٠
٨ ٠ عبير صالح عبد الهادي / شغله طالب / يسكن البياع ٠
٩ ٠ محمد فرحان عبد الله / كاسب بدلاريات / يسكن البياع بالدار ٦٥
١٠ ٠ والي عبد حسن / شغله كاسب / يسكن الحبيبيه ٠
١١ ٠ مهدي فرحان عبد الله / شغله موظف / يسكن الشعب ٠
١٢ ٠ ناجح كريم عزيز / شغله جندي / يسكن جميله ٠
١٣ ٠ يونس سلمان شبوكه / كاسب في الزيوت / يسكن مدينة صدام بالدار ٦٠/٢١/٢ ٠
١٤ ٠ هاشم عزيز مجيد / طالب / اعداديه / يسكن مدينة صدام بالدار ١٩/٢٢/٢١ ٠
١٥ ٠ مثنى موسى ناجي / شغله طالب / يسكن القاهره ٠
١٦ ٠ نجاح هادي كريم / شغله دكتور ومحام يسكن حي القاهره ٠
١٧ ٠ نايف عبد الامير عبد الكريم / شغله / موظف / يسكن الرشاد ٠
١٨ ٠ هاشم مهدي حسين / كاسب / يسكن بغداد الجديده / المشتل ١/١٥/٢٨ ٠
١٩ ٠ محسن هادي محمد / طالب / يسكن شارع فلسطين ١٤ تموز ٠
٢٠ ٠ محمد جواد عبد الرسول البغدادي / شغله كاسب / يسكن الخليج ٠
٢١ ٠ محمد شاكر عبد الصاحب الديواني / شغله كاسب / يسكن الكراده الشرقيه ٤/٢٠ ٠
٢٢ ٠ محمد عباس ابراهيم / شغله طالب / يسكن حي العامل ٠
٢٣ ٠ [illegible] عبد الرحمن / طالب تارك / يسكن الحريه / الدباش ٠

لاتوجد معلومات
مدقق
رتبة المدقق
تاريخ التدقيق

جمعية السجناء الاحرار
المقر العام
Central Office
Association Of Free Prisoners

-٢-

٢٤ • كريم راضي زاير/ طالب معهد النفط/ يسكن مدينة صدام ١٩/٢٢/٢١ •
٢٥ • مرزه حمزه عداي/ شغله كاسب/ يسكن الزعفرانيه •
٢٦ • موفق ابراهيم علي /عامل اهلي/يسكن مدينة صدام ٦٢/٢٤/٦٨ •
٢٧ • يوسف محمد عبد الحسين /شغله موظف في منشأة البكر/يسكن البصره •
٢٨ • حسن عبد الرحمن كريم/شغله ج.م يسكن بغداد /جميله ٤/١/٧٥٤ •
٢٩ • ضياء محمد جعفر/ طالب معهد الاداره / يسكن الكراده الشرقيه /البوشجاع ١٦ج/٢/١٠
٣٠ • صلاح شاكر محمود / شغله موظف /يسكن الكراده الشرقيه /البوشجاع •
٣١ • حسين ناجي حمودي/ شغله موظف/ يسكن القاهره ٧/٥/٢٦٢٨ •
٣٢ • حسين علي حسين /شغله طالب/ يسكن مدينة صدام بالدار ٥١/٢٥/١٦ •
٣٣ • فاضل نعيم نبات/ يسكن مدينة صدام بالدار ٣٢/١٦/١ •
٣٤ • حسين شاكر عبد الصاحب الديواني /استاذ في معهد الاداره / في ابو غريب يسكن الكراده الشرقيه / ٢٤/٢٠ •

٣٥ • سمير علي رلي الكاكائي / عاطل عن العمل / يسكن الحريه الدباش/١٢/ ١٧١/٣ •
٣٦ • قصي موسى محسن / طالب اعداديه / يسكن جميله •
٣٧ • كريم خرداد محمد /طالب يسكن مدينة صدام بالدار ٨/١٢/ ١٣ •
٣٨ • رعد عبد الستار عبد الكريم/ طالب/ يسكن مدينة صدام بالدار ٣٢/٨/٢٤ •
٣٩ • عبد الرضا ناجي حمودي/ ميدني /يسكن بغداد / حي الجوادين •
٤٠ • عبد الكريم مابع جواد /طالب اعداديه يسكن مدينة صدام بالدار ٤/١٠/٣٦ •
٤١ • عبد الرضا نمر جبر/شغله عامل / في الدوريين / يسكن درر الموظفين ٧٨٢ •
٤٢ • فيلان جاسم محمد / شغله عامل / يسكن بغداد الجديده ٥/١/٦
٤٣ • عامر مهدي رشيد - شغله طالب/ يسكن الكراده سبع قصور ٢/١/١٢ •
٤٤ • علي جابر مرزان / شغله طالب/يسكن مدينة صدام ٣١/١٨/٢٧ •
٤٥ • عصام محمد صالح / شغله طالب/ يسكن حي ١٤ تموز •
٤٦ • علي كاظم عوده / شغله طالب/ يسكن مدينة صدام •
٤٧ • عربيه جواد حسين / ربت بيت /تسكن العقاري / ٢٢٠٠/٣/٣ •
٤٨ • عدنان نوري كيطان / عامل اهلي / يسكن الشعب /حي الجزائر ٧٣٦/١/٩ •
٤٩ • عبد الامير علي زغير/شغله مهندس/ يسكن النجف/ الكوفه ١١٦٢/١٦٦ •

جمعية السجناء ...
Central Office

الطلبة، والبعثيات المنظمات فيه من الطالبات، وسعدية عذيب أخت الشهيد محمد أحد أصدقاء والدهم الحاج أبي هيثم المقربين، وهو أحد أفراد مجموعته التي اعتقلوا جميعا، وطالبة في نفس الإعدادية التي فيها سوسن، كان التقرب من دارهم مجازفة كبيرة وأعين المراقبة والتجسس تحوطه، إلا أن المواقف النبيلة توجب بعض التحدي أحيانا، كانت العائلة جميعها تسر وتستبشر بقدوم أي ضيف يواسيها على ضيم تعددت أوجهه.

سندس وعي وإرادة وإيمان

سندس الإبنة الوسطى لهذه العائلة الكريمة، طفلة هادئة الطباع وديعة الملامح، وفي عينيها حزن عميق، وكيف لا وهي تفقد أحبتها تباعاً وتزداد كل يوم ألما والتياعا.

كانت لديها موهبة في الكتابة وأسلوب جزل... أما خطها الجميل فهو سمة من سمات هذه العائلة... كتبت سندس قصة حزينة علّها تنفس فيها الهم والغم اللذان جثيا على صدرها... نعم كتبت وباختصار ماجرى عليهم منذ فارقها والدها الحنون، ومن بعده والدتها الرؤوم وأخواها.

كما إنها تأثرت كثيراً بما تسمعه من أخواتها وما يبثه المذياع في إذاعة إيران من قصص بطولية للشهداء وعلى رأسهم الشهيد الصدر وأخته بنت الهدى رائدا الحركة الإسلامية في العراق، تزامن ذلك مع أحداث إحتلال جنوب لبنان من قبل الصهاينة وما حدث من ترويع وإجرام للأبرياء في جنوب لبنان.

كما أنها رأت بأم عينها ماجرى لعائلتها، وعدد من صديقاتها من الكرد الفيليين، وحملة التسفيرات التي شنها البعث، واستيلاء أزلامه على بيوتهم وممتلكاتهم، لتزداد لوعتها وهي تفقد حبيباً بعد آخر.

رغم صغر سنها لكنها كتبت أشبه مايكون بالمنشور السياسي، فقد أرادت أن تكسر الصمت المطبق الذي يحيط بها من المجتمع الذي لم يحرك ساكناً على أي جريمة أرتكبت بحق أحرار العراق... أرادت أن تعلمهم بما جرى عليها، وعلى عائلتها من ظلم وحيف، وأشارت إلى استشهاد السيد الصدر وأخته، وأن على المسلمين النهوض، والإنتفاض لردع هذا الظالم المتجبر وعدم السكوت عن إجرامه كي لاتطال ناره الأبرياء.

وعلى قدر تفكيرها الغض، وعمرها الذي تنقصه التجارب، لم تحسب لعيون الجلادين حساباً، ولم يخطر على بالها أن كلماتها هذه ستقع بأيدي أحدهم، أو بيد لئيم من أذنابهم... الورقة كانت كبيرة (ورقة سجل)، والكتابة تملأ وجهيها، كما أنها لحداثة سنها أشارت إلى تفاصيل دقيقة عن عدد أفراد عائلتها ومرحلتها الدراسية، ولم يكن صعباً على أي من سكان المنطقة التعرف على الكاتب.

كررت كتابتها فصارت ثلاث نسخ دون أن تعلم أخواتها الأكبر منها بذلك... هي ردة فعل طفلة حرمت حنان الأم والأب، ولم تبسم لها شفة منذ سنتين، وقلبها الصغير يئن لوعة وحسرة لاتهدأ جمرتها، وتزداد يوما بعد يوم، فلا بد من متنفس وكان هذا ماتوقعته سيزيل عن صدرها بعضا مماجثم عليه، وألحّ عليها وعيها لما يجري في وطنها وما يعانيه شرفاء شعبه.

ولم تدرِ أنه بداية لطريق مظلم ستمر به العائلة جميعها، وكيف لا وعيون وقحة وضمائر ميتة ونفوس مريضة اشتراها البعث، وجعلها أذرعاً له في أرجاء العراق زقاقاً زقاقاً، لم يغب عنهم أي شيء يقوم به المعارضون.

إنتهى العام الدراسي وفي الثلث الأخير من شهر أيار لعام 1982، ذهبت سندس إلى مدرستها ككل طالبات الصف الأول المتوسط في إعدادية الزهراء في شارع فلسطين لاستلام نتيجة امتحاناتها، أخذت هذه الورقة ونسخها الأخرى معها إلى المدرسة عندما ذهبت دون علم من أخواتها الكبيرات، حتى أختها

إخلاص رغم قربها منها وملازمتها لها... وبتفكيرها الطفولي البريء، واستجابة للضغوط الكبيرة التي مرت بها طيلة هذين العامين، أسقطت تلك الأوراق من يديها كنوع من التحدي الكامن في نفسها لمن سبب لها ألم وحرمان، ونوع من أداء الواجب، ولم تعرف حجم الكارثة التي ستحل عليها وعلى عائلتها، واعتقدت أن الاوراق ستقع بيد من يتعاطف معها أو يحزن عليها، وربما يدعو لها ولأهلها بالفرج القريب... اعتقدت أن الكتابة مادامت إشارات بدون دلالات واضحة كالأسماء والعناوين الدقيقة، فأنها ستكون مجرد رسائل تذكير وتوعيه للناس بما يحدث لعوائل العراق!!

نعم لا يمكن لطفلة قد يُتمت منذ نعومة أظفارها، وتحول عيشها الرغيد الى بكاء ونحيب، وانقطع عنها مدد الحنان من كلا أبويها أن تفكر بأروع ولا بأشجع من ذلك.

اعتقال جماعي لعائلة هادي عبد الحسين النجار

حدث ما لم يكن بحسبان الصغيرة سندس وفات عن وعيها إن العائلة جميعها تحت المراقبة، لذا كانت هذه الورقة دليل إدانة لها، بأنها تتهجم على الحكومة وطاغوتها، وبعد شهرين بدأت الاعتقالات فأعتقلوا كلاً من شذى الأخت الكبرى (1959) سوسن (1962) وحسين (1964) جميعهم كانوا في دائرة الأحوال الشخصية في الكرادة لإصدار شهادة الجنسية العراقية لأن سوسن وحسين يحتاجونها في التقديم إلى الكليات، هما قد أكملا الإعدادية، أما زينب (1961) فلم تكن معهم، وإنما كانت تراجع للحصول على فرصة عمل لتساهم بها في توفير مصروف البيت وتحسبت أن ماتركه لهم أبوهم ربما ينفذ وهم عائلة كبيرة ومتطلباتهم كثيرة.

وصل أزلام الأمن غير المؤتمنين إلى البيت، وأمروا سندس (1970)

وإخلاص (1967) أن تأتيان معهم لأن شذى أختهم تريدهم لكي يصدروا لهما شهادة جنسية فأقتادوهما إلى أمن الثورة حيث وجدوا أخواتهما قد سيقوا إلى هناك.

وكان كل من يعتقل من العائلة يصعدونه إلى غرفة في الطابق الثاني من مبناها الجديد الواقع في شارع خير الله طلفاح حي جميلة حيث كنا... يشدون وثاق كل منهم بإحدى الأسرة الحديدية الموجودة في تلك الغرفة، بعدها اعتقلوا زينب، وأختهم هدى متزوجة من شاب إسمه فخري يعمل في مطعم في منطقة الكفاح في بغداد فأعتقلوهما معاً: هدى لأنها إبنة هؤلاء، أما فخري فلأنه زوجها، ولأن أبا هيثم والد هدى كان يرسل رسائل إلى أهله عن طريق عنوان المطعم... كل تحرك لهذه العائلة ومن يتصل بها مراقباً مراقبة دقيقة.

كمن أزلام الطاغية في دار الحاج أبي هيثم ليتصيدوا كل من يأتيهم بعد أن بقي الصغار أحمد وثناء وأمل ورغد إبنة ثلاثة أعوام والباقي أكبر فأكبر عاماً عاماً.

فجاءت الحاجة أم ضياء وابنتها الشابة هناء عبد الرضا مواليد (1963) لتطرق بابهم حاملة معها قماش تريد من زينب أن تخيطه لهم، وتتفقد العائلة لمعرفتها بأنهم دون أبوين، وهن بنات شابات يحتجن إلى حنان الأم... وأم ضياء هذه إمرأة مؤمنة قد تم اعتقال ولديها الشابين صفاء عبد الرضا، وكمال عبد الرضا عام 1980 وقد أتهما بالإنتماء إلى حزب الدعوة، وكنوع من التواصل مع الفكر الذي حملاه وشفقة بصغار هذين الأبوين تواصلت هذه الوالدة مع هذه العائلة المنكوبة... لكنها اليوم لم تجد سوى تلك الوجوه المكفهرة الحاقدة ونظراتهم المرعبة التي تنم عن قبح أعمالهم.

ولم يتركوها تذهب من حيث أتت، فقد اقتادوها وابنتها هناء الى أمن الثورة، وسط دهشة وحيرة عاشتها هذه الأم الطيبة، وهناء الشابة البريئة، وعلامات استفهام تدور في رأسيهما مالذي فعلتاه؟ وبأي جرم يعتقلان؟؟.

ولكنهما فوجئتا ببنات النجار كما كان يسميهن الجلاد أبو جواد جميعهن في المعتقل، وبنفس الطريقة تم اعتقال عبد الكريم محسن طالب في كلية الطب جامعة الكوفة صديق أخيهم علي، عبد الكريم هذا شاب متدين في مقتبل عمره أملى عليه الواجب الأخلاقي، والالتزام الديني والوفاء لصديقه أن يتواصل مع عائلته ليقدم ما أمكنه من مساعدة لهم خاصة، وأنهم جمع من النساء، إلا شاباً يافعاً هو حسين وأحمد طفل ذو خمسة سنوات.

وبعد أيام من الكمائن التي أعدها أزلام الطاغية لهؤلاء المخلصين المتعاونين مع هذه العائلة عندما خذلها الجميع، خرجوا من البيت سارقين كل غالٍ ونفيس، حاملين معهم الحلى والجواهر الثمينة، وكل ماتملكه العائلة من مال إلى تلك الدائرة المشؤومة حيث اعتقلوهم هناك.

أما الصغار (أحمد، رغد، أمل، ثناء) فقد أخذوهم إلى بيت عمهم الكائن في منطقة شارع فلسطين، بعد أن استحوذ هؤلاء الخاطفون على الدار وصادروها ليسكن بها أحد (الرفاق) هم قد اعتادوا على الحرام واستحلوا أموال وأعراض الناس دون أدنى حياء أو مخافة من الله سبحانه، هل اعتقدوا أن هذه غنائم يغنموها من (المشركين) فاستحلوها؟ لا أحد يدري! لكنه ديدنهم هم بطون جاعت ثم شبعت فما أبعدهم عن الفضائل...

سندس الصغيرة تحت العذيب

وبدأ التحقيق والتعذيب مع كل فرد من العائلة صغاراً وكباراً، وأكثر مانال منهم هذا العناء هي سندس، فلم يصدق الجلاد أنها هي من كتبت هذه الورقة، صغر سنها جعله يشكك في ذلك الأمر.

طفلة صغيرة نحيفة البدن لاتقوى على تحمل تلك الأساليب البشعة وما ينهالون به على أجساد المعتقلين ضرباً وتمزيقاً... وعلى الرغم من إعترافها لكن

أبا جواد لم يصدق، وظل ينعق بصوته المرعب محذّراً إياها من التلاعب والتحايل مردفاً ذلك بسيل الشتائم، والكلام البذيء الذي ينم عن قذارته وخسته.

وعندما عذب شذى وكان في البيت اسمها نضال، كان يسألها عن صديقات زينب وسوسن، وبإصرار وإلحاح فقد عثروا على كتيبات ومنشورات عن حزب الدعوة الإسلامية في غرفة زينب وسوسن عند تفتيش الدار يوم اعتقلوهم، أمعن في تعذيبها بكل قسوة لدرجة لم تعرفها أخواتها لسوء حالتها الكدمات تعلو وجهها الشاحب وقد تورم كفاها من التعليق... ماعرفنها الا من لون ثوبها الممزق من شدة الضرب وفوطة أمهم التي ترتديها وعباءتها المتربة!!

كان يعذب الأخوات تباعاً واحدة تلو الأخرى، وبمعزل عن بعضهن البعض محاولة منه للإيقاع بهن كي لايتفقن على الإدلاء بمعلومات معينة... عمد الى خداعهن بأنه يريد أن يبرّأهن فهن حتماً مغرر بهن، ولايعرفن حقيقة مايدور، وعليهن مساعدته بأن يخبرنه عمن ساقهن إلى هذا الطريق.

إيمان عزيز في قبضتهم

في 28/ 8/ 1982تم اعتقال إيمان عزيز علي شابة من مواليد (1961) خريجة معهد الصحة العالي، زارت العائلة لمرة واحدة فقط، وكانت تلتقي زينب في حضرة الإمام الكاظم (عليه السلام)، فقد ارتبطتا بتنظيم نسوي لحزب الدعوة الإسلامية خط شارع فلسطين، الذي كانت تقوده فاطمة علي طالب الحسيني... المرأة التي حيرت الجلادين بقوتها وصبرها وإيمانها الثابت.

أعتقلت إيمان في نفس اليوم الذي كان والدها عائداً من سفرة إلى تركيا، فقد وصل قبل الظهر، وفرحت العائلة بعد أن فارقهم لأيام، وقد جلب لهم الهدايا الجميلة، واجتمعت العائلة في أول غداء لهم يجمع شملهم بأبيهم، وبدأ

الوالد يحدثهم عن تركيا وجمالها وطبيعتها الخلّابة، واعداً إياهم بأنه سيأخذهم في العام القادم جميعاً كي يقضوا معا وقتاً سعيداً هناك.

وفي هذه الأثناء طرقت الباب فإذا بدورية من أمن الثورة تقف أمام تلك الدار الأمنة في منطقة الشعب، خرج أخوها محمد وعاد ليقول: شخص ما يسأل عنك يا إيمان!! خرجت بعفوية لتجدهم أمامها وعلى الفور سألها أحدهم: أنت إيمان؟

أجابت مستغربة: نعم...

كان يمسك ورقة وقلما وطلب منها أن توقع عليها... لم تعرف محتوى الورقة التي كانت عبارة عن سطرين من الكلمات ليس فيها ما يقلق أو يدين...

وقعتها فإذا به يمسك بيدها بشدة جاذبا إياها للمضي معهم فلديهم بضع أسئلة يريدون منها أن تجيبهم عليها... علت الدهشة وجهها وكل أهلها حضور مصدومين... ما الذي جرى؟؟ ولماذا؟؟

حتى أن أبوها عندما تساءل مندهشا ومعترضا... أجابوه بكل وقاحة: "ماكو شي حجي... إذا تريد تعال "ويانه!!

لم تكن ترتدي حجابا كاملا سوى عباءة... لذا نادت: "يمه عيني جيبيلي ربطتي"... والأم ذاهلة من هول الموقف... لكنها توارت خلف الباب وخلعت وبسرعة شالا أبيضا كانت تضعه على رأسها تحت عبائتها مما كان يُهدى من قبل حجاج البيت الحرام وألبسته لإيمان... وهكذا أختطفت إيمان أمام أعين والديها وأخوتها وأخواتها، فقد كانوا مسرعين، وأرادوا حسم الأمور بأقل الخسائر!!

عائلة إيمان عطاء لن يتوقف

إيمان عزيز علي... من عائلة عارضت النظام وعرفت بأنها من العوائل

الحاقدة على الحزب والثورة كما كان يطلق عليها الطاغية صدام، في أواخر عام 1980 بعد أن اندلعت الحرب العراقية الإيرانية أعتقل إبن عمها وزوج أختها طبيبة الأسنان إبتسام، من دارهما الواقعة في منطقة الشعب أحمد صاحب علي مهندس في وزارة الكهرباء.

وبعد يومين من هذا التاريخ أعتقل المهندس عبد الكريم عباس العلوي زوج أختها أحلام طبيبة أسنان في منطقة حي العامل، وكان موظفا في هيئة الكيبلات المحورية.

استمرت المآسي... وبعد أيام قلائل جاء أزلام الأمن وطلبوا من والد إيمان السيد عزيز علي وهو في مكان عمله أن يرافقهم الى مصرف الرافدين حيث تعمل ابنته إعتماد، فاحتالوا عليها وطلبوا منها مرافقتهم وبعد عدة أمتار أنزلوه من السيارة ليعتقلوها أمام ناظريه ماضين بها إلى أمن الثورة، وذلك في تشرين الثاني 1980 تاركين إياه مذهولاً حزيناً، وعبثا ذهبت كل توسلاته بهم، ومضوا بها مسرعين هي هدفهم وليس هو.

أول سؤال وجهه المحققون لإعتماد عن زوجها صادق خالد عبد الرحمن، وأين يعمل؟زوجها المدّرس لمادة الكيمياء في إحدى المدارس الإعدادية منطقة الإسكندرية على طريق كربلاء، ناشطا سياسيا وله علاقة تنظيمية بأعضاء من حزب الدعوة، وكان قد ترك داره وإياها وابنتهما بعد أن أحس بمراقبة أزلام النظام له وتيقن بأنه مطلوب بعد أن هجم رجال الأمن على دار جاره (مظهر) المكنى بأبي نواره، والذي كان يعمل في معهد الباثولوجي حيث أعتقلوه مع إثنين من إخوته حسين وعباس.

ولكي ينجو من هجماتهم التجأ صادق إلى دار أهل زوجته إعتماد في منطقة الشعب، وفعلاً أفلت منهم رغم المراقبة الشديدة لبيته ولكن لمدة أحد عشر يوما فقط لأنه استمر بدوامه في المدرسة ومنها إعتقلوه...

إعتقلوه وأخوته الثلاثة لائق وفائق وناطق، وبقيت إعتماد شهراً في دائرة

أمن الثورة، ولولا أنها مرضت مرضاً شديداً لما أخرجوها، أصيبت بالسل الرئوي والتهاب الكبد الفيروسي (أبو صفار) في آن واحد وقد أوشكت على الموت وحالتها أسوء ماتكون عليه إمرأة شابة...

وعند عودتها إلى بيت أهلها كانت في حالة صحية متردية، وعلى الرغم من كل الضيم الذي عاشته شهراً كاملاً في ظلم مطامير أمن الثورة ومارأت من مآس يعيشها المعارضون، لكنها كانت بأشد ماتكون شوقاً لطفلتها الوحيدة زينب إبنة العام الواحد... حارت العائلة بأمرإعتماد وهم يرونها هيكلا عظميا منهكا وقد انتفخت بطنها بسبب الإلتهاب الشديد لكبدها إذ كانت درجة إصابته متقدمة.

سارعت والدتها بها إلى مستشفى مدينة الطب، والقلق يسيطر عليها وقلبها يخفق شفقة وحنانا وهي تسأل الله أن يلطف بابنتها... تزامن وجود إعتماد مع رقود الشهيدة سلوى البحراني والشهيدة أمل في احدى ردهاتها وهما تعانيان آثار التسمم بالثاليوم الذي سقوهما به أثناء اعتقالهما... لذلك إعتقد الأطباء أنها مثل حالتهما... تساءلت الأم الولهى عن مرضها العضال، فأجابها الطبيب: إنها مصابة بالسل الرئوي... شكرت الله وأجابته: الحمد لله على كل حال... إن شاء الله تشفى فحاشاه أن يخذلنا...

كل تلك الأمور المعارضة للبعث كان يعرفها أبو جواد عن عائلة إيمان... بل إنه قد تذكر إعتماد يوم عذبها بيديه، إذ بمجرد أن فتحت عصابة العينين عنها سألها مستنكرا: أنت إعتماد!! هما أختان والشبه بينهما كبير ويبدو أنه تفنن في تعذيبها لهذا ظلّت صورتها ماثلة في مخيلته العفنة.

الموت يفّرق الصديقات بلا وداع

إيمان خريجة معهد الصحة العالي، الكائن في منطقة المنصور ببغداد، قد إنتشرت مظاهر التدين بين طلبته وطالباته، فعلى الرغم من مضايقات إتحاد الطلبة

إلا أن أغلب طالباته محجبات... سهامه أخت الشهيد سمير مير غلام كانت معها في نفس المرحلة وقد إعتقلوها قبل امتحانات نصف السنة وكل عائلتها بعد حادثة المستنصرية وإستشهاد أخيها رميا بالرصاص أمام أنظار طلبة الجامعة زاعمين أنه حاول إغتيال طارق يوحنا عزيز نائب رئيس الوزراء آنذاك.

وعن إعتقال سهامه تتذكر إيمان أنها كانت فتاة جميلة مهذبة هادئة الطباع، ولأن موقع سكناهما بنفس الإتجاه غالبا ما يجمعهما طريق العودة من المعهد الى البيت.

في نفس اليوم تجاذبتا أحاديث الإيمان حيث تلتقي الأرواح والقلوب النقية من درن الدنيا، وقضيتا وقتا مفيدا في مذاكرة كتيب الصبر للكاتب عامر سليم عساف... بعدها استقلتا حافلة النقل العام ذات الطابقين آمنتان مطمئنتان وكل منهما تعتز بهذه الأخوة التي حباهما الله بها... وعند وصولهما منطقة باب المعظم كانت الأوضاع مضطربة جدا... أصوات سيارات الشرطة والإسعاف تضج بالمكان والناس في خوف وحيرة... افترقتا على عجل كل باتجاه حافلة تقلها الى بيتها، ولم تدر سهامة أن أخاها سمير قد قتلوه غدرا وسالت دماءه على أرض جامعته المستنصرية... ولم تدر أن أزلام السلطة داهموا بيتهم وكمنوا لكل قادم ليعتقلوه على الفور، ولا يمكن للقلم أن يصف مشاعرها وهي ترى وجوههم المكفهرة تستقبلها بإشهار السلاح بوجهها البرئ ويسوقونها وأهلها الى جحيم دهاليزهم المظلمة...

كان ذلك يوم الثلاثاء الأول من نيسان عام 1980، لم تعرف إيمان شيئا عن زميلة درسها ولم تراها بعد تلك اللحظة إلا في الصفحة الأولى من جريدة الثورة وقد نشروا صور العائلة جميعا على أنهم عائلة مجرمة عميلة... إنعكس ذلك سلبا على طالبات القسم واشتدت مضايقات إتحاد الطلبة وهددوا باعتقالهن جميعا كزميلتهن سهامه... فلطالما أساءهم أن جميعهن لم ينتمين لحزبهم الجائر سواءا محجبات كن أم سافرات...

عرف عن هذه الأسرة في المنطقة السمعة الطيبة وحسن الجوار، واذا بهم يقمعونهم جميعا بإخفاء قسري وبعد إقامة مريعة تحت سطوة الجلادين العتاة

يقتلونهم جميعا بغض النظرعن كل إعتبار... وبعد سقوط الطاغية تبين أنهم أستشهدوا جميعا صغارا وكبارا، ولكن لا أحد يعلم.كيف أزهقت أرواحهم؟ ولا أين دفنت أجسادهم؟

بيت سهامه مير غلام صادرته السلطة البعثية وأحالته الى معتقل أمن الثورة، نعم البيت الذي ضم والدين مؤمنين ونشأ تحت سقفه أبناء وبنات تربوا على الهدى والعطاء صار مأوى للذئاب... بيت المؤمنين حوله البعثيون الى مقرٍّ لتعذيب المؤمنين وانتهاك حقوق الإنسان متجاهرين بالفسق وقد تجرأوا على الله ورسوله طاعة وخضوعا لفرعونهم صدام.

بيتهم الذي تقام به الصلاة ويتلى به كتاب الله آناء الليل وأطراف النهار... صار دهاليز قمعية تضّج بآهات المعذبين ونباح الجلادين... تلّطخت جدرانه بدماء الأبرياء وأريقت على أرضه وهجرته الملائكة يوم تعاطى أزلام البعث فيه كل منكر واقترفوا كل الكبائر...

الجلاد يعاقب أخوات إيمان بها

صب عليها جام غضبه معذباً إياها أشد التعذيب، وكان يؤكد على علاقتها بفاطمة الحسيني، فقد ربط وجود زينب هادي كحلقة وصل بين فاطمة وإيمان!!

انهال عليها بالضرب بكل قوته، وبأغلظ العصي، بعد أن أنكرت ماوجهه لها من انتماء لتنظيم يجمعهما وزينب... استشاط غضبا وشج رأسها بضربة أحدثت نزفاً شديد

غطى عينيها، وأغرق ثيابها، فقد وقعت ضربة عصاه على شريان فتدفقت الدماء من رأسها، وعلى الفور سحبوها الى غرفة التعذيب وعلقوها مكبلة اليدين الى ظهرها لتواجه آلاما لا تطاق يرافقها ضربات بالعصي ورجات كهربائية وجرح رأسها ينزف دما صبغ أرض الغرفة المرعبة... أنهكوها وهم يكررون: اعترفي... اعترفي...

بعدها شدوا قيدها بالسلم ولتمكث أياما في أسوء ظروف لجريح مثل جرحها العميق وغزارة الدم الذي فقدته والآلام المبرحة التي تعانيها من تعذيبهم الوحشي... وتلوث الجرح فارتفعت حرارتها بالحمى العالية، وتبين أنها أصيبت بالتيفوئيد وكادت أن تموت، بعد أن أضعفها المرض لدرجة لم تعد تقوى على القيام وهي شابة في ربيع العمر، لم يهتموا لشأنها، فطبيبهم المعهود أعطاها دواءا لم يكن أمامها خياراً غيره، هذا الطبيب الذي أقطع جازمة أنه ليس طبيباً، وربما مضمد صحي، أو شي من هذا القبيل... ولما استمرت الحمى وأدت الى حالات إغماء وكانت تسقط مغشيا عليها وتلازمها حالة من الهذيان قرروا إرسالها الى مستوصف في الأمن العامة وتفاجأ الطبيب المعالج بأن حرارتها تجاوزت 43 درجة فأعطاها حقنة تخفض الحرارة، ووجه بإرسالها الى مستشفى الكندي لترقد يوما هناك مقيدة الى السرير وقد غيروا أسمها الى زينب!!

وفي المستشفى تفاجأ الأطباء المعالجون بآثار التعذيب الواضحة على جسدها، وتحدثوا مع بعضهم باللغة الانكليزية مستغربين... فهمت حديثهم إيمان بحكم دراستها في معهد الطب ولم تستطع أن تعلمهم بوضعها والحراس واقفين بتأهب... ولم يحتاجوا جوابا منها والموقف واضح جدا عرفوا على الفور أنها معتقلة لدى أجهزة البعث القمعية ولا ريب أن تعذب.. ...ولا مجال لأي اعتراض، إنهم يعرفون جيدا قد يكونون في لحظات في مثل وضعها وفي ذات التعذيب... هو زمن البعث لا حقوق لأي انسان.

فاطمه حسان المقدادي

في يوم 29/ 8/ 1982 أي بعد يوم واحد من اعتقال إيمان، أعتقلت فاطمة حسان شابة من مواليد 1961 من سكنة بغداد خريجة معهد التكنلوجيا - قسم المساحة، من عائلة ملتزمة ومتدينة وتحرص على أن توصل أبنائها وبناتها لأعلى المستويات العلمية... نشط الأبن الأوسط في كليته بالبصرة نشاطا دينيا واعيا، كان يؤذن في مسجد المنطقة وهذه حالة غير معهودة آنذاك الا من الدعاة الذين أعادوا حياة الشباب للمساجد بعد أن ضاق نطاقها على الكهول... رافقه الشباب المتدين متحمسين لإعلاء كلمة الله التي سعى البعث الى طمسها، مما أثارالشبهة على العائلة، وتوالت التحذيرات عليهم من الأهل وبعض الجيران الخيرين فقررت العائلة الانتقال الى منطقة أخرى في حي جميلة، وخاصة بعد تسلم صدام المجرم الرئاسة والسلطة أشاع ثقافة: إن لم تكن معي فأنت ضدي... فكل شخص لا ينتمي لحزبه ولا يحمل أفكاره هو عدو له ومصيره الاعتقال ومن ثم أما الاعدام أو السجن.

بعد تخرج فاطمة من الإعدادية المركزية للبنات لم تنقطع علاقتها مع زميلاتها في المدرسة السائرات على نفس توجهها والتزامها زينب... سوسن... إيمان... سعدية... ومؤمنات غيرهن، فالطيور على أشكالها تقع... وكانت تتصل بهن تلفونيا وتتواصل معهن في مناسبات متباعدة، ولم تعلم فاطمة ما حل بعائلة النجار من مصائب واعتقالات.

اعتقل أخاها الاوسط عبد الله حسان محمد من مكان عمله... ولم تمض الا أياما معدودة وفي ليلة ظلماء وتحديدا في الساعة الثامنة مساءا، داهم مجموعة من رجال الأمن بيت فاطمة طالبين اعتقالها، ولما واجههم والدها بالرفض اقتادوهما معا الى دائرة أمن صدام أمن الثورة سابقا، وبعد بضع أمتار وعند بداية الشارع العام أنزلوا والدها عنوة، وعند وصولهم للدائرة وكإجراء معتاد أعصبوا عينيها بخرقة وبدأوا يحققون معها وبطريقتهم الهمجية عن إنتمائها ومعارفها وصديقاتها مع الضرب على مناطق مختلفة من جسمها وظهرها وكيل

السب والشتائم التي تصم الأذان من سماعها... لينتهي بها الحال للجلوس على إحدى درجات السلم الملاصق لغرفة التعذيب ويدها مكبلة بالحديد وهي تسمع أنين وصيحات المعذبين والمعتقلين، وقد تفاجأت عندما شاهدت زميلاتها قد تم اعتقالهن جميعا.

رأت بقربها إيمان وقد أغرقتها الدماء وهي تهذي من شدة الحرارة، وشاهدت الأخوات يقتادوهن تباعا الى التعذيب وصراخهن يوجع قلبها... نعم عاشت كل الآلام طيلة بقاءها على السلم وتعرضت لما يتعرض له معتقلوا هذه الدائرة المرعبة من إستخفاف وإستهانة بكرامة الإنسان.

سعدية صديقة العائلة

سعدية عذيب هليّل (1962) هي أخت المعتقل السياسي محمد عذيب هليّل، احد أصدقاء أبي هيثم والد البنات زينب وسوسن وشذى تسكن منطقة حي الأمانة في بغداد... زياراتها تكررت للعائلة هي وأخوتها، صديقة سوسن وزميلة دراستها في متوسطة (14 تموز)، وكانوا يتواصلون مع العائلة بعد أن هاجر أبوهم من العراق، وقد أدت عائلتها الواجب مع تلك الأسرة التي فقدت الأب بالإغتراب والأم والإخوة بالاعتقال، وتواصلوا معهم ليزيحوا عنهم وحشتهم التي فرضها عليهم أزلام البعث في حصار إجتماعي جعل الأهل والجيران يعرضون عنهم خوفا من بطش سلطة غاشمة لا تتوانى عن قمعهم.

سعدية طالبة في السادس الإعدادي ذات الصواري الفرع العلمي، قد اجتازت امتحانات البكالوريا غير أنها قد رسبت في مادة اللغة الانكليزية، والمفترض أن تمتحنه في أيلول كما في كل عام موعد امتحانات الدور الثاني، غير أن أبا جواد المجرم لم يمهلها هذا الوقت، وتم اعتقالها في 29/ 8/ 1982 الساعة 10:00 مساءاً، وسط ذهول أخوتها وعوائلهم، تصدت لهم والدتها ولم تتحمل المشهد ورفضت أن تسلّمها للأمن، وبعد ضجة كبيرة حدثت وافق أزلام

الطاغية على أن يصطحبوا والدتها وأخوها أبو ضياء فهي يتيمة منذ الصغر، وأبلغوهم أنه استجواب بسيط في المنظمة.

وفعلاً أصعدوهم في السيارة مع سعدية، ولكنهم بمجرد أن وصلوا إلى نهاية الشارع أنزلوا أخوها، ومن ثم استداروا إلى الجانب الآخر لينزلوا والدتها الشجاعة الواعية التي أوصتها وفي آخر لحظة بينهما: بأن تصمد ولاتبوح بأي اسم أو سر يساعد هؤلاء المجرمين.

وبعد أن سحبوها بشدة منزلين إياها من السيارة صرخت الأم الثكلى صرخة عالية دوت في المنطقة... وكيف لا وهي ترى فلذة كبدها بين أيدي أراذل الناس... تلك الصرخة التي ما انفكت حاضرة في ذاكرة سعدية توجعها ذات الوجع الذي حطم قلب أمها الحنون.

أخوات فاطمة رهن الاعتقال

دائرة أمن الثورة قريبة جداً من دار أهل سعدية، ولا يحتاج السائق سوى ثلاث دقائق للوصول اليها، إلا أنهم اتجهوا الى بيت آمن قريب ليعتقلوا ثلاث فتيات: إنهن بتول (1963) وفتحية (1965) وحمدية (1966)... أخوات فاطمة علي طالب.

ركنوا السيارة في الباب والليل قد انتصف، لم يطل تساؤلها عما يحدث، فبعد ربع ساعة... عاد الحراس وهم يقتادون ثلاث بنات كأنهن توأم، صدمت سعدية وهي تراهن وتحسبت للقادم الأسوأ الذي ينتظرهن جميعا.

نعم داهم الحراس دارهم الواقعة في شارع فلسطين، وكانت العائلة جميعهم نياماً إلا أخوهن كريم الذي كان مستيقظاً، فتفاجأ بهم فهم يسألون عن أخواته الثلاثة وقد وجه أحدهم مسدسه صوب رأسه مهددا إياه... أجابهم مذهولا: إنهن نائمات أعلى البيت بالسطح...

كل واحدة من البنات كان لها سرير خاص بها، وستار يحيط بالسرير (كُلّه) لأنهن محجبات، فصعد الحراس والضابط إلى سطح الدار وأيقظوهن تباعاً، ففزعت الفتيات وذهلن، فهن في ملابس البيت، أسرعن باحثات عن حجاب أو عباءه، تراكضن وهم يطاردونهن ظانين هروبهن، سعى بعضهم للبحث معهن عن العباءات، فهم يريدون إكمال جريمتهم قبل أن يستيقظ الوالدان اللذان كانا يرقدان في السطح الأعلى للدار، وبسرعة اقتادوهن الى السيارة فوجدن سعديه في حالة يرثى لها، أمروها أن تنزل ربطتها على وجهها وقد تأثرت كثيرا بماحدث بأمها عندما أنزلوها عنوة، لكن وجودها معهن منحهن طمأنينة وخفف الهلع الذي أصابهن... وهكذا تنتهك حرمة الدور الآمنة، إنهم لصوص يتسللون إليها لا لسرقة المال فحسب، وإنما لسرقة الحياة وحقها.

ولما وصلت السيارة استقبلهن الحراس متفاجئين عند رؤيتهم الأخوات الثلاثة، حيث سألوا من اعتقلوهن هازئين: "منين راح نجيبلهن حليب ومميات!!هذني شنو جايبيهن "؟؟

الفتيات الثلاث طالبات مع سندس هادي وأخواتها في أعدادية الزهراء... بتول في الصف السادس الإعدادي... وفتحية في الصف الخامس... وحمدية في الصف الثالث، يفترض أن يكن في هذه المراحل الدراسية لو سمحوا لهن بالدراسة... الا إنهم اعتقلوهن قبل يومين من بدء العام الدراسي، وخطفوا كل أحلامهن الصغيرة وسرقوا ابتسامتهن وهن يتهيأهن للعام الجديد وقد جهزهن أبوهن بأفضل ملابس وعدة مدرسية...

كانت البنات يبكين، ودموعهن تنساب بهدوء، فقد زجرهن الضابط وهو يقتادهن إلى حيث تجلس سعدية مقابل الصالة في الممر... بعدها شدوا وثاقهن مكبليهن على محجر السلم تباعا، لايفتح القيد الا مرتين باليوم لقضاء الحاجة في الحمام القريب من السلم...

مانامت الفتيات طيلة الليل، فهن في هلع شديد وليس أمامهن إلا البكاء

والتوجه إلى الله سبحانه وتعالى... هن خائفات ويفتقدن أختهن الكبرى التي فارقنها منذ أشهر عديدة، فاطمة قدوتهن ومن كانت ترعى شؤونهن، أعان الله قلب والديهن كيف استقبلا هذه المصيبة ليخلو الدار من جميع البنات... كن يبكين موقف أهلهن وكثيرا ماتذكرن كيف كان وضع البيت عند اعتقال فاطمة فكيف حالهم الآن...

أخوات فاطمة تحت وابل التعذيب

بعد عشرين يوما من مشاهد القمع المرعبة وحشرجات المعذبين التي تصك الأسماع ليلا ونهارا، استدعى مدير الدائرة مهدي الدليمي فتحية للتحقيق ولم يراعي صغر سنها ونحافة جسدها وملامحها الطفولية فصاح بها زاجرا ومهددا: "احجي شعلمتجن فاطمه... ياولو ما أريدج تجذبين"...

لما أنكرت متفاجئة وبكل عفوية: "والله ما علمتنا شي!!" هي صادقة فما الشئ الممنوع الذي تعلمنه منها؟

صاح مزمجرا قاصدا إرعابها: "شلون كلشي متعلمجن مو علمتجن الصلاة!!"

يالهذا المعتوه وهل يوجد مسلم لا يعرف الصلاة!! إنما خذلته فتحية ببراءتها وألجمته فلجأ لهكذا سؤال...

استمر بأسئلته التي لا جواب لها وهي تنكر أو لا تعرف أي جواب لها... حتى صاح كالكلب المسعور: "حرس اخذها خل تحجي "...

سحبوها اثنان من الحراس لتجد نفسها في غرفة التعذيب... وعلى الفور خلعوا عباءتها وشدوا وثاقها بحزامي الجلد وعلقوها الى السقف لتتعالى صرخاتها الطفولية وترّج المكان وليتألم كل من سمعها... فقد كانت مثيرة للشفقة صوتها ناعم جدا وصراخها يوجع القلوب.

لم يكتفوا بألمها الكبير هذا وإنما ضربوها ضربا شديدا ورجوا جسمها بالكهرباء فأغمي عليها... فسحلوها سحلا وهي كأنها ميتة ليوصلوها الى المخزن حيث أخواتها وكل من إيمان وسعدية وفاطمه حسان...

ثم على الفور استدعوا أختها الأصغر حمدية ومرت بنفس مامرت به فتحية ثم بتول والتي تأذت أكثر منهن جميعا، إذ عضت لسانها وهم يرجونها بالكهرباء وغرقت بالدماء والألم التي تستشعره لا يحتمل بعد ما أخذها منها الخوف والقلق وهي ترى أختيها الصغيرتين تحت وابل التعذيب ويتقطع قلبها حسرة حين تصك سمعها صرخاتهما البريئة، ولما وصل الدور اليها ماهمها التعليق والضرب والكهرباء وألم لسانها الذي أعاق حتى الكلام وتورم والتهب جرحه، وإنما كانت تدعوه أن ينهي هذه الماساة... مهما دوّن القلم لا يمكن أن يوصف المشهد، ثلاثة فتيات ضئيلات الأجساد، ذوات وجه طفولي متلفعات بعباءاتهن الصغيرة، علويات طاهرات يقعن تحت سطوة هؤلاء الجلادين، وهم لا يرعون فيهن الله وقد انتزعوا من قلوبهم كل رحمة وإنسانية...

إيه يافاطمه لوكنت حاضرة لما تحملت هذا ولتفتت قلبك الصبور كمدا وأسى، أنت تبكين على صراخ الشباب وهم يعذبون فكيف بهن حبيباتك... دمك ولحمك!! إختارك الله للشهادة فأغاض أعداءك وقرروا أن لا يذروا لك باقية، هم يعرفونك جيدا الموت ليس نهاية لك بل امتدادا، ولن يوقفوه مهما تفنّنوا في القمع والترهيب.

الطفلة فتحية عوقوا يدها!!

ما أشد إجرامهم المتواصل بدأب ودون كلل، ففي اليوم التالي استدعى الجلاد أبو جواد فتحية ثانية وهي تأن من آثار التعذيب وكتفاها مخلوعتان وقد علت وجهها كدمات عديدة واحتقنت الدماء تحت جلدها حتى غدى أسوداً...

وهو كالوحش الهائج وكأنه يعوض ما فاته من تعذيب يوم أمس ويتأسف لعدم المشاركة معهم... ما أن جلست أمامه حتى أعاد على عجالة نفس الأسئلة: ما الذي علمتكم أختك فاطمة... نفس حوار المدير معها... فتحية تكاد تموت وجعا... لم تقوى على مجرد إجابته، بل لم يدعها تتكلم حتى صاح مزمجرا: "ولج... أشو ماتخافين مني!!"

نهض من مكانه وانهال عليها ضربا مبرحا وهي تتلوى على الأرض يساعده الحراس الواقفين دون أن يكلفهم هو، فمن عاداتهم يجتمعون على الجور وكأنهم يقدمون صكوك الولاء لقائدهم المجرم... أكاد أجزم أن صمود وثبات فاطمة مازال حاضرا في مخيلة الجلاد أبو جواد، وظن أن فتحية تعيد مواقف الإباء العلوي لذا لم يمهلها تتعذب بضرباته القاسية فحسب وإنما أمر الحراس بتعليقها وهي مغمى عليها فسحبوها ولم تعد لوعيها الا من آلام التعليق المؤلمة... مفصلها يدور دورة كاملة حتى يتحول القيد الى أمامها... نعم انخلع مفصلا الكتف تماما!!

بعد الجولة الثانية هذه أعادوها الى المخزن المرافق لغرفة التعذيب... أصابتها حمى شديدة وهذيان والتهاب حاد في المجاري البولية وانحبس إدرارها وهي تبكي وتنادي أمها... وأنى لها ذلك وهي تحت رحمة هذه الوحوش الكاسرة... طرقت الباب البنات طالبات طبيب لها فقد أوشكت على الموت... فجاء طبيبهم المعهود فوجد حالتها المرضية متقدمة ويجب إحالتها الى مستشفى... فأخذوها مخفورة مع إثنين من الحراس وطلبوا منها عدم البوح بإسمها الحقيقي أو أي معلومه وسموها (إيمان)، وأمروها لبس نظارة سوداء معتمة لا ترى منها حتى خطواتها...

بعد قرابة عشرين يوما تماثلت للشفاء فلمحها أبو جواد وهي تاخذ دورها الى الحمام... فصاح: "ها ولج طبتي وصرتي زينة؟!"

وفي اليوم التالي استدعاها وتكرر نفس التعذيب والضرب المبرح... انكسر

على أثره ساعد يدها اليسرى فاستطالت فعرف على الفور أنها كسرت فأعادوها للمخزن وهي تتالم أكثر من كل مرة... ولأن إيمان خريجة معهد الطب طلبت من الحارس أن يناولها خرقة من قماش وبعض العيدان ولو من المكنسة لتقوم بتجبيرها فهي إن لم تتدارك الأمر ستعاق للأبد...

أخبر الحارس ضابطه المجرم الذي استشاط غضبا من تعاطف إيمان معها فهجم على المخزن وسب وشتم وتوعد وهدد وأمر الحراس أن يعلقوا فتحية وهي في هذا الحال!! سحبها الحراس والبنات في هلع شديد واحتبست الدموع في العيون والأنفاس في الصدور وأطبق الخوف على المكان... وسحبوها الى غرفة التعذيب... الا أنهم وبفضل الله شدوا وثاقها الى ظهرها من غير أن يعلقوها وكأنهم تأكدوا أن يدها مكسورة فعلا... وفتحية تتلوى من الآلام المبرحة.

أخرجوها من غرفة التعذيب ولكن ليس للمخزن، بل الى مكاننا في الصالة ليمنعوا البنات من التعاطف معها... أدخلوها بعد الجولة الرابعة من التعذيب وهي تبكي بكاءا مرا عيناها محمرتان وتحمل يدها اليمنى بيسارها، بعد أن أغلق الباب هرعنا اليها جميعا فكشفت عباءتها وإذا بها مكسورة الذراع، قد استطال ذراعها ولا تقوى على مجرد لمسه، طرقنا الباب طالبين إحضار طبيب فالطفلة تتألم، فجلبوا لها براسيتول (حبوب مسكنة) وقالوا: "هي تطيب شنسويلها؟!".

وفعلا تناولت حبتان من المسكن بعد كل وجبة طعام، كل ما تمكنا منه ربط يدها الى رقبتها بقطعة قماش ممن تلتقطها المعتقلات عند تنظيف غرفة التعذيب!!

يوما بعد يوما بدأ الألم يهدأ واستسلمت لقدرها الذي ساقها تحت رحمة هؤلاء الظالمين، وبعد أسابيع تشوهت ذراعها وتعوقت فصارت لا تصل الى رأسها ومنظرها واضح عليه الإعاقة.

هكذا يسيء هؤلاء دون خوف من الله أو من قانون، هم تواصوا بشحذ هممهم ضدنا وتعاون على الإثم والعدوان، وانسلخوا عن إنسانيهم ليغدوا وحوشا كاسرة لا يهتز لها ضمير وهي ترى هؤلاء الفتيات الصغار تتهاوى عليهم

العصي الغليظة التي لا يتحملها أعتى الرجال، أو يصعقن بلسعات قاسية من الكهرباء، أو يعلقن بالسقف لتخلع أكتافهن ولا يبالوا بكل الألم الذي لا يطاق، هكذا هم سيلقوا ربهم ملطخي الأيدي بدماء المؤمنين والمؤمنات ويساءلون ويحاسبون أشد الحساب، وسيحشر المعذبون وجراحهم في عين الله وسبيله الحق، استحضرت حينها حديثا نبويا شريفا: (ما من مكلوم يكلم في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة وكلمه يدمى، اللون لون الدم والريح ريح المسك).

سألت أخوات فاطمة عنها وأنا أستذكر كلماتها الحانية بحقهن وهي معذبة بأشد العذاب... أجابت فتحية متنهدة وقد اغرورقت عيناها بالدموع: لم نسمع أي خبر عنها، بل أننا جميعا تأثرنا باعتقالها فالمراقبات شملتنا جميعنا: أمي يلاحقونها حيث ذهبت، وفي المدرسة تتابعنا طالبات إتحاد الطلبة، حتى دفتر مذكراتي والذي أطلب من صديقاتي تتدوين أسطرا للذكرى نهاية كل عام وقد كتبت لي أختي فاطمة بعض السطور... أخذته إحدى الطالبات ولم تعيده لي، أظن أنها سلمته للأمن... ولكن قبل يومين من إعتقالنا وصلتنا رسالة خطية منها جلبها لنا أهل زوجها قد كتبت فيها أسماءنا واحدا واحدا وطلبت منا براءة ذمتها... لم نفهم ماالذي قصدته... نعم لم يعلموا أنها تودعهم الوداع الأخير لتترك هذه الدنيا الدنية وتلحق بركب الشهيدة بنت الهدى والتي خطت طريق المبادئ والإباء لخيرة نساء العراق...

أزهار تعود ثانية لجحيم أمن الثورة

أزهار عزيز أخت إيمان مواليد 1963 قد اعتقلت عام 1979 وعدد كبير من المشاركين في تظاهرة احتجاجاً على إعدام (السيد قاسم شبر)، كان عمر أزهار حينها ستة عشر عاما، وحكم عليها بالبراءة بعد أربعة أشهر من الإعتقال ربما لأنها كانت قاصرا... فضلا عن إعتقال أختها أحلام طبيبة الأسنان مع أخت زوجها منتهى ليوم كامل في حزيران عام 1981... نعم كتب على أفراد هذه الأسرة المؤمنة أن يكون لها شرف معارضة البعث الجائر وأن تكتوي أمهم بنار

فقد فلذات الكبد واحدة بعد أخرى... ولسان حالها يقول: فصبر جميل والله المستعان...

ها هي أزهار قد اعتقلت مرة أخرى بعد إيمان بأسبوعين في محاولة خبيثة لزجها في خط تنظيمي لحزب الدعوة، أو على الأقل تحصيل اعترافات على دعاة آخرين، وربما حقدا من أبي جواد الذي أذهلته هذه العائلة وعدم خشيتها منهم على الرغم من الإعتقالات السابقة لبناتها، كان يمتهن الإفتراء ويمتاز بالدهاء، ويربط خيطاً بخيط ليحيك قضية لها وقع كبير ليوهم أسياده ببراعته، فضلا عن أن منطقة الشعب من المناطق الناشطة، وتقيم فيها العوائل المعارضة للطاغية، فذهبوا إلى بيت إيمان مرة أخرى ليفجعوا الوالدة الثكلى بابنتها الأخرى، وقالوا لها كذبا بأن إيمان تريد أختها أزهار؟

فما كان من الأم الرؤوم والمؤمنة الصابرة إلا أن سلمت أمرها لله، وحرصت على أن تلبس إبنتها أزهار ما استطاعت من ملابس، لتشاركها مع أختها لعلمها بقرب حلول الشتاء ويأسها من عودة قريبة لهما.

لم تلتق إيمان مع أزهار طوال الشهر الأول، إلا في غرفة التعذيب حيث يعلقون الأختين في ذات الوقت وذات الغرفة، ويعذبون كل منهما بالضرب المستمر بالتوثية ولسعات عصا الكهرباء وهم يتصايحون: اعترفي... اعترفي، لم تكن أسئلة، بل وابل من السباب، والشتائم التي تنبعث من آنيتهم القذرة وتكشف عن محتواهم الحقيقي، نعم كرروا كلمة اعترفي مراراً وتكراراً ولما وصلوا إلى مرحلة اليأس دونت الإفادات حسب رغبة الجلادين، وضّخمت الأمور وبولغ برسم الأحداث هدفاً في عدم السماح لأي معتقل الإنتقال الى خارج هذا المكان الرهيب...

نعم ابتدع أزلام البعث أساليب ابتعدت عن الإنسانية، وانسلخت من أدنى رحمة، فهم حقا يصبون جام حقدهم على هذه العوائل الشريفة، ولأزهار كان نصيب أوفر من هذه الأساليب لكونها قد أعتقلت سابقا وفي نفس الدائرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مديرية الامن العامـــــــه

مديرية أمن محافظة بغداد

العدد س٥٢/ ٢٨٦٩٧

التاريخ ٨/ ٦/ ٩٨٣

١٧٠٤٩
٢١٩٢

سرى للغايه

الى : مديريــــــــة ـــ ٣٢

م : حســم قضيه

أشارة للقضيه المرقمه ٩٨٢/١٧ أمن مدينة صدام •• بتاريخ ١٢/ ٥/ ٩٨٣

نظرت رئاسة محكمة الثوره بالقضيه اعلاه وقررت ما يلي :ـــ

١ • الحكم على المتهم صبحي جاسم محمد السعدى ، شغله مدرس ، يسكن حي اور ٦٨٥/ ٦/ ٥ ، بالاعدام شنقا " حتى الموت وفق الماده ١٥٦/ ٤٩، ٥٠ ، ٥٣ من ق ع ومصادرة أمواله المنقوله وغير المنقوله •

٢ • الحكم على كل من :ـــ

آ ـــ زينب هادى عبد الحسين ، خريجة اعداديه ، تسكن حي العقارى بالدار ٣٠٠٧/٣/٣ •

ب ـــ فاطمه حسان محمد ، خريجة معهد التكنلوجيا ، تسكن حي جميله بالدار ٩٣٧/١/٤ •

جـ ـــ ايمان عزيز علي ، خريجة معهد الصحه العالي ، تسكن حي عدن ٨٢٢٧/ ٢/ ٩ •

د ـــ عبد الكريم حسين جبار ، طالب كلية طب الكوفه ، يسكن حي العقارى بالدار ٥٦٠٨/٣/٣ •

/ يتبع ر جاء /

هـ ـ ياسين جاسم جريذي ـ شغله مقاول ، يسكن الزعفرانيه ،بالدار ١٧/١١٧

و ـ مجيد حسين بدر ، شغله معلم ، يسكن بغداد الجديده ـ الامين الاولى بالدار ١٠ب/٥٧ •

ز ـ سوسن هادي عبد الحسين ، خريجة اعداديه ، تسكن العقاري بالدار ٠٣/٣/٣٠٠٧

بالسجن المؤبد وفق الماده ٤٩/١٥٦ ، ٥٠، ١٣٢/٥٣ من ق•ع على أن تحتسب موقوفيتهم ومصادرة أموالهم المنقوله وغير المنقوله •

٠٣ الحكم على المتهمه سعديه عذيب عليـــــل ، طالبه اعداديه ـ تسكن حي الامانه ٣/٣/٥٩١٤ •• بالسجن المؤبد وفق الماده ١٥٦/ ٤٩، ٥٠ ، ٧٩/٥٣ من ق•ع ،على أن تحتسب موقوفيتها ومصادرة اموالها المنقوله وغير المنقوله •

٤• الحكم على الفتاة سندس هادي عبد الحسين ، طالبه في اعدادية الزهراء تسكن حي العقاري بالدار ٣/٣/٣٠٠٧ بالحجز لمدة اربع سنوات فـــي مدرسة الفتيات الجانحين وفق الماده ٤٩/١٥٦ ، ٥٠ ، ٥٣ /٧٣ من ق•ع على أن تحتسب موقوفيتها •

٥ • الحكم على كل من :ـ

أ ـ بتول علي طالب ـ طالبه في اعدادية الرشيد ، تسكن شارع فلسطين ـ بالدار ٥٠٨ محله ١١٦ زقاق ١١ ، ١٤ تموز •

/ يتبع رجاء /

المشؤومة... كان يعلقون شعرها مع يديها لزيادة إيلامها، فيغمى عليها في كل مرة، ولم تأخذهم بها رحمة أو شفقة، قضت الأختان أشهرا في هذا المعتقل، وقلبيهما يعتصران ألماً على والدتهما الثكلى التي ما انفكت غربان الشر تلاحق عشها وتختطف فلذات أكبادها... فبعد أزهار أعتقل ولديها الحدثين علي لم يكمل ثمانية عشر عاما، ومحمد بن الستة عشر ربيعا... لتعيش هذه العائلة أحزانا متتالية ويخيم الحزن والقلق عليها وهي تحتضن بناتها وأحفادها الأيتام، إذ اعتقل أزواجهن وعدن الى بيت الأهل ليقاسمهن الوالدين الألم والعذاب... إيه ياعراق ما الذي حلّ بشعبك وعوائلك الأصيلة على أيدي هذه العصابة المجرمة.

لم يمّل الجلاد من تعسفه وإجرامه... حتى في اللحظات الأخيرة لذهابهم إلى قاضي التحقيق الشكلي، والذي يقر ويصادق على صحة الإفادة المدونة من قبلهم ومن المفترض أن يكون المعتقل قد تجاوز مرحلة التحقيق والتعذيب، إلا جلاد أمن الثورة الذي كان مولعاً بالتعذيب، وقد مات قلبه من شدة إجرامه، فقام في نفس اليوم باستدعاء أزهار إلى غرفة التعذيب وعلقها وضربها وهو يائس منها، وقد تم الحكم عليها بالبراءة لعدم إثبات أي تهمة عليها، وكأنه يريد أن يذيقها دفعة أخيرة من حقده قبل أن تفارق هذا المكان.

إنتصار تثكل بصغارها جميعا

في أواخر شهر تشرين الأول من عام 1982 وبعد الغداء فتحت باب القاعة بذات الطريقة الهمجية، وأطل الجلاد المرعب أبو جواد ومعه عدد من الحراس، فأسرعنا في ارتداء عباءاتنا أنا وبتول وإنتصار بمجرد سماعنا ضجيج فتح القفل، صاح آمرا: "بالعجل أخذوا جهالها كلهم بس الرضيع عوفوه"... أسرع الحراس تنفيذاً لهذا الأمر وصاروا يقبضون على الصغار كل من جهه كحيوان متوحش يقتنص فريسة...

كان الأطفال ساعتها يمرحون بهدوء ملتزمين بوصايا أمهم، علي يأخذ الصالة طولا وعرضا بمشيه وقد خطى خطواته الأولى، يلاحق أخواته زينب وآلاء فرحا بعد أن كان صعبا عليه هذا وهو يحبو وهن يركضن تشجيعا له، فزعوا جميعهم من الجلادين ومداهمتهم المفاجأة لنا، زينب وآلاء أسرعتا لائذتين بأمهما، علي لم يعي الحدث مثلهما لكنه ركض لائذا بها هو الآخر، لم يتمكن من الوصول اليها إقتنصوه بوحشية مسرعين به الى خارج الصالة وهو يصرخ، لم يتعرفوا عليه حينها بأنه الرضيع المستثنى من الأخذ!! ولم يتح لنا التنبيه أن يتركوه في مشهد فاق حدود التصور.

تعالت صرخات الأطفال ولم تعد مختنقة كما كانت تريدها أمهم... وصاحت إنتصار بكل مافيها من قوة: "لا... لا"... ولكن دون جدوى بكت بشكل شديد وجثت على ركبتيها تتوسل به أن يترك صغارها... لكنه ركلها بقسوة وهو يحمل زينب تحت جناحه بيد واحدة وهي ترفس فزعا وقد أزرق وجهها من شدة البكاء، فعضّها الجلاد من ظهرها كي تسكت فصدمت الطفلة المرتعبة وكادت أن تفارق روحها جسدها النحيف... تبين فيما بعد أنها أصيبت على أثرها بداء السكري... نعم كانت تخشاه لما رأت منه وسمعت وظل ماثلا في مخيلتها تحذيرات أمها منه... صدمتها كانت الأقوى.

حارس آخر حمل آلاء وهي تصرخ بهلع، تداخلت صرخاتهم مع صياح الجلاد بصوته الأجش المرعب وتوسلات الأم الثكلى في مشهد أقل مايقال عنه إنه أكبر جريمة عنف ضد الطفولة البريئة...

تجمدت أوصالنا أنا وبتول وخشينا على إنتصار من أن يضربوها ويعذبوها هم لا رادع لهم، ولم يكن أمامنا سوى البكاء على حال هذه الأم وصغارها... تمنيت منعه وشعرت بالعجز عن إبداء أي إعتراض... صعب على النفس أن ترى الظلم ولا تقوى على ردعه... نعم البكاء سلاح العاجزين وما أكثر بكاءنا.

دفعوها ركلا بأحذيتهم حتى سقطت أرضاً وأغلقوا الباب بسرعة... ومضوا وظلت إنتصار جاثية خلفها تدقها بيديها الخائبتين، وبقوى خائرة وتصرخ بصوت مبحوح: "جهالي جهالي... رجعوهم الله يخليكم"... ولامن مجيب.

بعد لحظات قليلة سمعنا صوت فتح وغلق أبواب السيارة وعجلاتها تسحق أرض الكراج حتى فاحت رائحة احتكاكها... نعم أسرعوا بهم إلى المجهول وازداد عويل انتصار بصورة هستيرية وشعرت أن قلبها ينتزع من بين أحشائها وفقدت السيطرة على نفسها ولطمت وكادت أن تمزق ثيابها، لولا أن احتضناها أنا وبتول وأمسكنا بكلتي يديها ونقرأ على صدرها أيات علها تهدأ فبذكره تطمئن القلوب.

الحراس الذين بقوا في الدائرة تأثروا بهذا المشهد، لم يتوقف بكاءها وتحشرج صوتها بعبراتها وبحّت نبراته، ولم ترض أن تقوم من خلف الباب، وظلت تضربها بكفيها دون جدوى.

طرقنا الباب أنا وبتول ففتحها لنا الحارس أبو صباح مسؤول إحدى وجبتي الحراسات فسألناه: أين أخذوهم؟؟

فأجاب وقد بدا عليه التأثر لحالها: لقد أخذوهم إلى دور الدولة للأيتام، فهم أبناء الدولة وهي أحرص على تربيتهم لاتقلقي عليهم أبداً، هنا قامت قيامة انتصار، فقد صرخت صرخة كبيرة وأغمي عليها... ارتعد الحارس من ذلك ولم يعرف أن كلامه سيفعل هذا بها... سكبنا عليها الماء، وسحبناها إلى داخل الغرفة، وعندما استفاقت ظلت تبكي وتذكرهم بطريقة هستيرية واحداً واحداً... وتلطم خديها وتشد شعرها...

حاولنا جهدنا أن نطمئنها بأنهم لم يأخذوهم إلى الملجأ بل إلى بيت أهلها... لكن دون جدوى فقد باءت جميع مساعينا بالفشل، أعيتنا الحيلة وقابلناها بالبكاء والنحيب لحالها الذي يتصدع له الفؤاد.

لم تهدأ ولا لحظة واحدة ولم تذق طعاماً، ولم تنم إلاعندما تفقد ماتبقى من قوتها وتعجز قدرتها على البكاء... كان نومها يشبه أغماءة سرعان ماتفوق منها، وتعود إلى العويل والبكاء... كانت تردد قصائد حسينية عن عبد الله الرضيع وتلطم وتبكي... تألمنا لثكلها واعتصرت قلوبنا لما حل بها...

أذيع الخبر في كل الدائرة، وكل من يسأل من الحراس عن بكائها يجدها معذورة... في اليوم التالي، وبعد الظهر كان أحد الحراس واسمه أحمد قد أقام بعض الصداقة العابرة مع الصغار فقد كان يزودهم ببعض قطع البسكويت، أو حبات الحلوى فعلى مايبدو أنه من أبناء العوائل الطيبة، وتورط في عمله في تلك الدائرة المشؤومة.

سأل عن الصغار... فأجابته بتول باكية: لقد أخذوهم ولا نعرف إلى أين، هو سمع إنتصار تأن وتبكي ولم يعلم السبب... فقال سأتاكد من ذلك، فعاد بعد حوالي ساعة ودق شباك الغرفة وبصورة سرية فقد منعوا من التحدث إلينا، ويتعرض للعقوبة كل من يخالف.

فقال قاسماً بالله :إنهم قد أخذوهم إلى أهلها... فصحنا أنا وبتول: اللهم صلّ على محمد وآل محمد... صحيح ذلك؟؟ فسمعت انتصار فقامت مستجمعة قواها الخائرة وعيناها غائرتان من البكاء ووجها شاحب من قلة النوم والطعام، وسألته بشفاه ذابلة: أحقاً ذلك؟ أقسم لي أنك تقول الحقيقة.

فأجابها وكاد يبكي لمنظرها الحزين هذا: بشرفي... لقد تأكدت من ذلك...

انتهى اللقاء العاجل... وتهللت أساريرنا فرحا، وبدأنا باقناع انتصار بذلك،

وأطعمناها بعض اللقيمات فابتلعتها مجبرة، لكنها لم تصدق ولم تطمئن، فهي ماتزال تذكر كلام أبي صباح مسؤول الحراس...

وفجأة قالت: "أبو صباح حجه صدك... وهمه كذبوا على أحمد علمود ما أبجي وأضوجهم."..." خاف ما اندلوا بيت أهلي وذبوهم بالشارع"..."راحوا جهالي راحوا جهالي "... وهي تضرب راح براح وكأنها تهذي وتحدث نفسها...

فقلت لها: أتحفظين رقم هاتف بيتكم؟ فقالت: نعم، فكتبناه بورقة من المقوى الذي يغلف به الجبن... وانتظرنا دور أحمد في الحراسة كي نعطيه له ويتصل بهم متأكداً... كنا نراقب الكراج حتى يمر منه ولوحده فقد كانت مجازفة كبيرة قد تؤدي بنا إلى التعذيب وبه الى الفصل من العمل بأحسن الأحوال إن علم أبو جواد بذلك... مرة لوجود قلم لدينا وأخرى لحديثنا مع الحراس، فكلانا سيتعرض للمساءلة والحساب العسير.

واخيراً جاء الحارس أحمد لوحده وبسرعة أشّرت له بتول، فتوقف عند الشباك مرتبكاً يتلفت يميناً وشمالاً فأخبرته انتصار أنّ هذا رقم هاتف أهلها: "أطلب بالذات وداد زوجة أخي واسألها عن الصغار هل سلموا لها"؟؟ في البداية اعتذر عن ذلك وقال: إنّ هذا قد يؤدي بحياتي إن هم علموا... لقد أخبرتكم أنهم هناك وأنا واثق من ذلك... لكن بتول توسلت إليه أن يقوم بهذا العمل كي تهجع هذه الأم، فهي معذورة كما يقولون "قلب والده"... فرضخ لمطلبنا مجبراً فقال غداً لا أداوم لأني خافر... بعد غد أرجع لكم الجواب... شكرناه شكراً جزيلاً ودعونا له بالتوفيق والهداية... في هذا اليوم ونصف اليوم كانت انتصار تتأرجح بين الأمل واليأس، فتارة تبتسم وهي تتصورهم بين أحضان أهلها، وهم يعيشون ككل البشر بعيداً عن الرعب والتعذيب والحرمان، وتارة تبكي وهي تتصورهم في ملجأ تحت رحمة العاملين فيه، وهم بين جموع الأيتام وقد تفقدهم إلى الأبد...

وبين الوعظ والمواساة وتلاوة ماحفظنا من الآيات... مرت المدة وبقينا نترقب حضور الحارس وبقلق شديد... نعم كنا نحمل نفس أحاسيس قلقها لكننا لانبوح بها وندعو لانتصار كي تخرج من محنتها...

وبعد الظهر حيث تهدأ الدائرة عادة بعد انتهاء دوام الموظفين في الأقسام الإدارية... دق الحارس الشباك دقة خفيفة فقفزنا جميعاً... فأطل باسماً قال: إن وداد تسلم عليكِ، وتقول إنَ أولادك بخير جميعاً وقد سألتني عنك وعن أبوهم.

فأطمئنت انتصار ودعت له بالتوفيق من كل قلبها فقد أنقذها من تلك المحنة... عادت إلى بعض ماكانت عليه قبل فقدها صغارها، ولكنها بطبيعة الحال ظلت تذكرهم بأسى، وكنا نقول لها: دعيهم يعيشون حياتهم وأفرحي لهم أنهم تخلصوا من هذا الضيم، وإنها إرادة الله التي شاءت أن يخرجوا من هنا، وانك ستلتقيهم عن قريب بعد خروجك... وغيرها من عبارات التهدئة... هي لم تنساهم لحظة، وكانت تتواصل معهم روحيا ونفسيا لحظة بلحظة، فعند الفطور، تقول: "صبحكم الله بالخير ياحبايبي"... وعند الغداء والعشاء تحية مثلها...

واتجهت للعبادة والصلاة، فالله هو المعين لها في تلك الشدة التي وصفتها بأن فقد زوجها واعتقالها وولادتها تحت بنادق الجلادين، أهون بكثير من فقدها لصغارها دفعة واحدة...

صار الموقف موحشاً... ضحكات الأطفال وبراءة أفعالهم كانت تضفي عليه طعماً مميزاً ينبض بالحياة، ويشعرك أنك ماتزال في عالم الأحياء، فالأطفال يكبرون، وقدراتهم تتطور، وهم بحاجة اليك لترعاهم وتعلمهم وتسكتهم إذا بكوا، وتطعمهم إذا جاعوا... لكن اليوم لايوجد سوانا... حياة رتيبة مملة مليئة بالأحزان، وصار معتاداً عندنا صراخ المعذبين ونهيق المعذِبين...

حسدتُ كل المعتقلات اللواتي سبقونا في الرحيل من هذه القاعة وأينما رحلوا، ولوكان رحيلهم إلى الدفن، أو السجن مدى الحياة، فما عاد للحياة طعم ولا معنى... حتى ذكرياتي ماقبل الإعتقال بدأت تختفي من مخيلتي، وصرت لا

أتذكر الا غرفة التعذيب والأخوات المعتقلات اللواتي فارقنني، لكني لم أعدم فضله ورعايته سبحانه، إذ كنت أشعر بحنانه وعطفه علي، وأنه لم يحملني مالاطاقة لي به، أيادي عنايته على عباده موصولة ولم تنقطع... الحمد لله رب العالمين كلما ذكر الحمد.

وأخيرا جمعونا ببنات قضية شارع فلسطين

جمعونا معا في تلك الصالة بعد أكثر من شهر ونصف، تم إطلاق سراح أم ضياء وابنتها هناء اللتان عاشتا عشرات الأيام العصيبة التي ما تخطر على بال أحد، ولولا مرض الحاجة أم ضياء لحكمت كأم حسين فاطمه شوكة بالسجن لبضع سنين.

بنات قضية شارع فلسطين خيرة البنات أضفين على المعتقل جوا عائليا، الأخوات الستة بنات هادي النجار، وبتول وفتحية وحمدية أخوات فاطمة، وإيمان وأختها أزهار، وسعدية وفاطمه حسان... جمعتنا وإياهن قواسم عديدة أولها المظلومية وآخرها الثبات على المبادئ، كنا نتواصى بالمعروف ونتعاون على الصعاب وكأننا شقيقات ولدتنا ذات الأم.

بعد خروج هناء وأمها تركت القماش الذي كانت قد جلبته لزينب تخيطه لها يوم الاعتقال، نعمة الله لا تنقطع عنا وإن اجتهدوا لمنعها... استفدنا كثيرا منه حيث خاطت الأخوات دشاديش للصغيرات سندس وإخلاص وأخوات فاطمة، ومنهن من اتخذت منه ربطة ترتديها حيث كان قماشا قطنيا أبيضا مرقطا باللون الرمادي، ساعدنا في ذلك بعض الحراس بإبرة وبكرة خيوط، بينما كان المقص الصغير الذي التقطته باسمه من شباك الحمام هو الأداة الوحيدة لقص القماش... لا يمكنني وصف المنظر عندما تتعاون الأخوات على خياطة ثوب، كل واحدة منهن تتولى خياطة قطعة وكأنهن يأبين الا التعاون في كل صغيرة أو

كبيرة مما يواجهن في هذا المعتقل، وما أجمل الإبتسامة وهي ترتسم على محيا من ترتدي الثوب المنتج من تلك الأنامل المؤمنة، تجسد قوله تعالى: " وألّف بين قلوبهم لو أنفقت مافي الأرض جميعا ما الّفت بين قلوبهم ولكن الله الّف بينهم إنه عزيز حكيم "

حل شتاء ثان ومازلت خلف جدران المعتقل

على الرغم من أننا لانعرف تواريخ الأيام تحديدا لكننا حرصنا على التواصل مع الأحداث، المعتقلات الجدد يحدثن ذاكرتنا ويزودننا بتطورات وطننا ونحن في هذا المعتقل، وسألنا بعض الحراس عن تاريخ اليوم ليستمر عندنا التقويم ولا ننقطع عن العالم.

مضى الصيف وحلّ الشتاء ونحن كما نحن بذات الملابس المتهرئة من القدم والاستعمال، وماتزال تلك السجادة البالية تفترش الصالة منذ الربيع الماضي حينما انتقلنا اليها، صارت الجدران تلسعنا ببرد قارص، وطلبنا منهم غطاء يكفي لعددنا الكبير فزدونا ببعضا منها كانت تفوح منها رائحة السكائر هي من ممتلكات هذه الدار المسلوبة من أهلها وقد استولوا عليها، ماكان عندنا خيار آخر فقامت الأخوات بنشرها على شبابيك الغرفة بعد فتحها عسى أن تصل اليها أشعة الشمس المتسللة منها.

صار الغسل الشهري الواجب معضلة كبيرة فالبرد قارس جدا، ولا ملابس شتائية ولا مدفأة ولا... ولا... ولكن لا بد من الإغتسال مهما كانت الظروف، تجرعت الأخوات برودة الماء داخل الصالة بغسل الشعر إستعدادا للإغتسال الكامل عند المغسلة في الحمام وبالسرعة المطلوبة، ولم يكن ذلك صعبا في الصيف بل كان منعشا ومنشطا... ولكن في برودة تقترب فيها درجة الحرارة للصفر المئوي صار أقرب للمستحيل.

كنا نشجع بعضنا بعض وكل مانعانيه في عين الله وأنه سبحانه لن ينسانا فنحن عباده وسييسر لنا كل عسير... إناء الماء (الدولكة) ناخذها منها لنملأها ماءا ونغسل به... كانت السكبة الأولى صعبة جدا الماء يكاد يتجمد وهو ينساب من الحنفية بصعوبة ليملأها، وبدون تردد نسكبه على الرأس والرقبة أولا ولا أبالغ إن قلت أظلمت الدنيا لحظتها أحسست عيناي قد تجمدتا واصطكت أسناني ولا دفأ لي إلا أنفاسي اللهثى... كنت أبتسم وأردد كلمات تتقطع في شفتي المرتجفتين من البرد: "عفيه... عفيه... كملتي يللا"... وأكرر: بسم الله الرحمن الرحيم... بسم الله الرحمن الرحيم... وأنا اجد نفسي في قناعة تامة، وروحي قد سمت في علياء رضاه مع شعور جميل بالنقاء والطهارة وأنا أرتدي ثوبا باليا متهرئا إلا أنه طاهر قد غسلته إحداهن حبا وحنانا وكأنها أمي تجهز لي ثيابي عندما تحممني وأنا صغيرة... وعلى الفور أتلفع بعباءتي وأخرج مسرعة من الحمام لأجد الدثار قد تهيأ من بطانيتين الأولى تفرش كالحضن تتكأ على الحائط عندما أجلس عليها يدثرنني بها، والأخرى يغطينني بها مع فرح غامر ينتابني لهذا الحنان ولهذا الصبر الذي تمكنت به من إجتياز هذا الموقف...

يداي دافئتان في كل الفصول كنت أدفأ بها أطراف من تغتسل منهن أحتضن كفيها وأضغط على قدميها وهي متلفعة بتلك البطانيات، يسمينني "الصوبه" وتعني المدفأة... هذه المواقف وغيرها زودتني بطاقة روحية كبيرة وعلمتني الصبر وقوة الإرادة، وتعلمت أهمية التعاون في تذليل صعاب الحياة، عندما وجدت الأخوات تتطوع لأية مساعدة فلا صلة جمعتنا مثل هذه المحنة، لا القرابة مثلها ولا النسب مثلها ولا الصداقة مثلها... إنها صلة الأخوة في الله...

تثبيت الإدانة والتهم قسرا

ظهيرة أحد أيام شباط من عام 1983 فتحت الباب الخشبية بكل ما للرعب من معنى واذا بابراهيم (السمين) يحمل سجلا بيده... هوأحد موظفي القلم والمتطوع دوما للتعذيب بسبب أو بدون سبب، جاسم هذا هو من كتب لنا ما يعرف عندهم ب (صحيفة الأعمال)... نادى بصوته المبحوح: "وين عطور؟" نهضت مفزوعة ودنوت من الباب وأنا لا أترقب الا الأذى منهم... نظرت اليه دون أي كلمة متساءلة مالذي يريده مني!!

قال: "شنو تهمتج؟؟" تلعثمت للحظة ثم أجبته: "أنا اخت جمال وجلال " قال: "بس هاهيه؟؟" قلت له بثقة: نعم...

مضى لبضع دقائق ثم عاد صائحا باستهزاء: "تعاي عطور يريدوج"

مضيت معه وهو يوجهني الى غرفة أبو جواد... لم أدخلها مطلقا في هذا المبنى الجديد وكل التحقيق معي كان في ذلك المبنى (بيت سمير غلام)، تفاجأت به وقد انتفخت أوداجه وعيناه تتطايران شررا... صاح بصوته الأجش: "ولج صدك متعرفين ليش انت اهنا؟؟"

وأردف: "شوفي هذا منو؟"... التفت الى يميني فإذا بعبد الحسن جارنا زوج إنتصار جالس على طرف الأريكة... حليق الرأس، بدا أبيض البشرة رغم سمرته الداكنة، تعلو جبينه خرقة قذرة قد شدوا بها عينيه عندما استدعوه من معتقل الرجال في الجانب الخلفي من البناية...

صاح ابو جواد: "خاف ما عرفتيه؟؟ هذا عبد الحسن المجرم اللي ضميتوا الختم مالته انت واخوج"

وأخذ يهدد بأبشع الألفاظ وبكلمات نابية ملّوحا بعصاه الغليظة... كان حاضر حينها المفوض زيد المصلاوي والذي كان مسرورا لما يحدث لي... فصاح أبو جواد مخاطبا الحارس: "اخذها علكها علمود تعرف شلون تجذب

بعد"... سحباني بشدة الى غرفة التعذيب التي هي بالأصل مطبخ هذا المبنى وهو أول مكان جلسنا به عندما انتقلنا من مبنى شارع فلسطين...

إنعقد لساني عن أي كلام ولم يتح لي حتى التفكير بحقيقة مايجري... وثمة تساؤل كبير يتردد في ذهني: لماذا؟ حتى متى نبقى في دوامة القمع والترهيب؟ من هؤلاء؟ ولماذا لا يتركونا وشأننا؟ ما الذي فعلناه كي يلوعوننا؟ وبسرعة فائقة وثقوا يداي الى ظهري بعنف آلمني وكأن كتفي لم تتماثلان للشفاء حتى بعد مرور سنة كاملة ونيف... أرادوا سحب عبائتي مني الا أنني تمسكت بها وأخرجت كفاي من فتحتي الأردان عندما أوثقوهما بالقيود... في لحظات رعب عصيبة وجدتني معلقة في سقف الغرفة بنفس ماجرى علي حينها ولكن دون أن تعصب عيناي... رأيتهم عندما شدوا الحزامان الجلدينا حول معصمي، ورأيتهم عندما سحبوا المنضدة من تحت قدمي بعد أن علقوني في السقف، ورايت زيد الموصلي حاملا عصا غليظة (توثيه) يضربني على ظهري وأكتافي المتشنجة من التعليق... بدأت أصرخ من الألم الشديد الذي حل بي وأعاد علي آلامي منذ أكثر من عام... يضرب بحقد كبير ولا يطلب مني اعترافا كما كان أبوجواد في المرة الأولى... هو يضرب وجسدي يتأرجح بالهواء ويزداد الضغط على عضلات كتفي التي أوشكت على الخلع من مفصلها... إنحسر الدم من ثقل جسمي في كفي وتنملت كفاي ولم أعد أشعر بهما... أرعبني شعور أنني ممسكة بكف أحد ما معلق... هكذا شعرت والحقيقة انني ممسكة بكفي الأخرى التي تنملت ولم أعد أشعر أنها لي... حاولت النظر الى الأعلى لأتبين الأمر لم أتمكن إطلاقا رقبتي تدلت بوضع مؤلم وأضلاعي تباعدت... والجلاد زيد مستمر بالضرب ويعض على نواجذه حقدا وشماتة... لأنني غير معصوبة العينين ورؤيتي لمايجري آذاني نفسيا كنت أتحفز لكل فعل منهم مررت به في المرة الأولى... كانت معاناة أشد مرارة من ذلك اليوم.

لم يستغرق هذا التعذيب الانتقامي الا دقائق معدودة لم أتوقف فيها عن الصراخ من شدة الألم ولم أتغلب عليه بالصمت مهما حاولت كان فظيعا لا

يطاق... فأنزلوني متوجهين بي الى أبو جواد الذي كان راضيا عنهم فقال بسخرية مؤلمة: "ودوها يم حبايبها"...

لم أنظر لوجهه وكنت في حالة من الإنكسار الشديد وناجيت ربي من أعماقي: الى متى يبقى هذا الظلم؟ أو لست العليم بالحال؟ أيرضيك ربي أننا صرنا رهائن عند هؤلاء؟ يعذبوننا متى شاؤا وكيف شاؤا!! لك الحمد... لك الحمد...

أعادوني الى حيث كنت، وأنا امشي بوهن والحزن ينتابني، وما شعرت بالأمان الا عند وصولي لهن... كن يبكين وهن قد توجهن للدعاء والتضرع... وتسارعن اليّ بعد إقفال الباب، وواحدة تدلك كفاي وكتفي، وأخرى تمسح وجهي بالماء، وثالثة تهدأ روعي... حمدت الله كثيرا أن اقتصر الأمر على هذا الإنتقام.

بقيت أياما لا أقوى على النوم كما كنت قبل... جسدي كله يؤلمني ويداي لم تعد كما كانت صار يصعب علي حتى الوضوء، وقد تمزقت عضلات كتفي من جديد... لكنني كنت مسرورة أن تمسكت بعبائتي ولم يتغلبوا علي في خلعها عني، كنت بكامل حجابي الذي راعهم ككل البعثيين وجعلوه سببا في معاداتنا... نعم نتمسك به وإن كنا في أصعب الأحوال نحن الزينبيات اللواتي أرعبناهم وهم المدججون بأعتى أساليب التعذيب بقوة الإرادة والإيمان... ربنا تقبل منا.

مصادقة الإفادات

صار معلوما عندنا من يذهب للمحكمة لابد أن يذهب الى مكان آخر تصادق فيه إفادته ومادمنا لم نذهب أنا وبتول وانتصار فلا محاكمة لنا... تارة نحّدث أنفسنا ربما يخرجوننا الى أهالينا دون المرور بالمحكمة كما خرجت

أميره، وتارة تحدثنا بتول بموت محتم وقد رات بأم عينيها معدات الدفن لبنات الزعفرانية... وبين هذا وهذا مرت علينا الشهور ومضى عاما وهذا العام الثاني فما الذي ينتظرون بنا!!

ذات صباح فاجئنا أبو جواد دون قدومه للصالة وإنما استدعانا وهو واقف في الممر أمام الباب مشغولا بما يحمل من أوراق وسجلات... ألبسونا الجامعات الحديدية (الكلبشة) ومضينا معهم للكراج وصعدنا في سيارة مغلقة صغيرة دون أن يعصبوا أعييننا، لم يكن الوضع مرعبا على الأقل هكذا شعرنا، كان هينا أن نساق لتصديق إفادات ملفقة على مارأينا وسمعنا من ويلات طيلة بقائنا في أمن الثورة، وبعد تعذيبهم الإنتقامي لي صرت في قلق من تكراره وترقبت يوم المحاكمة بفارغ الصبر وتصديق الإفادات مقدمة للمحكمة.

لم يكن في السيارة سوى ثلاثتنا فتشبثت بجدرانها الداخلية كان يوما مشمسا وبدات أنظر للسماء كم كانت غيومها جميلة تناثرت في زرقتها الصافية والهواء نقي بارد، تقطع السيارة الطريق باتجاه أمن بغداد وتقف بين السيارات عند تقاطع المرور وأنا اترقب الناس هل يعلمون أننا هنا!!

كيف لي أن أعلمهم بما يجري في دهاليز وأقبية الرعب!! وتساءلت في نفسي مالذي يجعل الحياة طبيعية ونحن تحت العذاب؟! لمحت زوج عمتي أبو ضياء يقود سيارته دون أن أعرف أين نحن وفي أي شارع من شوارع بغداد الحبيبة؟؟ سررت برؤيته وإن لم يراني... لكنني ما تقت للعودة الى هذه الحياة مادام البعثيون موجودين، فلا راحة لنا وإنما ملاحقات ومضايقات تجعل العيش نكدا... حقا ماتمنيت إلا زوال حكمهم الجائر لتعود كل الحرائر لبيوتها دون أن يطرقوا لها بابا أو يرسلوا اليها استدعاءا... تعود الطالبة لمقعدها الدراسي وتعوض مافاتها، والأم لصغارها، والموظفة لعملها، تعود البنات الى أمهاتهن الثكالى وتتوقف الآلام والدموع وكل المصائب التي حلت بشرفاء العراق.

وصلنا الى أمن بغداد ووجدنا أعدادا كبيرة من المعتقلين من دوائر أمن

أخرى قدموا لنفس هدفنا تصديق الإفادة، دخل أبو جواد قبلنا الى غرفة بعد أن حذرنا من أي كلام مع أي أحد وكأنه نسي أن الحراس الذين رافقوه يحيطون بنا... ثم خرج وصاح بإسمي: "تعاي بويه عطور وقعي"... ويؤشر بإصبعه على إسمي في ذيل ورقة كتبت بالقلم وليس طباعة... استعجلني آمرا إياي بالتوقيع عندما لاحظ حدقتاي تمران على كلماتها فلم أتمكن من قراءتها... وقعّت وبسرعة أخرجني ليطلب من انتصار التوقيع وبعدها بتول... وهكذا صودقت الإفادات أمام قاض يجلس خلف مكتبه وكان سؤاله الوحيد لنا أنت فلانه؟ دوره فقط التأكد من هويتنا...

يا للسخرية لماذا يرهق هذا نفسه في هكذا تمثيلية وهو يعلم جيدا أنه إجراء صوري!! لا يحق لنا الإعتراض عليه مطلقا، وأنى لنا ذلك بعد ماجرى مؤخرا من إنتقام لمجرد أن ذكرت أن تهمتي أخت جمال وجلال!!... الظلم لهم رداء وهم ارتضوا لأنفسهم أن يكونوا من الظالمين، ولم يرعوا حرمة لله فينا...

لم نتاخر أكثر من ساعة وعدنا بنفس السيارة، وثمة شعور غريب انتابني عندما وصلنا إذ شعرت بالأمان وأنا بين المعتقلات، خفت من أن ينقلوني الى أمن بغداد وأكون حينها في تجديد أزمة مريرة قد تجاوزتها منذ أكثر من سنة...

بصمة للذكرى من واقع العذاب

علمتنا الأيام العصيبة في هذا المعتقل أن الفراق لا محالة واقع... خطرت على بالنا فكرة وضع بصمة لوجودنا معا، كلنا كان عندنا دفتر مذكرات تدّون فيه صديقاتنا وزميلات الدراسة بعض سطور تعبر عن الاعتزاز بالصداقة ومهما كانت قصيرة تقتصر أحيانا على مرحلة دراسية واحدة، ونفرح إن سطرت لنا إحدى مدّرساتنا سطرا.

كيف نسطّر مذكرات لبعضنا الآن ولاورق ولا أقلام!! فتبادر لنا أن نطرز ذكرى في أطراف ربطاتنا... من خيوط ملونة لمنشفة من أغراض انتصار أم علي، يتم سحب الخيط منه ويطرز رسما صغيرا مع تأريخ اليوم إن أعلمنا به.

كان للزهور الحظ الأكبر من هذه الرسومات، بينما الهلال والنجوم فضلناها في الربطات ذات الالوان الغامقة... جميل أن تكون الحاجة أم الاختراع... سررنا ونحن نضع هذه البصمة لبعضنا في حالك من الزمان والمكان... وتطورت الهواية لتشكيل لوحة صغيرة حوت رسوما مطرزة وبيتا من الشعر... ما أثمن هذه المصنوعات وإن كانت من بقايا المتاع الشحيح في هذا المكان الذي يتدفق منه القمع والإرهاب في كل آن.

زينب هادي درست اللغة الفرنسية وبدأت تعلمني مبادءها، ومدادنا قلم صغير من الرصاص وقرطاسنا ورق تغليف الأجبان التي يعطونها عند وجبات الإفطار، وفي أحسن الأحوال غلاف علبة مسحوق الغسيل الورقية إن نجت من البلل... كان درسا ممتعا وكنت بحاجة الى تمرين لفكري وذهني الذي جمّدوه بحرماني من دراستي الجامعية... وزينب الحنونة تشجعني مشيدة بي وباستيعابي وتضّخ في طاقة إيجابية أنا بأمّس الحاجة اليها.

ولزينب موهبة أخرى هي الرسم، رسمت وجوهها جميلة وكتبت كلمات بديعة بخطها المتميز مما جعلني أشعر بالفخر والسعادة أن تعرفت عليها، وصارت تلك الوريقات حبيبة لنفسي وأغلى ما أملك في هذا العالم، فاحتفظت بها وصعدت معي الى قفص الإتهام في تلك المحكمة الجائرة... محكمة الثورة... محكمة صدام.

سوسن هادي حفظتُ منها أبياتا من الشعر، هي مثقفة وتهوى المطالعة كنا نطالع معا الحقل الثقافي في جريدة (الثورة) عندما يصدف وصولها لنا... مع أنه كان مسّخرا لمدح (القائد الضرورة)، الا أننا أحيانا نجد فيهأ من الأدب العربي القديم وبعض القصص القصيرة... كانت بعض الأخوات تقلق من وجود الجريدة

عندنا وتعتقد أنها خدعة يمكرون بنا ليراقبوا تعاملنا مع صورة صدام الذي تحتل معظم مساحة الصفحة الأولى... هن محققات فلا أمان في دائرة تعمل على حفظ أمن الطاغية من شعبه بالقمع والإرهاب على النقيض من إسمها، هم لم يكتفوا بأنواع الأذى الذي صبوه علينا دون جرم، ولم يشبعوا أنفسهم المريضة المتعطشة للعنف والقسوة... ماتت قلوبهم يوم ارتضوا أن يكونوا أدوات قمع لأبناء وطنهم، فلا نتوقع منهم رحمة أبدا.

يوم المحاكمة يوم طال انتظاره

مضت الأشهر طوالا ثقالا في دائرة ما يسمى بأمن صدام (امن الثورة)وها نحن في النصف الأول من السنة الثانية... فقدنا الأمل أنا وانتصار وبتول من أن نغادر، كانت أقصى أمنياتنا أن يحين موعد المحاكمة بغض النظر عن نتائج هذه المحاكمة وأحكامها الجائرة.

نعم لم تكن لدينا أي تصور عن ما حكم به الأخوات اللواتي سبقتنا إليها، لم نكن نعلم أن فاطمة وأمل حكم عليهما بالإعدام واستشهدتا، ولم نعلم بالحكم بالسجن المؤبد لبقية الأخوات والأحكام الأخرى... مهما تكن هي نافذة للخلاص من هذا المعتقل الرهيب.

وحان يوم المحاكمة الاثنين 7/ 3/ 1983 أفزعتنا ضجة فتح باب الغرفة بسلسلتها الحديدية ذات القفل الكبير وطريقة فتحها المقلقة لنا، هذا الباب الذي لم يردنا خيرا خلاله بل كل الشؤم والشر على أيدي أولئك الجلادين.

فإذا بأبي جواد بوجه مكفهر يصيح بصوته الأجش: "وينجن انتصار عطور بتول... يلّه تحضرن"... اضطربت الأخوات اللواتي توزعن على جدران الغرفة في أماكن جلوسهن المعتادة... كانت بعضهن ما تزال نائمة فهبت فزعة من الضجة.

وبسرعة كبيرة سرنا خارج الغرفة التي شهدت مآسينا ومآسي أخوات سبقتنا... لم يتح لنا المجال لتوديعهن، وكانت بانتظارنا سيارة عسكرية من نوع بيك آب إلا أنها مغلّفة كلها لتصلح سيارة نقل للسجناء (بوكس) كما كانوا يسمونها... يفتح بابها المزدوج من الخلف وفيها مسند على كل جانب للجلوس وهو ضيق وصلب غير مريح أطلاقا، خالية من النوافذ إلا فتحتان واحدة من كل جانب يغطيها أسلاك متشابكة تجعلها عبارة عن ثقوب مربعة صغيرة بالكاد تسمح لدخول الهواء.

السيارة كالعادة مركونة في كراج هذا البيت الذي أحيل إلى أمن الثورة ثم أمن صدام بعد حملة (تصديم) المؤسسات والمدن والمستشفيات والمجمعات السكنية أبان سنوات الحرب العراقية الإيرانية... هي قيد الأهبة والاستعداد، تارة لمداهمة جديدة لعوائل آمنة مطمئنة، واخرى لتنقل المعتقلين الى مصائرهم التي تنوعت بتنوع قضاياهم.

صعدنا السيارة على الرغم من أنها لم تكن سيارة تقليدية ألا أن الموقف لا يسمح ألا بالتفاعل السريع معه، كانت أيدينا مكبلة بالجامعات الحديدية للأمام وليس الى الخلف كما في مجموعة بنات الزعفرانية ومجموعة الصيدلانية عالية الحمداني، الحرس واقف وهو يحمل القيود بيديه وقبل أن يقيد يداي كنت أرنو إلى ذات النوع الإسباني فهي واسعة على المعصم وخفيفة الوزن أقل أذى وإيلاماً من تلك الإنكليزية تمنيت لحظتها ذلك النوع... إيه يا لأمانينا الغريبة.

فعلا كانت جامعة يدي إسبانية وبمجرد أن صعدت السيارة ضغطت على كفي ونزعت إحداها كي أسيطر على جلوسي وأتثبت بأي شي أحفظ به توازني، فالسيارة سارعت بسرعة جنونية لدرجة كنا نميل يمينا ويسارا نكاد نهوي على أرضيتها لولا تشّبثنا بما يمكن مسكه من جدرانها أو مقاعدها.

وقفت لأكون بمستوى الفتحة الصغيرة المشبّكة عسى أن أرى بعضا من ملامح مدينتي التي تغربت عنها لما يقرب من عام ونصف، داعبت عيناي أشعة

الشمس التي حرمت منها طيلة مدة التوقيف، كنا نراها بعد عدة شهور من الحرمان تشرق وتغرب من شباك الغرفة لكنها لم ترسل أشعتها لتلامس أجسادنا ككل الكائنات الحية على وجه الأرض، ولم نتمتع بحقنا من أشعتها الدافئة في أيام البرد القارص طيلة شتائين طويلين في أمن الثورة.

صعوبة بالغة أن تنظر إلى عالم واسع من شباك فتحاته لا تتجاوز السنتمترين... كنت على يقين أن العراق قد غدى سجنا واسعا للمعارضين لسلطة صدام... وأنا اليوم أفتقده بكل ما فيه... ولم أكتف بما رأيت منه عند تصديق الإفادات... استشعرت شوقا لمظاهر الحياة الطبيعية التي حرموني من حقي فيها، ولدراستي الجامعية التي مضت وانتهت مرحلة وبدأت أخرى دون مواكبتي لها، تقت لحظتها لزيارة الإمامين الكاظمين ولطالما زرناهما عليهما السلام في مثل هكذا يوم ربيعي.

بتول كانت قلقة جدا متوجفة مما يعقب المحكمة، وإنتصار جالت في خاطرها أفكار شتى، بين أمل يحذوها أنها ستعود لأولادها لتضمهم أليها بعد شوق وحنين دام شهورا... وبين قلق من جور وظلم هؤلاء الذين لم يسلم منه أيا من المعتقلين.

على الرغم من أن المحكمة تقع جنوب غرب بغداد وأمن الثورة في شرقها، الا أن الطريق لم يبدو طويلا مع تلك السرعة التي سارت بها السيارة، وكما كان سيرها سريعا ومفاجئا فأن وقوفها كان مفاجئا وصادما لنا، أجزم إنهم يتعمدون كل هذا وهم يعلمون لا كراسي ولا مساند فيها تقينا هذه الإضطرابات.

أسرعت بلبس الجامعة ورتبت حجابي إستعدادا للنزول، فتحت الباب ونزلنا تباعا لنواجه بابا كبيرة يليها مباشرة درجات نهبط عبرها إلى باحة كبيرة عالية السقف خالية من الشبابيك إلا مجموعة أعلى جدرانها القديمة قريبة من سقفها المترب تضفي عليها ضوءا طبيعيا، بينما تتدلى بيوت العنكبوت من زواياها بوفرة واضحة نمّت عن الإهمال بالنظافة، نزلنا وكان العديد من المعتقلين يجلسون

على جوانبها الواسعة، ملابسهم رثة، حفاة الأقدام، وجوههم شاحبة جدا كأنهم قادمون من عالم آخر... تميزت هذه القاعة بوجود أعمدة عديدة فيها ربما لسعتها ومتطلبات البناء تحت مستوى الأرض.

كان جميع المعتقلين تطوق رؤوسهم خرق بالية قد عصبت أعينهم بها وفي القاعة سمح الحراس المرافقون لهم برفعها عن أعينهم أو هم فعلوا ذلك، هذا المكان الفيصل ولا عودة للمعتقل أما السجن أو الشهادة وحالات إطلاق السراح نادرة.

هكذا أيقن جميع الموجودين، كانت القضايا تحسم تباعا وبسرعة فائقة، كنت مسلّمة أمري إلى الله غير آبهة بكل ما يدور فمهما كان القادم صعبا لن يكون بجسامة ما مررت به في أمن الثورة أمن صدام.

المعتقلون يجلسون مجاميعا مجاميعا في أرجاء هذا المكان والذي لم يؤثث ألا بمصطبات خشبية صلبة وقديمة قد توزعت على جوانبها، تجلس مجموعة كل قضية في مكان يكاد يكون معزولا عن الأخرى، العدد كبير وبعض القضايا من المحافظات... منهم مجموعة كبيرة من المعتقلين في قضية تنظيم جلهم شبابا ومنهم كبار السن كانوا من البصرة، بعضهم يشبه بعضا يوحي الى أن من بينهم أفرادا من عائله واحدة أخوان أو أب وأولاده.

نعم هكذا كانت تجري الاعتقالات دون أدنى حساب لما تخلفه هذه الجريمة حينما تفقد العائلة كل رجالها وتصبح بين عشية وضحاها بلا معيل؟! لكنه البعث ونهجه الإقصائي الذي لم تكن الإنسانية والرحمة من مفرداته، وفي المقابل كنت وبتول نبحث عن أوليائنا رفعت بنظري بحياء أرقب وجوه بعضهم ممن يشبه أخي جمال وجلال وعمي حسن، بحثت عن زوج أختي محسن وإخوته الأربعة.. ...

مخيلتي تضيف صفاتٍ جديدة لهم، أضفت شارباً ولحية لأخي جلال الذي كان للتو قد أخضّر شاربه فهو في هذا العام سيبلغ التاسعة عشرة من العمر،

وتخيلت أخي جمال كث الشعر واللحية، لا بتلك الهيئة الأنيقة والشعر الجميل المرتب، وعمي تخيلته وسيما جدا بلحية كثة سوداء تزيد من بياض بشرته.

لم يسعفني الحظ أن التقي بأحبتي، الجميع أخوة لي تجمعني بهم محنة الاعتقال وشرف معارضة البعث وفكره الهدّام وكل سياساته الهمجية، هنا تجسدت الأخوة في الله باسمى معانيها، اما عبد الحسن زوج انتصار فقد بدا شاحباً أبيضا على الرغم من سمرة بشرته، حليق الشعر واللحية لأقصى درجة.

كان خجلاً مني وتلعثمت كلماته وهو يحدثني على عجل معتذراً مني: ابرئينا الذمة... كان اعتقالك ضرورة لا بد منها... فبأعتقالك ثم قطع عمل حلقات عديدة... فهنيئاً لك هذا الأجر لانك كنت سبباً في إنقاذ الكثيرات... أذهلني كلامه لحظتها لكن الوقت لا يسمح بالتفكير بكل ما ذكر ولم يخطر في بالي جواب الا أنني قلت له: هذا قضاء الله وقدره وأنا شاكرة لله على كل حال... تذكرت ذلك التعذيب الانتقامي بعد أن واجهني به أبوجواد وكيف كان عبد الحسن في موقف محرج ولم يكن بيده تقديم أية مساعدة لي وهو يسمع صرخاتي تملأ أرجاء غرفة التعذيب... نعم هو قضاء الله وقدره... فلله الحمد والشكر.

كانت أفكاري متلاطمة كأمواج بحر في يوم عاصف فبين التوجس والخيفة من مجهول قريب آت وبين استرجاع سريع لأحداث ما قبل الاعتقال... أي حلقات يقصدها عبد الحسن!! من هؤلاء الكثيرات اللواتي ذكرهن!!... وبدأت استعرض من التقيتُ من المحجبات في الكلية... كانت أعدادهن قليلة جداً في مجتمع أريد له أن ينزع عنه لباس الدين والحشمة... تذكرت ذات يوم وأنا جالسة في حديقة الكلية على إحدى المصطبات بانتظار المحاضرة القادمة، حدثتني اثنتان من الأخوات المحجبات كأنهما نسخة من حجابي، لكنهما كانتا بعمر أكبر بقليل وفي مراحل دراسية غير مرحلتي، إذ يبدو جلياً عليهما قلة الارتباك الذي أعانيه كوني في المرحلة الأولى.

سألتني إحداهما باسمةً: أنت الأخت عطور؟ أجبتها باستغراب: نعم... لم تجبني سوى بابتسامة واطمئنان وكأنها كانت تبحث عني فوجدتني.

وأنا في قاعة الانتظار، انتابني شعورغريب... شعور من ينتظر راحة بعد تعب، ولم أكن قلقة بشأن الحكم، كنت اؤمل نفسي بالإفراج، ولكن سرعان ما يضمحل هذا الأمل وأنا أعلم جيداً من هؤلاء المجرمون سواءاً في أمن الثورة أو في هذه المحكمة... أنا لم أسمع بأسمائهم الصريحة... أو أتعرف على وجوههم القبيحة في هذه المحكمة لكنهم من المؤكد انهم سيئون كونهم جزءاً من منظومة القمع البعثي، كما أن الحكم ثبت يوم تصديق الإفادات في أمن بغداد... نعم ماكنت أعرف عواد البندر قاضيها الظالم حتى سقوط الصنم عندما عثرنا على مقتبسات الحكم الجائرة، ويوم حوكم في محاكمة صدام وزمرته المجرمة وظهر في جلسات المحاكمة عام 2006 التي بثت من التلفاز.

إنتصار بدت واجمة وهي تلتقي زوجها بعد تلك الشهور الطويلة، كان الخوف قد أطبق أضراسه على كل كيانها وهي معذورة لما عاشت من ويلات لا يطيقها بشر... تسأله بعينين حائرتين وريق جف من القلق: "شلون؟ وشنو راح يصير؟" وهو يهون عليها بابتسامة باهتة كمن يودع الحياة، شجعها ببعض كلماته الحانية وحاول تهدئتها، كل ذلك في غفلة من الحراس، استغل غفلتهم وتقدم ليجلس في مصطبة قريبة منها ولم يكن له إمكانية الكلام إلا بصوت هادئ وأسعفه كثرة المعتقلين وافتقار القاعة الى الهدوء، همهمات متداخلة تسبيح تهليل سعال عطاس على الرغم من المنع الشديد، عبد الحسن ما سألها عن الأطفال بدا كأنه يعلم بسحبهم منها ربما أخبره أحد الحراس... لكنها ترقرق دمعها وحدثته ببضع كلمات مقتضبة: "اخذوهم مني وحركوا كلبي"... وهو يهدأ من روعها باسما، يترقب نهاية هذا اليوم الذي طال انتظاره في دهاليز معتقل أمن الثورة المرعبة.

كانت وجوه المعتقلين مشرقة ناصعة البياض بسبب ابتعادهم عن الشمس لشهور عديدة ومن المؤكد هكذا بدونا نحن مثلهم لم يرانا نور الشمس، ملابسهم رثة جداً لكنها نظيفة فالمؤمن دينه يحتم عليه الطهارة والنظافة وفي أصعب الظروف...

تدور عيناي عليهم بحذر من الحراس، وأشعر بانتماء غريب لهم... لم

يوحشني وجودي بين هذه الكثرة العددية من الرجال بل لم ينتابني شعور الخوف من نظراتهم كما شعرته من جلادي أمن الثورة.

هذا ولم أتوقف عن الذكر والتسبيح حتى عندما يتوقف لساني قلبي يبقى ذاكراً لله مطمئنا به، فليس لنا سواه... هنالك حيث لا أهل ولا سند ولا معين الا هو سبحانه.

قطعت سلسلة أفكاري فجأة وكانني في غيبوبة قد أفقت منها على صوت الحاجب الذي أطل من باب تعلو بضع درجات إنها قاعة المحاكمة.

صاح الحاجب قضية عبد الحسن فرج حسن، هو يقصدنا إذن... هب عدد كبير ما كنت أحسبهم معنا في نفس القضية، ووقفنا نحن مذهولات تسمرنا في أماكننا ننتظر توجيه... طلبوا عبد الحسن وعدنان عباس عجيل مع مجموعة أخرى قد ربطت قضاياهم معاً.

كنا نجلس قرب السلم المؤدي الى قاعة المحاكمة فعندما مرعبد الحسن للصعود اليها أعطى زوجته انتصار ورقة صغيرة دسها بين يديها على عجل بينما كانت تسأله قلقة وأنا، ما الذي ينتظرني؟ فهي تعلم أن مصيرها مرتبط بمصيره؟ لم يجبها فالموقف لا يسمح بذلك وإنما وجدت وجهه هادئاً مطمئنا وهو يسلمها الورقة التي كتب فيها وصيته.

يوصيها بأطفاله زينب، آلاء، وعلي... أن تربيهم تربية صالحة وتضعهم نصب عينيها وأن تخبرهم أن أباهم رفض الظلم الذي خيم على العراق وأنه يحبهم حبا جما ولكنه لبى نداء الله في إعلاء كلمته وقول الحق أمام سلطان جائر... وغير ذلك مما يستحضره شاب سيفارق أسرته الصغيرة لا لجرم اقترفه سوى أنه قال لا في زمن السكوت ولم يذعن كما أذعن وخضع الملايين... لكنه أشار لها إشارة مودع ولا ترددي في الزواج اذا يأست مني...

نعم كان يعلم أنه آخر لقاء بها ويعلم المشوار الطويل الذي ينتظر زوجته وأولاده فهي في مقتبل عمرها لم تتجاوز عقدها الثالث وصغارها لهم من العمر

بضع سنوات... كما كان متيقناً أنهم لن يدعوه يعيش، المعتقلون صاروا من ذوي الخبرة في أحكام الجور التي قمع بها صدام المجرم كل معارض.

لم ينزل من المجموعة الكبيرة أي أحد من نفس الباب، علمنا بعدها أن من يحكم بالإعدام يخرجوه من الباب الخلفي، هاهم جميعاً حكموا بالاعدام... لم نكن نعلم ولم نتمكن ان نسأل فالجو محتقن جدا... مهمة الحكم علينا شغلهم الشاغل وواجبهم أن ينتهي هذا المشهد ليس الا... بعدها صاح الحاجب العسكري باسمائنا عبد النبي كريم جواد، خليفة علي محمد، أنا وبتول وانتصار فصعدنا الى قاعة المحكمة وجدنا قفصاً خشبياً بانتظارنا (قفص الاتهام) أدخلونا واغلقوا بابه كنا ثلاثة نساء والباقي من الرجال، شعور غريب انتابني وأنا اجد نفسي داخله فلطالما شاهدت قفص الاتهام عبر شاشة التلفزيون ومشاهد عديدة لممثلين أدوا أدوار متهمين وقضاة... سخرت من الموقف في نفسي قلت هل هذا حلقة من مسلسل تلفزيوني؟ أم مشهد من فيلم عربي عتيق!؟

القفص يقابل هيئة المحكمة يترأسهم عواد البندر ومعه اثنان من القضاة، كان عوادٌ فظ اللسان وجهه يتطاير منه الشرر ولم يكن ذلك غريباً هو ككل البعثيين.

قرأ ديباجة: في يوم الأثنين 7/ 3/ 1983 انعقدت جلسة محكمة الثورة في القضية المرقمة 14/ 982 امن بغداد / س52 في الدعوى المرقمة 48/ج/ 983 والخاصة بالمتهمين عبد الحسن فرج حسن وجماعته.

صاح بصوته المزعج بأسمائنا واحداً واحداً وكل واحد منا عندما يسأله هل أنت متهم ام بريء؟

يجيبه: بريء فينهال عليه بالسباب والشتائم مجرم عميل وكلام بذيء وغير ذلك

و هكذا حتى وصل دوري... أجبته: بريئة وانا أهزأ به غير خائفة منه...

فصاح زاجراً إياي وهازئاً: بريئة؟!

و تلا إفادتي بانفعال:

المجرمة العميلة عطور حسين علي أخت المجرم العميل جمال حسين علي والمجرم العميل جلال حسين علي وعمها المجرم العميل حسن علي محمد وزوج أختها المجرم العميل محسن كاظم ملهود وأخوته علي، حسن، حسين، محمد وابن عمها بشار هاشم محمد... أخفت اختاما مزورة تهدد بها أمن الدولة، وتعاونت مع المجرم عبد الحسن وعدد من مجرمي حزب (الدعوة العميل)!! وقد لا اتذكر تفاصيلا أخرى لانني حقا كنت في عالم ثان، شغلني المشهد عما يلفقه لي هذا القاضي الذي أقسم ذات يوم أنه سيكون أمينا على حقوق العباد وعادلا ويعمل بقوله تعالى: وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل!!!

على الرغم من صدمتي مما يقول ابتسمت لغرابة مايجري، وآلمتني صفة المجرم الذي نعتنا بها، هل نحن مجرمون؟!مالذي اقترفناه؟!

بعد ان تلا جميع إفاداتنا أشار قائلاً: إن حكومة الثورة قد وكلت لكم محامياً يدافع عنكم رغم إجرامكم، سادت لحظات صمت ودهشة واستغراب هل حقاً ما يقول؟

هنا انطلق المحامي المزعوم بالكلام وكأنه قد سجّل كلامه بجهاز تسجيل وضغط على زر التشغيل... كان هادراً بلا توقف كمن يحفظ على ظهر غيب، وبدا بكيل الإتهامات الينا: هؤلاء فئة ضالة، هؤلاء وجودهم خطر على حكومة الثورة وأنهم مجرمون ولا يجوز التهاون معهم ابداً، صدمنا بكلماته المسمومة... أحقاً هذا محامي دفاع أم ماذا!؟ لكنه في آخر كلامه وخطابه الأجوف ذكر عبارة من باب التطعيم اللغوي إن أمكننا تسمية ذلك، قال: أرجو من رئاسة المحكمة الموقرة النظر اليهم بعين الرأفة كونهم شباباً في مقتبل العمر... وتوقف عن الكلام ليتحول الى تمثال جامد بلا تعابير وعلى مايبدو إن هذا الدور الممل يؤديه مع كل مجموعة تحاكم لذا فهو يفعله دون أي تفاعل وإنما واجب كلف به يسقطه عنه مهما كان الأداء.

وجدنا عبارته الأخيرة لا جدوى لها بعد ما وصمنا بأقسى صفات المجرمين، كما أننا أدركنا كل هذا تمثيلية يراد بها أن تعرض علينا كسيناريو

متكرر يمر على كل من دخل في قفص المحكمة... وحيث ما التقيت أو سمعت من سجناء ذكروا ذات المشهد ووصفوا هذا المحامي المزعوم بنفس الصفات، إذ حدد له دور تمثيلي يؤديه فقط.

بعدها تلا رئيس المحكمة عواد البندر أحكامنا وكما يلي:

أ - الحكم على المدانين كل من عبد الحسن فرج حسن ومهدي إبراهيم حسين ون.ض عدنان عباس عجيل بالإعدام شنقاً حتى الموت وفق المادة 49/ 156 و50 و53 من ق.ع. ومصادرة أموالهم المنقولة وغير المنقولة.

ب - الحكم على المدان خليفة علي محمد بالسجن المؤبد وفق المادة 49/ 156 و132/ 53 ق.ع. على أن تحتسب موقفيته ومصادرة امواله المنقولة وغير المنقولة.

ج - الحكم على المدان عبد النبي كريم جواد بالسجن بمدة سبع سنوات وفق المادة 185 ق.ع. على أن تحتسب موقفيته ومصادرة أمواله المنقولة وغير المنقولة.

د - الحكم على المدانين كل من عطور حسين علي وانتصار ستار جمعة بالحبس خمس سنوات وفق المادة 2/ 200 و49 و50 و53 من ق.ع. على أن تحتسب موقفيتهما ومصادرة أموالهما المنقولة وغير المنقولة.

هـ - لعدم كفاية الأدلة ضد المتهمة بتول محسن محمد قررت المحكمة الغاء التهمة والإفراج عنها استناداً الى احكام المادة 182 من الاصول.

كما ورد في مقتبس الحكم لجلسة المحكمة حكم بالاعدام على المتهم خضير عباس سوادي وحكم بالسجن لمدة عشر سنوات بالمتهم العريف علي ياسين كاظم وكلاهما مصادرة الموالهما المنقولة وغير المنقولة، فضلاً عن الحكم بالاعدام على عبد الحسن فرج حسن وعبد النبي كريم في الفقرتين (أ) و (ب) من نفس المقتبس...

يا لها من رحمة ورأفة التزم بها رئيس المحكمة بعد ان طلب منه محامي الدفاع... مهزلة بمعنى الكلمة.

رئاسة محكمة الثـــورة

بغـــداد

العدد : ٦٧٤

التاريخ : ٩/١/١٩٨٣

بسم الله الرحمن الرحيم

سري للغاية وشخصي

الى / رئاسة ديوان رئاسة الجمهوريـــــــة

م : جدول اعمال المحكمة ليوم ٧/٣/١٩٨٣ صباحا

١- اشارة الى امر الاحالة المرقم ٤٢/٢٣ في ٩/-١/١٩٨٣ .

حسمت محكمتنا القضيه المرقمه ١٤/١٩٨٢ امن بغداد /س٢ ٥ في الدعوى المرقمه ٤٨/ج/١٩٨٣ والخاصة بالمتهمين عبد الحسن فرج حسن وجماعته وقررت ما يلي :-

آ - الحكم على المدانين كل من عبد الحسن فرج حسن ومهدي ابراهيم حسين ومشعد نسان عباس عجيل بالاعدام شنقا حتى الموت وفق المادة ١٥٦/٤٩ و٥٠ و٥٣ من ق ع ومصـــــادرة اموالهم المنقولة وغير المنقولـــــة .

ب - الحكم على المدان خليفه علي محمد بالسجن المؤبد وفق المادة ١٥٦/٤٩ و٥٠ و٥٣ / ١٣٢ من ق ع على ان تحسب موقوفيته ومصادرة امواله المنقولة وغير المنقولـــــة .

جـ - الحكم على المدان عبد النبي كريم جواد بالسجن لمدة سبع سنوات وفق المادة ١٨٥ مـــن ق ع على ان تحسب موقوفيته ومصادرة امواله المنقولة وغير المنقولـــــة .

د - الحكم على المدانين كل من مطرود حسنين علي وانتصار ستار جمعة بالحبس لمدة خمس سنوات وفق المادة ٢٠٠/٢ / ٤٩ و٥٠ و٥٣ من ق ع على ان تحسب موقوفيتهما ومصادرة اموالهما المنقولة وغير المنقولـــــــة .

هـ - لعدم كفاية الادلة ضد المتهمة بتول محسن محمد قررت المحكمة الغاء التهمة والافراج عنها استنادا لاحكام المادة ١٨٢ مـــن الاصـــــول .

ي - مصادرة الرمانات اليدويه والمسدس وملحقاتهما والاشياء بارسالها .

٢- اشارة الى امر الاحالة المرقم ٢٣/٤٠ في ٩/١/١٩٨٣ تم ترد في سجلات الاخبار

حسمت محكمتنا القضية المرقمه ٢٦/١٩٨٢ امن بغداد /س٢ ٥ في الدعوى المرقمة ٤٦/ج/٨٢ الخاصة بالمتهم خضير عباس سوادي وقررت الحكم عليه بالاعدام شنقا حتى الموت وفق المادتين ١٥٦ و١٧٥/٢ / ٤٩ و٥٠ و٥٣ من ق ع ومصادرة امواله المنقولة وغير المنقولـــة .

٣- اشارة الى امر الاحالة المرقم ٢٣/٥٧٥ في ١٠/٦/١٩٨١

حسمت محكمتنا القضيه المرقمه اوراق تحقيقية في الدعوى المرقمة ٩٦٦/ج/١٩٨١ الخاصة بالمتهم العريف علي ياسين كاظم المنسوب الى ل ص/٢٢٤ وقررت الحكم عليه بالسجن لمدة عشر سنوات وفق المادة ١٧٥/١/٤٩ و٥٠ و٥٣ من ق ع على ان تحسب موقوفيته ومصادرة امواله المنقولة وغير المنقوله .

لطفا للإحاطة .

- يتبع لطفا -

أخرج الحراس من حكم بالاعدام من الباب الخلفي للقاعة وخرجنا من الباب الذي دخلناه، لم تصدر منا أي ردود أفعال حول الأحكام، حتى انتصار كانت شاحبة الوجه واجمة مذهولة ولم تستوعب أن زوجها قد حكم بالاعدام شنقاً ولن تراه بعدها، بل لم تستوعب إنها ستفارق أولادها سنوات جديدة أخرى غير التي مضت.

بتول لم يطرأ عليها أي علامة من علامات السرور والرضا كونها قد أطلق سراحها بل كانت قلقة خائفة، الموقف كله غير اعتيادي إذ حسمت مصائر عدد من الشباب بما لايزيد عن بضع دقائق من الزمن.

كانت محاكمة صورية عاجلة ولم تكن سوى إسقاط فرض ليس الا، هكذا كان القاضي يبت بالقضايا وليس أمامه خياراً آخراً فهو ليس حاكم عادلاً، وثمة اعداداً كبيرة من المعتقلين بقضايا عديدة أخرى ينتظرون قراره الجائر، عليه الحسم بأسرع مايكون دون مبالاة لمصائر المتهمين وإن كانوا في مقتبل أعمارهم كما وصفونا... نعم على الرغم من أن جميع الدساتير العراقية قد نصت: المتهم برئ حتى تثبت إدانته... كل الدساتير هي المادة الدراسية الأساسية لطلبة الحقوق والمعهد القضائي الذي نال به هذا الظالم منصب قاض في الدولة العراقية... الا أن من سار بركب صدام الظالم ومنظومته القمعية انتهك كل حق دستوري.

نزلنا الى قاعة الانتظار من نفس الباب التي صعدنا منها فتلقانا المجرم أبو جواد الذي ساقنا من أمن الثورة الى هذه المحكمة الظالمة.

قائلاً: ها بويه شلونجن؟!

يمثل دور البريء وكأنه ليس جزءاً فاعلاً مما جرى ويجري...

هنأ بتول قائلاً: "بعد شتريدين راح تطلعين لبيتج وتربين بتج"، لم تجبه باي كلمة وإنما كان الخوف قد خيم عليها وجحظت عيناها من هول الموقف.

صعدنا الى خارج قاعة الانتظار عبر السلمات التي نزلناها لنصل الى

الساحة الخارجية وقد توقف الزمن عندي ولا تعابير على وجهي كنت أنظر اليهم ولكنني لا أستشعر وجوههم ولا فرق عندي من هم؟وأين سيذهبون بنا؟

لم تنتظرنا سيارة (بوكس) كالتي جئنا بها، وإنما سيارة خصوصي عادية، هي ليست مظللة ولا عسكرية كان يقودها أحد رجال الأمن سمى نفسه جعفر واحتل أبو جواد المقعد الأمامي وبالكاد كان يتسع لبدنه الضخم.

أما نحن فصعدنا في المقعد الخلفي أنا وانتصار وبتول التي لم يطلق سراحها استنادا للحكم... هذه المرة الأولى بعد أكثر من عام نستقل سيارة لنقل الناس، ففي كل مرة لم يكن سوى سيارات السجن.

سرحت بنظري واسعاً الى شوارع بغداد الحزينة كنت أرقب كل شيء بوضوح وشوق تاقت له عيناي... الجو ربيع والهواء منعش، لم أفكر سوى بالاستزادة منه، لم يطرأ ببالي حينها أية فكرة عن المكان الذي يقودنا له هذا المجرم.

والسيارة تسير استدرك أبو جواد قائلاً: "علوية ابريلي الذمة خاف اذيتج "... أي وقاحة وجرأة... كيف يطلب ذلك؟ وهل أن براءة الذمة لفظ فقط، ترى بماذا كان يفكر حين طلب مني هذا الطلب؟

سكتُ عن إجابته لبرهة ثم قلت له: "انت شسويتلي علمود ابريلك الذمة؟"

سكت ولم يجبني... ثم قال وكأنه يسترضيني: "اخوج جلال حكمناه بسجن الأحداث يخلص المدة مالته ويطلع"، أجبته بلهفة: "وين سجن الأحداث هذا؟"... صدقته لحسن نيتي وسذاجتي.

فقال: "هنا يمكم يم سجن النساء".

استحضرت وجه أمي الحبيبة: إيه يا أماه وزعوا أبناءك على السجون... تهيئي لتعب وعناء جديد.

سالته إنتصار بوهن وكأنها فاقت من سبات عميق: وأولادي؟

قال مرتبكاً: "يجوج وتشوفيهم عدكم مواجهة هنا ".

لم تسعدني رؤية مناطق بغداد الحبيبة، ولم تستهويني المساحات الخضراء التي روتها أمطار الربيع ولا الزهور الطبيعية الملونة التي انتشرت في كل مكان... المسافة طويلة بين محكمة الثورة في منطقة أبوغريب جنوب غرب بغداد وبين سجن النساء في منطقة الرشاد شرق بغداد، كنت طيلة المدة أستجمع نفسي وكأنني نجوت من كل هول مادمت خرجت من أمن الثورة... حقا نجاة من أهوال الدنيا...

سجن الرشاد للنساء

وصلنا الى منطقة تكاد تخلو من العمران وصار قبالتنا باب كبيرة جداً لم أرَ مثلها سابقاً يحيط بها جدار عال (سور)، هذا هو سجن الرشاد اكتسب هذا الاسم من المنطقة التي يقع فيها ولم أعرفه حينها الا أنه سجن للنساء.

وعلى الفور فتح الحراس الباب ودخلت السيارة، هم معتادين على هذا المشهد منذ تسلم البعث حكم العراق وخاصة بعد 1979 ورئاسة صدام لهذا الحكم الأسود، يكاد لا يمر شهر ألا ووصلتهم وجبة من السجينات السياسيات، ولا سيما نحن في سنوات الحرب العراقية الإيرانية مع كل تداعيات وضعها السياسي والأمني وكل تشظيات المجتمع العراقي ومحنته.

استقبلتنا السجانات كانوا يسمونهن الرقيبات تخفيفاً لحدة كلمة (سجانة)، كان كل شيء يبدو لي جميلاً وجيداً مادمت قد خرجت من أمن الثورة، ماكنت آبهة بالمستقبل اطلاقاً، وقامت السجانات بإجراءات إدارية استلمونا من أبو جواد ضابط تحقيق أمن الثورة بأوراق رسمية، كن يعرفنه ودارت بينهم أحاديث غير رسمية فهو زبون دائم يرفدهم بأعداد جديدة بين مدة وأخرى... وطلبوا منا بعض المعلومات العامة وبعض التوقيعات على عدد من الأوراق.

هنا انتهى دور أبو جواد وحقق مراده في حرمان أم من اطفالها وترميلها من زوجها، ومنع طالبة جامعية من مواصلة مسيرة حياتها العلمية والاجتماعية فضلاً عن حرمانها من أخويها اللذين غيبهما في زنازين وأقبية دوائر الأمن العديدة.

غادر المكان ولم يبدُ عليه أي تأنيب للضمير أو شعور بالذنب، فهذه قد غدت ممارسة عادية لأزلام البعث يعيثون في الأرض الفساد ويتسببون في تحطيم حياة الناس كمهمة من مهام عملهم اليومي، بل يتفاخر أحدهم بعدد من سجن على يديه وخاصة هذا المجرم الذي كان يقسم أيماناً غليظة: إنه لن يذر أثراً لحزب الدعوة فهم كالثيل كما يشير كلما جُز نما وانتشر.

أخيرا تحررنا من سطوة أبو جواد وجلاديه، يا للفرحة ويا للسخرية أن نفرح لأننا دخلنا اليوم الأول للسجن ولنكمل محكوميتنا بعد أن رأينا العجب العجاب من الآلام والعذاب... نعم أمن الثورة مكان لا يمكن وصف بشاعته... انصرف أبو جواد من حياتنا، والآن بدأ مشوار جديد، ولا ندري ما القادم؟

على أية حال قادتنا السجانة الى القسم الثالث وهو القسم السياسي لكنهم يرفضون أن يسمونه هكذا لأن اطلاق لفظة السياسي يعني الإعتراف بوجود معارضة لحكم البعث... كانت الأخوات السجينات على علم أولي بان سجينات جديدات قادمات الى السجن دون معرفة هويتهن فثمة سجانات كن ينقلن بعض الأخبار من باب حسن النية أو لأنهن صرن على علاقة صداقة إذا كان يمكن أن تحدث هكذا علاقة بين سجينة وسجانة!! لكن أخلاق الأخوات وأدبهن ودينهن جعلهن موضع إعجاب واحترام من بعض السجانات ذوات الأصل الطيب فتعاطفن معهن وأبدين تعاونا في شراء بعض الاحتياجات عند الضرورة، كما أن السجانات لمسن البَون الشاسع بين نزيلات القسم الثالث وبين ما تواجد في الأقسام الاخرى.

قبل القسم الثالث توجد ساحة كبيرة تعد فاصلاً بينه وبين القسم الأول والثاني، الأول يسمى قسم (الثقيلة) وفيه قضايا الإعدام والمؤبد بسبب جرائم

القتل والجرائم المشابهة لها، أكثر قضايا القتل في هذا القسم هو قتل النساء لأزواجهن ولأسباب شتى، لعل أولها الخيانة الزوجية.

أما القسم الثاني فيسمى (الخفيفة) نظراً لأحكامه التي لا تتجاوز سبع سنوات وتخص قضايا التزوير والإختلاس والهروب من البيت والسرقة الى غير ذلك.

لهذين القسمين حرية ومتسع كبير وعدم تشديد في التعامل وإجازات زوجية تخرج فيها السجينة مالا يقل عن عشرة ايام لعائلتها، مواجهاتهم لأهاليهم كل أسبوع ماعدا المواجهات الاستثنائية... أغلب هؤلاء يشملهم العفو الخاص والمراسيم الجمهورية التي كان يصدرها صدام بعد توسط أهاليهم عبر أحد أزلامه.

وبمجرد أن ظهرنا للعيان في الباحة الخارجية للقسم السياسي حتى لاحت لي أم حسين فاطمة شوكة فرحة مرحبة بنا: "هله... هله..." بدون توقف... تهللت أساريرنا فكم كنا في شوق لهؤلاء الأخوات اللواتي جمعتنا وإياهن اياما وليالي مؤلمة في أمن الثورة.

لكنني استدركت: أم حسين لماذا هي مسجونة؟ ألم يعدها ابو جواد الظالم مراراً وتكراراً بالإفراج منذ أن كنا في المعتقل؟! وكم تلاعب بمشاعرها وهو يناديها من دوننا: "فاطمة ام حسين يلله تحضري راح نطلعج لجهالج"، لكنها تبقى منتظرة ولأيام دون أن يحقق كلامه الكاذب هذا.

ركضت دون وعي واحتضنتها شعرت لحظتها بالأمان... كان تحيك خيوطا من الصوف وبدت بصحة جيدة قد توردت وجنتاها ولم تعد شفتاها متشققتان، وسارعت لسؤالها كم سنة؟ ضحكت وترقرق الدمع في عينها: تلث سنين... شهقت: لماذا؟!

أجابتني: "يلله راح يكضن ما ظل شي".

دخلنا القسم برفقة السجانة وضج القسم فكل الأخوات السجينات كن بانتظارنا... بنات الكرادة قد سبقننا وحكين للأخريات عنا، استقبلونا أفضل استقبال وجوههن باسمة وكلماتهن عذبة حنونة تاقت أرواحنا لسماعها لما يزيد على عام وبضع أشهر... قلبي يخفق فرحاً ولم يخطر ببالي لحظتها انني ستضيع هنا عدة سنوات من عمري بقدر ما كنت سعيدة لأني فارقت أمن الثورة بكل مافيها.

حددت مكاننا السجانة في غرفة (الهندسة) الغرفة الأخيرة في الممر الأيسر للقسم، سموها البنات غرفة الهندسة لأنها غرفة تضم المهندسة إنعام حسن والمهندسة رباب عبد الحسين وطالبة الهندسة نور الهدى محمد علي، شاركتهم وداد فكانت هذه الغرفة تسمح أن تكون كلانا فيها.

دخلت الغرفة فشاهدت أسرّة فيها فصحت فرحة: "الله جربايه ومندر؟!" فمنذ سنة وثلاثة أشهر لم ننم الا على الأرض أو قطع الكارتون أو سجادة عتيقة في أمن الثورة ولم نعرف للوسادة معنى.

ضحكت الأخوات من حولي وقلن: نعم ولك واحدة خاصة بك... كنا كمن جاء من عصور ما قبل التاريخ... أعتقد لحظتها كانت ملابسنا وعباءاتنا تبعث رائحة غير محببة، فهي لم تغسل الا على عجل ولم تر ضوء الشمس منذ أكثر من عام، تبقى معلقة بمائها على شباك الغرفة حتى تجف أو تكاد... لنسرع بارتدائها فلا بديل لها... لذا اقترحن علينا الاغتسال فرحنا بالفكرة، هل سنغتسل بحمام وليس في مرافق كما في كل تلك الشهور الغابرة!!

كان الحمام مثالي بالنسبة لما عانيناه، هنا ماء ساخن وصابون وشامبو... وزودتنا الأخوات بمنشفة وملابس نظيفة منهن منحتنا الراحة النفسية والجسدية وقدمن لنا الطعام، طعام غير ما كنا نجبر على أكله، طعام لايشبه ذلك الطعام الذي فقد كل صفاته.

قمنا للصلاة في أجمل وضع قد افتقدناه مذ فارقنا بيوتنا... سجادة وثوب صلاة

طاهر نظيف تفوح منه رائحة الورد ومسبحة جميلة صنعتها بعضهن في معتقل أمن العامة من بقايا الصمون... سجدت لله شكرا ولا أدري لأي نعمة أشكره... تعددت أياديه عندي ولا أقوى على إحصائها... فلله الحمد والشكر أبد الآبدين.

نعم سجدت لله شكراً حيث عاد لنفسي بعضاً من كيانها، على الأقل لم أعد ارتدي الربطة والعباءة طيلة اليوم، والحمد لله أن أرانا نور شمسه وهواءه الطلق بعد ذلك الحرمان، والحمد لله على وجود أخوات معنا صرن أهلاً لنا وصرنا أسرة كبيرة عوضتنا عن أحبابنا، هنا توسعت تلك الأخوة التي جمعتنا مع بنات معتقل أمن الثورة علاقة ليس بالدم والنسب... أخوة في الله يجمعنا مصير مشترك وهدف واحد وتعتصرنا محنة وجود البعث التي لا مفر من رفضها ومعارضتها مهما كلف ذلك... صار اليوم لنا أخوات جدد قدمن من دوائر الأمن العديدة في بغداد والمحافظات لنجتمع معا في هذا السجن الذي ماتكرر في أي دولة في العالم، فلا ظلم كالذي عشناه في حقبة البعث، هنا أتيح لي قراءة القرآن الكريم وقد تحسرت كثيرا عليه في تلك الشهور العديدة المنصرمة، ضممته الى صدري وقبلته مرارا وقلبي يستشعر طمأنينة لا عهد لي بها.

لا إفراج لبتول... بل عودة قسرية للمعتقل

جرى على بتول ما لا يصدق وحدثتني عنه بعد سنوات... دونته لتكتمل الصورة لثلاثة نساء أعتقلن لأكثر من سنة وحوكمن في محكمة الثورة السيئة الصيت ثم افترقن يوم 7/ 3/ 1983...

بعد أن دخلنا الى سجن الرشاد أنا وانتصار أم علي ودعتنا بتول بعينين ترقرق دمعهما... جهدت أن لا تظهرهما أمامه والخوف خيم على قلبها... التفت اليها أبو جواد قائلاً: "ها ولج كمتي تبجين على حبايبج؟!"

فأجابته بهلع: لا... لكنني كنت أتمنى ان أكون معهما، وكفكفت دموعها...

نعم لم يتح لها أن تودعنا... وتمنينا دقيقة واحدة دون وجوده لنؤدي واجب أخوة ولّدتها رحى الألم طيلة تلك الشهور الطوال الحالكة حين فزعت قلوبنا معا وبكت أعييننا معا وعانينا شظف العيش تحت سطوتهم معا... اكتفينا بوداع نظرات من أعين باكية عبرت بدمعها عن أجزل عبارات الوفاء والإمتنان.

فضحك بخبث قائلاً: "لا اليوم شوفي جم ذبيحة راح يذبحولج أهلج، جنك ما تريدين تطلعين وأهلج يفرحون بيج "، نبرته فيها شماتة بي وبإنتصار.

عادت السيارة من سجن الرشاد الى أمن الثورة، فصدمت بتول عندما أنزلوها لتدخل ثانية الى هذا المعتقل الرهيب وتبددت فرحتها المشوبة بالحزن علينا، كانت تراقب الطريق آملة سيوصلها الى بيتها وكم توقعت ما ينتظرها من مشاهد الفرح من أهلها وطفلتها، ساقها الحارس الى المخزن الداخلي الصغير الذي مكثنا فيه مدة في ضنك، هذا المخزن يتم الدخول اليه عبر المطبخ الذي تحول هو الآخر الى معتقل للرجال أثناء التحقيق.

دخلت بتول فاذا بها تتفاجأ بأن المطبخ مكتظ بالرجال المعتقلين ومن مختلف الأعمار، تلعثمت وتحيرت كيف ستدخل عبره ولا مجال لموطأ قدم فيه، فتسمرت في مكانها دون حراك.

فصاح أبو جواد آمرا: "دوسي عليهم وفوتي يلّله "

أجابت: "ما أكدر أخاف أوكع".

فصاح: "لازم تدوسين على روسهم يلله"...

كانت ملابسهم ممزقة من التعذيب وقد غطت أجسادهم الدماء وكدمات سوداء... وبصعوبة بالغة وجدت لها مجالاً لتجتازهم ويدخلوها الى المخزن هذا، الحارس الذي يرافقها يدوس حيث ما يحلو له على يد أحدهم، رجله، بطنه... هكذا دون أي مبالاة أو رحمة... جُبل هؤلاء الجلادون على القسوة، ومن كانت في قلبه بعض من الرحمة تلاشت بممارسته التعذيب الوحشي لآلاف المعتقلين في تلك المرحلة الزمنية الصعبة التي فرضها البعث على خيرة الشباب المؤمن.

ظلت بتول في هذا المخزن ثلاثة أيام من أصعب ما مرت به طيلة مدة اعتقالها، وكيف لا وهي وحيدة دوننا، ومحاطة بعشرات من المؤمنين يأنون من ويل التعذيب الوحشي أنينا يقطع نياط القلوب، كانت مجموعة كبيرة أغلبهم ممن تجاوز الأربعين عام ويبدو من مظهرهم أنهم قرويون ذوو عقال (معقّلون) قد أنزلوا عقالهم في رقابهم إذلالاً وامعانا في الإمتهان لكرامتهم، كان نصيب هذه المجموعة وابل من العذاب الذي تفنن فيه جلادو هذه الدائرة المشؤومة.

أذاقوهم كل أنواع التعذيب ثم كانوا يجبرونهم على التمدد على الأرض ويمشي على أجسادهم الحراس بكل قسوة وصلافة لتكون خطواتهم سكاكين تنكأ الجراح وتدميها، فضلاً عن تحويل الرضوض التي نالوها من جراء التعذيب الى كسور لا تجبر.

كانت أشبه بالمسرحية الاستعراضية شيء لايصدقه المرء، الجلادون يستهزؤن ويتضاحكون وهم يدوسون على أجساد هؤلاء المؤمنين المعذبين الذين يأنون ويتلوعون من ذلك، مشهد اختلطت فيه ضحكات الجلادين الهازئة مع أصوات ألم توجع الضمير وتؤرق كل شريف وهو يرى آدم الذي كرمه بان سجدت له الملائكة يوم خلقه، يداس بأقدام أراذل الخلق.

هكذا قضت بتول أيامها الثلاثة في رعب وقلق وألم أرقها تواصل به ليلها بنهارها، ولا سلوى لها سوى الدعاء والتضرع الى الله بدموع سخية تدعوه سبحانه أن يخفف عن هؤلاء المؤمنين الذي لم يجرموا ولم يقتلوا نفساً، وإنما رفضوا طاغوت زمانهم وساروا في نهج الإله، فهي قد نست واقعها وسرقة أبو جواد لفرحتها بإطلاق سراحها واحتارت بهذا الكم من العذاب والمعذبين.

رأت بتول أن سكوتها والأيام تمضي وهي التي حكم الظالم عواد البندر ببرائتها سيجعل هؤلاء الجلادين يتمادون في غيهم... وقد ضاقت بها الدنيا وهي تعيش معاناة ومحنة هؤلاء الرجال وكلٌ منهم تشعر به أخ أو أب لها... لذا بدأت بطرق الباب بشدة وهي تصيح: "طلعوني... طلعوني"... بعد أن سمع الحراس

صياحها وتكراره جاء أحدهم والمسمي نفسه عهد فتح باب المخزن وطلب منها أن تمضي معه... استبشرت بتول بادئ الأمر فسألته: الى أين يا عهد!!؟ سأذهب الى بيتنا؟! أليس كذلك؟! هو لا يجيب وجهه متجهم خالٍ من التعابير... ظلت بتول تلّح عليه... فأجابه: "قولي يا الله... واخذي أغراضك معك"... هنا شكّت بتول أنها لن تخرج الى بيتها، تأكدت ظنونها عندما قيد معصميها بالكلبجة وشد عينيها بإحدى الخرق البالية وأصعدها السيارة (البوكس) لتسير بها وبسرعة جنونية كما هي عادة هؤلاء الخاطفين...

بتول تساق الى معتقل الفضيلية

سارت السيارة وانهارت بتول بالبكاء المر فهي تمضي الى مجهول لن يكون أفضل مما رأته... إنه يوم 10/ 3/ 1983 قبيل المغرب... توقفت السيارة أمام مبنى من مبانيهم القمعية العديدة لتفتح باب السيارة وينزلها الحارس ويُدخلها على ضابط أمن سجن الفضيلية الذي سألها بدوره زاجراً: "شنو قضيتك؟!"... أجابته: "علمود زوجي"... بعد أن تلعثم الحراس المرافقين لها فما الذي يجيبونه وهم يخالفون قرار محكمة الثورة الجائرة التي ما أفرجت قراراتها عن أحد الا ما ندر ومن هذه الندرة بتول!!

ظل الضابط متساءلاً: وما بال زوجك؟ قالت... اعتقلوه... وأنا معه، لم يقتنع فسألها: هل أنت من التبعية؟ أجابته: كلا أنا عراقية... سواء أقتنع أم لم يقتنع هو أراد حسم الموقف فصاح: "حرس أخذوها" فأحاط بها إثنان كل على جانب يقودونها وهي ما تزال معصوبة العينين... فصاحت: "عهد!! وخر الوصلة من عيني الله يخليك... راح أوكع... يلله فكوا ايدي آني أمشي"... كانت بتول بحالة هستيرية إذ تضاعف عليها الظلم فوصلت الى حالة اللّا صبر، وأنى لها الصبر وتحمل كل هذا...

على جانبي الممر الذي سيّراها به أنبوب ممتد امتداد الجدار يوثق فيه المعتقلون فتشبثت به بتول وهي تسير كي لا تقع... في نهاية هذا الممر باب صغيرة ضمن باب كبيرة جدا فأدخلوها ثم قفلت الباب وراءها بسرعة، فتحت عينيها وهي ترتجف من هول ما ستصدم به فهي لا تعرف هي أين؟

وجدت أعداداً كبيرة من النساء والأطفال في حالة يرثى لها... وقد هرعوا اليها ليعرفوا من هي؟ والصغار يرددون إهزوجة غريبة: "سجينة... سجينة... سجينة "... عالم غريب جعل بتول في حالة من الرعب إذ توقعت أنهم أودعوها مستشفى المجانين... لذا طرقت الباب بشدة وهي تصيح وتبكي: "فتحوا الباب... فتحوا الباب آني مو مخبله"... راعها ضحكات كانت تصدر من إحدى المعتقلات وهي في حالة نفسية متعبة ونظراتها شاردة، ربما من هول التعذيب الذي مرت به... كانت تحدق ببتول وتضحك بطريقة هستيرية مخيفة.

فتح الحارس الباب وأجابها: "لا تخافين هذوله ناس مثلج... لا تخافين هذوله هم مسجونين مثلج"... لم تهدأ روعها كلماته وظلت ترتجف وبدأت بالبكاء والعويل تندب حظها وتتحسر لأنها لم تكن معنا في سجن الرشاد... بكت بحرقة ومرارة، تقربت منها بعض النسوة يهدأنها وهذه تربت على كتفها وأخرى تمسح دموعها وهي لم تزل في حالة إنهيار وبكاء وتسألهم: منذ متى أنتم هنا؟

أجابتها إحداهن: أنا منذ ثلاثة سنوات وأخرى: منذ سنة ونصف... واقع مرير لا يبّشر بخير ولا ينم عن فرح قريب...

سجن الفضيلية هذا السجن قد بناه عبد الكريم قاسم أثناء حكمه (1958 – 1963)، مكان واسع جداً لا جدران له الا مشبكات حديدية تقسم هذا المكان الى غرف على الجانبين، كان أشبه ما يكون بممر واسع جداً ينتهي طرفاه بحمامات.

ظلت هؤلاء النسوة والأطفال يحيطون بها وكان عددهم يفوق بضع مئات من البشر فقط نساء وأطفال، وبقضايا مختلفة، لم تكن في الغالب قضايا سياسية.

استمرت بالبكاء والنحيب فأشفق الحارس لحالها وأشار عليها أن تجلس في مكان جانب أم سمير مديحة والتي كان ابنها جندياً هارباً من الجيش الى إيران... وأم أحمد مليحة البياتي كان زوجها قائداً في الجيش رفض القتال في الحرب وأخذ الفوج الذي يأتمر بأمره وسلم نفسه مع فوجه الى الجانب الإيراني رافضاً قتال المسلمين فاعتقلوها نكاية به.

نعم لم يكن حكم البعث الجائر يأخذ المذنب بجريرته فحسب، وإنما تمتد هذه الجريرة لتشمل ذويه وأقاربه، ولعل من أخس الأساليب هو اعتقال النساء من ذوي المعارضين دون أن يكن لهن أي ذنب!!، لذا فأن اعتقال عوائل باكملها صار سمة من سمات هذا الحكم الجائر الذي أذاق المعارضين أساليب بشعة من القمع والترهيب، ولم يرع حرمة شيخ أو أمراة أو طفل رضيع.

و كأن الحارس قد وعى أن بتول صنف معين من النساء، علامات الدين والوقار بادية عليها وإن كانت عباءتها رثة، لذا لم يخصص لها مكاناً مع سائر العوائل التي كانت قضاياهم شتى ومنها البغاء، بل خصص لها رفقة هاتين السيدتين.

بعد يومين جاء الضابط سائلاً اياها: لماذا أتوا بك الى هنا؟ ومن أهلك؟ فأجابت: "اهلي مسفرين"... لم تشر بتول إطلاقاً أنها دخلت محكمة الثورة وحكم عليها بالبراءة... لم تكن ساعتها تجد أي جدوى من ذلك، بل كانت تحاول جاهدة أن تبعد عنها التهمة السياسية فهي قد يأست منهم بعد أن رأت بعينيها وعاشت مهزلة المحكمة فلا قرار الا بيد هؤلاء الجلادين.

في سجن الفضيلية تعرفت بتول على عائلة الحاجة أم جواد بدرية مشكاب وبناتها فضيلة، ليلى، زينب وسلمى... تم اعتقالهم جميعاً للضغط على ولدهم الدكتور جواد الذي كان مطلوباً وواعتقلوا ماتبقى من أولادهم سلام، حسن وحسين في حين كان والدهم الحاج أبو جواد معتقلا قبلهم بمدة.

كان الدكتور جواد في مجلس فاتحة لأحد معارفهم في المنطقة فجاءت

دوريات الأمن لاعتقاله، فأوصل له بعض الجيران نبأ اقتحام هؤلاء المجرمين لدارهم فأستطاع الفرار من قبضتهم من المنطقة وسهّل له بعض الأخوة الهجرة الى خارج العراق.

الحاجة أم جواد قد استمر اعتقالها بعد أن تم الإفراج عن بناتها الأربعة بعد أشهر من قدوم بتول، وصرن يواجهن أمهن وبذلك كانت فرصة لبتول أن تجد رسولاً أميناً يبلغ أهلها أنها بخير ويطمئنهم عليها.

و فعلاً ذهبت فضيلة وإحدى أخواتها الى بيت أهل بتول ذات مساء طارقة باب دارهم، ففتح الباب والد بتول متسائلاً ومرتاباً من مجيئهما في هذا الوقت حيث القلق والخوف كان مخيما على أهالي المعتقلين.

لكنها بددت مخاوفه بان أعلمته أنها من طرف إبنته بتول... لم يتمالك الحاج محسن نفسه ومن شدة فرحه إحتضن فضيلة بعباءتها دون شعور وقبل رأسها، أدخلها الى الدار وكأن الحياة قد عادت اليه بعد أن أوشك على فراق الدنيا من شدة الحزن والألم والقلق، وكيف لا وهاهي السنة الثانية تمضي شهورها مسرعة بالتوقيت ثقيلة الوطأة على من فارق فلذة الكبد... وهو يترقب ولو خبر عنها... أكدت الأختان أن بتول كانت معهما في سجن الفضيلية وهي الآن مع والدتهما واقترحتا عليه أن يأتي معهما للمواجهة في موعدها القادم، فتهللت أسارير وجهه وحمد الله كثيرا... حقا إنه موقف شجاع وبطولي من هاتين الفتاتين في ظل مراقبة شديدة على بيوتات المعارضين.

حان يوم المواجهة وكانت بتول بادئ الأمر في المواجهات السابقة تجلس بعيداً لأنها لا تتوقع أن يأتي أحد لمواجهتها... فقد ورد كتاب من أمن الثورة بشأنها يمنع عنها المواجهة وبناءا عليه يفترض أن تعصب عينا بتول في كل مواجهة وتودع في سرداب السجن لحين إنتهاء وقتها.

في ذلك اليوم قررت أن تخالف ذلك وتوقعت أن يأتي أهلها بعد ما وعدتها فضيلة من إيصال الخبر اليهم... فأختبأت في الحمام وفتحت الدوش دون

أن تغتسل، فجاء الحارس لتنفيذ السياق المعمول به في كل مواجهة لكنه لم يجدها فصاح: سيدي لقد هربت بتول!! فضج الحرس يبحثون عنها حتى وصل أحدهم قرب الحمامات فصاح: بتول بتول!!

أجابته: نعم أنا هنا أغتسل.

فتنفس الصعداء وصاح مستبشراً: سيدي لم تهرب ها هي في الحمام... ها هي في الحمام...

فذهب الحرس جميعهم وخرجت بتول متسللة بين المعتقلات وجلست بجانب الحاجة أم جواد، فتفاجئت بوجود والدها أمامها مع عائلة أم جواد وهو ينظر اليها مبتسماً إبتسامة تحكي شوقاً وحناناً لأب يقاوم دمعته بفراق فلذة كبده وتخفي وراءها أحزاناً عميقة، نعم لم يكن أمامه سوى الإبتسامة وبهدوء فلا مجال لإظهار أي مشاعر مهما كانت فياضة.

كان أنيقاً كعادته مرتدياً بدلة رسمية مرتب الهندام... فبدا غريباً في ذلك الكم البشري الوارد من أحياء بغداد الشعبية ومن محافظات شتى، هو أشقر أبيض البشرة ذو وجنتين ورديتين كأغلب أهل الخالص، بدا مختلفاً عن أهل أم جواد، مما جعل المعتقلات يسألنهاعنه، من هذا الرجل؟! هو يشبه أم زينب يقصدون بتول، أردفت أم جواد بسرعة: كلا إنه من أعمامنا جاء لمواجهتي من العمارة...

مرت المواجهة الأولى بسلام لكنها لم تطفأ نيران الشوق المستعرة في القلوب وهي على كل حال رحمة من الله قد من بها على بتول وأبيها بعد فراق طويل وفي أسوأ ظروف، لذا قررت بتول أن تعمل المستحيل لتقبل يد والدها في المواجهة القادمة إذ ألحّت عليها الفكرة شوقا اليه وبرا به... فأستطاعت أن تستثمر لحظات انشغال الحراس وتتسلل بين المعتقلات لتلثم يد والدها بسرعة فائقة وليحتضنها بحنان ويقبل رأسها ويدس في يديها مبلغاً من المال فهو يعلم جيداً بحاجتها الى الكثير من المتطلبات... وشكراً لله على نعمة لقائه بابنته فلذة كبده بدأ والدها يوزع مبالغاً على المعتقلات وأطفالهن فرحاً مسروراً.

مرت على بتول خمسة اشهر متواصلة وهي في سجن الفضيلية للنساء ذاقت حر صيف العراق القائظ بكل معاناته، التقت هناك بمعتقلة سياسية إسمها علاهن كانت على وشك الولادة وفي هذه الاوضاع المزرية وضعت وليدها وسام... هذه المرأة المؤمنة كانت زوجة القيادي في حزب الدعوة ومسؤول الشرق الأوسط كما كانوا يسمونه آنذاك المهندس موحان... (أم إيمان) لم تكن بتول تعرفها سابقاً وإنما سمعت بها عن طريق الصيدلانية عالية الحمداني التي أوصت بتول بها قائلة: "اذا رحتي الى سجن الفضيلية ديري بالج على أم ايمان زوجة المهندس موحان"... كانت عالية قد سمعت بخبر اعتقال زوجة موحان عن طريق إذاعة طهران والتي خصصت نشرة أخبار بالعربي لأوضاع العراق... لم تكن تتوقع بتول حينها أن كلام عالية سيتحقق يوما ما وخاصة بعد ان برّأتها محكمة الثورة، ولكن الأمور مقدرة من الله سبحانه.

أم إيمان هي من تعرفت على بتول بعد أن لمست قواسم مشتركة بينهما وطمأنتها أن ثمة عوائل اخرى في هذا المعتقل من عوائل المعارضين المتدينين... وأعادت الى ذاكرتها ما أوصته بها عالية وربما لغرابة اسم زوجها موحان تذكرتها بتول على الفور وتمسكت بها وهي أحوج ما تكون لمثل نوعها.

الزعفرانية محطة ألم جديد

بعد خمسة أشهر جاءت إدارة السجن بسيارات نوع لوري لنقل المعتقلات من سجن الفضيلية الى سجن الزعفرانية، نعم هكذا ودون أي رادع كانت تلك العوائل قيد إشارتهم يتنقلون بهم حيث ما شاؤا وخاصة عند حملات الإعتقال الجديدة حيث تضيق بها هذه المعتقلات.

ولما حان موعد إنتقالهم قسراً الى سجن الزعفرانية قامت إبنة أم جواد فضيلة بالإتصال بوالد بتول وأعلمته برموز تشير الى ذلك: "عمي أحنا شلنا الى

الزعفرانية لاتجينا للفضيلية بعد... أحنا تحولنا من دارنا "... فهم الرجل كلامها على الفور وكان حاضراً مع المواجهين في الزعفرانية.

ظروف سجن الزعفرانية أسوأ من سجن الفضيلية، الأعداد كبيرة والمكان يكاد يضيق بها، ففي غرفة واحدة تواجد سبعة وثلاثون إمراة يرافقهن واحداً وسبعين طفلاً، وهذا كافيا لجعل الواقع مؤلم وغيرصالح للمعيشة.

كانت لدى بتول فكرة عن هذه السجون أنها مكان لاحتجاز قضايا البغاء من النساء، ولم تتفاجأ كثيراً عندما رأت عشرات النساء من هذا الصنف يقضين أوقات إعتقالهن بالرقص والغناء، لكنها ظلت تبحث في وجوه الموجودات علها تجد مثيلات لها، فهي على يقين أن هؤلاء الجلادون أرادوا إذلالها وكل من تحمل فكرها ودينها بإيداعهن في هكذا معتقلات.

ثمة رجل كبير يأتي كل يوم صباحاً يحمل أبريق شاي كبير يوزع إحتياجات هؤلاء النساء من الشاي لوجه الله تعالى فهو صاحب مقهى الحاج حنش، سمعت بتول إحداهن تناديه: عمو حنش إسكب لنا شاياً هنا... رن جرس في ذاكرة بتول إذ تذكرت كريمة حنش إحدى الشابات في قضية الزعفرانية والتي حكت لبتول يومها: أن والدها (صاحب مقهى) وهو يتواصل مع معتقل الزعفرانية فان خرجت أوصلي له خبر ولوالدتي إنني وأخي رحيم بخير كي يطمئنا... يالغرابة الصدف تلك الكلمات والوصايا ماظنت بتول يوما تحقيقها وهي في هكذا ظرف معتقلة بين البغايا... نعم إعتقدت كريمه حنش أن بتول ستخرج يوما وأوصتها بوصيتها، لا أن تكون داخل سجن الزعفرانية.

لفت انتباه الحاج حنش وجود بتول بين هؤلاء النساء كانت وجهاً جديداً ومختلفاً عنهن، فسألها: بابا أنت جديدة هنا؟ فبادرته بتول بنفس ما أوصتها كريمة آنذاك: "أي عمو بنتك كريمة كانت ويانا وهي وأخوها رحيم زينين لا يظل بالك "... فخّر على يدها يقبلها وهو في هذا العمر فرحاً بما سمع منها وامتناناً لها وكاد قلبه يتوقف من الدهشة، الأمر الذي أذهل هؤلاء النساء، وأقلق

بتول فهي تعي جيداً حجم الخوف والنفاق الموجود في هذا المكان وإمكانية الوشاية بها محتملة جداً.

فظل يسأل عن ابنته وكانت ترافقه زوجته التي بكت بكاءاً مراً فطمأنتها بتول: إن كريمة بخير وكانت معنا فنقلوها الى مكان آخر... لم تجرؤ على القول أنها واحدة من مجموعة شابات اقتادوهن للموت في ليلة رمضانية قبيل الفجر وكيف أجابها الجلاد رحيم عندما سألت عنهن: " الله يرحمهن ويرحمج ".

ظل الحاج حنش ممتناً لبتول فكان يومياً ياتيها بسندويج قيمر يعطيه إياها سراً عند قدومه لتوزيع الشاي، كان يجد فيها إبنته وفلذة كبده الشابة المهذبة البريئة التي حرموه منها.

ولأن سجن الزعفرانية مكتظاً بالمعتقلات وأطفالهن كانت فرصة اللقاء بين بتول وأهلها أكبر من سجن الفضيلية... بعد أيام من انتقالهم اليه حان موعد المواجهة وكانت في هذه المرة برفقة والدها والدتها مع إبنتها إسلام والتي تجاوزت ما يقارب العام وخمسة أشهر من العمر، كانوا يجلسون جميعاً قامعين كل رغبة في الكلام والسلام والإستفهام كي لا يتعرضوا لأذى.

إسلام تلك الرضيعة الصغيرة التي تركتها بتول وهي إبنة إسبوعين فقط، ها هي قد كبرت وغدت طفلة جميلة ذات شعر ذهبي، أمعن أهل بتول في ترتيبها والإعتناء بها، لتبدو كدمية جميلة ملفتة للأنظاربين هذه الحشود القادمة لمواجهة هذا الكم الكبير من المعتقلات.

أم بتول تجلس إسلام في حجرها وعيناها تصبان دموعاً على الرغم من أنها جهدت على منعهما، صاحت إسلام عندما رأت والدتها وحدقت بها من بعيد بصوتها الطفولي العذب: "ماما هاي تهامه؟"... تقصد خالتها سهامه، هذه الطفلة التي حرمت حنان أمها ولبنها وحضنها الدافيء، لا ريب أنها لن تذكر الا من ربآها واعتنى بها جدتها وخالاتها ومنها سهام، ولذكائها لمست التشابه بينهما.

ظلت بتول تملئ عينيها بملامح وليدتها وهما تذرفان دمعا غزيرا وتحبس إجهاشها بالبكاء خوفا على والديها... استحضرت ذكريات ولادتها وفرحتها التي لا توصف حين وضعت القابلة وليدتها بين ذراعيها وزوجها ينحني عليهما بمحبة غامرة يملأ عينيه من نعمة منّ الله عليهما بها وهم قد أصبحوا أسرة واعدة، صلى شكرا لله على سلامتهما وذبح قربانا لوجهه سبحانه... كادت تتحسس أنفاسها الدافئة وهي ترضعها ماسكة كفها الصغير بقبضتها بإحكام وكأنها تتوقع فقدانها... مازالت نغمة صراخها ترن في أذنيها... ورائحتها الزكية مافارقت أنفها... بضع أيام لا غير نصيبها من أمومتها... تنهدت بحسرة كاد أن يغمى عليها، لولا أن تذكرت حلمها بعبد الله الرضيع يحمله والده الشهيد وهو مذبوح من الوريد الى الوريد... فاستدركت وهي تكفكف دمعاتها الماطرة: حسبي الله ونعم الوكيل... ربي لك الحمد أن سلمتها وقسمت لي رؤيتها ثانية... لك الحمد... لك الحمد.

استمرت المواجهة ما يزيد على الساعة والشوق والحنين لتقبيل الأحبة ولثم جباههم مطلبا ملحا يوجع بتول... تمنت كثيراً ضم صغيرتها التي أصّر الجلادون على حرمانها منها ولم تتح لها حتى الفرصة التي تتاح لصغار الحيوانات من التزود من لبن أمهاتهم لبضع شهور... أي ظلم حلّ بهذه الأم وكل هذه المحن حالت دون أن يتاح لها تربية صغيرتها ومواكبة مراحل نموها ومتعة أمومة هي ثمرة زواج مباركة من ذلك الشاب الدكتور المؤمن... ولكن أي عدالة ترتجى منهم وهم يسوقونها الى زنازين الإعتقال ومختلف السجون بعد أن حكمت عليها المحكمة الجائرة بالبراءة... قد لا يصدق أحد الى أي مدى بلغت إنتهاكات حقوق الإنسان في العراق.

أمها التي تمنت رؤيتها حيّة وبأي حال كانت ولطالما رددت في نفسها: "بتوله يمه بالعربان ولا بالتربان"... هالها رؤية إبنتها خلف القضبان وبين هؤلاء النساء وعرفت جيدا معاناتها فهي لن تتآلف معهن وهن يرتدين ثوبا آخرا غير الطهر والنقاء... لم تتمكن من الإلتزام بالوعد الذي وعدت أباها عندما شرط

عليها عدم البكاء كي لا يلتفتوا اليهم... نعم بكت وكادت تطلق العنان لنعي ظل يؤرقها بعد فراق فلذة كبدها لولا أن توسلت اليها إبنة أم جواد: خالتي رجاءاً تماسكي... فهم إن علموا أنت والدتها فسوف لن يرحموها... صبرت كثيرا وإن شاء الله ماتخيبين الفرج قريب..."الفرج قريب " عبارة طالما رددها العراقيون من معارضي البعث كفسحة أمل يجبرون بها خواطرهم ويتزودون بمعين الإيمان بالله على مايعيشون من ويلات على يد عصابة صدام.

تساءلت المعتقلات عن سبب بكاء هذه المرأة التي ترافق هذا الحاج المحسن الذي إعتدن على بذخه الأموال عليهن وعلى أطفالهن، فبررت ذلك أم جواد: أنها زوجته تأثرت بسجني فبكت.

كانت الحاجة أم جواد خير سند ومعين لبتول، إهتمت بها وحنت عليها بعد خروج بناتها وكانت تعّدها إحداهن، فمهما طغى الطغاة تبقى رحمة الله لها نفحات تكسر طغيانهم وتمد العون والمساعدة لعبده على يد عباد له سبحانه يسخرهم بمنه وتفضله... وهكذا مرت الشهور على بتول في حنين وأنين وخوف ورعب وترقب لقادم مجهول لا يتوقع أن يكون أفضل مما مضى.

يوم 29/ 12/ 1983 جاء أبو جواد ومعه إبراهيم، حضرا الى سجن الزعفرانية فأرسل الضابط استدعاءاً لبتول لتواجههما، وجدتهما جالسين بانتظارها وقاداها على عجل وأبو جواد يحدثها بنبرة تهديد ووعيد: "ها ولج شلون خبرتي أهلج إنت هنا؟ موحذرتج؟"ماتلومين إلا نفسك... راح تشوفين عقابج"... توبيخ وزجر أرعب بتول وجعلها في هاجس مخيف أنهم سيقتلونها لا محالة، جال في خاطرها أفعال ابراهيم ذلك الجلاد الذي كان موظفاً في القلم في أمن الثورة والذي كان مشاركاً فاعلاً في تعذيب المعتقلين... تتذكر بتول جيداً أنه أزهق روح أحدهم بعد أن استمر بالضرب المبرح على رأسه بتلك العصا الغليضة (التوثية)... نعم هم علموا إنها تلتقي بأهلها ونزيلات هذا السجن خليط غير متجانس من النساء ولا يأمن المرء من نفاق أو وشاية.

إرتعبت بتول وهم يقودونها مكبلة بالقيود ويستقلون السيارة لتصل الى أمن الثورة ثانية منهما، كانا يتعمدان إدخال الخوف على قلبها ويمعنان في ذلك على الرغم من أن مجيئهما الى سجن الزعفرانية هو لإطلاق سراحها الذي تأخر بفعل ظلمهم وإجرامهم تسعة أشهر أو يزيد... يا لنفوسهم المريضة المتلذذة بعذاب الآخرين!!

وصلت الى أمن الثورة صباح يوم خميس فأخبروها: تهانينا سنطلق سراحك!!، وللمرة الأولى لم تصدق بتول ذلك فكم خُدعت من أبي جواد منذ إعتقالها، لكن الحراس أقسموا لها بأيمان مغلّظة أن الضابط إتصل بوالدها وسيأتي لإستلامها، هنا دخل شعاع الأمل في نفس بتول التي غمرتها عتمة الظلم واليأس من عدلهم وأنهكها طيلة عامين كاملين... ظلت بتول تنتظر حتى حلّ المساء فدب اليأس ثانية الى قلبها بعد تلك الفسحة المنعشة من الأمل.

سألت الحارس بأسى وهي تحبس دمعها: ألم تقولوا أنني سأخرج من هنا؟!

فأجابها: بلّغوا أهلك لكن والدك غير موجود في بغداد هو في بستانكم في الخالص (محافظة ديالى)... صدقت بتول ذلك هي تعرف هذا ديدن الوالد في تفقد البستان نهاية الأسبوع بين شهر وآخر.

ظلت بتول يوم الخميس والجمعة حتى يوم السبت وهي بأحّر من الجمر على عودة والدها من ديالى كي يستلمها ولسانها يلهج بالدعاء، فهي بين اليأس من هؤلاء والأمل برحمة الله مضت عليها هذه الأيام ثقيلة... كانت تحدثه في نفسها: "يابه فدوه لعمرك عوف البستان وتعال"..."يابه خلص صبري بروح أهلك تعال"... وتنام من الإعياء الفكري والقلق.

و تبقى النذالة صفة ملازمة لهؤلاء، هم لما علموا أنها لن تخرج لحين عودة والدها أمروها بتنظيف الدائرة كلها، وهذا أصعب ما تمر به امرأة مؤمنة محجبة أن تتحرك بين هؤلاء الأرجاس وتمارس عملاً يتطلب جهداً ومكوثاً

بينهم... لكنها صبرت وإحتسبت الله، فهل من العدل أن تقوم زوجة دكتور بهذا العمل وتنظف أماكن أراذل الخلق وتتجول بينهم وبهذه الكيفية!!.

و جاء يوم السبت آخر يوم في السنة 31/ 12/ 1983بصباحه المشرق عليها إذ استدعاها أبو جواد لتجد أباها متواجداً في مكتبه وهو يوقع أوراق إستلامها.

سلمت على أبيها بحياء فنهض اليها يضمها الى صدره ويقبل رأسها، وهي سارعت لتقبيل يديه فسحبها عنها وضمها اليه بحنان، مما أغاظ أبو جواد وبدأ يمثل دور الحريص عليها وعلى حياتها موجهاً كلامه لوالدها: "هاي البنية اذا صار عليها شي فأحسب إحنا نعدمك فورا"!!

هكذا هم البعثيون لهم من الصلف والحمق ما لا يوصف، فهل نسي هذا الجلاد أفعاله المرعبة مع هذه الأمانة التي يودعها والدها ويشدد على الحفاظ عليها!؟ ولكنها إشارة حقيرة منه لأبيها موحيا له أنه سيقتلها غسلا للعار الذي توهم أنها ألحقته به منذ إعتقالها... ولم يعرف ويستوعب مدى الفخر الذي شعر به أهالي المعارضات للبعث يوم أعتقلن لأسباب سياسية، فهي كفاية لنبل هكذا متهمين وكفى بهم أنهم عارضوا سلطة البعث الملّطخة بالدماء وهن ثبتن على دينهن والتزامهن رغما أنوف كل الجلادين مهما استخدموا من أساليب تعذيب.

أكد كلامه: اننا سنزورها أسبوعياً أو نستدعيها الينا نحن سوف لن نتركها، كان صادقاً بذلك فمنذ تاريخ إطلاق سراحها يوم الأول من كانون الثاني عام 1984وهم يحاولون بكل المحاولات أن يجندوها للعمل معهم إذ كانوا يزورون بيت أهلها زيارة قسرية ويعرضون عليها مغريات كراتب أو سيارة كي توافق على العمل عيناً من أعينهم يدسونها بين الناس جامعة، دائرة، مدرسة، هي تختار ذلك... المهم عندهم أن تتعاون معهم، وهذه بحد ذاتها محنة جديدة عاشتها بتول فقد كانوا يضيقون الخناق عليها ويراقبون دارهم فضلاً عن استدعائهم لها ولمرات عديدة ويقدمون ذات العروض.

كانت بتول تحاول مسايستهم وتعمل جاهدة على إقناعهم أنها من عائلة محافظة لا يمكنها الخروج من الدار بمفردها، وهمها الوحيد في هذه الدنيا تربية طفلتها الصغيرة، وهي ليست الخيار المفيد لهم في هذه الأعمال، وأنها لم تخرج مرة واحدة دون والدتها، هكذا تربت وهكذا نشأت فمن المعيب عليها أن تداوم في جامعة أو دائرة أو مدرسة كما يريدونها.

هم يجبرون الناس على الوشاية لذا ظلوا مصّرين عليها أن هذا عمل وطني وواجب علينا جميعا... ذلك أنكم ثقة بالنسبة للمجتمع وهم يصدقون كلامكم واطلبي المقابل الذي يخطر ببالك: شقة، سيارة، راتب، نحن حاضرون.

كما كانوا يعبرون تعابير رمزية بأنهم على إستعداد للزواج بها، ففي مرة قال لها الضابط: أنا مثلاً إذا أردت الزواج لن أتزوج الا من عوائلكم أنتم عوائل محافظة والمرء يتشرف بالنسب معكم، الأمر الذي أخاف بتول كثيراً فهم قادرون على إجبارها إن أرادوا ذلك هنا قررت بتول أن تحاول التخلص منهم، وتوسلت الى الله أن يعينها على ذلك فقالت له: أنا في نظر المجتمع إمرأة سجينة والناس تخاف مني، كما أني الآن بلا زوج وأهلي يضيقون علي كثيراً، لذا أنا لا أنفعكم أبداً... وأقترح عليك أن تقوم بهذا العمل أخواتك أو زوجتك: فاستشاط غضباً وضرب المنضدة بكلتا يديه صارخاً: (.. ... بالله ومحمد وعلي) كفر بهم جميعا ووضع يده على مسدسه مرعباً إياها... لكن هذا المشهد كان الفاصل الأخير لهذا المسلسل الممل الذي استمر لسنوات ذاقت فيه بتول الخوف والرعب وعدم الإستقرار وضاقت به عائلتها ذرعاً.

ترمل بتول الصامت

لم تعلم بمصير زوجها وهي ترى إبنتها تكبر أمام عينيها وهي لا تعرف هل هي يتيمة؟! أم أن هناك أمل بعودته لتعود حياتها ككل العوائل ويواصلا مشوار

العمر معاً ويرزقهما الله بخلف جديد أخوة وأخوات لإسلام؟، معاناة لاتعرف من يخففها عنها، أين تذهب للسؤال عليه؟ وهل ثمة من يعلمها مصيره؟.

إبنة عمة لبتول كان اخاً لزوجها قد تم إعدامه من قبل هؤلاء المجرمين ورافقت أهله لمراجعة الطب العدلي لاستلام جثته، جرت العادة أن يسمحوا بدخول واحد أو اثنين من عائلة المعدوم الى الثلاجات البشرية ويتصفحوا وجوه الموتى ليتعرفوا على فقيدهم.

الحاجة (ونسه) هذه المرأة قد فتحت أول ثلاجة ما وجدت ميتهم، فتحت الثلاجة الثانية... فاذا بها تجد الدكتور حسن جواد كاظم هو بعينه وسيما جميل المحيا يبدو نائماً بهدوء ولا يوجد أي اثر عليه سوى ثقباً كبيراً في جبينه... طلقة الإعدام... إرتعبت وعلى الفورسحبت القلادة الحديدية التي في رقبته وتأكدت من الاسم... نعم إنه حسن جواد كاظم السعدي فصاحت في وجهه في غير وعي منها كالثكالى: "اكعد يمه حسن ليش نايم "!!

فجاء الحارس زاجراً اياها ومهدداً: إما أن تاخذوا موتاكم بهدوء وإلا نخرجكم من هنا دونهم، هذه السيدة ونسة أخبرت أخت بتول أم محمد بذلك منذ أن رأته في عام 1988 إنه العام التي توقفت فيه الحرب.

الخوف الذي أطبق على النفوس منع أختها من إخبارها من جهة، ومن جهة أخرى أشفقت على بتول من أن يزداد ألمها ولوعتها... لكن هذا ضيّع فرصة دفن هذا الشهيد المظلوم وجعل بتول في حالة من عدم الإستقرار وهي تجهل مصير زوجها.

ظل ضمير أختها يؤنبها وحاولت أن تخبر بتول بما رأت بنت عمتها... وذات يوم عيد حيث تجتمع العائلة ويلتقون جاءت أم محمد وأيتامها من مدينة الخالص حيث تقيم الى بيت أهلها تعايدهم، هي الأخرى زوجة شهيد أعتقل وأعدم في سنوات الثمانينات في أولى هجمات البعث على المؤمنين... وبعد الغداء طلبت من أختها بتول أن يتحدثا قليلا وعلى إنفراد فقدمت لها مقدمة: "انتي انسانة مؤمنة وصابرة والموت حق علينا جميعاً... راح احجيلج شي وأريدج

تحلفيلي ما تأذين نفسج لأن الراح مايرجع"... تتحدث كلماتها هذه وبتول تقاطعها وقلبها يخفق سريعا: "شنو؟شنو؟ إحجي بالعجل الله عليج".

أردفت أم محمد: "ونسه بنت عمتي شافت حسن بالثلاجات مقتول بطلقة برأسه"... شهقت بتول شهقة كادت تقتلها وصاحت: "كذب والله كذب... حسن مميت حسن موجود "... وبكت بدموع غزيرة كانت تجرح صدرها حشرجاتها وتدمي قلبها، تألمت وهي ترى حياتها الأسرية تنتهي بطلقة لئيمة غادرة من هؤلاء البعثيين، ومرت ذكرياتها كشريط سريع تذكرته عندما تقدم لخطبتها والخجل الذي أحاط بهما، وتذكرته يوم زفافها عريسا وسيما حسدنها عليه جاراتها، تذكرت فرحته بحملها وهو يشد من أزرها وقد توحمت في أشهره الأولى، تذكرت أمنياتهما المشتركة في إستقبال الوليد وكم تحادثا بود حول إسمه ذكراً كان أو انثى، تذكرت إبتسامته الوديعة وهو يحدثها حانياً عليها وشاكرا لها بعد عودته من المستشفى وهي ما تزال يقظة بانتظاره حتى ساعات الليل الأخيرة، وتذكرت يوم ولادتها وفرحته التي رسمت ابتسامة عريضة على وجهه وكيف وزع الحلوى على منتسبي المستشفى وهويردد: "باركولي الله رزقني برحمة"... وتذكرت يوم إعتقاله وفجيعتها به...

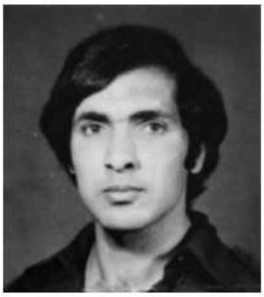

كل ذكرى تزيد بكاءها ونحيبها وهي تمر كشريط سينمائي واضح وكأنه الآن... لكن كلام أم محمد اختها كان جواباً لسؤال تردده دوماً وعند كل عيد، حينما تأخذ إسلام طفلتها على سطح الدار وتناشد ربها: ربي أنت حنان ومنان ما مصير زوجي؟ وهل إسلام يتيمة الأب؟ أم أنه حي ننتظر فرجك عليه لنجتمع ثانية... ربي لا تحيّر عبدك حاشاك عرّفنا مصير حسن، وهل ثمة عودة فيعود؟ أم أقرأ له سورة الفاتحة كما أذكر موتاي في الجمعة والأعياد؟

في غمرة هذه المشاعر والدموع صاحت أمها: "بتول... أم محمد... تعالن إشربن الشاي "... هنا كفكفت دموعها وتصنعت الهدوء كي لا يعلم أمها وأبوها ويتألما بما سمعت... ولحد وفاة والديها ظل الأمر سراً فلم يتحمل الوضع الذي

عاشته العائلة آلاماً جديدة، بل ظلت بتول تعيش حزنا صامتا ينخر قلبها ويذبل زهرة شبابها، ولولا إيمانها بقضاء الله وقدره، ونعمة وجود إسلام إبنتها وهي الأمل الجميل الذي عاشت لأجله، لأنتهت حياتها كمدا على حسن الذي كان إسما على مسمى خَلقا وخُلقا وعلما ودينا.

وبدأت بتول منذ ذلك اليوم تعامل صغيرتها معاملة الأيتام، هي المؤتمنة عليها بعد إستشهاد والدها، وهي الذكرى الجميلة من ذلك الزوج المؤمن المثقف المجاهد الذي باع دنياه بآخرته وآثر معارضة البعث ولم يرهب قمعه وسجونه، ترك الزوجة والولد مؤدياً واجبه في أعظم الجهاد عند الله كلمة حق عند سلطان جائر... وداومت يومياً على قراءة سورة الفاتحة له ولجميع الشهداء.

كل قصص العراقيين التي عاشوها تحت سلطة صدام وحكم البعث الجائر قصصا ذوات نهايات غير سعيدة بمعايير الدنيا... كنت أتمنى أن أختم بعضا منها بعبارة جدتي عندما تروي لنا: "وعاشوا عيشه سعيدة" لكنني لم أتمكن... وتستمر القصص غير السعيدة في زمن البعث المقبور في الجزء القادم من مذكراتي حيث رحلة سجن الرشاد للنساء - القسم السياسي.

أما أخواي جمال وجلال وعمي حسن وزوج أختي محسن كاظم ملهود وإخوته الأربعة علي وحسين وحسن ومحمد وحتى ابن عم والدي بشار هاشم محمد. . . قد استشهدوا جميعهم ولم يسلموننا جثامينهم أو نعثر على أثر لهم. . . فقط أسماءهم ظهرت في قوائم عديدة امتلأت بها جدران دوائر الأمن ومن بعد ذلك عثروا على مقتبسات حكم وشهادات وفاة. . . وبقي الأهلون في لوعة وحسرة دائمة ربما لهذه اللحظة وتساؤل كبير يلح عليهم كيف أزهقت الأرواح وأين دفنت الأجساد وما الذي تحدثت به نفوسهم الطاهرة لحظة الموت. . .

والحمد لله على كل حال وهو للحمد أهل...

وعن الشهيدات اللواتي عاصرتهن في أمن الثورة كتبت مقاطع شعرية... في شهر نيسان 2004 لتقرأ في أول حفل تأبيني للشهيدة بنت الهدى ومن سار خلفها من خيرة نساء العراق... أقيم الحفل في جامعة بغداد قاعة بغداد، ويعد أول

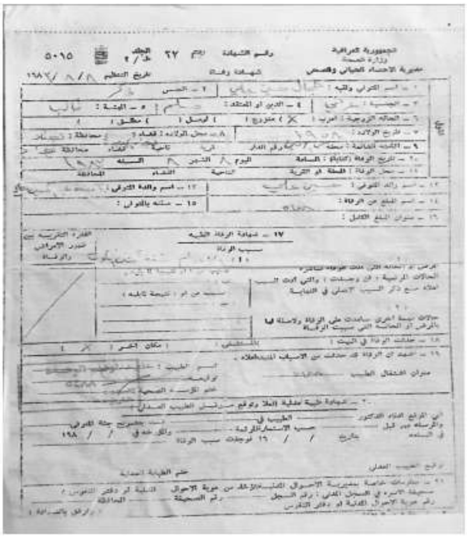

فسحة للتعبير عن الرأي بعد سقوط حكم البعث وتنفسنا هواء الحرية ونسيم الكرامة في عراق تمنينا كثيرا أن يخلو من البعثيين وجرائمهم:

في أحلك أزمان الظلم في العراق

خطف البعثيون مجموعة فتيات

كن نساءً في مقتبل الأعمار

فأسرع الجلادون في الترويع والعذاب

بكل ما أوتوا من جبروت وسطوة

الا أنهم ضاقوا ذرعاً من الصمود والثبات

كنا نتساءل:

ماذنبهن؟ ماجرمهن؟

ولانجد جواب!!

الّا جواباً واحداً

سبباً لكل الأسباب:

لم تذعن الفتيات للطغاة
ولم يسرن في ركب من سار مع الظلّام
وهذا جرم فادح كما تعلمون
في قانون بلدٍ ضاع به القانون
كان فرعون واحداً يحكم الديار
ويفتك بالحرث والنسل كباطش جبار
وكان يقمع كل من إعترض بحرف
حتى لو إعترض في الضمير
في بلد صار ابن أبيه هو الأمير

* * *

ولنعُد الى فتياتنا الصابرات
فبعد كل ماذقنه من مرارة وعذاب
يفتح باب السجن
ويطل منه الجلاد معلنا قراره الرهيب
شدوا وثاقهن وأعصبوا العيون
وأركبوهن في عربة المنون
والمشهد الغريب:
أن الجلاد كان خائفاً مرتعباً
والفتيات يسرن في ثبات
وكأنه هو الذي يساق الى الحمام

* * *

علمت بناتنا أن الحياة الأخرة هي المفاز
وأن جوار الله خير الجوار

سرن في ركب الشهداء
في ركب من حرموا حق الحياة
في موطن صار مأوى للذئاب
يقمع فيه الحر الشريف بلا هوادة
ويمنع فيه كل شي...
حتى حق الكلام
لاتقل: لا
وإن باعوا وطنك بأبخس الأثمان
لاتقل: لا
وإن أشاعوا الفساد في الأرض وحرّفوا القرآن
فهو زمان قال عنه المصطفى:
القابض على دينه كالقابض على جمرة نيران
لكنها نارٌ جزاؤها الجنان

* * *

سارت عربة الجلاد تسوق الحوريات الى الدفّان
أين أنتِ ياحقوق الانسان؟
تحت أي بندٍ يقتل المظلوم وتسكتين؟؟!
هل كممت أفواهك؟
أم كنت تشترين؟؟
وهذي أرضنا زرعت بأجساد أهلها
أكثر مما تزرع بنخل وزيتون
ما استثنوا من بطشهم
طفلاً أو امرأةً أو شيخا كبير

كلهم كان يموت أمام أعين الناظرين
هذه الأعين التي تشهد عليهم
يوم لاينفع مال ولابنون
في ذلك اليوم:
يأتي الشهيد مخضباً بدمه
سائراً مع ركب الحسين
هاتفاً الله اكبر ما اقترفتُ يامجرمين
في ذلك اليوم:
يشخص حاكم عادل لا كما تعلمون
عن حاكم حكم العراق وسقى أهله بدم المنون
حاكم لايستدل بمن كتب
حاكم يسمع كل همسة في ضجيج الصخب
يعلم خائنة الأعين وماتخفي الصدور
وتذرف دموع العيون
عيون تبكي فرحاً لنصر الله
وعيون تبكي دماً لما فرطت بالدين
وكيف كانت ناصراً لظالم اثيم
وتوفى كل نفس ماكسبت وهم لايظلمون
وسيعلم الذين ظلموا... أي منقلب ينقلبون
والعاقبة للمتقين
والحمد لله رب العالمين

المحتويات

معتقل أمن الثورة (بيت الشهيد سمير غلام) 12
الليلة الاولى كأنها ليلة الوحشة 19
صباح الخوف لايشبهه صباح 20
قصتي مع الحجاب... متوسطة التأميم للبنات 20
اعدادية المعالي للبنات 23
القراءة معيني منذ الصغر 26
رافقت أخي الى صلاة الجمعة 28
أول مواقفي المعارضة 30
أخي الأكبر قدوتي 33
اعتقال أخي جمال 36
وغابت السعادة عن بيتنا... 39
عندما يخذلنا الأقربون 41
اعتقال أخي جلال 44
عمي السيد حسن علي العرّيس 47
بتول زوجة الدكتور حسن 49
الصيدلانية عالية الحمداني 51
أميرة السعلوّة!! أميرة الشيوعية!! 52
كريمة ليست كريمة 55
وبدأت محنة التحقيق... 57
في غرفة التعذيب 62
ما بعد التعذيب... 66
أماه يا أماه... 68
عائلة عبد الحسن تحت رحمتهم 71
ولادة تحت بنادق البعثيين 76
عبد الأمير حسن سعيد (أموري ديالى) 81

العناية الإلهية تطوق عباده 85
إعدام الأمومة دون وازع من ضمير 86
أموري وأخوته يجتمعون في دائرة الرعب 88
أموري باق وقد سقط البعث في الهاوية 93
ذكرياتي تؤلمني... حرب الثمانية أعوام... 95
الحرب عطّلت دوام المدارس 99
حملة اعتقالات تؤاماً للحرب 100
يخافون فكره النير وإن قتلوه 102
مضايقاتهم لا تنتهي... 103
يوم النتائج النهائية 105
نقاء ما رأت أباها ولم يرها 106
جامعة بغداد - كلية العلوم 110
في أروقة التعذيب المرعبة 113
يتفنون في القمع والأذى 115
جلادو أمن الثورة 118
عندما يجتمع الجهل والحقد 121
مآسي الحروب من سمات سلطة البعث 123
الجيش الشعبي واتحاد النساء أنساق قمع وفساد 125
وتستمر رحى الحرب الطاحنة 128
مشهد من قسوتهم الهمجية 129
فاطمة الحسيني... جبل شامخ 131
آه يا فاطمة... أه يا أختاه 133
اعتقال بنات الكرادة 134
دكتور عاصم بطل وبطولة 145
غياب... فريسة لانتقام الجلّادين 156
فاطمة المعذبة جارتي الحنونة 158
معادلة البعث ظالمة 164
بتول ورؤياها المفرحة 166
فاطمة شوكة أم حسين... أُم لنا 168
الكذب ديدنهم ولا وفاء لوعودهم 171
قاضٍ في كيس صمون!! 173

الطلائعي وليد بين المعتقلين!! 175
20 شباط 1982م... يوم لن أنساه!! 176
حياة جديدة بعد موت محتم 182
أنين علي... يقطع نياط قلوبنا 185
سقوطهم الأخلاقي لا يصدق!! 189
واقع جديد سماته الضيم والقمع 191
صحيفة الأعمال 192
ضاقت أمن الثورة بالمعتقلين 194
كل العراقيين تحت مراقبة البعث 196
كذبة نيسان في حقبة البعث المجرم 198
التسفير من بيوت المسفّرين!! 202
الأب المعتقل وطفله الرضيع 205
قضية بنات الزعفرانية 207
صبرا آل ندى انه في عين الله 210
حكايات مع بنات الزعفرانية 214
وحل الصيف في أمن الثورة... 217
شهر محرم وانتمائنا لقضية أبي الإحرار 220
حليمه فتاة آل المبرقع الوديعة 225
شهر الرحمة والغفران بين جدران العذاب 227
ثبتنا الله وخاب سعيهم... 230
عند السحر رحيل دون وداع 231
وحلّ العيد... 234
محنة عوائل المعارضين 239
عربة الموت تخطف الأمهات 242
محنتنا العصيبة مع الصغار 245
كسوة اللئيم للكريم 248
أميرة تنطلق الى فضاء الحرية 249
بنات الكرادة إلى محكمة الثورة 251
وتتسرب شهور العمر في دائرة القمع البعثي 253
بتول طالت محنة فراقها لطفلتها 256
طفولة محرومة 257

ومرّ فصل الصيف... 259
قضية شارع فلسطين 260
بنات النجار هادي عبد الحسين 261
صديقات مخلصات سندا في المحنة 267
سندس وعي وإرادة وإيمان 270
اعتقال جماعي لعائلة هادي عبد الحسين النجار 272
سندس الصغيرة تحت العذيب 274
إيمان عزيز في قبضتهم 275
عائلة إيمان عطاء لن يتوقف 276
الموت يفّرق الصديقات بلا وداع 279
الجلاد يعاقب أخوات إيمان بها 280
فاطمه حسان المقدادي 282
سعدية صديقة العائلة 283
أخوات فاطمة رهن الاعتقال 284
أخوات فاطمة تحت وابل التعذيب 286
الطفلة فتحية عوقوا يدها!! 288
أزهار تعود ثانية لجحيم أمن الثورة 291
إنتصار تثكل بصغارها جميعا 295
وأخيرا جمعونا ببنات قضية شارع فلسطين 300
حل شتاء ثان ومازلت خلف جدران المعتقل 301
تثبيت الإدانة والتهم قسرا 303
مصادقة الإفادات 305
بصمة للذكرى من واقع العذاب 307
يوم المحاكمة يوم طال انتظاره 309
سجن الرشاد للنساء 321
لا إفراج لبتول... بل عودة قسرية للمعتقل 326
بتول تساق الى معتقل الفضيلية 329
الزعفرانية محطة ألم جديد 334
ترمل بتول الصامت 341

مذكرات طالبة جامعية تحكي قصص القمع والإرهاب في سجون صدام

.. وتلك الأيام

من الصعب أن تعيش محنتك وتعايش محنة الآخرين وأنت تجد موازين العدل في خلل واضطراب .. فلا أدنى حقوق للإنسان، رجلا كان أو امرأة، شيخا كان أو طفلا صغيرا ..هكذا كانت عقود البعث المظلمة حيث تسلط شراذم الخلق على مقدرات العراقيين وعاثوا في الأرض فسادا وأهلكوا الحرث والنسل وانتهكوا الحرمات دون رادع .. في ظل سكوت مطبق للمجتمع الدولي ومنظماته التي كان العراق عضوا مؤسسا فيها ..وللتأريخ.. دونت شهادة مما حفر في ذاكرتي.. من مواقف عشتها وعاشتها خيرة العوائل العراقية من بطش وجبروت البعثيين لمدة تجاوزت أربعة عشر شهرا قضيتها صبرا في أقبية ودهاليز أمن الثورة والتي صار أسمها فيما بعد ب (أمن صدام)..فالى كل من عاش تلك الحقبة المظلمة واكتوى بنار الاستبداد.. ولكل من لايعرف عن البعث من أجيالنا الجديدة، أقدم شهادتي هذه وقد سطرتها في مذكرات استغرق تدوينها عشر سنوات ونيف.. تجدد فيها الوجع وتأججت بها الشجون.. ولم أكن أتوقع أن جراحي مازالت ندية ليومنا هذا..

سطوري هذه ليست لكسب عاطفة أو استدرار دمعة، وإنما كشف لما كتمته عقود البعث المظلمة.

■ المؤلفة

بغداد ٢٠٢٠م ١٤٤٢ هـ

ISBN: 978-614-441-259-6

9 786144 412596

العارف للمطبوعات